علاقة مستحيلة

جيلان حمزة

مكتبة مدبولى

توزيع

مكتبة مدبولى

العنوان : ٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة
تليفون : ٥٧٥٦٤٢١ - **فاكس :** ٥٧٥٢٨٥٤
البريد الإلكترونى :

WWW.madboulybooks.cominfo@madbouly books. com

الكتاب : علاقة مستحيلة

التأليف : دكتورة جيلان حمزة

الغلاف للفنان : عبادة الزهيرى

رقم الإيداع : ١٧١٣٤/ ٢٠٠٦

القطع : ١٤ × ٢٠

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : ٢٠٠٦م

عربية للطباعة والنشر

العنوان : ٧ & ١٠ شارع السلام - أرض اللواء - المهندسين
تليفون : ٣٢٥٦٠٩٨ - ٣٢٥١٠٤٣ - فاكس : ٣٢٩١٤٩٧

إهــداء...

إلى الذى أحسده .. لقدرته على العطاء الموصول

جيلان حمزة



شكر وعرفان

ما كان لهذه العمل أن يري النور لولا ما قدمه لي أساتذتي الكرام- كشأن لهم في الحياة – فاني أتقدم بصدق مشاعري إلي الدكتور محمد سيد محمد الذي وضعني برفق شديد أمام معضلة كتابة هذه الرواية . كما أتقدم بحراره شكري وعرفاني للدكتور إبراهيم أبو محمد الذي أضنيته معي بالاسئلة التي لم يكن لها آخر حتي وهو في استرليا وأشكر الصديق الدكتور محمد الجوادي فلم يخفت تشجيعه لي ولم يمل إتصالي به المتكرر . كل شكري للدكتور محمود شريف فقد إحتملني وأنا أناقشه بلا ككل ليعلمني صحه الكلمة . وأخيراً من مجمع جوارحى أشكر المفكر الدكتور سمير سرحان فقد كان يعتبرنى واحده من المبدعات ومازلت احتفظ بصوته على ماكينة التليفون وهو يقول أكلمك يا جيلان لأسجل أعجابى بالعلاقة وسأكتب لك المقدمة .. ولكن للأسف لم أسمع رسالته إلا بعد أن رحل في طريقه الآمن .

جيلان حمزة



تقديم

سمير سرحان



قبل أن تقرأ

لأني أيقنت أن هذا العمل هو آخر رواية طويلة لى أكتبها فلن أكون بعد ذلك قادرة علي مسك الخيوط الواقعية واللهث بخيالي الذي لا يهدأ .

هذا العمل استحوذني ... واحتلني أربع سنوات وأنا أعايش ما أري وأتابع أبطالها وأعبر معهم مرحلة من الزمن ...ان مجرد عبوري ولو كان سلبياً يعد بطوله في حد ذاته ولقد علمتني الحّياه أن أنظر دون أن يضيع مني عمق ما عرفته ... يؤلمني ما يحدث لناسي في عالمنا العربي يكويني حال المرأة ولأنس طفلي العربي فهل سنظل نعايش التمناقضات دون نهاية ونعرك تيارت من التطرف تسحق آدميتنا ...

ورغم أنني سأبتعد عن عمل الرواية الطويلة بعالمها المتعه إلا أنني موقنة أن الكلمة الصادقة ستعرف حتماً طريقها .. المهم أن تُشعل الأحاسيس في المناطق الميتة . الكلمة باقيه تحمل حروفها مسئولية كاتبها بما فيها من أصداء لتيارات وأفكار في جوهرها عمق معاناه نكابدها إلا أنها تتجاوز الحالي لتقرؤها الأنسانية جيلاً بعد جيل .

جيلان حمزة



الجزء الأول

أســير نحوها في مهب المستحيل... أندفع حتى لاتفوتني اللحظة... قدماي مرتفعان عن سطح الأرض فلا تساعداني على الإقتراب منها أكثر ومع ذلك أقترب منها.. هناك من يشدني من خلفي ليمر الترولي أبعد مني بخطوتين.. يزيحوه ليأخذوها بعيدة عني... حانت لحظة إنبثاق ذلك المخلوق خارجها... أبذل جهداً مضافاً لأتقدم في مهب غير الممكن حتى لا تفوتني لحظة الجنون والمخلوق المنتظر ينزلق من داخلها بين فخذيها منكفئاً على وجهه يمشي خطوتين على أربع والأكثر أنه ملتفت يمينا مكان وقفتي... نجحت أن أدلف داخل الحجرة رغم الأيدي التي كانت تسحلني للخلف... رأيت كل شيئ... فرحت حين تبينت أنه نزل في" برنس " ومع ذلك حاول أن يقف على أربع.. كيف يكون له هذا بتلك السرعة!.. إلتقطه الطبيب.. شق " البرنس " وقطع الحبل السري.. حبه قلبي تبتسم إبتسامة شاحبة ولم تَرُحْ منا لأن واقع حدث الولادة في هذه الأيام أن لا تبعد الأم مع أي قدر من الغيبوبة بل على العكس يبقى لها قدر لا يستهان به من يقظة لأخذها الحقنة الشهيرة فبقيت منتبهة تنظر إلينا وقد إنشغلنا بالتحديق إلى هذه الأعجوبة التي جاءتنا من دقائق! لابد أن هناك تشابهاً بين أن تهبط علينا مخلوقات من السماء وبين ولادة المرأة في هذا الزمان الأهم أنها لم تتألم بمستوى ما تألمته أنا في ولادتها.. لن أنسى إحساسي يومها بأني ذبيحة معلقة من ساقيها ومعروضة في مجزر أما هي فقد أعطوها الحقنة بين عظام عمودها الفقري فخففت من آلام " الطلق " وهونت من ضراوة إندفاع رأس الوليد خارجها.. الشيئ الغريب أن والد الطفل كان مسموحا له بحضور الولادة من أولها وأنا الأم حاولوا بإصرار إبعادي! فهل ولي زمن

الأمهات؟.. وقالوا إن حضور الأب حدث الولادة وأن يقطع بيده كذلك الحبل السُريّ من الأفعال التي تقوي علاقة الحب بين الأم والأب وبين الأب وإبنه.. وهل يمكن إلا أن يحب الأب وليده سواء شهد الولادة أم لا؟ أم أن حب الأب يحتاج لشروط ودوافع إضافية حتى يظهر! وهل الحب بين رجل وإمرأة يحتاج أكثر مما أعرفه لري هذه العلاقة!؟... لا يمكن أن أقترب وأُقبل هذا المخلوق... جسمه ووجهه مغطيان ببقع دماء كثيرة... ينظفون المخاض الكثير من على جسده ولكن بقيت عيناه على قدر كبير جداً من الحيوية ينظر بهما يميناً ويساراً.. سواد عينيه حبتا زيتون أسود بروحان ويجيئان. لست أدري لماذا شعرت أنه يبحث عني بعينيه . وتساءلت هل لهذا الشعور ظل من الحقيقة أم أنها أوهام الجدة التي يجسدها ويضخمها حبها للحفيد القادم فربما يصبح مع هرولة الأيام سراعاً متعلقاً هو الآخر بي وربما يقدرني أكثر من إبنتي.. ربما... حبه القلب مستلقية بعد أن خلصوها من كل متعلقات الوليد الباقية في بطنها.. وخطفه شدت القلب مني.. إقتربت منها على طرف السرير.. ملت عليها وقبلتها.. رائحة وجهها وشعر رأسها ذكرني بيوم ولادتها... دفنت وجهي في خدها أقبلها.. أتشممها.. أيقنت بأن لها رائحة يوم الخليقة.. لم أتمكن من أن أرتوي من إبنتي إذ وجدتها تُزيحني.. رفعت رأسي المغروس في لحم خدها الهش ووجدت عينيها معلقتين بزوجها تسأله أخبار المولود وتسألني مرة أخرى أخباره.. رغم كل المشاعر المصطخبة داخلي إستشعرت رنة العتاب الواضح في كلماتها كأنها تقول لي " الأجدر بك الآن الإلتفات إلى وليدنا... رباه من قال إن حب الأحفاد أقوى من حبنا لأبنائنا.. قلت.. ربما إستشعرت الحرج من إظهار لهفتي عليها لأن والدة زوجها كانت معنا في الحجرة تتمتم بعبارات من القرآن الكريم وتنتظر أن أهلل لقدوم إبن إبنها ".

إنفض السامر من صديقة لها وشقيقة زوجها ووالدة زوجها وراحت إبنتـــي في نوم عميق.. أطفأت الأنوار.. أحكمت الغطاء حولها.. ترددت في أن إحتضن

رأسها إلى صدري وأقبلها.. إنسحبت بهدوء إلى بهو المستشفى.. كانت هناك أريكة وكرسيان تركت جسدي يسقط على الأريكة وجاءت الممرضة تخفف إضاءة المكان. شعرت أنني ألملم نفسي المشتته داخل نفسي من جديد.. عبر ببالي أن أقوم لأرى الوليد ولكن تنميلاً في ساقيّ أقعدني مكاني ودق في ظهري أضاع فكرة قيامي.. تخلصت من حذائي.. شعرت بالجوع.. قررت أن أهم واقفة لأسأل عن أي شيئ يؤكل ولكن برزت لي صورة زوج إبنتي.. شاب جميل لاشك أنني أفهمه على الأقل بحكم الفارق العمري.. خيل إلى أن في عينيه نظرة ساخرة رماني بها وهو يضغطّ على حروف كلماته ويحاول أن يرفع صوته وهو يقول لي" معلش يا طنط حكاية " البرنس " دية لم يفهمها مخلوق هنا " وإلتفت خارجاً يلحق بوالدته التي كانت قد سبقته بخطوات متتابعة تمرجح فيها مؤخرتها في وجهي.. لا أدري لماذا كنت متأكدة من شعوري هذا.. ولم لا؟ ألم تلاحظ نفور إبنتي حين إحتضنتها وكأنها تقول لي: " أفٍّ لك يا أمي تصرفاتك ساذجة.. لماذا ليس لك حكمة حماتي " فما بال زوجها الأكيد أنه يقول في سريرته مؤكداً نفس المعنى... نعم كان في عينيه نظره ساخرة وربما مهينة لشخصي فقد طلبت منه أن يحتفظوا لي " بالبرنس" الذي نزل فيه الوليد وحين سألني لماذا إندفعت أقول له " لأني سأجففه وأحتفظ به فهو يجلب الحظ " وقتها بدت الدهشة على وجهه ومرت الساعات وها هو يسخر مني الآن " أف ماذا قلت له.. كان في مقدوري أن أطلب هذا من الممرضة بل وأكافؤها حتى من قبل أن تحضره.. يا إلهي دوماً أنا مندفعة في أمور داخلية ما كان يجب أن يعرفها أو يحس بها من الأصل زوج إبنتي .. لماذا بعد كل هذا العمر لا أفكر قبل أن أنطق ؟ والأكثر من هذا أنني أعيب على إبنتي نفس السلوك.. يا إلهي ماذا سيكون تعليق حماه إبنتي على طلبي هذا.. أقل ما ستقوله " هي لسة أم مراتك بتفكر في الحظ! " ذهبت قرصة الجوع ولكن العطش حل محلها لا أظن أن هناك مشكلة في أن أجد كوب ماء. قمت وشربت وعدت إلى الأريكة إرتميت

عليها ثم تمددت.. ليتني أنام ولو ساعة واحدة وقبل أن تستيقظ حبة القلب وقبل أن يأتوا إليها بالوليد لترضعه ولكن عاد صوت زوج إبنتي مسموعاً في عقلي وهو يقول لي " معلش يا طنط حكاية البرنس ديه ها .. ها .. ها لم يفهما مخلوق هنا " قمت جالسة ثم رفعت ساقاي بجواري وإتكأت بساعدي على ذراع الأريكة وأسقطت رأسي في كفي وتساءلت : أي حظ فعلاً الذي أنتظره؟! إمرأة بلغت الثانية والخمسين من عمرها ومازالت تنتظر الحظ! ولكن لماذا لا أحلم بالحظ؟ أ إلى هذا الحد أنا كبرت؟ وهل يلزم الكبر بالضرورة أن نتوقف فيه عن أشياء ضمنها توقع الحظ أو إنتظار القادم المجهول. وهل أنا أنتظر رجلاً ما؟ لا أظن بالتحديد ولكني منتظرة. هل أستطيع أن أفصح عن مكنون نفسي هذا؟ ولم لا. إن داخلي حيّ تصطخب فيه الإرادة لأشياء كثيرة والرغبة في تحقيق أشياء أخرى كثيرة... داخلي الحلم الوردي وأحياناً يكون الحلم نارياً... تذكرت زوج إبنتي.. هل أجرؤ على أن أفصح عما بداخلي أمامه أو حتى أمام إبنتي. سيقولها واضحة " أمك إتجننت " يالقسوته لماذا أتجنن في آخر عمري! ورغم أنني أعترف بأنني في الأخريات من عمري. فهل يكون الجزاء الجنون؟! قضية كثيراً ما شغلت عقلي. لماذا بعد كل ما يبذل الإنسان يدب إليه الضعف والوهن وتهاجمه الأمراض في الوقت الذي كان يجب فيه أن يُكرم لأنه بذل.. وأعطى.. وضحى.. هذا التساؤل شغلني على وجه التحديد بعد أن وصلت الخمسين من عمري.. فكنت أعتني كثيراً بمداواة نفسي أولاً بأول وكنت أُخضع نفسي لنظام غذائي شيق وصحيح ربما هذا ما أضفي عليّ نوعاً من الرونق لم ينطفئ بعد حتى أن ساقاي يلمعان بشكل لافت للنظر وكثيرا ما تساءلت صديقات إبنتي" هل والدتك تدهن ساقيها بنوع معين من الزيوت! " وحانت مني إلتفاته إلى ساقيّ الممدتين على الأريكة!! ولكن حتى إذا بدت المرأة أصغر من عمرها الحقيقي أو أن لها قبولا في الغالب الأعم فهذا نفسه شيئ مقلق في كثير من الأحوال فالمرء يكبر داخليا قد يستطيع أن يقضي على بعض التجاعيد والغضون في مظهره

الخارجيّ ولكن ماذا يفعل في غضون القلب.. هنا أيضا السن يطالب كذلك بمعاملة خاصة يتطلبها وقار العمر ولكن الواقع المبرق لا يمنح هذا القدر المأمول لأن الناس تأخذ المرء بالمظهر وفي هذا عذاب جديد وربما هذا ما دفع زوج إبنتي إلى السخرية مني. فهل كان يجب أن يحترم وقار إمرأة تعدت الخمسين وتتدفق لفتاتها وحركاتها لا تعطي أكثر من بداية الأربعينيات؟ إنه كثيراً ما يستخف بما أقول وكثيراً ما يكذب على كذبات ساذجة هل لا يعي أنني أفهمها؟ ليتني ما طلبت منه الإحتفاظ " بالبرنس " كنت أتصور أنني سأقوم بتجفيفه ثم صحنه ما إستطعت لأحتفُظ به في كيس وأضعه في قاع حقيبة يدي.. يستَكثر عليّ أي تفكير في المستقبل! ولكن هل لمثلي مستقبل أكثر من سنوات معدودة وقليلة أو لعلها شهور وربما أنفاس. ولم لا؟ لماذا لا يكون جزائي السعادة في النهاية وأنا التي ربيت بمفردي ووحدتي وعذابي وإحتل عقلي السؤال الذي كثيراً ما أقلق مضجعي.. ما أرق نومي هذا السؤال هو. هل نجحت فعلاً أم فشلت في مهمتي انصعبة على مدي أكثر من خمسين عاماً أيا إن كان شكل أولادي الآن أو واقع حالهم بالسلب أو الإيجاب بالإزدهار أو الفشل. هل كنت أحقق ذاتي من خلالهم؟ أم تراني لم أحقق شيئاً؟ وإذا كنت حققت فما الذي أتطلع إليه الآن؟ ولماذا أتطلع أصلاً والمسافة الباقية ضاقت إلى حد أنها تحسب على أصابع اليد الواحدة. أما تكفي هذه الحقيقة لتسكتني وتجعلني أقعد في إنتظار الموت والإنتقال إلى عالم آخر لا أعرف عنه شيئاً ملموساً.. معلومات يتوارثها الناس عن بعضهم عن الآخرة والثواب والعقاب. الجنة والنار. الذين ينقلون هذه الموروثات شديدوا الإيمان بما يقولون ولما تعديت الثلاثين وفتحت القرآن وقرأته لأول مره بُهرت لأني صدقت كل كلمة فيه وإطمأننت إلى فكره الثواب والعقاب إلا أنه كان دائماً بعد أيام معدودات يداهمني القلق والحاجة إلى يقين ملموس حتى أُصدق وكان هذا الشعور يسيطر عليّ بالذات حين أستشعر الظلم في حياتي .. حين تقسو الظروف ويهجر الأحباب ويصدني أقرب الناس إليّ.

فلذات الكبد.. يفعلون هذا حين أعجز عن الوفاء بمتطلباتهم المادية الفورية أو بمتطلباتهم في أخذ مساحات من الحرية لا أستوعبها ولا أقبلها.. حين أحس المتناقضات من حولي والأكثر حين أكتوي بضربات القدر العشوائية من حولي.. حين أتعذب من إختلاف الأقدار وتباين الحظوظ..... شيئ ما في داخلي لا أستطيع أن أحدد مكانه هل هو القلب؟ لا لا إن قلبي متضخم ومتخم بحب أولادي حتى الولع. هل هي النفس أن نفسي دائما تهفو إليهم مهما طال وجودهم معي.. هل هي الروح وتوقفت شيئ ما إرتج داخلي فأردت أن أتأكد بانني مازلت جالسة على الأريكة أنزلت ساقي وإندفعت أضيئ الحجرة من أثر الممرضة التي خففت الإضاءه وجلست مكاني مرة أخرى ومازال أثر الرجه التي إستشعرتها لها بقايا داخلي ولم يطل ترددي إنها روحي المتوهجة التي ترفض دون أن أدري أي معنى للإستكانة والرضوخ.. شعور غريب أحسست به في عمري هذا وكأني في منتصف العمر وليس في آخره.. كأنني.. كأنني أستطيع أن أحب بل أستطيع أن ألد... وكأن داخلي قدره أن أبدأ من جديد أن أحب ليس بالمعنى العابر لحب إمرأة عجوز لأحفادها أو ألوان الزهور وإنما بالمعنى المباشر لحب الرجل ولكن لسعه في القلب أوقفتني... نفسي أرادت أن تطمئن على حبة القلب... ما كل هذا القلق الذي كبلني حتى وصلت إلى جوار رقدتها وكانت في أعمق نوم لها.. لم أرها في يوم ما مستغرقة إلى هذا الحد... إنسحبت راجعة ولا إرادياً توجهت إلى الحجرة الموجود فيها الوليد... هكذا لا إرادياً نفسي تسيرني إلى حجرته وأطمأننت كان جميلاً ودافئاً وأيضاً كان ودوداً.. رباه أي جمال في معنى أن تلد إمرأه لأنها عملية خلق كاملة بالنفس ودقة القلب.. بالإندفاع والتراجع إنه أجمل إيقاع تعيشه إمرأه إيقاع عملية الميلاد بوهجها وعبقها وتفردها. أخرجتني الممرضة من تأملاتي التي تترى في إثر بعضها دون لحظة توقف وهي تقول لي " المفروض أن تكوني مطمئنة تماماً ، راح الكثير ومابقي إلا القليل ".

قلت : أنا مطمئنة جداً و ....

قاطعتني : أكيد إن إحساسك بالولادة كان أكثر منها .. وإستدارت وهي تقول بصوت حان : رجعتلك أيامك من جديد .

مشيت خطوات متأنية إلى أن وصلت إلى الأريكة وجلست وعبارة رجعتلك أيامك من جديد كأنها يافطة تتصدر مقدمة جبهتي تلمع الكلمات فيها كأنها مضاءة .. " رجعتلك أيامك من جديد ".. وهل يمكن أن تعود الأيام؟ ولا في الأحلام ولا في الأوهام ولا في الخيالات أن تعود الأيام. فقط ما يهم أن تكون الأيام التي مررت بها أو مرت بي لم يسرقها أحد مني . فهل سُرقت أيامي أم أنني عشتها بإرادتي وأني أعطيت الآخرين أحياناً الإحساس الدعيّ بأنهم في وقت من الأوقات سرقوني . ولماذا قالت الممرضة " رجعتلك أيامك من جديد " هل كانت بعبارتها تريد إسعادي.. وما السعادة في عودة الأيام.. هل لأني سأعيشها مرة أخرى وفي هذا وقت مضاف إلى عمري أم أنني سأعمل فيها أشياء لم ألحق أن أعملها لنفسي أو للآخرين في زمن كان. وفي رجوع الأيام فسحة لأن أعمل وأنجز وأختار... ولا يلازمني فيها الإحساس بالندم على أيام مضت لم أحقق فيها لكن لا شك في أنه لو رجعت الأيام لتجنبت أفعال ليس بمعنى التجنب أو الإمتناع ولكن بمعنى المناورة الواعية والخروج والتفادي لكثير من المواقف. الشريط راح يدور في عقلي وكنت أبدأ منذ طفولتي الباكرة. دوماً كنت أحتاج فيها وأتطلب ما هو أكثر من الحب الساكن حتى لو كنت على يقين من وجوده. منذ كان لي من العمر خمس سنوات وأمي تقف تتابع المرأة التي كانت تساعدها.. تمسح إحدى الحجرات وكنت أرتدي ثوباً بسيطاً أخضر له صدر من قماش " البيكة " الأبيض كنت أبكي بلا توقف كنت أعي ولا أدري كيف أتاني هذا اليقين بأنني أساوي طول " جردل " المسح مرتين.. أقترب وأضع يدي في المياه ثم يعلو صوتي بالبكاء. تحاول المرأة أن تحملني فكنت أذهب مقتربة من أمي وأزداد بكاء.. أزاحتني أمي.. لم أستطع أن أعبر لها عن

رغبتي الآنية في الحب في أن تحتضنني وتقبلني بين ذراعيها ولا يهم الحجرة الغارقة في المياه.

هل كل الأطفال يتسمون بالغرابة أم هذه الصغيرة وهل في رغبتها لحضن أمها غرابة... هل الأطفال يحتاجون الحب أكثر من الكبار ويحتاجون ديمومة لهذا الحب وفي أي وقت سواء كان هذا الوقت تُمسح فيه الحجرة أو تُذبح فيه " الفرخة " المهم أنها والآن في حاجة إلى حضن أمها.. ظلت تبكي حتى جلست على الأرض المُبتلة وهي تبكي بكاء متقطعاً وحين قامت من جلستها على الأرض كانت مُبتلة حتى ملابسها الداخلية وأمها تخطفها من يدها بقوة وتضعها على المكتب الموجود في حجرة عمها الطالب الذي يدرس في كلية الهندسة وتقوم على تغيير ملابسها. أحبت الصغيرة أظافر أمها الطويلة وهي تمس جلدها حتى ولو كانت تؤلمها وهي تلبسها " الفانلة " الداخلية إرتمت عليها تلتصق بصدرها توقفت أمها وأمسكت برأسها بعيدة عن صدرها ونظرت إليها وكأنها مستفسرة.. تُرى هل رسالة الصغيرة ضلت طريقها قبل أن تصلها؟ الواقع أن كل ماحدث بين الصغيرة وأمها كأنه أرضى الصغيرة فجفت دموعها وربما فهمت الأم فشغلتها بشيئ ما أو طلبت منها إحضار شيئ قبل أن تستلقي الصغيرة على سريرها وتضع أصبعها في فمها وتضع إصبع اليد اليسرى في سُرة بطنها ثم تنام ولم يبق من دموع عينيها إلا آثار قليلة عالقة برموشها. ولكن تبقى حقيقة واحدة وهي أن الله وحده هو الذي يعرف ماذا رأت في حلمها .

*****

رغم السنوات الخمس من عمرها وطولها الصغير الذي يــوازي إرتفــاع " جردل " المسح مرتين إلا أنها كانت تحمل هاجساً ضخماً داخل روحها النقية هذا الهاجس إسمه " مرض الربو "أمها مريضة به تراها المرة تلو المرة يتحول وجهها إلى زُرقة شديدة ويصعب عليها أن تستنشق نفساً واحداً كانت زُرقة وجه أمها تذكرها بكرة " الزهرة " التي كانت تضعها جدتها لتشطف فيهــا الملابــس

البيضاء فتصطبغ باللون السماوي ثم تنشر الغسيل في زهوه الشمس ليصبح لونه شاهق البياض... الصورة المنطبعة لأمها في عينيها أنها دوماً راقدة مسطوحة على ظهرها ومصباح مضاء بجوارها وفي يدها كتاب.. تترك الكتاب فجأة وتفزع جالسة على حافة السرير لتبدأ في السعال الشديد وينقلب وجهها إلى الزُرقة تحاول أن تشد الأنفاس.. يأتي والدها مهرولاً وكثيراً ما يكون خلفه الدكتور " صليب جرجس " وزوجته السيدة " جورجيت " يجهز حقنه يحقنها بها وقبل أن يسحبها تكون أنفاسها قد هدأت. قلما تجدها واقفة مثل يوم مسح الغرفة وربما كان بكاؤها في ذاك الوقت أو رغبتها في الإلتصاق بها من شدة إنفعالها بفرحتها أنها واقفة... كانت زوجة الطبيب قصيرة.. قصيرة فكانت تشعر الطفلة " سعاد " أنها أقرب إليها بالمقارنة بزوجها الدكتور " صليب " فارع الطول وكانت السيدة " جورجيت " كثيرة الكلام تبعثر نصائحها الطبية ووجهة نظرها أكثر من زوجها.. يستأذن الطبيب في دخول دورة المياه ليغسل يديه فتسارع " سعاد " لتسبقه.. تدخل قبله وتشد كرسي الغسيل الصغير من فوق " الطشت " المركون وتقف عليه أمام الحوض تغرس ذراعيها في ذلك الحوض المملوء بالماء والدم.. أشياء أمها الداخلية قطع القماش لا تقوى على غسلها في الحال فتتركها في الحوض ويأتي والدها غالباً ليغسل هذه القطع وينشرها على " الدرابزين " الموجود بجوار الحمام فتعلمت منه الجرأة على غرس ذراعيها في الدم. عقلها الصغير فهم أن يواري الأشياء الدامية ثم تنزل وبقدمها تدفع الكرسي الصغير تحت الحوض.. تجري تدخل حجرة أمها في قلبها الصغير تصطخب رغبة عظيمة أن ترتمي على صدرها.. تحتضنها فقد قامت بعمل هام مثل أبيها الكبير لقد أخفت كل شيئ وتندفع إلى صدر أمها لتجدها بلا حراك من أثر الحقنة ويتطوع الطبيب أو والدها أو السيدة " جورجيت " بإبعادها عن الأم وهم يجذبونها من تشبسها بأمها تلفت رأسها شاخصة إليها فلا تجد منها إلا نظرة بلا معنى ينزلونها على الأرض فتبدأ تدق الأرض بقدميها البضتين

وتصرخ فما يكون من جدتها إلا أن " تزغدها "مرتين في ظهرها قرب رقبتهـا وتزيحها بدورها إلى خارج الحجرة.

كان الطبيب " صليب " وزوجته السـيدة " جورجيـت " أصــدقاء لوالــد " سعاد " فالطبيب ولوع بدارسة الفنون حتى أنه إنتظم في الكلية التي يعمل بها والدها ومن هنا توطدت أواصر الصداقة بين والد " ســعاد " والطبيــب الــذي يستغل وقته كأحسن ما يكون الإستغلال بين عيادته والمستوصف الــذي يملكــه ليعالج فيه الفقراء دون مقابل وبالذات يوم الجمعة أما باقي الأسبوع فالكشف فيه بقرش صاغ واحد. كان الدكتور " صليب " يجري كثيراً من التجــارب علــى والدة " سعاد " ولهذا كان دائم المتابعة لها عن قرب...

*****

تصحو " سعاد " على دق ركبتي والدها على سجادة الصلاه عند الفجــر. تمشي متخبطة تزيح باب حجرة والديها وتدخل تركب ظهر والدها وهو يصــلي فيميل بها ويعتدل وهو يسجد فتكركع بالضحكات... كانت " سعاد " تُفرح نفسها بنفسها وتُخرج ضحكاتها لأسباب من داخلها هي.. تحب فترة الفجر لأنها تملــك فيها والدها لا يشغله عنها شيئ من أول صلاته وهو يمرجحها على ظهره إلــى إحتضانها والرقاد بجوارها في سريرها.. لم يستيقظ باقي أفراد البيت بعد. جدتها لأبيها نائمة لأنها تعاني دوماً من الضغط العالي وعمها هو الآخر مازال نائمــاً فاليوم أجازة من كليته أما قريبة والدها المطلقة وإبنتها فقد بقي لهما ثلاث ليالي تبيتان خارج البيت عند أحد الأقارب... كان والدها رجلاً عملياً كما يقال يمضي أغلب وقته في البيت في حجرة مكتبه ينكفئ على أوراقه يؤرخ أو يؤلف الكتب عن الفن بأنواعه.. تتسلل " سعاد " ببطء شديد وتدخل تحت المكتب قرب قدميه وفي مرة سمعته يشكو لنفسه من كثرة المصاريف ويكتب فــي ورقــة أمامــه متطلبات البيت من أول الإيجار الذي كان كان لا يتعدى الجنيهين إلى مصاريف دواء أمها إلى طلبات الطعام.. كان مثقلاً بالأعباء الأسرية فأخيه الأصغر مازال

يدرس في كلية الهندسة وقريبته " عطيات " المطلقة وإبنتها " زهرة " يتكفلهما هذا غير أمه المريضة هي الأخرى ثم " سعاد ". في هذا اليوم وبعد أن سمعت " سعاد " والدها ضجراً حائراً يحسب ما عليه تسللت من تحت المكتب دون أن يشعر بها وذهبت إلى دولاب ملابسه وأسقطت في أحد جيوب بذلته كل ما معها من قروش وهي موقنة أنها بعملتها هذه قد قضت على حيرته وحلت أزمتــه... حين تزوج والدة " سعاد " كان سيسافر في بعثة إلى إنجلتــرا ليحصــل علــى الدكتوراه ولكن قيام الحرب العالمية الثانية لغى هذا المشروع بالنسبة له وبالنسبة إلى غيره وإضطر إلى البقاء في مصر بالمرتب الصغير البالغ خمســة عشــر جنيهاً تقريباً وكل تلك الأعباء الأسرية الكثيرة .

لاحظت " سعاد " أن جدتها لوالدها وكأنها تنتظر قادماً مهماً تقترب من الباب أكثر من مرة كأنها تسمع دقاً ثم تكتشف أنها واهمة.. في البيت حركة غير عادية تستشعرها الصغيرة إلى أن تواصل الدق وسمعت جلبة بالخارج. توجهت جدتها مسرعة وقبل أن تفتح الباب كانت تردد حمدالله على السلامة أكثر من مرة . إشتمت الصغيرة " سعاد " بأنفها الدقيق ريحاً لها رائحة البلدة البعيدة. الطارق من بلدة والدها كل الذين يأتون من البلد لهم روائح تتعرف عليها فتعرف فيها البتاو والحلبة والكشك الناشف والتمر المحمص وهم ينزلون ما فوق رؤسهم كانت جدتها تزيحُها بلا سبب مفهوم لتبعدها والأمر من وجهة نظرها لا يتطلب زجرها طبعاً فهولاء يأتون تباعاً فما الجديد اليوم كانت أصغر من أن تجاهر برأيها بالإعتراض على زجرها فإقتربت من الطارق وإشتمت رائحة ملأت صدرها بها.. شيئ لذيذ.. شيئ يؤكل ولما كشفت زوجة الرجل القادم عن وجه السبت إنبعثت الرائحة أكثر وظهرت كيزان الزبدة البيضاء والصفراء على وجه " السبت "

دق الباب في نفس الساعة بتأن عرفت فيه " سعاد " وصول قريبة والــدها " عطيات " وإبنتها " زهرة " التي تكبرها بسبع سنوات وورائهما وصل خــال

" سعاد " " عمر " إندفعت تحتضن رُكبتي خالها طالب في البكالوريا له سمرة جذابة وعينان كثيرتان الحركة. وضعت يدها في جيبه وأخرجت قطعة الحلوى.. ضربها على مؤخرتها فصرخت وهي تبتعد بالحلوى بادرتهما الجدة متسائلة " عرفت يا عمر تجيبهم والله فيك الخير ده أنا قلت مش ها تعرف العنوان " رد عليها بإبتسامة زادت من جاذبيته بينما " عطيات " خفضت من وجهها الذي إشتعل حمرة وتشاغلت بتعديل ملابس " سعاد " كان بيتهم يتكون من ثلاثة أدوار الدور الأول البدروم ثم دورين آخرين الأول فوق البدروم فيه حجرة مكتب والدها بكتبه التي تملأ أرففاً كثيرة على الحوائط والمعلق عليها لوحات كثيرة والحجرة الملاصقة عبارة عن صالون واسع يفصل بينهما باب نصفه مربعات من الزجاج المصنفر. كان هذا الدور مملكة والدها يجلس بالساعات فيه بين كتبه الكثيرة وتتسلل " سعاد " لتجلس قرب قدميه تحت مكتبه الكبير وكأنها تتعشق النظر إلى قدميه بلونهما الأبيض وأصابعة شديدة الإنتظام. أما الدور الثالث فكان عبارة عن أربع حجرات للنوم يحتل والدها أكبرها الحجرة الشرقية لأنها أنسب بدفئها لصدر والدتها والحجرة البحرية حجرة عمها وبها أيضاً مكتب كبير. أما الحجرة الثالثة فكانت لجدتها ومعها إبنة شقيقها المطلقة " عطيات " وإبنتها " زهرة ". تطلع " سعاد " خمس سلمات لتجد الحمام... ترهب الحمام قدوماً يأتي الدكتور " صليب " ويسحب دماً من ذراع جدتها هكذا كان يعالجها من زيادة الضغط إن لم يَصفد أنفها طبيعيا.. يضع الإبرة في وريدها ويسحب صحن غويط من دمها ويمشي به إلى الحمام يصعد الخمس سلمات ويلقي بالطبق " الصاج " في الحوض فيحدث صوتاً معيناً ومعروفاً كان يخيف قلب الطفلة تنحني " سعاد " تحت الحوض تشد كرسي الغسيل من فوق " الطشت " وتقف عليه لتقوم على تنظيف الصحن والحوض معاً وهي لا تعي الفرق بين دم أمها في ملابسها الداخلية وبين دم جدتها المسحوب من وريدها في عقلها أن أي دم من أهل البيت لا يجب أن يُرى... أمها راقدة في سريرها وأبوها لم يأت بعد

من عمله وجدتها تزيح سبت الزبدة قريب من مكتب عمها بعد أن صعدت به الدورين.. فرشت ملاءة على المكتب ووضعت قوالب الزبدة بجوار بعضها.. قامت أمها تمشي بصعوبة إلى أن وصلت إلى غرفة عمها ومدت يدها تتذوق قطعة من الزبد. خُيل إلى الطفلة أن وجه جدتها إشتد إحمراره وإنشغلت " عطيات " في أداء أي حركة مقصودة تشغل بها نفسها مع إبنتها أما عمها فكان جالساً على كرسي أبعد من مكتبه.. سمعت " سعاد " وقع قدمي والدها على السلم الخشبي.. تحب وقع أقدامه.. فيهما طيبة فهو إما يصلي بهما أو يجري ليمد يده لمساعدة أمها... وفي ثوان كانت ترمي نفسها بين ذراعي والدها قبل أن يصل إلى السلمة الأخيرة في طلوعه حملها ودخل غرفة عمها فالعائلة مجتمعة حول الزبدة حتى أن والدتها كانت وما زالت تقف هناك، أسرعت "عطيات " تتناول الحقيبة من يد والدها ووضعتها جانبا.. وضعت الطفلة " سعاد " كفها في كف والدها تشده إلى المكتب المفروش عليه الملاءة ومرصوص فوقها كيزان الزبدة وقفزت قفزة قبل أن تمد يدها تغرسها في الزبدة وتأخذ بأصابعها قطعة تضعها في فمها وتصدر صوتاً دليل التلذذ مدت والدتها هي الأخرى يدها وإقتطعت قطعة وصارت تمتصها بحركة غير مسموعة... كانت جدتها لا تخلع السواد مطلقاً حتى وهي في البيت وتعصب رأسها بمنديل أسود فوقه طرحة محبوكة من نفس اللون. رفعت يدها فجأة وهي تحل طرحتها من على رأسها وترميها في وجه إبنة أخيها " عطيات " داكنة البشرة فارعة الطول ولها ضفيرة تكاد تصل إلى كعبيها فتساءلت على الفور " هل أغسلها يا عمتي؟ " وقبل أن تسمع إجابة كانت تنسحب هي وإبنتها من الحجرة " نطة " أخرى ورشقت " سعاد " أصابعها في قالب زبدة آخر لتأخذ قطعة أسرع من البرق وتضعها في فمها وبعدها لم تفهم شيئاً فقد ظلت جدتها تلطم خديها بصوت مسموع ثم تصرخ بصوت بدى " لسعاد " أكثر خشونة مما تعودت من صوت جدتها كلمات كثيرة من والدتها فهمت منها أنها تحذرها من أن تمد يدها على

كيزان الزبدة مرة أخرى. جاءت " عطيات " وفي رجليها إبنتها " زهرة " وحاولت أن تمسك يد الجدة حتى توقفها عن لطم خديها بينما والدها كان شديد الإنزعاج وهو يصيح " الأمر لا يستحق كل هذا يا أمي " والجدة تزيح " عطيات " عنها بقوة تشنجية واضحة... أخذت " سعاد " في البكاء بصوت مرتفع وهي تردد " مش هآخذ زبدة تاني مش عايزة زبدة " ومع ذلك لم تتوقف الجدة عن لطم خديها إلى أن إندفع من أنفها صنبور من الدم أغرق وجهها.. وحين رأى والدها هذا بدا كأنه فقد أية ذرة عقل ولم يهديه فكره إلى أي تصرف سوى أنه شد إبنته " سعاد " من ذراعيها مهدداً بإلقائها من النافذه... بقي ممسكاً بذراعها وخرجت صرخات وإستغاثات الطفلة وهي معلقة في الهواء من النافذة ووالدها ممسكاً بكفها الأيمن، صوت رفيع كان يقطع الجلبة " بابا مش هآكل الزبدة تاني " إلتفتت الجدة وهي تضع يدها على أنفها بمنديل كان ملقى هناك للعم الذي وقف هو الآخر في شدة الإضطراب. وإتجهت الجدة تأمر إبنها أن يعيد الطفلة من الشباك... وما أن فعل هذا وأوصلها تقف على أرضية الحجرة إلا وسقطت والدتها مغشياً عليها.

*****

دوماً يشبهون الطفلة " سعاد " " بعطيات " فقد أخذت ملامحها وسمرة بشرتها ونوع شعرها الكثيف وكانت " سعاد " تطيل التحديق فيها وكثيراً ما تشدها من ضفيرتها شديدة الطول.. كانت تشعر أن " طنط عطيات " تزيد عنها في أشياء فهي لها صدر مرتفع ولها وسط صغير كما أنها من الخلف مستديرة وكثيراً ما تطيل التحديق في نفسها في المرآه وتلف وسطها بخيط من الصوف صيفاً وشتاء وعرفت " سعاد " من حديث والدتها يوماً أن " طنط عطيات " تلف على وسطها بخيوط الصوف حتى تحتفظ بنحوله.. لكن معنى كلمة مطلقة أو طلاق لم تكن تعيها.... تقوم والدة سعاد بصعوبة أضفت بطئاً على حركاتها وهي تغادر سريرها، تنزل على أطراف أصابعها على السلالم الخشبية التي

تفصل بين حجرتها في الدور الثالث وبين مكتب زوجها.. أنفاسها مسموعة من أثر معاناتها الدائمة في إلتقاط الهواء بالصعوبة المعهودة.. كانت تُشرف وتتأكد من نظافة حجرة زوجها تمسح بيديها الكتب الموضوعة على الأرفف واللوحات الكثيرة المعلقة وغالباً ما تصعد إلى حجرتها وفي يدها كتابان بالفرنسية تسلي نفسها بهما في رقدتها المتواصلة.. كانت تحب قراءة " كورناي وراسين وفيكتور هيجو "وقبلهم كانت تقرأ " لإميل زولا " لم تكن تسعفها القراءة بالعربية لأنها تربت في مدرسة فرنسية داخلية " الميردوديو " لأن والدتها جدة " سعاد " كانت مشغولة عنها بالعمل بالسياسة كانت الجدة في ذاك الوقت سكرتيرة لجنة الوفد للسيدات شاركت في المظاهرات.. أحرقت ملابس الإنجليز في الميادين العامة.. وسافرت مع الوفد النسائي الذي شارك في المؤتمر الدولي للمرأة في روما عام ١٩٢٣ وكان قبل ذلك قد خلع جد " سعاد " عن جدتها " البيشة والحبرة " وهو المساوي لفكرة التحجب الآن وكان هذا ما وقع بالضبط في محل " جروبي " في شارع عدلي على مرئى من الرجال والنساء المجتمعات، يومها إرتجفت جدتها وهي تردد " كدة يابيه كده تعريني في وسط الناس ".

*****

" رشيقة " أم الطفلة " سعاد " تكاد تنزل السلالم زحفاً من إحساسها بكتمة الأنفاس.. تدثر نفسها.. تتأكد من غلق الروب فوق قميص نومها وتشد أكمامها لتغطي ذراعيها ما أمكن أما قدماها فترتدي جورباً صغيراً من الصوف ونعليها من الصوف أيضاً فلم تكن تُسمع إلا أنفاسها المحشرجة أو سُعالها الذي لا ينقطع ودلفت إلى حجرة زوجها وللوهلة الأولى لفت نظرها غياب أواني الزهور الموضوعة على الموائد الصغيرة الموجودة بجانب المكتب أو على المائدة الأكبر التي تتوسط جلسة المكتب المكونة من كنبة وكرسيين ضخمين. بخطوة واحدة شحذت فيها ما لها من قوة ووضعت يدها على باب حجرة الصالون عن

يمينها فتحته ونظرت إلى الموائد لم تجد كذلك أواني الزهور رغم وجود ثلاث طاولات لا تدري مالذي أخافها في أن يكون أحد قد أخذ صورة زواجها من على الحائط وتطلعت فوراً إلى الحائط ووجدت صورة زواجها معلقة ووالد " سعاد " بجوارها والطرحة على رأسها.. شحنة طمأنينة ملأت قلبها فقد كانت تحب والد " سعاد " بصدق لدرجة أنها هامت به حتى قبل أن تراه حين سمعت صوته يوماً في الراديو يلقي محاضرة عن الأدب الفرنسي.. أحبت صوته لأنها فهمت ما يقوله رغم أنه يتكلم بعربية فصيحة ففرحت بفهمها وفرحت بصوته وصارت تنتظره كل يوم في نفس الموعد... ولكنها لم تجد أواني الزهور في أي مكان... أزاحت الستائر وأشعلت الأنوار ولم تجد الأواني وهي تتلفت هنا وهناك وقعت عيناها على صورة لوالد " سعاد " كانت رسمتها له بقلم الفحم الأسود وإعتز هو باللوحة ووضع لها إطاراً وكثيراً ما كان ينقلها بين الصالون وحجرة مكتبه حيث يفصلهما الباب الذي نصفه من المربعات ذو الزجاج المصنفر كانت هذه اللوحة قد رسمتها له من خيالها من أثر سماعها لصوته في الراديو حتى قبل أن تقابله لأول مرة في حفلة نهاية العام في مدرستها لقد قدم نفسه عبر ميكروفون مسرح المدرسه بأنه الدكتور" طلعت مصطفى" وعرفته من صوته فإنتفضت واقفة وهي تكتم صرخة وكانت والدتها بجوارها فشدتها بقوة لتقعدها على الكرسي " وتزغُر " لها بين الفنية والفنية وأيقنت يومها أن مارسمته كان فعلاً قريب الشبه منه ومن لهيب " زغرات " أمها لم تستطع أن تتبادل معه كلمة واحدة إلى أن إنتهى الحفل وعادت مع والدتها إلى البيت تجر أذيال الخيبة والحزن الأكيد .

نزلت السلالم الحجرية التي توصلها إلى البدروم الذي توجد فيه مائدة الطعام وبجواره طقم أسيوطي منجد بالقطيفة البنية نزلت بشئ من الصعوبة ومازال في عقلها صورة والد " سعاد " التي رسمتها وتذكرت أنها وللآن لم تعرف ما الذي أوصله إلى خطبتها.. هل تدخلت أمها؟.. نعم الأكيد أنها تدخلت

وتوسطت إلى أن جعلته يتقدم لخطبتها وقد تأكدت موافقتها عليه حين نجح في أول إختبار أجرته عليه يوم أن قالت له إن إينتها تملك كام فدان عن والدها فرد عليها بإباء بأنه لا ينظر إلى مال إينتها ولا ينتظر منها شيئاً هنا إستحوذ على موافقتها كاملة بسبب عصاميته وهي التي كانت ترفض الكثير من شباب العائلات الذين يسكنون من حولهم في حيهم الراقي " حي الحلمية " وعلى الفور فضلت هذا الآتي من أعماق الريف عليهم بسبب قناعته والأكثر من هذا أنه سيسافر بها في بعثة إلى إنجلترا إلا أن أمها لم تصرح لها بما يمس هذا الموضوع من قريب أو بعيد... ولم لا؟ ألم تكن تعمل في السياسة وتخطط لكل أمر؟....... على وقفتها في البدروم سمعت خربشات آتية من الحديقة وعرفت أنه " عم عبد العزيز " يقوم على العناية بالحديقة تفحصته فلم تجد أي أثر للأواني بجواره.. سألته فبدا أنه لا يعرف شيئاً... الصغيرة " سعاد " إستشعرت غياب أمها " رشيقة " من الدور العلوي فنزلت السلالم وثباً.. وثباً فتحت حجرة المكتب فقد كانت تعرف أن أمها كثيراً ما تنتقي كتباً من أرفف والدها ولما لم تجدها نزلت إلى البدروم وهناك وجدتها حائرة لم تستطع أن تساعدها أو تعطيها رداً لإختفاء أواني الزهور رغم أن أمها سألتها سؤالاً مباشراً... أتت "عطيات " وفي ظلها كانت إينتها " زهرة " بادرتها " رشيقة " بسؤالها عن أواني الزهور فأشاحت بوجهها كأنها لم تسمع شيئاً.. واجهتها مرة أخرى بالسؤال فتلفظت بكلمات يفهم منها عدم معرفتها وإن أمعنت في مداراة وجهها عنها ولكن إنبرت إينتها " زهرة " من فورها التي كانت كثيرا ما تقرر الجدة بأن لسانها به قطعة زائدة لأنها لا تكتم أمراً فما بالك لو كان سراً وعلى ذلك تطوعت لتعلن بأن أواني الزهور إستخدمتها الجدة في تخليل اللفت وحبكت عليها بغطاء قوي إتجهت " رشيقة " إلى " النملية " وفتحتها ووجدت فعلاً كل أواني الزهور يظهر من خلف الزجاج فيها اللفت المخلل والخيار!!

*****

غفت عيناها دقائق وهي مازالت في جلستها على كنبة المستشفى دقائق وإن تصورت أنها ساعات.. صوت وليد يبكي. إتجهت إلى الصوت كان فعــلا إبــن إبنتها " منى " إحساس الجدة لا يخطئ.. إبتسمت لها الممرضة وهي ترضعة ماء بالسكر حتى لا توقظ الأم فلم تنم إلا حوالي ساعتين وهذا لا يكفي يجب أن تُكمل نومها حتى الصباح... عادت بعد أن إطمأنت على إبنتها المســتغرقة وأســقطت جسدها على الكنبة.. هل خجلها من حكاية " البرنس " الذي طلبته من زوج إبنتها في لحظة طيش " أي والله لحظة طيش! وهل تطيش بعد أن تعدت الخمسين! إذاً ماذا يفعل الصبايا يا الله " وتساءلت متعجبة هل كل الشريط الذي مر بمُخيلتهــا عن حياتها من أول أن كانت طفلة بين والديها كل هذا لــم يســتغرق إلا ســاعة واحدة.. كل تلك الأحداث مرت في هذا الزمن القصير! هل هذه طبيعــة الحيــاه حين يجتر الإنسان أحداث عمره تبدو وكأن لم يمُر عليها زمن يُقــدر بعشــرات السنين لأنها مرت في دقائق وتساءلت ما علاقة هذا بيوم البعث حين ننفطر يوم الموقف العظيم وكأن الدنيا وكأن نومتنا لم يمض عليها إلا يوم أو بعــض يــوم وإرتجت مرتعشة على جلستها حيث تمثلت في مُخيلتها يوم أن دلاها والدها مــن نافذة البيت في الدور الثالث بسبب تكرارها أكل الزبدة بعد أن مر كل هذا العمر على تلك الواقعة تموت خوفاً من إستعمال مِصعد أي عمارة... أشاحت برأســها قبل أن تمد يدها إلى ظهرها وتحل مَشد صدرها.. لم تسترح بعد فقامــت واقفــة وإتجهت إلى الباب تغلقه وعادت تخلع " قميصها " وتتحلل من المشد تمامــاً ثــم تكومه وتضعه في حقيبة يدها لا يهم لأن صدرها صــغير فعــلاً ولمــا خلعتــه إستراحت ولم يتغير شكلها كثيراً... برزت صورة زوج إبنتها " أشرف " الذي لا يترك صغيرة أو كبيرة في حياتها إلا ويتدخل فيها وكثيراً ما أثــار " منــى " ضدها بأقواله " قولي لمامتك تطول فساتينها شويه وتوسعها.. قولي لمامتك ليس من المعقول في سنها أن تلبس صندل على جونلة " جينز " حتى ولو كانت فــي البيت " أف وألف أف من ملاحظات أمه المستمرة وفوق هذا أنني للأســف لــم

أتردد في أن أطلب منه " برنس الوليد " " يالخيبتي وسوء إختياري!! " قطع حبل أفكارها. دخول الممرضة بحركة مفاجأة الحجرة بعد أن كانت قد أوصدت الباب ونسيت أن تفتحة قبل أن تتخذ مكانها على الأريكة دخول الممرضة خلصها مـــن التفكير في حماة إبنتها وزوج إبنتها قالت لها بأدب :

- أنا ملاحظة أنك قلقة

-أبدا.. أبداً الحمد لله على كل شيئ

-إطمئني تماماً .. أنا لسة شايفة الضغط والقلب وكله كويس حتى جرحها كويس قوي.

- إنتزع القلب منها وهي تسأل بجزع :

-أي جرح دي قامت بالسلامة .....

قاطعتها الممرضة برفق

-إنت خوافة ولا إيه يا مدام دول غرزتين صغيرين من أثر نزول الرأس

بجزع أيضاً :

-إمتى حصل ده!؟

- في حجرة الولادة وقبل ما نطلعها...... دي حاجة بسيطة جداً دي غرز سطحية علشان ترجع زي ما كانت وأحسن.

- ياساتر يارب وفي الحالة دي ها تقعد في المستشفي كثير.....

قاطعتها :

- أبداً أبداً خروجها في موعده بس لغاية الأربعين تغسل بمحلول مطهر كل يوم.

تساءلت :

- وهل الدكتور كتب نوع المطهر وإذاكان فيه بنسلين يلزم أن تأخذه؟؟

- طبعاً طبعاً لا تنزعجي ده أي محلول حتى لو كان "البرمنجنات " بتاعت زمان القديمه.
- لثانية شعرت " سعاد " كأن الأرض من تحت قدميها تميل يميناً ويساراً. مدت الممرضة يدها تسندها إلى أن أقعدتها على الأريكة و " سعاد " تتقطع منها الأنفاس.. جلست بجوارها الممرضة وهي تقول:
- هو حضرتك ما أكلتيش أي حاجة من الصبح ماهو دائما أم الوالدة بتنسى نفسها لغاية ما تدوخ.. دي حاجة بتحصل عندنا هنا في المستشفى كل يوم أنــا هــا أقوم أجيب لك لقمة صغيرة وفنجان شاي .

أومأت لها " سعاد " برأسها. الأرض بعد أن مادت تحت قدميها وجلست هربــاً من هذا الإحساس.. بدأت الحجرة تدور بسرعة كبيرة من حولهــا وبصــوت مسموع كانت تقول لنفسها " بقى كلمة واحدة من الممرضة توصلني للحالــة دي " ثم وضعت يدها على فمها كأنها تســكت نفســها لا تريــد أن تُشــعر الممرضة بأن كلمة " البرمنجنات " هذا المحلول المطهر هو الذي أصــابها بكل هذا الدوار. شعرت أن معدتها تكاد تندفع من حلقها إلى الخارج... لماذا بعد كل هذا العمر الذي أصبحت فيه يهاجمها كــل هــذا الشــعور بــالجزع والتشتت من حادثة مرت عليها وهي طفلة وكــان ســائل " البرمنجنــات " المطهر يلعب دوراً رئيسياً في تلك الحادثــة............ لقــد أخــذت فــي طفولتها أحد الأمراض الخطيرة والتي لم يكن لها أصلاً علاج في ذلك الوقت وكانت والدتها " رشيقة هانم " تُجلسها على حافــة البــانيو وتفــتح فخــذيها وتصوب بينهما ماء بمحلول " البرمنجنات " من حقنة معدنية كبيرة في يدها لتغسل مكان الميكروب...... كانت " سعاد " في طفولتها تتعذب مــن هــذه العملية وتكره لون حُمرة المُطهر وكانت تخاف أيضاً فإندفاع الماء من الحقنة الكبيرة كان يؤلمها... كانت أصغر من أن تسأل عن سبب إتيان هذا الإلتهاب السيال إليها والذي يلوث ملابسها الداخلية بإستمرار إلا أنهــا أســتطاعت أن

تفهم بلا وضوح أن هذا المرض إنتقل إليها بالعدوى من أحد أفراد الأسرة الذين يقومون على رعايتها في أغلب الأحيان بسبب مرض والدتها الدائم..... يومها عاش البيت في جحيم من بكاء أمها وصرخاتها ومن جحيم عويل " عطيات " وإستماتتها في الدفاع عن نفسها أما خالها " عمر " فلم يعد يُرى في البيت لا يأت مطلقاً لا لتوصيل " عطيات " أو لإعادتها للبيت... في تلك الأيام كان البيت كأن النار أمسكت به. كانت جدتها تنفرد "بسعاد " في الحمام وتشبعها لكمات "وأزغاد" متتالية إلى أن تبدأ في البكاء بصوت مرتفع فتزيحها بقوة لتتدحرج في بانيو الحمام ثم توقفها وتلقي عليها بالمنشفة لتقوم على تجفيف نفسها بكفيها الطفوليين وفي ظرف أيام معدودة كانت " الجده " و" عطيات " وإبنتها قد رحلن عائدات للبلده وإن بقيت " سعاد " تعالج من مرضها لأكثر من العام....

ناولتها الممرضة فنجان شاي... منظر البخار المتصاعد منه حرك شهية " سعاد " فأومأت لها شاكرة.. ومع أول رشفة لها من الشاي إستراحت في جلستها على الكنبة ووضعت ساقيها بجوارها ولا إرادياً وجدت نفسها كأنها واقفة تصلي مع باقي التلميذات في مدرسة " القلب المقدس " وقبل أن تنتهي الصلاة " بإسم الآب والإبن والروح القدس " إحتضنتها من كتفيها إحدى الراهبات ولما إلتفتت سحبتها من ذراعيها ودخلت بها إلى مكتب الأم الكبيرة وهناك وجدت والدتها نقلت عينيها بين الأم الكبيرة مديرة المدرسة وبين أمها هي وخُيل إليها أنها ترى دموعاً في وجه أمها.. إقتربت منها وفتحت ذراعيها بنفسها ودخلت بينهما.. سمعت أنفاس أمها عالية.. إلتصقت بها أكثر فسمعت دقات قلبها.. وفُتح الباب ودخلت راهبة أخرى تحمل شنطة " سعاد " الصغيرة وبداخلها أدواتها وكراساتها جرت الطفلة وشدتها منها.. أخرجت المديرة نقوداً ورقية وقدمتها للأم التي أخذتها بنوع من اللهفة والسرعة وقامت واقفة لتخرج وهي تمسك إبنتها من يدها قبل أن يدلفا من الباب كانت الأم المديرة والراهبة

الأخرى تشيران " لسعاد ".. لم تكن تعرف الصغيرة أن هذا آخر يوم لها في هذه المدرسة فقد جاءت أمها لكي تسحب أوراقها وتسترد المصروفات لأنها كانت في حاجة للعلاج ومصروفات المدرسة أكثر من طاقة إحتمالهم فهي تحتاج إلى حوالي خمسة عشر جنيهاً مرتين في السنة. سحبت النقود وسحبت " سعاد " عائدة إلى البيت.. غُصة في حلقها فقد فهمت بعد ذلك أنها لن تعود إلى مدرستها مرة أخرى نزلت الدموع من عينيها في صمت وفي نفس الوقت لم تكن تريد أن ترى أمها دموعها فمسحت بيدها العين اليمنى لأن أمها كانت تتكئ عليها من شمالها...... وصلا إلى البيت وجلست أمها على أريكة خشبية خضراء في الحديقة وبدأت في السعال لمحت " سعاد " إحدى الجارات التي جاءت فور أن رأت والدتها جالسة تسأل " هل من مساعدة " وإكتشفت الصغيرة أن كثيراً من جيران الشارع يعرفون أن أمها مريضة بداء " الربو ".. تركت أمها مع الجارة وصعدت تبحث عن والدها في حجرة المكتب إرتمت على ركبتيه وهو جالس على مكتبه.. حملها إلى صدره قالت " لا أريد أن أترك مدرستي " دموعها تملأ وجهها وعالقة بغزارة في أهدابها لم تسمع من والدها إلا عبارة " معلش.. معلش سأدخلك مدرسة أحسن منها " لم تجد حلاً عند والدها ولن تعود إلى مدرستها... والد " سعاد " أستاذ أكاديمي في كلية الفنون الجميلة لا يعرف الكثير خارج حدود مكتبه ولا يجيد فنون التحايل للعيش وتلبية المطالب.. فهو لا يعرف شيئاً عن الجمعيات التي يقيمها الموظفون مثلاً لتسديد المطالب الكثيرة ولا يعرف السلف أو الإستبدال رغم أن من يسكن بجواره " المسيو جوزيف " والسيدة " كاسيل " زوجته وهما يهوديان ويقومان على تسليف الكثير من الجيران والمعارف مقابل فائدة بسيطة وكان مشهوراً بإسم " المسيو جوزيف المرابي وزوجته " أما من يسكن في الجنب الآخر المجاور لبيتهم فكانت تسكن السيدة " تلّي " وزوجها " مسيو تلّي " الذي كان مسلماً ثم تنصر ولهما أبنه إسمها " أنّا ". مسيو " تلّي " زوجها كان يميل إلى الإنطواء في غالب علاقته

بالجيران يطل من عينيه رغم أنهما خلف نظارة سميكة نوع من الحيرة المتجمدة فدوماً يفتح عينيه عن آخرهما ثم تتحجر نظرته رغم أنه لا يوجد الجار الذي تعرض له بأي سؤال أو إستفسار ولا يعرف باقي جيران الشارع عنه شيئاً اللهم إلا أنه كل يوم أحد يقيم قداساً في بدروم بيته ويُقال إن من يقوم على الإنفاق على القداس الأسبوعي الإرساليات التبشيرية التي كان لها وجود محسوس في مصر منذ الأربعينيات وأنها أيضاً تدفع له إيجار المنزل... يأتي إليه في القداس كثير من العائلات ومعهم أطفالهم يُصلون بصوت مسموع ثم يدعون أيضاً من وراء قسيس كبير في السن يلقنهم الأدعية المختلفة ثم ينصرفون بعد أن يشربوا المشروبات المثلجة في الصيف والدافئة في الشتاء....... كانت " سعاد " تنظر إليهم من السور الحديدي الذي يفصل بين حديقتيهما وفي أحياناً كثيرة كان " مسيو تلّلي " يشير لها فتنفذ من بين فتحات السور إلى حديقته وتدخل تغني في القداس الذي حفظته من التكرار وتشرب من المشروبات التي تُقدم وفي صبيحة اليوم التالي وإذا تصادف وجود والدة " سعاد " في الحديقة تتشمس كانت مدام " تلّلي " تقول لها بصيغة شفوقة بأن لديها طعام وحلويات كثيرة بسبب قداس الأمس فكل من يأتي يُحضر معه شيئاً وأنها حجزت لها نصيبها الأسبوعي وقبل أن تنطق " رشيقة هانم " والدة " سعاد " كانت مدام " تلّلي " تقسم عليها بإسم الصليب والمسيح الحيّ أن لا تردها..... وكثيراً عندما كانت تُعد في الصباح لإبنتها " أنّا " ساندوتش الطعمية الذي تُتقنه قبل أن تذهب إلى مدرستها كانت تُصر أن تقدم " لسعاد " ساندويتش تدُسه في حقيبتها....... كانت البيوت في هذا الشارع متشابهة على النظام الإنجليزي فقد بنته الشركة البلجيكية بعد الحرب العالمية الأولي بحوالي عشر سنوات وقت وجود الإنجليز إنها فيلات مُتطابقة في شكل واحد لا يفصل الواحدة عن الأخرى إلا سور من أسياخ حديدية وكل فيلا لها حديقة صغيرة أمامية وحوش من خلفها.. بعد " مسيو تلّلي " كانت تسكن مدام " سيسيل " اليهودية ويخدمها زوج " جمالات " وقد عُرف " سيد "

بإسم " زوج جمالات " لشدة جمال زوجته والتي كانت بدورها تقوم على خدمة كثير من البيوت وهناك حكاية روتها لها أمها " رشيقة هانم " عن مدام " سيسيل " فقد طلبت يوماً من " سيد " زوج " جمالات " كوب ليمون وإنتظرت دقائق إلى أن يحضره ولما تأخر قامت لتراه فوجدته يقلب كوب الليمون وبعد أن إنتهى منه بصق في الكوب عادت مدام " سيسيل " إلى الوراء متوارية حتى لا يعرف أنها رأته وجلست مكانها وبعد دقيقة واحدة جاء إليها وقدم لها الكوب فما كـــان منها إلا أن تناولته منه ووضعته جانباً وبعد أن مشى من أمامها أفرغت الكوب من الشباك الموجود خلفها ويطل على الحديقة ولم تُكلمه في هـــذا الموضـــوع مطلقاً وفي الوقت نفسه لم تستغن عنه مطلقاً.. السـيدة " سيســيل " اليهوديـــة علّمت " رشيقة هانم " مثلاً حفظته من بعدها وهذا المثل يقول " وقَبِّــل يــدي الجاني التي لست قادراً على قطعها وترقب سقوط جداره "...... باقي الشـــارع والذي يحمل أهله جنسيات كثيرة ومنهم المصريون بالطبع كان يسكن في فـــيلا أخرى آل " القسام " الفلسطينيين ولهم إبنه إسمها " جهاد القسام " كانت " سعاد " تلعب معها أحياناً وتحكي لها أمها " رشيقة هانم " أشياء عن فلسطين . ورغم صغر سنها شرحت لها قضية الأسلحة الفاسدة التي قتلت الضـــباط المصـــريين وكيف كانت ترتد إلى صدورهم الطلقات وعرفت في هذه السن المبكرة الحـــزن من فكرة الأسلحة الفاسدة والحزن من فكرة خروج الفلســطينيين....... ليـــالي تأخذها أمها إلى جوارها في الفراش تقرأ لها بالفرنسية من كتـــاب بـــين يـــديها وتحكي " لسعاد " الحكايات إلى أن يناوش النوم عقلها فتحتضنها وتطلب منهـــا أن تذهب إلى حجرتها أو أحياناً تطلب منها أن تملأ لها " دورق المياه " فكانـــت تذهب في كامل إنتبهاها وتعود به مملوءاً ثم تدخل لتنام قريـــرة تســـتكمل فـــي أحلامها حكاية البطل الذي أنقذ الغابة المسحورة..." رشيقة هانم " في هذه الأيام في أحسن حالاتها الصحية تباعدت النوبات الربوية عن بعضها فلم تعد متتابعـــة وربما يعود هذا إلى كثرة الأدوية التي يقوم بتجربتها عليها الدكتور" صـــليب "

أثناء أزماتها ومعاناتها.. كانت تبدو " لسعاد " ودودة تأخذها بجوارها وتحكي لها الحكايات وفي أحيانا أخرى كانت تفتح حقيبة المدرسة وتنظر في كراساتها القليلة ثم تغلقها وتعطيها لها دون كلمة واحدة كأنها تستثقل أن تشرح لها شيئاً لأن هذا يكلفها جهداً أما كتاب الحدوته الفرنسية فلم يكن يتعبها ولعلها كانت تكتفي بالنظر في الصور ثم تحكي " لسعاد " الأسهل على لسانها والأقرب إلى ذهنها دون أن تتكلف مشقة تفهيمها أي شيئ مدرسي لأن الواقع أن ما تعطيه المدرسة هو علم مهما كان مبسطاً.. وفي ليالي أخرى و" سعاد " بجوارها تسمع صوت بائع الفول الأخضر ينادي على عربته فترسلها أمها بقرشين لتشتري رطلين " فول حيراتي " وبجوار والدتها توجد قطعة جبن " إسطنبولي " قديمة بلفتها في ورقتها كانت " سعاد " تنزل في ذلك الشتاء ترتدي منامة " كستور " ثقيلة وتخرج لتوقف البائع الذي يزين عربته بعمود من الخشب القصير آخره شعلة نار. كانت تنظر إليه وهو يزن الرطلين وضوء الشعلة مع الهواء ينعكس على وجه البائع فيعطيه ملامح كثيرة فتخاف وتتحاشى النظر إلى وجهه إلى أن يناولها الفول في القرطاس ويأخذ القرشين وتجري داخل الحديقة الصغيرة وتُغلق الباب خلفها ثم تصعد السلالم بقوة ودفعة واحدة وتقدمه على الفور لأمها وهي تشعر بنوع من القناعة والرضا لأن أمها لم ترى وجه البائع وضوء الشعلة يتراقص ظلالاً عليه فيبدو كثير الشبه من الأشباح في كتاب " الغابة المسحورة ".. يأكلان إلى أن تشعر برغبتها في النوم فتطلب من أمها أن تنام في حضنها وبجوارها فتفهمها أن والدها سيأتي من الخارج لينام في مكانه فتنسحب وهي تتخبط في مشيتها ولا تنسى أن تسأل أمها عن " دورق المياه " ثم تتجه إلى حجرتها وتنام منكفئة فوق اللحاف إلى أن تشعر بالبرودة فتقوم وتتكور تحت الغطاء وغالباً ما تنام بحذائها الذي وضعت فيه قدميها قبل أن تغادر سرير والدتها... يوقظها والدها في الصباح للمدرسة تتناوم وهي تسمع وقع قدميه قريبة من سريرها فيدلك لها ظهرها ويتحسسها قبل أن يوقظها. كانت تحب

لمسات أصابعه. تعرف يديه لونهما شديد البياض عن وجهه الذي يميـل إلـى الإحمرار وكثيراً ما تساءلت إذا كان لوالدها كفاً ملائكة فلماذا لا يطير بجناحين! تسمع أمها تنبه عليها أن تلبس ملابس ثقيلة فاليوم بارد.. بارد.. ما رأت أمهـا أكثر إنزعاجاً من يوم أن سعلت بعد عودتها من المدرسة وإستنجدت على الفور بالدكتور " صليب " الذي أتي تسبقه زوجته بالنصائح هنا وهنـاك... إختبـروا حرارتها.. واجهوها بألف سؤال وسؤال.. ولما صحت في اليوم التالي لتـذهب إلى مدرستها منعتها أمها وفهمت أن والديها يتناقشان في مسـألة أن يوصـلها أتوبيس المدرسة في أبرد شهور السنة ديسمبر ويناير حتى لا تتعرض للمرض الذي يمكن أن يتحول إلى " ربو " .

*****

في الصباح على غير العادة إستيقظت قبل أن تنتظـر والـدها.. لبسـت ملابسها ووضعت قدميها في حذاء المدرسة الذي جهزته من الليلة السابقة تمنت أن لا ترى أمها قبل أن يأتي الأتوبيس لأنها تُصر على أن تعطيها ملعقة " زيت السمك " في الصباح حتى تقيها البرد وغالبـاً مـا ترتعش يدهـا وتضيق بتبرم " سعاد " فينسكب جزءً مما في الملعقة على ملابسها وتبقى الرائحة تلازمهـا باقي يومها في المدرسة. حضر والدها يطمئن على أنها غسلت وجههـا الـذي تنساه بإستمرار ومشط لها شعرها القصير جداً كما كانت تختار لها والدتها حتى تتخلص من عبء التمشيط اليومي.. تركها والدها تتفلت من أمامه وقـد نسـي كعادته أن يلقمها " بُق " لبن أو أن يحشر لها في حقيبتها كِسرة عيش بقطعـة جبنة " إسطنبولي " أو حتى يعطيها أي مصروف مثل باقي التلميذات فقد كـان نظره الضعيف يحول بينه وبين إتقان عمل أي شيئ خارج مكتبه. نزلت السلالم الخشبية على أطراف أصابعها وخرجت من الباب العلوي الذي يوصـل إلـى مكتب والدها.. خرجت أيضاً من باب الحديقة تنتظر على الرصيف.. كان الجو بارداً تضع كفيها الصغيرين في جيب " جاكيت " من خيوط الصـوف الأزرق

إلى أن وصل الأتوبيس عرفته عرفته فهو الواقف دوماً أمام باب مدرستها في شارع بيروت في حي مصر الجديدة توقف بجوار الرصيف وفتح الباب وسألها السائق " التلميذه مها طلعت مصطفى " أومأت برأسها وبدأت تصعد سلالم العربة وبهدوء بدأت العربة تعاود سيرها و" سعاد " تنتظر أن تشير لها إحدى السيدتين الجالستين في المقدمة عن مكان جلوسها. إذا بإحداهما تشدها من كتفها وهي تقول لها بحدة " قولتي إن إسمك مها طلعت مصطفى!؟ " وحين أشارت لها بالإيجاب فما كان من المدرسة إلا أن بصقت على وجهها فتراجعت الطفلة خطوة ثم خطوة أخرى إلى الوراء وهدأ السائق من سرعة العربة وهو يرى المدرسة تزيحها صارخة " يالّه.. يالّه مش عايزين قرف على الصبح " نزلت " سعاد " قبل أن تبتعد عن بيتها بأمتار وأخذ السائق سرعته فأخذت " سعاد " تجري وراء العربة وهي تحمل حقيبتها.. كانت مدرستها في آخر شارعها الطويل.. المدرسة قريبة من بيتها إلا أن والدتها من شدة خوفها على صدرها إشتركت لها في الأتوبيس ليأخذها لتحميها من برودة الصباح.. ظلت تجري تارة بجوار الأتوبيس وتارة أخرى وراءه إلى أن وصلت إلى مدرستها ودلفت من الباب الحديدي الكبير وتوالت الأيام وكانت " سعاد " من هول ما حدث لها كأنها فقدت القدرة على الكلام فلم تفتح فمها بكلمة واحدة لأحد من والديها وإن كانت تدخل سريرها مبكرة لتغلق عينيها وتشد اللحاف على رأسها وفي كل الأحوال تبكي في صمت وإمتنعت على أن تطلب من أمها أن تقرأ لها قصة أو تريها صورة... وبعد يومين آخرين كان أتوبيس آخر يمر عليها ليأخذها في دورة مختلفة... أيام الشتاء هذه كان يكثُر فيها تواجد الدكتور" صليب " وزوجته لأن أمها تتلاحق على صدرها النزلات ويعدهم دوماً الدكتور بأن هناك إكتشاف جديد وصل إلى مصر وهو سيشفي أمها ويخلصها من إلتهاب صدرها الدائم ومن ثم سيعود تنفسها إلى حالته الطبيعية... ومن رحمة الله على " سعاد " أن" أبلة جاذبية " مدرسة الألعاب التي بصقت على وجهها وطردتها من العربة لم تكن

تُدَرِس لها شيئاً اللّهم إلا في قرب نهاية العام كانت تقوم على تدريب البنات على الرقص التوقيعي الفرعوني ولما أرادت " سعاد " أن تشارك زميلاتها قالت لأمها وهي بجوارها في السرير وقد عادت تشعر بأنها تملك الدنيا وهي لصيقة بجوارها فتارة أمها تقرأ لها من كتاب " السيدة في خدمتك "الكتاب الذي كان يوصى به لسيدات الدبلوماسيين أن يتعلموه.. تعلمها وتحذرها مثلاً من أن تفتح فمها وهي تأكل أو تُصدر صوتاً أثناء الطعام.. تعلمها أن لا تضع ساق فوق ساق أمام من هم أكبر منها أشياء كثيرة ومسلية كانت الأم تعلمها ثم تُقلب في كتاب الحكايات لتحكي لها عن الفتاة التي سكنت القمر ثم سبحت هابطة إلى الأرض لتأخذ أمها معها... أكدت عليها أن تذهب إلى أبلة " جاذبية " وتطلب منها أن تشترك في الرقصات التي ستُقدم في حفل آخر العام وقد نست " سعاد " أن تقص عليها واقعة طرد المدرسة لها من الأتوبيس بدت كأنها نسيت حتى بصق المدرسة على وجهها كان قلبها الصغير أنقى من أن يحتفظ بأي إساءة من الآخر نسيت.. نسيت وتوجهت لحجرة المدرسات في اليوم التالي.. أزاحت الباب بهدوء ودخلت تدور بعينيها بحثاً عن أبلة " جاذبية " التي كانت مشغولة بفتح أحد أدراج مكتبها وتقدمت منها كما قالت لها والدتها وطلبت أن تشترك في الحفل فما كان من أبلة " جاذبية " إلا أن أشاحت في وجهها أولاً ثم إنتفضت واقفة وهي تقول بأعلى جعيرتها " يالّه.. يالّه مش عايزين قرف على الصبح " خافت "سعاد" وإستدارت تنسحب بخطى خجلى وسريعة من أمام المدرسة وبعد خروجها إلتفتت إليها إحدى المدرسات وهي تسألها عن سبب ضيقها من هذه الطفلة بالذات فبدأت تروي للجميع أنها تزاملت مع عمة " سعاد " كل سنوات دراستها إلا أن عمتها خطفت منها الرجل الذي كان سيتزوجها وتزوجته هي وجاءت تكايدها في المدرسة بعد الزواج وهي تعلن تقديم إستقالتها لأن زوجها لا يقبل أن تعمل من باب إعزازه لها وقد عرفت " سعاد " من صورتها التي كانت موجودة مع عمتها بإستمرار... سمعت " سعاد " كل هذه القصة وكانت مازالت

أمام الباب وبعد أن فرغت المدرسة من الحكاية بكت الطفلة وهي تجر أذيال فشلها الأكيد في أن تجعلها المدرسة تشارك في حفل آخر العام. تعلمت " سعاد " أن تبكي وحدها ولفترات طويلة وبالتحديد في فترتي الفسحتين الأولى القصيرة والثانيه الطويلة حيث تتدرب زميلاتها إستعداداً للحفل... ثم تعود إلى بيتها في آخر النهار تمشي الشارع الطويل حاملة حقيبتها الصغيرة إلى أن تصل إلى بيتها فتزيح باب الحديقة الصغيرة الحديد وكأنها تزيح وتنفض عنها كل ما يضايقها وتدخل تبحث عن والدتها وهي تعلم أنها في الغالب مسطوحة في سريرها وبجوارها المصباح موقداً وفي يديها كتاب.. تجري إليها.. ترتمي في صدرها وتملأ لها دورق المياه قبل أن تطلب ثم تتجه إلى الحمام لتغسل ملابس أمها الداخلية ببقع الدماء فإن لم تجد شيئاً فتستنتج على الفور أن أباها أو حتى أمها قام بالمهة العيب والتي لا يجب أن يراها أحد.

*****

أيام كثيرة ولكنها ليست متتالية تسمع فيها " سعاد " صفارة الإنذار.. تعرفها فتترك أي شيئ وتنتظر سماع صوت أمها تستحثها لتنزلان الدور الأرضي " البدروم " وهناك تأمرها أمها أن تجلس تحت مائدة السفرة إلى أن تنطلق الصفارة مرة أخرى تعلن عن إنتهاء الغارة فتجري إلى مفتاح النور وتمسح بعينيها وجه أمها وأبيها وغالباً ما ينامون جميعاً في البدروم. تحكي لها أمها شذرات عن الحرب " العالمية الثانية " والتي إبتدأت بإنتصارات متوالية للألمان وأصدقاؤهم من دول المحور إيطاليا واليابان ولكن سرعان ما إستعاد الحلفاء بريطانيا وفرنسا وأمريكا وروسيا وتمكنوا من النصر وهزيمة ألمانيا وحين تسألها " سعاد " هل لابد من أن تحارب البلاد بعضها بعضاً وهل هي شخصياً حاربت؟ كانت أمها تبتسم ثم تحاول أن تحكي لها عن الحرب ضد الإنجليز التي كان يعمل في أتونها والدها وهو جد " سعاد " الذي فتح الهاويس ليُدخل الوالدة باشا أم السلطان " عباس " أيام عمله في القناطر الخيرية لقد كان يقتل الإنجليز

هناك ثم يدفنهم ويرش فوقهم حبوب الحلبة والمعروف أن هذا النوع سريع الإنبات فكان في هذا تموية كافٍ فلم يكتشف أحد من الإنجليز أو يشتبه في أن مكان زرعة الحلبة النابتة ترقد جثة جندي إنجليزي. أيضاً كانت أمها تعلمها كيف تلبس الخودة وتضع الكمامة على وجهها مخافة الغازات السامة وكانت الحكومة المصرية في ذلك الوقت توزع هذه الأدوات على المدنيين للوقاية. في مرة قالت لها أنها ولدت في وقت إحدى الغارات وتكبد والدها دفع غرامة لأنهم أشعلوا النور لحظة الولادة رغم أن الزجاج كان مطلياً باللون الأزرق ولما سألتها " سعاد " هل تستمر الحروب طويلاً تنهدت وهي تقول لها أن هذه الحرب المسماه العالمية الثانية إستمرات حوالي ست سنوات ". ولم تكن " سعاد " في سن يخول لها أن تحسب حساب الزمن والأيام إلا أنها شعرت بالست سنوات وقت طويل جداً لحرب. وفي يوم وهي جالسة تحت المائدة إذ دق الباب دقاً متوالياً إرتدت تتشبث بساقي والدها مال الأب وسحبها من تحت المائدة حملها وذهب يفتح الباب. كان ساعي البريد يقدم له تلغرافاً تناوله منه رغم الظلمة وعلى عود ثقاب قصير وقع بإسمه وتمسك والدها أن يبقي ساعي البريد معه إلى أن تنتهي الغارة وبالفعل لم يتم عشرة دقائق إلا وكانت صفارة الإنذار تعلن إنتهاء الغارة فصافح الساعي بمنتهى التقدير وإنصرف الرجل إلى حال سبيله وأنزل الأب " سعاد " وإبتدأ يفض الرسالة وقد إمتقع لونه حتى صار له صفرة الموتى أسى على خبر رحيل والدته.

*****

في البيت حركة غير عادية رغم أن الأشخاص لم يتغيروا الدكتور " صليب " والسيدة " جورجيت " زوجته يتضاحكان مع والدتها ويتضاحكان مع والدها يروحان ويجيئان إلى أن جهزا حقنة جديدة وغرسها في ذراع أمها... يوماً بعد يوم تتحسن صحتها وتتباعد الأزمات عن بعضها منذ أن وصل إكتشاف " البنسلين " إلى الدكتور " صليب " و" رشيقة هانم " في تقدم

ملموس حاولت أكثر من مرة أن تعرف من الدكتور إسم الحقنه وذلك المحلول الدي يخلطه ثم يحقنها به إلا أنه كان في كل مرة يمتنع عن أن يبوح لها بإسم الدواء ولما أعياها السؤال أكثر من مرة إتفقت مع " مبروكة " التي تعمل في البيت وتقيم في الحوش الخلفي للمنزل مع زوجها " إبراهيم " أن تسارع إلى أخذ الأنبوبة الزجاجية الفارغة بعد أن يسحب ما فيها كأنها تنظف المكان وتحتفظ بهذه الأنبوبة إلى أن ينصرف الطبيب ثم تحضرها لها... ولما قرأتها عرفت إسم الدواء بأنه " البنسلين " .

تنزل كثيراً الدور الأرضي وفي أحياناً أخرى تطلع أكثر من مرة إلى مكتب والد " سعاد " إما ترتبه أو تأخذ كتاباً تقرأه كأنها فرحة بصحتها وقدرتها أن تطلع وتنزل .. تطلع الدور الثالث بسبب وبدون سبب وكأنها في سباق مع "مبروكة " الخادمة.. تفتح حجرة عم " سعاد " ترتبها وتأخذ الغسيل.. تعيش أزهى أيامها. لقد شُفيت وقد تهاجمها الأزمة الربوية مرة واحدة كل شهر أو شهرين إلا أنها الآن تتنفس بإرتياح ولا تصدر أصوات من صدرها ورغم هذا ظل ينقص " سعاد " نوع خاص من العاطفة ظلت والدتها غير قادرة على إعطائها إياه.

*****

حتى بعد أجازة نهاية العام كان لمدرستها نشاطاً صيفياً ولكن التلميذات الكبيرات مشغولات عنها لا تدري في ماذا تقترب من إحداهن وتحاول أن تناوشها لتلعب معها إلا أنها لم تجد أي إستجابة كن مشغولات تماماً كل ما فهمته أن ميكروفون المدرسة المتصل بالراديو يذيع مارشات عسكرية فقط والأستاذ " فهيم " مدرس الحساب يجيئ ويروح أمام باب الناظرة وهومقتضب الحاجبين عابس الوجه أما الأستاذ " نظيم " مدرس الأحياء الوسيم فيتحلق حوله التلميذات الكبار يتكلمون معه نفذت " سعاد " بين أرجلهن ووقفت لصيقة بالأستاذ " نظيم "عرفت سبب قلقهم بسبب توالي المارشات العسكرية وفوق هذا نصح الأستاذ "

نظيم " الطالبات بالعودة السريعة إلى منازلهن ومتابعة ما يُعلن عن طريق الإذاعة فالأمر يستدعي أن يعُدن إلى بيوتهن الآن وفوراً فربما تمتلئ الشوارع أو تقوم مظاهرات أو.... أو... أو.......عادت " سعاد " إلى بيتها على وجه السرعة كما نصحتها بذلك الطالبات الكبار ودخلت بيتها وهي تعبر حجرة السفرة التي بجوارها الطقم الأسيوطي البني فوجئت بوجود والدها يجلس على الكنبة وتجلس بجواره والدتها وما أن رآها إلا وأشار لها بعدم الكلام لأنهما يستمعان إلى الراديو وينتظران شيئاً هاماً إنسحبت " سعاد " إلى الحديقة الصغيرة في واجهة البيت وأمام أحد الأحواض كانت تُتابع فراشة بيضاء وهي واقفة إذ سمعت صوتاً يُعلن تنازل الملك " فاروق " عن عرش مصر لإبنه " أحمد فؤاد " وأنه أخذ اليخت المحروسة متوجهاً إلى الخارج وأنهم أطلقوا إحدى وعشرين طلقة تحية له قبل رحيله لا تدري ما هذا التل من الهم الذي قبع داخل قلبها الصغير رغم أنه دائماً ينظر إلى الصغار على أساس أنهم لا يعون الكثير من الأمور التي تدور حولهم ويكون الواقع مغايراً لهذا التقدير تماماً فإنهم وإن كانوا لايعرفون التفاصيل الدقيقة إلا أنهم يشعرون.. يفرحون ويألمون مهما كانت أعمارهم صغيرة . فبدت " سعاد " رغم سنوات عمرها الإثنى عشر مهمومة .. مهمومة وفي عينيها غلالة متجمدة من الدموع ترى من خلالها أحواض الورد بزهورها دامعة هي الأخرى حتى الفراشة التي كانت تجري ورائها إقتربت وحطت على كتفها ولم تتحرك من مكانها.. الحزن يملأ قلبها فقد غنت للملك " فاروق " بالمدرسة أيام زواجه بـ " ناريمان " ومازالت أغنية " ناريمان.. ناريمان سعدك هلّ وعزك بان " تدُق في رأسها وعت كذلك أن خروج الإنسان من بيته أو تنازله عن هذا البيت لا شك أنه يحدث له قهراً.. مع كل نفس كان يمتلئ صدرها بمزيد من الهم والضيق.. تسح الدموع من عينيها وتحاول أن تداريها بالمكوث الأطول في الحديقة الصغيرة.. تتشاغل بالنظر إلى الأحواض تلمس الزهور بأصابعها.. تعطي لنفسها عامدة فرصة حتى تجف

دموعها وينزاح الهم عن قلبها حتى لا تراها والدتها أو والدها ودون أن تشعر وجدت اليد التي لا تخطئها تشدها إلى حضنها تضغط عليها بحب الدنيا كلها.. فأستكانت بين ذراعيها وأطلقت لنفسها العنان في البكاء حتى أن جسدها كله كان يهتز هزات قوية ومتتالية.... من قال أن الأمهات يشغلها أي حدث عن الإحساس بأبنائها .

*****

إنتبهت " سعاد " من إستغراقها الطويل.. وتوالي الصور لمراحل طفولتها المختلفة إنتبهت إلى أنها مازالت على جلستها في المستشفى ثم أفاقت أكثر على صوت وليد يبكي قامت منتفضة نظرت في ساعتها كانت الخامسة صباحاً رجلاها منملتان من أثر طول الجلسة. لم تلحق أن تضع قدميها في حذائها إنما جرت ناحية مصدر الصوت في إتجاه حجرة الأطفال وكلما إقتربت علا صوت البكاء.. فتحت الحجرة وإتجهت إلى سرير حفيدها وهي تقول " كل ده صوت يطلع منك وإنت مولود من ساعتين " إبتسمت لها الممرضة فأكملت " سعاد " " واخد صوت جدته لأبيه " ثم ذمت شفتيها بعد أن تفوهت بمكنون نفسها وأستأذنت الممرضة في أن تحمله إبتسمت لها وهي تقول بأن هذا غير ممكن بل أن وقفتها في الحجرة غير مسموح بها لأن حجرة المواليد مُعقمة.. سألتها لماذا يبكي. أفهمتها الممرضة لأنها أيقظته عمداً أولاً ليشرب ماء بسكر وثانياً لإجراء تحليل صغير جداً لأن الطبيب سيُجري له عملية الطهارة بعد ساعتين جزعت " سعاد " وتركت الممرضة تحمل الصغير وإتجهت خارج الحجرة وكل جسدها ينتفض من فكرة عملية الطهارة. الإحساس يملؤها بأنه كمخلوق آت إلى الدنيا من دقائق.... فها هو يبدأ أولى خطواته في مواجهة ضراوة الحياه فيقطعون جزءاً خصوصياً منه. وعادت مرة أخرى إلى جلستها على الأريكة وهي تعي أن وقتاً طويلاً مر عليها وهي تسترجع مواقف كثيرة من طفولتها قبل أن تسمع صوت الوليد.. على أطراف أصابها ومازالت حافية دخلت تطمئن على " منى "

حبة قلبها .. كانت أكثر إستغراقاً في نومها.. تمنت أن تُجرى عملية الطهارة وهي نائمة حتى لا تألم على طفلها.. شدت الباب خلفها وإتجهت إلى الكنبة ترتب نفسها وضعت رجليها في الحذاء.. إرتدت مشد صدرها.. مشطت شعرها ومشت في البهو الخارجي.. وجدت الجرائد.. سحبت إحداها وعادت أدراجها إلى الكنبة.. وضعت الجريدة جانباً وعادت تمشي في البهو إلى أن وصلت إلى المطبخ طلبت فنجان شاي وعادت سعيده به. شربته دون أن تتصفح الجريدة ثم قامت مرة أخرى تطلب فنجاناً آخر.. حضر زوج إبنتها في حوالي السابعة وبالضرورة بجواره والدته تتمرجح في مشيتها .. رحبت " سعاد " بهما وكررت على مسامعها " مبروك ويتربى في عزك " إنتشت أمه وظلت تهمس بآيات من القرآن الكريم وهبطت فترة صمت عليهم... دقائق صامته قطعتها " سعاد " بقولها.. " أظنك فرحان لأن المولود ولد " إنبرى من فوره يقول لها بأنه كان يتمناها بنتاً لأن البنت حبيبة أبيها. تعجبت بصوت مسموع وهي تقول " كل شيئ تغير في هذه الدنيا.. زمان كان الأب يفرح بالولد دلوقت عايزين البنت ".. تداخلت أمه " أصيلة هانم " وهي تهز رأسها هزات مستعرضة خفيفة وتكسر إحدى عينيها وتمط من شفتيها وهي تؤكد " كل اللي يجيبه ربنا كويس.. المهم يعيش.. والبنت تبقى تحصل الولد " همست " سعاد " لنفسها دون صوت " البنت تحصل الولد كأنهم يريدون من إبنتي أن تكون ماكينة تفريخ دون النظر إلى صحتها " ورغم هذا لم تدرى لماذا شعرت بصوت حماة إبنتها فيه قدر كبير من التحدي وتبادل كسر عينها اليسرى مع كسر عينها اليمنى أعطى " سعاد " الإحساس بأنها تكن لها شيئاً إما مؤلماً أو ساخراً سيعذبها ويحرق دمها.. فسقط قلبها في رجليها وهي على جلستها وتشاغلت بأن عرضت عليهما أن يشربا معها الشاي .

دقائق أخرى ومر ترولي صغير فوقه حضانة من أمامهم فإنشد قلب " سعاد " بل شعرت أن قلبها يُقتلع من مكانه وقامت واقفة تنظر إلى الوليد من

وراء الغطاء الزجاجي الموضوع فوقه وعن يمينها روج إبنتها " أشرف" وعن شمالها أمه.. الغريب أنه عندما أوقفت الممرضة الترولي أمامهم لثواني بدى الوليد كأنه ينظر جهة " سعاد " بالتحديد.. يمشي بعينيه عليها.. لم تصدق نفسها وقالت " شايفة.. شايفة يا أصيلة هانم بيبص لي إزاي! " مصمصت شفتيها وهي تغمغم بأنها نظرات أو لفتات لا إرادية لا أكثر ولا أقل.. ثم غمزت إلي إبنها بذراعيها من خلف وقفة " سعاد " والتي كانت في ذلك الوقت مشغولة بالتحديق في الصغير وإن لم يفوتها أنها شعرت بالحركة المتبادلة بينهما إلى أن سحبت الممرضة الترولي من أمامهم لتصعد به إلى الطبيب ليُجري الطهارة.. ولم تعد بعد " سعاد " إلى جلستها إلا وحماة إبنتها " أصيلة هانم " تشير لإبنها مرة أخرى كأنها تدفعه لكي يفصح " لسعاد " عن شيئ ما. نقلت " سعاد " نظراتها بين زوج إبنها وأمه فعادت مرة أخرى " أصيلة هانم " تشير إلى ولدها أن يتكلم فما كان منه إلا أن تأفف قائلاً " أوه يا أمي أنا معرفش الحاجات النسائية دي إعفيني من أن أقول لها " دق القلب من الأم " سعاد " وبدأت ترى الحجرة تدور من حولها.. الحوائط تتنقل في إثر بعضها فلقد ظنت أن الأمر يتعلق بإبنتها ورجتهم بصوت خفيض.. " ماذا جرى لمنى أرجوكم صارحوني.. أنا والدتها ولابد أن أعرف " إضطرب زوج إبنتها وهو يقول " لأ .. لأ منى بخير المسألة تتعلق بالبرنس اللي كنت عاوزاه ".. وأكملت أمه " آه ياست سعاد ياحبيبتي أنا كنت باقول بما إنك عايزة حاجة من جسم المولود علشان الحظ فأقترح أن نطلب من الممرضة أن تحتفظ لنا بالقطعة الزايدة من عملية الطهارة علشان تنشفيها يمكن تجيب الحظ ! " .

*****

" مال الناس قست قلوبها إلى هذا الحد؟ لماذا تؤلمني حماة إبنتي وهل ماتقوله صحيح أو ممكن؟... إن حقيقة الأمر أنهم يسكثرون عليَّ دائما أن أنتظر حظاً ما أو أي نوع من المجهول يمكن أن يلطف حياتي "... هذه هي المعاني

التي كانت " سعاد " تكلم نفسها بهـا بإحسـاس عظـيم بـالألم فقـد إلتقطـت " أصيلة هانم " حكاية " البرنس " الذي طلبته ولـن تتركهـا تسـتريح إلا إذا سفحت بكرامتها الأرض... الساعة تقترب من التاسعة صباحاً أيقظوا حبة قلبها وبدلوا لها ملابسها التي كانت ملوثة ببقع دماء ودقات قلب " سـعاد " تتسـارع وأنفاسها تتخطف وهي تعي أن كل هذه الدماء من إبنتها ليتها تستطيع أن تفديها بنفسها ولو قدمت شُريانها يُسيلون منه دمها نقطـة بنقطـة علـى أن لا تَمـس إبنتها.... فحصوا جرحها ثم قدموا لها الوليد لترضعه بعد أن أجرى جراحته.. الممرضة شديدة الصبر تدلك لها حلمة ثديها فتقشعر وتتكوم الحلمة فـي شـكل عُقلة الإصبح فتتناول قطعة شاش مغموسة في "البوريك " وتمسح عليها فتـزاد نفوراً من برودة سائل " البوريك " ثم تقرب فـم الوليـد ناحيتهـا.. أعـادت الممرضه هذه المحاولة أكثر من سبع مرات وفي كل مرة كان الوليـد يخـرج لسانه ويدفع الحلمة بعيده عن شفتيه فما كـان من " منى " إلا أن تركته يسـقط عمداً من يديها إلى حجرها دفعة واحدة وهي تسحب صـدرها وتدخلـه داخـل قميصها فألجمت هذه الحركة لسان " سعاد " وهي تقول لها " لماذا إن المطلوب منك قليل من الصبر إلى أن يتعود الوليد " قاطعتها وبجوارها زوجها " إنه يدفع بلسانه الحلمة يبدو أنه قرفان ".. ضحكت " سعاد " من أنفها غضباً وهي تهـم بأن تحمل الوليد لتُعيد بنفسها التجربة فلم تقبل" منى " الأغرب أن زوجها يوافقها أما حماتها " أصيلة هانم " فكانت هادئة الأعصاب وهي تنصـح " سـعاد " أن تترك الوليد جانبا ولا تضغط على " منى " بالمرة ... لم تسـتوعب " سـعاد " محاسبة وليد لم يمر على ولادته ساعات فالأمر كله لا يتعدى في كونه أنه لـم يتعود على إستعمال شفتيه لأنه ببساطة كان يأكل دون شفتيه بل دون فمه كلـه تغذيته كانت عن طريق الحبل السُري! هذا ما حاولت أن تشرحة لإبنتها وزوج إبنتها " أشرف " ثم إلتفتت " سعاد " إلى أن تلملم أشيائها من الحجرة وأشياء " منى " الكثيرة حتى ينصرفوا كما أوصى الطبيب وغاب زوج إبنتها يحاسـب

المستشفي بعد أن إستأذنت أمه هي الأخرى ولم تنسى أن تمـرحج " لسـعاد " ردفيها كالعادة وهي تخرج... شيئ ما يعذب " سعاد " وتتساءل فـي سـريرتها عنه لماذا جو المستشفى في حدث مثل الولادة يخلق نوعاً من التحدي بين الأهل وكأنهم يتسابقون على شيئ ما.. الجو من حولها كله توتر بل هو أقـرب إلـى معنى الثورة مابين عصبية زوج إبنتها البادية في وجهه وكلماته وبـين تحـدي والدته سواء بالكلمات الموجعة أو النظرات المتهكمة وأخيراً بمحاولتها أن تكسب ود وثقة " منى " زوجة إبنها وطريقتها الوحيدة في ذلك تحدي " سعاد " ورفض كل ما تُشير به ويترتب على هذا بالقطع أنها لا تكون مخلصة لإبنتها في إبـداء المشورة لأن همها فقط أن توافقها الرأي لتكسب ودها " شيئ غير مفهوم ياربي في سلوك الجميع ".

*****

ما أن أوصل أمه إلا عاد وتناول شنطة زوجته بهمه ونشاط وحملـت " منى " الوليد أما " سعاد " فأمسكت في يـدها بعـض الأدويـة والروشـتات الكثيرة. وفي العربة جلست " سعاد " بجـوار زوج إبنتهـا " أشـرف " أمـا " منى " فإختارت الجلوس في الخلف وبجوارها الوليد في شنطة من المشـمع الأزرق عبارة عن سرير يُحمل باليد.. وضعته بجوارها على كنبة العربة... في الطريق عَطِس الطفل ثم أخرج صوتاً لا هو بالبكاء ولا هو بالغناء مجرد صوت لايفهم منه شيئ وفجأة إرتد سائل من فمه فصرخت " منى " إلتفتت " سعاد " على الصرخة وضغط " أشرف " على كابح العربة فتوقفت تماماً وقبل أن تسأل " سعاد " عن الذي يحدث كانت " منى " وزوجهـا " أشـرف " يتشـاجران بالتراشق بالكلمات ثم فجأة بدأ يلكمان بعضهما البعض لم تفهم الأم " سعاد " ما الذي يحدث ولكن بعد أن إنتهت تلك المعركة وعت أنهما إضطربا لأن الطفـل أنزل هذا السائل اللزج من فمه فأفهمتهما أنه ببساطة " كشط " بعضاً مما فـي معدته على عادة الأطفال وإستدار " أشرف " إلى عجلة القيادة وإعتدلت " منى

" في جلستها وقد أخذت الوليد بين ذراعيها... كانت " منى " تسكن فوق أمهـــا في شقة إستطاعت أمها بكياستها أن تأخذها لها من صاحب الملك بعد أن دفعت له مبلغاً بسيـــطاً.. دقائق غابتها في بيتها لتبدل ملابسها وتطمئن علـــى إبنـــها " كريم " الذي يصغر " منى " بسنوات قليلة لقد أوحشها وخاصة أنه لا قُدرة له بالمرة على تجهيز أي شيئ يؤكل لنفسه وهي لها أكثر من ثمانية وأربعـــين ساعة غائبة عن البيت بعد ذلك طلعت فوراً لإبنتها وقد أوحشها الصغير فعـــلاً فوجئت بإبنتها تجلس ونصفها العلوي عارٍ تماماً تحـــاول أن ترضـــع الصـــغير خبطت " سعاد " على صدرها وهي تقول " إزاي تخلعي كل هـــدومك وإنتـــي تُعتبري " نَفَسة " في أيامك الأولى بعد الولادة! " ضحكت الإبنة ونظرت إلـــى زوجها الذي كان أصماً في نظراته تجاه ما تقول ثم أكملت إبنتها " نَفَسة إيـــه.. وحُمة نفاس إيه.. ده كلام موضة قديمة.. الدُنيا حر.. وعلى العموم " وأشـــارت لزوجها أن يناولها قميص نوم بعد أن إيتعلت " سعاد " رد إبنتها بقدر غير قليل من الدهشة... إتجهت بكل الحب والشوق وأرادت أن تحمل الوليد بين ذراعيها فصرخت إبنتها وهي تنبه عليها بأنها لا تريده أن يتعود على أن يُحمل لأن هذا سيُتعبها مستقبلاً وأكد هذا المعنى زوجها... تركت الجميع في الحجرة وإن لـــم تُخف دهشتها وإنسحبت لتُعد لها وجبة الغذاء.. وقرب الظهيرة كانت تقدم لإبنتها الوجبة ساخنة وشهية. طلبت من " أشرف " زوجها أن ينتظر إلى أن تُطعمها ثم يأكلا سوياً في حجرة الطعام وافقها بأدب شديد وما أن بدأت تُســقيها ملعقتـــي شربة وبعد ذلك قطعة من صـــدر الدجاجـــة على ملعقة أرز إلا وصرخ زوجها " إيه ده يا طنط " وصرخت حبة القلب بالتالي " لا لا ياماما لا يمكـــن "... لـــم تفهم " سعاد " ما هو المقصود بكل هذا الرفض فلا يمكن أن تبدأ نظاماً غـــذائياً صارماً من ثاني يوم لولادتها! وحاولت أن تفهمها أن النظام الغذائي يُقلل إدرار اللبن كما أنه لايجوز قبل أربعين يوماً من الولادة و.. و.. قاطعتهـــا " منـــى " بقولها أن حماتها طنط " أصيلة " أكدت على ضرورة أن لا تأكل أي نشـــويات

حتى لا تفقد لياقتها لأنها لن تستردها بسهولة مرة أخرى. حاولت "سعاد" أن تقول أي كلام لإبنتها إلا أن حبة القلب أغلقت أذنيها بأن وضعت إصبعها فعلاً في أذنها لتؤكد لها أنها لن تسمعها أما "أشرف" فقد عقص رأسه يميناً وشمالاً وهو يؤكد على ضرورة أن تتبع الريجيم من اليوم الأول وخاصة أنه لا يطيق المرأة البدينة.

*****

شعور بالضيق حط عليها كلما أرادت أن تساعد بنتها أو الوليد بأي فعل تقابل برفضٍ قاطع.. فلا الإبنة تطيق أي توجيه منها ولا زوجها لديه صبر حتى ليفهم وجهة نظرها.. تساءلت " إذاً لماذا أنا هنا إن كانا لا يحتاجان إليَّ البتة لا في مشورة ولا في أي عمل " وعرفت أنهما يتمسكان بوجودها في شقتهما إلى " السبوع " على الأقل من باب الشكل المظهري فقط أمام أهل " أشرف " أما عملياً فهما في غنى عنها تماماً وربما لو سألت الوليد الجديد لتأفف منها هو الآخر فهمسبت لنفسها " هل الفارق العمري بيني وبينهما هو الدافع إلى مواقفهم هذه.. هل أنا أعيش في جيل لا يعرفني ولا أعرفه؟ " وفي نفس الآن ملأها اليقين أن هذا الإحساس لا يسيطر عليها ولا يداهمها وهي تتعامل مع إبنها الأصغر " كريم " شقيق " منى " ثم إنعصر القلب منها وعزت عليها نفسها وإمتلأت عيناها بالدموع وهي تتساءل " هل عشت أكثر مما ينبغي؟ " ولأول مرة تُقرر لنفسها أن الإنسان وهو يتقدم في العمر ويشعر بتغيير المفاهيم والقيم والناس من حوله.. في هذا منتهى الرحمة من الله على الإنسان لأن هذا التغيير نفسه هو ما يؤهله لقبول فكرة الموت غير آسٍ أو متأس من معنى الرحيل ثم تعود لتسأل نفسها " لماذا أنا مرفوضة من كليهما؟ ناهيك عن أصيلة هانم "... كل هذه تساؤلات إصطخبت في صدر وعقل " سعاد " وخاصة وهي تتذكر سلوك " أصيلة هانم " فهي دوماً توافقهما على كل إتجاهاتهما وآرائهما حتى لو كانت تؤكد الجهل أو الجموح! كيف تقبل بهذا وتساءلت مرة ثالثة " هل هي أكثر

فهما مني تستوعب كل جديد.. إنها ليست أصغر مني عمرا إذاً ما الذي يجعلها شديدة التقبل لكل ما أراه خطأً ؟ " وفهمت على مدى معرفتها الطويلـة أن مـا تفعله إنما هو منهج وسلوك إخطته لنفسها بناء على قناعتها الشديدة بأن الأبنـاء ترفض أي توجيه ولو كان صحيحاً من الأهل!........... الصغير وأمه نائمان والأب في عمله وهي جالسة وحدها في الصالة على كرسي عـريض يتصـدر المكان وقد تحولت إلى كتلة تنبض بالضيق الذي سقط عليها.. دق الهاتف فقامت لترد.. كان زوج إينتها يعتذر لأنه سيتأخر كثيراً " جرد " يُجـري اليـوم فـي الشركة ثم نطق بسؤاله الحار عن إينتها وعن إينه الوليد وقبل أن ينهي كلامـه المنمق كان يسألها بكل أدب " هل تأمريني بشيئ.. هل تطلبين شـيئاً " كانـت تتمنى من قلبها أن تستطيع أن تقول له ليتك تعي ولو جـزءاً مـن كلامـي ولا ترفضه بصفةٍ دائمة.. عادت إلى جلستها على الكرسي وقد إشتعل الضيق أكثر وأكثر داخلها وهي تحدث نفسها " كانت لي طفولة بعيدة عن كثير مـن معـاني الفرح أو الإحساس حتى بالأمان والآن بعد أن تعديت الخمسين مازالت الراحـة تخاصمني فها هي إينتي وزوجها لا يطيقان مني كلمة " .

*****

على جلستها في شقة إينتها والشريط يدور كعادتـها داخـل رأسـها " لماذا أتذكر كل أحداث عمري ياربي " تبتسم وهي توقن أنها كمخلوقة تعتبر نفسها خارقة القوة فقد عبرت مواقف وأحداث كثيرة منذ طفولتها.. تؤكد لنفسها أن الإنسان بنفس هذه الصلابة سيعبر يوماً ما الطريق الرفيع الذي يفصل الدنيا عن الآخرة " هناك ساقف شُجاعة صبورة وأنا أنتظر لحظة العبور تلـك " ثـم ضحـكت بصـوت مسمـوع وهـي تقـرر لنفسها " حتى أنني لـو سُـئلت لإخترت نفس أقداري مهما كانت " ومرة أخرى تفكر " هـل فـي إسـترجاع الماضي معنى الرغبة في تكرار المعايشة.. هل خُلق العقل بطبيعته قادراً علـى عدم النسيان بل يعشق الإجترار......... لو أن هذا الجُهد الذي أبذله في التذكر

كرسته لعملٍ آخر لبُنيت ناطحة سحاب وآه لو كنت حاصلة على شهادة أو كان لي مركز في المجتمع لكنت صنعت المعجزات.. دوماً الذكريات تداهمني وتفاجئني فأنا لا أستجلبها عمداً إنما هي تقتحمني وتفرض أحداثها عليَّ مرة أخرى "... وعادت لتتسائل مرة أخرى " وهل كانت ستتركني منى " بمشاكلها لأعمل ما أريد أو يتركني " كريم " بدقة طلباته وإحتياجاته للرعاية والمشاركة والمسامرة.. متطلباتهم لا تنتهي حتى أنني لا أجد الوقت لممارسة هواية الرسم التي أعشقها "... ووجدت نفسها لاإرادياً تغوص مرة أخرى لتتذكر من طفولتها أنها كانت شديدة اللهفة على فكرة التعلُم تمضي أسعد أوقاتها في مدرستها وفي يوم كابنت تجلس كعادتها على رجلي " جهاد القسام " الفلسطينية لتسألها أن ترسم لها الخريطة المطلوبة لمادة الجغرافيا.. أجمل لحظاتها والطالبات الأكبر يشرحن لها كثير من دروسها وكأنها بذلك تؤكد فكرة أن من يربي الصغير لابد أن يكون صغيراً هو الآخر فالفارق العمري بينها وبين الأخريات لا يزيد عن الثلاث سنوات. في ذلك اليوم كانت الطالبات يتحلقن حول " جهاد " يسألنها عن إبن عمها إذ بها تبكي وهي تحكي لهن بأن إبن عمها " وليد القسام " جُرِح وهو يقوم بعملية فدائية ضد اليهود في " فلسطين ".. عرفت منها " سعاد " صعوبة حياة الفدائيين وأنهم يعيشون دوماً يحملون أكفانهم على أيديهم لأنهم لا يعرفون مستقبل الدقيقة المُقبلة... حكت لها حكاية الأرض التي سلبوها منهم فأصبحوا يتامى بلا أم فالأرض هي الأم الأولى وهي الحضن وهي الماء.. أفهمتها أن والدها " الشيخ القسام " كان دائم القول بأن فلسطين كان يمكن لها أن تكون طوائف مثل " لبنان " بل إن هذا كان محل مناقشة قبل عام ١٩٤٨ على أن يكون رئيس " فلسطين يهودياً "... ثم تنهدت " جهاد " وهي تقول أيضاً بأن والدها وزملاءه كادوا أن يقبلوا بهذا الحل إلا أن القوى العالمية المتربصة وهي إنجلترا بالذات وقفت عائقاً في هذا الحل وكذلك أمريكا أيضاً ثم قالت لها بأن " الملك فاروق " في ذلك الوقت رفض أيضاً فكرة تدويل " القدس "... تعلمت

" سعاد " معانٍ كثيرة وهي تسامرها.. وكأن " جهاد " الفلسطينية تْعبأ التلميذات عن قصد ليفهموا قضية فلسطين... بكت معها " سعاد " ومسحا دموع بعضهما وهي تعترف لها أن " وليد القسام " إبن عمها هو زوج مستقبلها من تريد أن تقضي باقي عمرها معه هناك.. هناك حتى لو كانت الحياه في خيمة .. وفي يوم لم تأت " جهاد " إلى المدرسة وفي اليوم التالي لم تأت أيضاً وفي ثالث يوم كان الخبر معروفاً فقد إستُشهد إبن عمها ولم ترها " سعاد " بعد ذلك اليوم مرة أخرى وإن عرفت بعد أكثر من عشرين سنة أنها تعيش في أمريكا ولكنها لم تعلم إن كانت قد تزوجت ولها أولاد؟ وهل مازال لها علاقة بالفدائيين؟... تذكر في هذه الأيام أن والدتها " رشيقة هانم " تطوعت في حملات التطعيم ضد الكوليرا بعد أن شفاها الدكتور " صليب " عن طريق الإكتشاف الجديد ولم يفلت من يدها في ذلك الوقت أي عابر إلا وطعمته كعمل مُكلفة به من مبرة الأميرة " فريال " التي إنضمت إلى عضويتها بعد أن شفُيت.. فقط من هزمتها وإستطاعت أن تفلت منها هي الراقصة " تحيا كاريوكا " بعد أن عبرت الخط حيث وقفة " رشيقة هانم " وبجوارها إثنان من العسكر وبعد أن أكدت لها الراقصة أنها تناولت التطعيم في مكان سابق على وقفتها... إلتفتت إليها وأخرجت لها لسانها والعربة تبعد عن مكان وقفتها .

*****

حماة إبنتها ستزورها هذا المساء ففضلت أن تمضي هذا الوقت مع إبنها تحيطه بنوعٍ ما من الرعاية.. معه تكون على سجيتها تحكي بعضاً من مكنون نفسها دون قلق.... أوحشتها الألوان والمعاجين التي تهواها.. أكثر من فكرة للوحة جديدة في عقلها.. الأسابيع توالت إثر بعضها بعد حدث الولادة الكبير والأفكار والألوان تملأ رأسها إلا أنها تعطي إهتمامها الأول لإبنتها. كمن أحس " كريم " بدخيلتها فقال فجأة " الولادة كمعنى يا أمي لابد أنه أوحى لك بالكثير " إستوعبت " سعاد " ووصلها شدة إحساسه بها فخرجت منها الآه وهي تقول :

" بالفن فقط أنا أعيش.. الفن ليس عزاء بالنسبة لي يا كريم من الوحدة مثلاً ولا هو مصدر رزق وإن كان كذلك في الواقع .. إنما هو الحياه بكل ما فيها " فرد عليها" تقصدي أنك تعيشين عندما ترسمين وأي حدث آخر تتعايشين معه فقط".. قامت واقفة تحتضنه فقام من فوره وضعت رأسها على صدره وهي تهمس " لا شك أنني أعيش حين أكون معكما ".. حدق فيها وهو يقول " أوحشتني حكاياتك وانت صغيرة.. أنا أتعلم منها الكثير ".. نظرت إليه فازداد إصراراً وهو يقول :" آخر ما حكيتي لي كان عن الملك فاروق الذي رفض تدويل القدس وعن حرب فلسطين عام ١٩٤٨ وأخوك الذي إستشهد يا أمي ".. إبتسمت وقد تجسد على قسماتها حزن شفيف ثم سيطرت على نفسها بسرعة " أنا عشت أكثر من حدث هل حكيت لك عن زيارة أول رئيس لمصر بعد أن أصبحت جمهورية بمدرستي وأنا صغيرة... وبدأت تسترجع ذكرياتها لتبدأ من أن اليوم هو موعد زيارة الرئيس " محمد نجيب " لمدرستها الكل مشغول منذ أكثر من أسبوعين في عمل البروفات لما ستقدمه المدرسة من موسيقى وغناء و" سعاد " مشاركة لكل ما سيقدم تزرع نفسها في قلب كل النشاطات.. وكانت والدتها" رشيقة هانم" سعيدة لشدة إنشغالها فهي تؤمن بأن الفتيات طاقة لابد أن تستنفذ أول بأول حتى لا تفكر في أي شيئ آخر... أرهقت " سعاد " نفسها بكثرة التدريبات والمشاركة كذلك في تنظيف الفصول.. وجاء يوم إنتظار المدرسة للرئيس " محمد نجيب " دخل فعلاً وكان مهيباً وبجواره ويتخلف عنه خطوتين ضابط آخر عرفوه في المدرسة بأنه الصاغ " صلاح سالم ".. الناظرة كانت في أبهى مظهر لها وبجوارها الوكيلة.. بعد أن إنتهت مراسم الإستقبال وبعد أن عزفت فرقة موسيقى المدرسة السلام الجمهوري وعرفت " سعاد" يومها أن الملك " فاروق " الذي حزنت عليه حزن الدنيا حين أنزلوه عن عرشه هو بنفسه الذي طلب هذا السلام الجديد بدلاً من السلام الملكي وكأنه كان يستعد لقيام الثورة فقالت"سعاد" لنفسها " ربما لم يألم بالدرجة التي تصورتها والتي أحزنتني ما دام كان يتوقع

أحزنتني ما دام كان يتوقع قيام الثورة ".. وجلس الرئيس " محمد نجيب " في الصف الأول وبجواره مجموعة من الضباط وأبعد منه قليلاً يقف أكثر من رجل. عمالقة في أجسادهم لم تفهم " سعاد " لماذا يقفون ولم يجلسوا بدورهم وبدأت عروض الحفل و " سعاد " تشارك بالرقص التوقيعي تارة والتمثيلي تارةٍ أخرى في مسرحية " كفاح الشعب " ومدرستا الموسيقى والألعاب الرياضية تقفان خلف المسرح. كان هذا اليوم مخصصاً للعرض أمام الرئيس"محمد نجيب" وأعضاء وزراة المعارف ومنهم عدد من المفتشين.. في نهاية الحفل كان على بعض التلميذات تقديم الورود إلى الرئيس والسلام عليه مع أداء إنحناءة صغيره على طريقة تحية المسرح. ما أن إقتربت " سعاد " من الرئيس وهي تسلم عليه إلا وشعرت بدوار شديد وتعثرت في وقفتها ووقع منها طوق الورد الذي كانت ستقدمه للرئيس فما كان منه إلا أن لاحظ هذا التخبط فقام وهو يُربت على رأسها ويقول : " الله مش تشدي حيلك وتجمدي " ثم أمسكها من كتفها وأجلسها بجواره. توقف الإحتفال دقائق وأبله الناظرة قامت بنفسها لتأخذ " سعاد " ولم ينسى الرئيس أن يُربت على ظهرها وهي تمسك يد الناظرة ثم عاد الإحتفال من جديد إلى خطواته المحسوبه.. وعلى مدار أيام قليلة بعد ذلك كان سلوك الرئيس تجاه " سعاد " مسار حديث حتى أن الناظرة كلمت والد " سعاد " تليفونياً وحكت له قدر الحنان الذي تمتعت به إينته والإهتمام العظيم الذي حظيت به من جانب الرئيس " محمد نجيب " .

إبتسم " كريم " وأغمض عينيه أكثر من مرة وفتحهما كأنه كان في حلم من أثر حكاوي أمه التي يعشقها وفاجأها " هل كنت تحبين محمد نجيب.. جميل أن تعيشي عصوراً " ردت " كلنا كمصريين كنا نحب محمد نجيب وأعتقد أن من ضمن الأسباب كما قالت لي أمي أن أحد والديه كان سودانياً ومن قديم كان لكل المصريين أنساب سودانية.. نحن نحبهم بالجينات الموجودة في دمائنا.. ولا تسألني لماذا أطاحوا به.. ربما دماؤه السودانية كانت تفرض عليه إتزاناً ورحمة

بالآخرين بل إن شدة إحساسه بالعدالة كذلك والتي كان يفضل معها أن ينتهي دور العسكريين بخلع الملك وترك الأمور لأولي الأمر بعد ذلك " صمت " كريم " لبرهة ثم تابع " أمي إحكي لي حتى عصر أنور السادات الذي نحن فيه ".. قامت من الكرسي لتعد لنفسها فنجان قهوة آخر.. تذوقت رشفة منه وإبتسمت إستعداداً للفلفة جزء جديد من شريط حياتها وبدت أنها سعيدة فلا يمكن أن تنسى خطوات ومراحل أهم ما في حياتها تحكي له وهي تقف في حديقة بيتها تجمع بعض زهرات الياسمين وتنتظر نزول أمها لأنها سمعتها تكلم والدها بأن لديها مشواراً إذ وجدت عربة تقف على باب بيتها عرفت فيها عربة جارهم"عاصم الناظر" الذي كان له شقيقتين من الأخوات المسلمات. قاطعها " كريم ".. الله.. الله أبويا تقصدي... المهم أنه نزل وكان يحمل بين يديه " سميطتين " مستديرتين مفرغتين من الوسط.. رائحة الخبيز وصلت إلى أنف " سعاد " ذكرتها برائحة " البتاو " القديمة أيام جدتها.. أزاح الباب الحديدي الصغير ودخل وفي الوقت نفسه كانت أمها تقترب هي الأخرى بخطواتها قادمة من داخل البيت إلى الحديقة وكان موقع " سعاد " بينهما وقبل أن تسلم الأم عليه كان يمسك بيده إحدى " السميطتين " ثم تناول ذراع " سعاد " باليد الأخرى وهو يدخل فيها السميطة ويقول " أنا بشبك بنتك يا أبلة رشيقة " ثم إلتفت وهو يقول مرة أخرى " تتجوزيني يا سعاد " لم تشعر " سعاد " بأي إحساس إلا أنه تلبسها قدر من اللخبطة فلم تعرف هل توافق؟ هل تضحك؟ هل تخاف من والدتها التي بدت في أحسن حالات رضاها كاشفة عن ثغرها في إبتسامة أكيدة.. أزاحت عنها أمها هذه اللُجة من الأفكار التي تتخطفها وهي تأمرها أن تطلع لتُبدل ملابسها وتأتي معها في مشوار صغير.. فرحت بالمشوار وطلعت السلالم قفزا.. ونزلت بعد أن بدلت ملابسها بذلك الثوب الأزرق الذي أعطته لها أمها يوم أن نجحت... بدى على " رشيقة هانم " أنها راضية عن إختيارها للثوب... ركبوا العربة الأم بجواره و" سعاد " في المقعد الخلفي وفي الطريق لاحظت " سعاد "

أن صورتها منطبعة في المرآه أمام جارهم. لمحت نفسها في نظرتين خاطفتين كان شعرها مشدوداً إلى الخلف في " ذيل حصان " وشعر مقدمة رأسها يناوش جبهتها.. ثوبها الأزرق لا يبدو منه إلا جزؤه الأعلى والذي من الحرير الأبيض وهم في الطريق إشترى لها الجار عقداً من الفل وقدمه لها فرحت به وتشممته أكثر من مرة ثم لفته على ذراعها ولم تعرف إلى أين سيتجهون.. عند إحدى المحلات كانت أمها تنزل طلبت " رشيقة هانم " من " سعاد " أن تبقى في العربة وإلتفت " عاصم " ليكلمها.. لمس ذراعها أكثر من مرة وهو يربط لها عقد الفل من حول مرفقها سألها إن كانت تحب الفل.. قبل أن تجيبه وعت إلى أن لمساته المتتالية لذراعها منحتها شعوراً ما لم تعرفه من قبل.. بحلقت في كفيه ومازال يحبك عقد الفل حول مرفقها و " سعاد " لها الشعور باللذة السابقة وقد إزداد عليها نوع من القشعريرة في كتفيها... هل تتخطف الأنفاس منها.. لم تتصور هذا لعلها " شرقه " فسعُلت أكثر من مرة فقال لها " سلامتك يا سعاد لابد حد جايب في سيرتك " فإزدادت إمتناناً وسعُلت من جديد فقال لها مرة أخرى " سلامتك " فسعُلت مُتعمدة للمرة الثالثة وقبل أن يقول كانت والدتها تأتي من عمق المحل وهي تجري وحين وصلت إليهم في العربة كانت تُشير لهما أن ينزلا فوراً.. تغير لون وجه " سعاد ".. وقال لها " عاصم " " يالله.. يالله يا سعاد " وفي ثوان كانا في الشارع والأم تسبقهما مرة أخرى إلى داخل المحل وقرب مذياع موضوع على رف وقف الثلاثة مع جمهرة أخرى من الناس يستمعون إلى عبارة " إن مات جمال أو قُتل جمال فكلكم جمال عبد الناصر.. كلكم جمال عبد الناصر " على وقفتها كانت الدموع تنهمر من عينيها في صمت ممزوج بألم أعادها إلى يوم وقفتها في الحديقة والراديو يُعلن عن رحيل الملك " فاروق " يومها توقفت حتى الفراشة التي كانت تطاردها على كتفها.. ثم عرفت ألم أقصى حين عزلوا الرئيس " محمد نجيب " وهاهي تتعذب من جديد لمحاولة قتل " جمال عبد الناصر "... بدأت

الجموع المحتشدة حول المذياع تتفرق.. حدث هــرج ومــرج مــن التعليقــات والهتافات هنا وهناك.. وعلا نشيج " سعاد ".. تخطفت أنفاسها وأخيراً صرخت باكية " أنا مش عايزة أعرف حاجة من الأخبار.. الأخبار وحشة جداً يا أمــي " فإحتواها " عاصم " بين ذراعيه وظل يُربت على رأسها بينما " رشيقة هــانم " زائغة البصر.

*****

لا يعرف المرء قيمة الطبيب إلا حين يحتاجه لأولاده واليوم موعــد حبــة القلب " منى " لتعاود طبيبها ليرى جُرحها ومدى عملية الإلتئام. كانت قشعريرة ورعشة غير مرئية تمسك بجسد " سعاد " تنظر في ساعتها تحســب الثــواني لموعده.. تلف حول إبنتها تقضي لها كل شيئ سواء طلبت أم لم تطلــب ولــو إستطاعت أن تُرضع الصغير عنها لفعلت وأخيراً تفوهت بما يدور فــي ذهنهــا " والله... زمان كانت الأم ترضع إبن بنتها لأنها.. " فقاطعتها " منى " ساخرة " دي تبقى مهزلة.. دي تبقى نُكتة " إبتلعت " سعاد " عبارتها وشعرت أنها حين تكلمت إنما تفوهت بعاطفتها وأين هذا الزمن فعلاً الــذي كانــت فيــه الأم تُجب مع إبنتها.. إن أبناء اليوم لا يسمعون إلا الكلام العقلاني الأقــرب إلــى العلم.. بدى عليها أنها شعرت بنوع من الندم والخجل مما قالت فتشاغلت بتجهيز حقيبة صغيرة للوليد تحاول أن تركز عقلها لتضع له " غيارين " وغطاء قطن... قطعت تركيزها إبنتها " منى " وهي تقول لها : " إنت خيالية لأنك فنانة مثــل والدك تعشقين الرسم فتعيشي بخيالك في أزمنة وعصور ربما من أيــام الجنيــه الجبس .. ها .. ها .. ها " هبة ساخنة من الخجل لفحت وجه الأم... وقبل أن ترفع رأسها عن الحقيبة التي تجهزها كانت " منى " تُكمل " حماتي بتقول عنك إنك فنانة خيالك واسع " نظرت إليها " سعاد " وهي تفكر في كلامها إلا أنهــا إسترسلت تقول أيضاً " بطلي.. بطلي ياماما الأفكار الخياليــة لإنــك كســفتيني وفضحتيني من حكاية البرنس اللي قولتيها في المستشفى. إيه الكلام التخريف ده

ردت الأم بعصبية " هي حماتك لسة فاكرة ما أنا عارفه إنهــا مــش هاتسـيب الحكاية مُطلقاً " ردت عليها الإبنة بجفاء " ألم تعلميني أن أفكر في كل كلمة قبل أن أتفوه بها .. حماتي معها حق " .

غريزة الأمومة غلبت عليها فنظرت إلى إبنتها بنوع عظـيم مــن الشـفقة المغموسة بالحب الكبير فقد خافت عليها من أن تتطور المناقشة بينهما وتنتهـي بان تثور ويتغير دمها قبل أن تذهب إلى الطبيب وهي تعرف عصبية إبنتها ... حملت عنها الوليد " شادي " وفي العيادة ظلا جالستين إلى أن جاء دورهــا.. إنتفضت " منى " واقفة فوقفت الأم وهي تحمل الطفل بسريره الصغير وخطت خطوة واحدة وراءها ولكن " منى " أوقفتها مكانها وهي تُعلن لها رفضـها أن تدخل معها وقبل أن ترتسم معاني الدهشة على وجه الأم كانت إبنتها قد توارت خلف الباب.. سقطت الأم جالسة تضع يدها على خدها وقد وضعت بجوارهــا الوليد بسريره ثم غرقت في تخوم من التساؤلات والذكريات . في أيامها كانـت تلتصق بأمها في مثل هذه الظروف أما اليوم وكأن لا قيمــة لــلأم لا تحتاجهــا " منى " ولا تتكئ على حبها أو خبرتها. أعطاها هذا الفهم بأنه يتسـاوى عنـد إبنتها أن تكون حية تُرزق أو أن تكون تحت الثرى ميته... في البداية عز عليها هذا الشعور الغريب وبعد فترة قصيرة أحست أنها لم تطلب منهــا أن تحضـر معها إلا لتحمل " شادي " الصغير ورغم ذلك رفضت هذا الفهم وحملت سـرير الطفل مرة أخرى ودخلت الحجرة دون أن تطرق الباب كان الطبيب قد إنتهـى من الكشف وهما الآن يجلسان في حجرة جانبية هو خلف مكتبــه وهــي أمــام المكتب.. تقدمت الأم وجلست هي الأخرى قبالة مكتب الطبيـب مــن الطــرف الآخر وإشرأبت بعنقها إليه ولما رفع وجهه من على الروشتة التي يكتبها قالـت له " أنا أم منى طمني يا دكتور.. " رد عليها " بأهلاً وسهلاً " إلا أنه إلتفت إلى " منى " يشرح لها حالة الجُرح ويصف لها كيف تأخذ الدواء وتجاهل هو الآخر أن يوجه لها أي كلمة حتى تراخت وعادت إلى الوراء في كرسيها وهو يُكمـل

كلامه " لمنى " شعرت الأم أن هناك تشابهاً بينه وبين " أصيلة هـانم " حماة أبنتها.. أيقنت أنهما يعاملان " منى " بما يعجبها وما يؤكد إستقلاليتها المُطلقة وكأنها لا وجود لها وكأنهما يقولان لها " أتركيها فهذا زمانها ".. ظلت تتقوقع على نفسها وكأن حجمها يصغر ويتضاءل والدكتور مُنخرط في حديثه مع إبنتها تستفسر مرة أو تضحك مرات حتى فقدت الأم القُدرة علـى سـماع صـوتيهما فكانت ترى الدكتور يفتح فمه ويُغلقه ولا تسمع كلمة منه أو من إبنتها إلـى أن أخرج الصغير صوتاً كأنه إستيقظ فإنتبهت " سعاد " وقامـت تحمـل السـرير وتنسحب خارجة من الحجرة .

*****

دفعت المفتاح في الباب ودخلت.. شعرت بعدم قـدرتها علـى أن تخلـع حذاءها.. يطفح الضيق منها من تجاهل إبنتها وتجاهل الطبيب المتُعمد مهما كان دبلوماسياً وناعماً في مظهره.. دقات قلبها مسموعة في أُذنيها.. أنفاسها متخطفة لها معنى " النهجان المتلاحق "... هل ترفع سماعة الهاتف على الطبيب لتلومه على تجاهلها؟ ولما لا؟ فمهما كان فهو لايتعدى الأربعين " إلا أنه قليل التهذيب "... أم ترفع سماعة الهاتف على إبنتها وتطلب منها صراحةً بألا تُعاود الإتصال بها أو تطلبها لأي مشوار.. دمها يهدر في عروقها.. وأخيراً لا إتصلت بالطبيب ولا طلبت إبنتها إنما إندفعت تبتلعُ قرصاً مهدئاً.. في أغلب الأحيان تعجز عـن أن تعد لنفسها كوب ليمون بارد وتنتظر دقائق لتهدأ تدريجياً.. تمنت أن يكـون إبنها " كريم " موجوداً لإرتمت في صدره وعلى كتفه بكت الأكيد أنـه كـان سيقدم لها الليمون البارد إلا أنه ذهب الليلة إلى السينما وقد حاول إقناعها كثيراً أن تأتي معه " ليتني طاوعته " وتدريجياً بدأ مفعول القرص.. هـدأ نبضـها.. وتوقف عصب ذراعها الأيمن عن الدق.. إنزلقت وجلست في إسترخاء كامـل وإختارت بإرادتها أن تحتمي من ضيقها من إبنتها في أن تلفلف شريط مراحـل من حياة إبنها " كريم "...... كان طفلاً سريع الحركة.. مشى قبـل أن يُكمـل

عامه الأول بثلاثة شهور.. له عينان مُبرقتان وفي سواد حبة الزيتون.. تشعر أن شعره الأسود المُنسدل أغزر من أن تحتمله رأسه منتظمة الإستدارة.. كانت تحب أن تضع كفها على شعره لنعومة ملمسه ولم يكن يطيق يدها من كثرة حركته.. أول ما نطق نطق أصعب كلمة حينما قال " نعناع " إبتسمت برضا وهي تتذكر أنه فوق هذا كان طوال مراحل تعليمه متفوقاً يُحب العلم مثل والدها هي وكأنه ورث الجانب الأكاديمي من إهتمامات والدها وكانت أمها تقوم على متابعته ساعدها على ذلك تمام شفاؤها والأكثر أنه بعد إكتشاف " البنسلين " توالت إكتشافات " الحساسية " كعامل مسبب وقوي للمرض ثم بعدها المضادات الحيوية. حببت إلى " كريم " ملمس الكتاب والحفاظ عليه تحكي له القصص كما كانت تفعل معها وهي صغيرة ثم تحل معه مسائل الحساب حتى شب عارفاً لأصول عملية المذاكرة.. كان أجمل يوم في حياة " سعاد " يوم أن يقدم لها شهادته لتُوقع عليها.. ساعد على تفوقه الدائم دراسته في مدرسة يقوم على التعليم فيها جماعة من الرُهبان فكانت الدقة والصرامة الأساس في العملية التعليمية.. كانوا أيضاً يضيقون من كثرة حركته وسرعتها. إبتسمت وهي تتذكر أن أحد الآباء الرهبان ويُدعى " جورج " كان يشكو من أن إبنها " كريم " يدخل تحت جلبابه الأسود كلما أراد الإمساك به ويخرج من الناحية الأخرى بل ويُكرر الأمر مرات فينقلب الموقف إلى مشهد كوميدي فيضحك التلاميذ ومعهم المدرسين كذلك ولا يجد وسيلة معه إلا أن يكتب على شهادة الشهر بضرورة حضور والدته فتذهب " سعاد " لمقابلة الأب " جورج " الذي يُقرر لها بأن " كريم " حاد الذكاء.. سريع الفهم إلا أنه لابد أن يكُف على أن يدخل تحت جلبابه كلما أراد عقابه.. فكانت " سعاد " تغالب نفسها " بالعافية " حتى لا تضحك هي الأخرى يتداخل آخرون ليقرروا أن هذا بسبب سرعة حركته فهو كالبرق في تحركاته... ثم وصل إلى الثانوية العامة وكان الأول على منطقة القاهرة وسمح له مجموعه بدخول " الجامعة الأمريكية " قسم علوم سياسية

دون أن تدفع له مليما واحدا ولما كان تقديره في كل فصل بدرجة إمتياز فقد ظل هكذا لا تدفع له أمه مليما إلى أن تخرج وهي نفسها مدعوة بعد يومين فقط إلى حفل تخرجه حيث تُقيم " الجامعة الأمريكية " حفلاً كبيراً كتقليد معروف لها.

*****

تقف طويلاً أمام مرآتها .. تُدقق فيما إختارت من ملابس.. تُرتب شـــعرها الكثيف. كل آمالها في هذه اللحظة إختُزلت في أن يرضى عن مظهرهـــا إبنهـــا لدرجة أن يفخر بها وهو يقدمها إلى أساتذته وزملائه ولكنها للأسف لـــم تلحـــق الحفل من أوله إذ أنها تعرضت إلى حادث في الطريـــق كـــاد يـــودي بحياتهـــا وتعطلت العربة بها لأكثر من الساعتين وأخيراً إستعانت بعربة أجرة... دخلـــت القاعة بصعوبة وبعد مداولات مع حارس الباب وأول خطوة لها سمعت عبـــارة " لو أن هناك درجة أكثـــر مـــن مرتبـــة الشـــرف لمنحناهـــا إلـــى الطالـــب كريم عاصم الناظر " وهي تسمع كانت على يقين من أن هذه العبـــارة تخُـــص إبنها " كريم " حتى قبل أن ينطق بإسمه ودوت القاعة بالتصفيق... بعد الحفـــل وهي واقفة بجانبه يتحلق بعض الطلبة من حولهما. كل واحد يشـــد علـــى يـــده للعبارة التي قدمه بها العميد.. و" سعاد " تتلقى هذا النوع الشفيف من السلامات والتهاني . بين زملائه الطلاب كانت تقف على مقربة فتاة صغيرة قدمها "كريم" لها على أنها زميلته " هالة عبد المطلب " إبنة السياســـي المعـــروف.. تقـــف مُتأرجحة بين الفرح والحياء.. وكانت قصيرة القامة ســـلمت عليهـــا " ســـعاد " بإنحناءة ولم تتوقف كثيراً عندها.. بعدها بسنوات عرفت أن هذه الصغيرة كانت تحب إبنها " كريم " ... مواقف كثيرة كانت تُجلب " لسعاد " الشـــعور بإفتقـــاد الأب الأكبر سناً والأكثر خبرة.. " ليته كان موجوداً للفت نظـــري إلـــى هـــذه الصغيرة ".... بعد سنوات أيضاً عرفت " سعاد " أن الأمهات يلتقطن مثل هـــذه المشاعر من الصغيرات وتُسارع بالتمسك والإستمساك بها وتشجع وتوجه إبنها إلى أن يتخذ خطوات فعلية وعملية لفكرة الإرتباط ولو بخطبة ..ولـــو بدبلـــة لا

تتعدى تكلفتها بضع جنيهات وهكذا يتم الإرتباط والنسب بأكبر العائلات .. ولكنها هي نفسها كانت قليلة الخبرة والحُنكة ولم يدر بخلدها فكرة إنتهاز الفرص وتشبيك الأمور والفتاة بالطبع أصغر من أن تصارحها أو تطلب مساعدتها أما " كريم " فكان يُعايش حفل تخرجه وتقبل التهاني بالتفكير فيما يمكن أن يعمله بعد التخرج والغالب أنه كان ينوي إستكمال دراساته العُليا..... لكم كانت تحتاج إلى رجل أب معها يوجه.. ويقترح.. ويقرر.... أحد زبائنها الذين يحرصون على إقتناء إنتاجها من اللوحات إقترح عليها أن يتقدم إبنها للإلتحاق بوزارة الخارجية .. قص لها الإعلان من جريدة يومية ولفت نظرها بتكرار أن تقرأه ... عرف " كريم " موعد الإمتحان .. لم يستهويه كثيراً فكرة أن ينخرط في السلك الدبلوماسي .. كان مشغولاً في تلك الأيام مع أحد أساتذته الأمريكان وكان إسمه " هوبكنز " كان " كريم " يعمل معه في مجال الأبحاث على القرى والأماكن الشعبية بغرض التنمية وكان مفهوم هذه الكلمة جديداً في " مصر " عام ١٩٧٩ ولما عرف بقصة تقدمه للخارجية أراد أن يُقابل والدته ليُقنعها بأن مجال " كريم " وتكوينه العقلي يؤهله لأن يكون باحثاً وليس موظفاً إلا أنه فوجئ برأي "سعاد" التي رفضت تماماً أن يكون إبنها بلا وظيفة ذات مُرتب ثابت فالأبحاث من وجهة نظرها عمل وقتي لا يكفل الإستقرار... خرج الأستاذ الأمريكي من زيارته وقد قال رأيه بصراحه " لكريم " حين قال : " إن والدتك ليست على صواب في رأيها. إنها لا تعرف كيف توجه موهبتك " ثم أضاف " إنها فعلاً أم من العالم الثالث لإبن نابغة " وإختفى من حياة " كريم " تماماً ولعله إستعان بباحثين غيره.. " سعاد " الحلم يكبر في صدرها أن يتوظف إبنها في وزارة الخارجية.. ألم يدرس السياسة؟ وكثراً ما تخيلته أنيقاً مُهندماً في ملبسه.. يفرق شعره الأسود الجميل من جانبه الأيمن ويطيل سوالفه كما كان الشائع في ذلك الوقت وتقرر في دخيلة نفسها أنه ولابد سيكون أجمل دبلوماسي عرفته الوزارة.... وكان على " كريم " أن يُعيد قراءة بعض الكتب ليجدد

عنها لأنه سيكون عليه أن يُمتحن مرة شفاهياً ومرة تحريرياً وفي يوم أثناء عودته من الخارج تصادف مع عودة أمه هي الأخرى من أحد مشاويرها التي توزع فيها لوحاتها فسألته عن موعد الإمتحان فثار ثورة كبيرة وطلع أمامها على السلالم وهو يصرخ " لا أريد أن أعمل الآن.. أريد أن أستريح على الأقل سنة بعد التخرج فهمت " سعاد " لتلحق به فجرى من أمامها ودخل الشقة وأغلق خلفة باب حجرة نومه.. مرة أخرى.. مضافة إلى عشرات المرات خلال المواقف التي تعبرها " سعاد " تشعر بجسامة الفقد.. لو كان أبوه موجوداً لأخذ عبارته " أريد أن أستريح سنة بعد التخرج على محمل الجد " لأنه فعلاً طوال فترة دراسته كان متفوقاً وشعر الآن بالتعب ويريد أن يستريح إنما " سعاد " بقلة خبرتها دفعته مبكراً للتقدم لإمتحان الخارجية مما أضاف إليه عبئاً جديداً.. كل هذا أتعبه وجعله يدخل أولى خطوات الوظيفة وهو مُرهق مكدود وإن كان هذا غير بادٍ لا على جسمه الممشوق ولا على وجهه الشاب ولكن الحقيقة تظل كما هي أنه كان فعلاً في حاجة إلى أن يأخذ فترة راحة من سنوات الجهد المبذول والصبر على التعلُم .

*****

" كريم " لم ينجح بتفوق في إمتحان وزارة الخارجية إنما كان الوحيد الذي نجح من بين المتقدمين جميعاً وتسرب خبر النتيجة واضحاً بأنه لم ينجح أحد غير المتقدم " كريم الناظر " إلا أن الوزارة كانت في حاجة لملحقين جُدد فقبلت الدفعة بأكملها ثم ألحقت الدُفعة كلها بالمعهد الدبلوماسي.. وكان من شروط الدراسة في المعهد أن يُقدم كل طالب بحثاً في نهاية المُدة .. لم يتوان " كريم " في أن يطلب من أمه أن تأتي بعربتها الصغيرة حتى يضع فيها الكتب التي سيستعيرها من مكتبة " الجامعة الأمريكية " وذهبت فعلاً.. دخلت معه المكتبة واندهشت لسهولة تعامله مع المعلومات التي يُحدد على أساسها نوعية الكتب التي يريدها.. ملأ لها العربة ووجد صعوبة في أن يجد لنفسه مكاناً يجلس فيه .

وهما عائدان كانت تكاد أن تطير من الفرحة تنظر أمامها ثم تنظر إليه ولسان حالها يقول بأن " كريم " مصدر فخر لأي أم.. وأنها هي أم هذا الشاب.. حمدت الله بصوت عالٍ فنظر إليها " كريم " وعدل من نظارته فوق عينيه.. ورث قِصر النظر أيضاً من والدها.. قبل أن يستدير بوجهه قالت : " كيف لك أن تقرأ كل هذه الكتب لتعمل البحث؟! هذا كم ضخم " إبتسم وهو يؤكد : " لا تقلقي يا أمي علمونا في الجامعة الأمريكية كيف نبحث ها.. ها.. ها.. ونصل إلى المادة أو المعلومة التي نريدها حتى صارت المسألة كأنها إحتراف.. كل هذا الكم لن يأخذ مني أسبوعاً على أكثر تقدير.. المهم أن يكون الهدف مُحدد يا أمي في ذهني " .

إنتهى من البحث في المُدة المقررة... عُين ملحقاً ثالثاً بالوزارة... ألحقــوه بقسم الأرشيف في مبنى يبعُد عن الوزارة قليلاً.. بعد أيام وكان لا يزال يتلقــى التهاني من زملائه إنتبه إلى أن من عُين في مكتب الــوزير ومكاتــب وكــلاء الوزارة ومستشاري الوزير والمساعدين كانوا ممن لم ينجحوا أصلاً!! فبدأ يسأل أمه عن سبب ذلك ولم تجد " سعاد " إجابة ترد بها عليه اللهم إلا أنها طمأنتــه بأن " الأرشيف " فترة مؤقتة ولابد أن كل شيئ سيتغير حين يُثبت جدارتــه .. سألها : " ألم يكن كافياً لإثبات الجدارة أنني الوحيد الذي نجح مــن بــين كــل المتقدمين ".. عادت لتطمئنه مرة أخرى وإن إحتارت بماذا ترد عليه فلم يكــن من المعقول ولم تكن تستطيع أن تتجاسر لتقول له : " إهدأ يا بني لقد بدأت أول الطريق في مُعترك الحياة ودخلت في أتونها الحارق فما عليك إلا الصــبر ".. هي نفسها لم تع بوضوح أبعاد ما يجري حول إبنها وما يجب عليها أن تفعله أو تقوم به لقد ربته وعلمته وإعتقدت أن هذا هو المطلوب منها.. لم يكــن فهمهــا وتفكيرها يُهديها إلى أكثر من أن تُصبره وتصطبر معه فلابد أن مــا يســتحقه سيأتي له.. كانت " سعاد " أقل إدراكاً ووعياً من أن ترى الأمور بغيــر هــذه الكيفية تعي أنها بلا أب لإبنها بجوارها تسأله المشورة ويشاركها الهم والذي كان

بالتأكيد سيُغنيها عن السؤال أصلاً لأنه كان سيكون له تصرف آخر فرؤية الرجل وفوق هذا الأب لابد أنه سيكون عنده الحل والتدارك لأي نقص أو خطأ يمُس إبنه. الأكثر من هذا أن ما يؤلم " كريم " ويعذبه أن الممتحنين أنفسهم لم ينتهوا إلى رأي ويعُلنوا نتيجة تقديرهم للبحث الذي تقدم به فمر أكثر من شهرين دون أن تُعلن النتيجة وإبتدأ يسمع من هنا وهناك كلاماً كثيراً عن إستحالة أن يكون هو الذي قام بهذا البحث.. ويكثر الكلام إلى أن يواجهه بعض الأساتذة بعدم تصديقهم إلى أنه هو بمفرده الذي قام بهذا البحث.. ضحكت مع إبنها " كريم " ولم تقدر تماماً غرابة وخطورة ما يقولون فقط تملكتها هي وإبنها دهشة وضحكا كثيراً. فكرت في أن تلجأ إلى أمها تسألها فقد كانت على الأقل بحكم السن ذات نظرة فاهمة ولكن الأهم من هذه الحقيقة أن " سعاد " كانت ومنذ صغرها شديدة الشفقة على أمها لمرضها الطويل بل وتحب كل شيئ منها حتى لو كان خربشات أظافرها.. وبعد أن شُفيت وكبرت " سعاد " لمست فيها كثيراً من القيم السلوكية والأخلاقية.. لم تكن تجد في أمها سقطات أو حتى هنّات كانت إيجابية ودائماً وأبداً ما تكون إيجابيتها على حساب نفسها.. ألوان من الشعور بالوحدة وعدم وجود من هو بجانبها لتستشيره .. ومع ذلك لم ترغب في أن تُشرك أمها فيما يجري لأنها كانت تجدها في أغلب الأحيان إما نامت أو تستعد للنوم... " سعاد " شديدة الإقتناع بأمها إعتادت أن تجد عندها الرأي الفصل في كثير من الأمور إلا أنها الآن تكبر في العمر وهي لا تريد أن تُثقل عليها بل تنتقي أحلى الأخبار لتقولها لها وتتكتم أي خبر يمكن أن يُقلقها.. تشعر بنوع من الضجر والضيق لأن عم أولادها الوحيد يعيش في الولايات المتحدة التي هاجر إليها لأكثر من عشرين سنة..... يذهب " كريم " إلى الأرشيف هذا المكان الذي يكرهه لأنه يرى أنه جدير بأن يعمل في مكتب وزير الخارجية نفسه أو مع أي نائب له ولكن ما أخذ هذين المكانين كان ممن رسبوا في الإمتحان وكانت أبحاثهم بالتأكيد لا ترقى لمستوى بحثه!! يعود ليسأل " سعاد "

" هل يا أمي كل مكاتب الوزارت بهذا السوء وهذا التكدس في حجرة واحدة أم أن هذا في الأرشيف فقط والأكثر من هذا أن الموظفين الموجودين يتغامزون عليّ حين أقوم على تنظيف مكتبي كل يوم وأجمع الأوراق من على الأرض "..

وفي يوم إستدعاه أحد مسئولي الوزارة وتحدث معه عن البحث الذي قدمه وسأله لماذا كتبه باللغة الإنجليزية فكان رده لأن هذا أسهل لأن المراجع بالإنجليزية " وحتى لا أضطر لترجمته إلى العربية " ثم طلب منه المسئول أن يحضر مقابلة هامة اليوم ستُجرى بين الوزير نفسه وأحد الضيوف والمطلوب منه أن يقوم بكتابة أهم ما جاء في المقابلة.. تناول الأمر ببساطة شديدة جداً وجرت المقابلة ودوَّن المطلوب على أحسن وجه والأكثر من هذا أن صورته ظهرت في اليوم التالي في الصحف وهو يقف على مقربة من الوزير وضيفه.. جرى إلى " سعاد " يُريها صورته.. فرحت بها.. قالت له " ستظهر قدراتك وسيظهر تميزك.. عليك بالصبر ".. سألها بلهفة " أليس ما حدث دليلاً على أني أستحق أن أكون في موقع أفضل من الأرشيف ياأمي؟ "... وتتوالى الأيام وهو يذهب إلى عمله كل صباح يقطع الشارع من أمام وزارة الخارجية ليصل إلى مبنى بعيد حيث إدارة الأرشيف وكان عليه أن يعود إلى وزارة الخارجية نفسها بعد إنتهاء عمله ليسأل عن موعد دفع إشتراك أتوبيس الوزارة ليأخذه كل صباح إذ به يقابل سفيرين يتضاحكان في مدخل الوزارة إقترب منهما مسرعاً وهو يمد يده.. أحنى قامته بأناقة ملحوظة.. أغلق بذلته ووقف معتدل القامة.. منذ أن دخل الخارجية أفلح في أن يرتدي ثوب الدبلوماسي في الحركات والإماءات ربما لصغر سنه فقد إستهواه مظهر الوظيفة المُبرق كما أن " سعاد " لاحظت أنه أصبح يذكر أي سيدة بكلمة " هانم " بدلاً من " مدام " وكانت تضحك في دخيلتها منه.. كان " كريم " قد عرف السفيرين حيث كانا يُدرسان له في دورة المعهد الدبلوماسي أراد أن يستأذن ليذهب ويدفع إشتراك الأتوبيس أوقفاه وسألاه أن يتوقف معهما فإعتذر بعفوية ليدفع الإشتراك بأقصى سرعة حتى يلحق

محاضرة " السيكشن " إستفسرا عن المحاضرة وعرفا منه أنه ينوي التحضير للماجستير في تخصصه من " الجامعة الأمريكية ".. ضحكا معه وسألاه عن عدد من يتلقون المحاضرة.. سألاه هل هناك نسبة طالبات توازي نسبة عدد الطلبة الشباب .. يتضاحكان .. يتضاحكان وأخيراً سألاه أن يحضر لهما بعض الطالبات ويعرفهما عليهن ليمضوا وقتاً طيباً!! وهما مازالا يتضاحكان كان " كريم " يتراجع إلى الوراء من الدهشة تدق في رأسه كلمة " السيكشن " التي حولاها إلى كلمة نابية وهما يتضاحكان... بعد أن وصل بيته كان يقف أمام أمه يسألها كيف يمكن أن تُصدر مثل هذه الكلمات عن سفيرين كانا أستاذين له! ومازالت الدهشة تدور في رأسة دوران الساقية وأرادت " سعاد " أن تُهون عليه الأمر فقالت له بأن هذه هي طريقة الرجال في الكلام .. وما الكلام الذي تسميه أنت نابياً إلا مجرد مزحة أو نكته منهما.. سألها من فوره " ولكني لم أسمع هذا الكلام في بيتنا معك " إبتسمت بنوع من المرارة وقالت له " أنت لم تسمع مثل هذه الكلمات في البيت لأنه لم يكن لك أب رجل تعيش في كنفه وتعرف أصدقاءه الرجال وعمك دائم السفر لأن عمله في أمريكا " ثم أرادت أن تبسط له الأمر أكثر فضحكت " ها.. ها.. ها.. والله لو كان أبوك بيننا حياً لسمعت منه أكثر من ذلك بكثير ".

كانت تتصور أنها بذلك تبرر له ما سمعه وتبسط له الأمور إلا أنه واجهها " لو كنت أعرف ذلك ما تمنيت أن يكون أبي حياً يعيش بيننا بل ولا تمنيت أن أكون أنا نفسي رجلاً إذا كان كل الرجال كما تقولين " ثم خفض من صوته وهو يقول " لقد كانا بالنسبة لي أكثر من أستاذين كانا مثالاً فكيف يتفوهان بـ " قاطعته أمه " هذا من باب التباسط معك ". إلا أنه إستدار وتركها منسحباً إلى غرفته.. شعرت " سعاد " أن خطواته ثقيلة كأنهما ملتصقتان بالأرض فإستدارت هي الأخرى لا تعرف لها إتجاهاً اللهم إلا أنها إرتمت على فراشها منكفئة على وجهها من عمق إحساسها بألم إبنها تقلبت على جنبيها. شكة في قلبها من أثر

عبارته " لو كنت أعرف ذلك ما تمنيت أن يكون أبي حياً ولا أن أكون أنا نفسي رجلاً " كل يوم تحس حقيقة فقد أبيه من زاوية جديدة حين كان صغيراً كانت تعي الفقد في عدم وجود الأب الذي يساعدها ويؤكد على كلامها وعلشان خاطر بابا يأكل أو يذاكر أو حتى يخاف ولكنها في هذه اللحظة تعي الفقد أشد قسوة ونقصان. اليوم فقدان الأب يعني فقدان النموذج الذي يتعلم منه التفتح على الحياه وإستقبالها بكل غرابتها أو حتى منطقيتها أيضا فقد النموذج الذي يتعلم منه إدارة دفة الصراع في الحياه بهدف الحصول على ما يستحقه أو ما يراه من حقه .
بدأت تعي أن خروج إبنها إلى معترك الحياه لم يعد يكفي فيه معرفة معاني الحلال والحرام أو إختيار الألفاظ كما ربته لا.. لا تكفي هذه المعاني ما يحتاجه أن يعرف كيف يدير الصراع وكيف يحوله لصالحه وبذلك يأخذ حقه وتقلبت على فراشها وعقلها يقول " وكيف كان له أن يفهم هذه المعاني "... تتناوب الصور في مُخيلتها وهي مغمضة العينين لقد هيأت له البيت الدافئ والمأكل الصحي والملبس اللائق والأكثر من اللائق فكان العم في سفراته الدائمة يأتي محملاً بكل ما هو حديث ويتبع آخر الصيحات حتى ملابس رياضة " الكاراتية " التي يعشقها كان يحضرها له من الخارج وكانت مصر في ذلك الوقت مازالت تعيش فترة الإنغلاق الشديدة فكان كل ما يحضره العم " لكريم " أو " منى " يثير إعجاب ودهشة الناس في كل مكان ... أما إذا مرض فكان في إمكانها دوماً أن تذهب به إلى الطبيب وبرق في عقلها خاطر ذو معنى خاص ذلك أنها حرصت في تربيته على تعميق إحساسه بالجمال فلقد كان " لسعاد " شغف كبير بفكرة الجمال وكانت تؤمن رغم قلة تعليمها لأنها توقفت قبل الثانوية العامة أن الإحساس بالجمال يؤدي إلى الإحساس بالله لأنه هو الذي يعطينا.. يمنحنا كل ما هو جميل فصنعت من كل ركن في بيتها ما يعطي الإحساس بالجمال وبسخاء لمساتها وإختياراتها في وضع أواني الورد والزرع الأخضر المبثوث هنا وهناك يؤكد معنى الجمال .. الستائر الفيروزية اللون تعطي الإحساس بعمق ماء

البحر... إستدارت ووضعت رأسها مكان رجليها حتى تتفادى الضوء من النافذة الجانبية، يلازمها اليقين أنها جعلت من إبنها شاباً شديد الحساسية يحب ويتلمس الجمال رافضاً لأي شيىء يمُت بأي صلة إلى القُــبح ســواء فــي الألفــاظ أو الأفكار.. هل تندم أنها أحاطته بمعنى الجمال أكثر مما ينبغي؟ تستعرض طفولته ومراهقته وبدء شبابه كانت دائماً تشغله بطريقــة مباشــرة أو غيــر مباشــرة بضرورة التفوق.. تغزل له أحلام وأمنيات عن ما يمكن أن يكون عليه إذا تفوق ودائماً الله مع المجتهد .. زرعت اليقين داخله بأن هناك في السماء من يراقــب ويكافئ على قدر العمل... وفجأة شعرت بهبة ريح مرت فوق جسدها .. فتحت عينيها.. قامت قاعدة فجلس " كريم " أمامها وأول ما قال : " أين الله يا أمي؟ " قبل أن تفكر في إجابة أكمل " كنت تقولين دائماً أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً أين هو الله.. أين هو الله ؟ " إعتدلت في جلستها.. شدت قميصها تغطــي ركبتيها وقالت له زاجرة : " إيه ده إنت ها تكفر ولا إيه.. هي حصلت.. هــل تعتقد أنك تشارك الله في مشيئته " ثم أضافت " هذه صعاب أو لعلها إختبــارات لك.." فقاطعها " ولماذا الصعاب ألم أجتهد.. ألم أسهر الليالي " هدأت من نبرة صوتها ومدت يدها تضعها على كتفه وهي تقول.. " لا تغضب من وجودك في الأرشيف " إنتفض واقفاً وقاطعها " أنا الوحيد الناجح بتفوق على دفعة كاملة بل لم ينجح أحد غيري و.. قاطعته بدورها وكأنها إهتدت إلى الرد الفاصل وقالتها " الأرشيف هو مطبخ وزارة الخارجية فأرادوا أن تتدرج حتى تتبنــي وتتكــون على أساس من المعلومات متين " رد بحدة " والراسبون يعملــون فــي مكتــب الوزير ومستشاريه وباقي الإدارات المهمة.. " ضاقت بما يقول وهــي أصــلاً محملة ولكنها تماسكت وهي تقول له : " يالّه .. يالّه يا كريم إدخل توضأ وصلي فرضك لا تجعل أي شيئ يؤخرك عن صلاتك " رد عليها بحدة " أنا أصــلي وأصوم وأذاكر فما الفائدة؟" صرخت هي الأخرى " أُف لقد ضايقتني قلت لــك إن ما يحدث هو إختبار من الله " علا صوته وهو يقول " هو أنا عملــت أي

شيئ حتى أدخل إختبار .. أنا ذاكرت وتفوقت إذن لابد أن أوضع في المكان المناسب لا أن يُلقى بي حتى خارج مبنى وزارة الخارجية نفسها " حذرته مشيرة بأصبعها " إن الله لا يحب ولا يقبل هذا الإعتراض المستمر لابد أن تحمده على كل شيئ السيئ قبل الجميل " .. فكر لثانية واحدة ثم برقت عيناه شديدتا السواد وهو يقول " ولكنك علمتيني أنه لا يضيع حق وراءه مطالب " وسكت لبرهة فكان ردها العفوي والتلقائي أن قالت له " ماذا تريدني أن أفعل.. أذهب لمقابلة وزيرك أنا شخصياً على إستعداد من الآن وسأقول له لماذا ترمون الأول خارج الوزارة في الأرشيف؟ " رد عليها من فوره دون لحظة تفكير" لأ.. لأ.. إنت ست علشان يقولوا أمه دايرة على المكاتب تعيط علشان إبنها ".

*****

الأكيد أن " سعاد " شعرت بنوع من السعادة في تلك الساعة بالذات فالأمور تسير على ما يرام. إبن أحد أصحاب المحال التي تعرض عندهم لوحاتها يجلس في حجرة الإستقبال ووجهه ينطق بفرحة حقيقية.. لم يتعدى الخامسة والثلاثين ويشرب السيجار الذي أعده لهذه المناسبة وإبنة صديقة لها تجلس أمامه في أبهى زينة.. إنسلت من أمامهما وإنسحبت هي وأم العروس خلفها وتركا الفتاة تتحدث مع الشاب.. لعلهما يتفاهمان.. شاب من تلك النوعية التي تطلب من المعارف والجيران أن يزوجوه رغم أنه قادر على أن يفعل هذا بنفسه وهو في مُقتبل نضجه وشبابه ويعمل بنجاح في مجال العلاقات العامة وفوق هذا له دخل خاص.... وجدته " سعاد " مناسباً لإبنة صديقتها.. لم تتوان أن تُرتب أن يلتقيا.. على صوت ضحكاتهما لا تدري متى إنشقت الأرض تحت رجليها وظهرت إبنتها " منى " لم تستوعب بعد متى إندفعت داخلة ومن خلفها الصغير" شادي ".. شعرها مُشوش وكأنها لا تعرف إلا كلمة واحدة " يُطلقني حالاً.. والآن Now " قبل أن تستوعب " سعاد " الموقف برز لها زوجها " أشرف " من جانب آخر من المكان ولم تدر متى دخل أيضاً وكيف.. تناوب عليها إبنتها

وزوج إبنتها يتبادلان التقاذف بكلمات لم تستطع أن تفسرها بوضوح وكان أوضحها كلمة يطلقني حالاً والآن Now سحبت صديقتها الطفل من يده وإنزوت داخل أي حجرة.. لاحظت " سعاد " أن عين إبنتها زرقاء.. تصنع جلبة من دورانها حول أمها.. يندفع زوجها يريد الإمساك بها.. لاحظت " سعاد " أن ملابسه ممزقة والدم يسيل من جبهته.. أمسك بإبنتها من شعرها وقبل أن ينكفئ عليها كانت " منى " تفلت منه همست " سعاد " ترجوهما بالصمت لحظات لأن على بعد خطوات يوجد ضيف في حجرة الإستقبال... ضرب الإثنان بعرض الحائط توسلاتها.. عاودت طلبها منهما أن يهدءا حتى يمكنها أن تسمع أياً منهما.. ولما لم تجد منهما أي إعتبار إلى مطلبها خطت خطوتين إلى حجرة الجلوس لتُغلقها على الضيفين دون كلام.. هناك وجدتهما مُشرئبي العنق وألف سؤال مرتسم على وجهيهما.. شدت الباب بقوة وهي تعتذر بأي كلمات.. عادت أدراجها إلى إبنتها وزوجها وقد إختفت تماماً صديقتها أم الفتاه بـ" شادي " الذي علا صراخه.. حاولت أن تفهم ماذا جرى بين الإثنين.. أرادت أن تعرف الحكاية من أولها حتى تحكم بينهما . حاولت أن تتفهم أي معنى عن سبب شجارهما فلم يكن يجيبها أياً منهما.. اللهم إلا زوج إبنتها يتوعد زوجته وهو يقول " أنا توديني البوليس.. هتدفعي الثمن غالي " وهي ترد عليه " لأنك بتاع مخدرات لا تدري بنفسك " مرة أخرى توسلت إليهما " سعاد " أن يُخفضا من صوتيهما إلى أن تنتهي زيارة الضيوف وينصرفوا ولكن الإستجابة لها كانت منعدمة تماماً فقد علا صوت إبنتها بسيل من الشتائم أغلبها بالإنجليزية " Fuck , son of a bitch " خرجت صديقتها بعد أن أفلحت في أن تجعل " شادي " ينام.. نظرت إليها " سعاد " بنوع من الأسف والخجل إلا أنها طمأنتها وهي تنصرف مع إبنتها على وعد أن تعاود الإتصال بها في المساء أو الغد.. إستراحت " سعاد " إلى إختيار صديقتها وبعد إنصرافهما وقبل أن تعرف رأيها في العريس ذهبت إلى حيث تجلس إبنتها " منى " وبعد أن خرج زوجها

" أشرف " هو الآخر إلى بيت والدته ولم ينس أن يُشير إلى " سعاد " بأنه هناك لِن طلبته.. جلست قبالة إبنتها تحاول تهدئتها وتؤكد لها أكثر من مرة أنها تريد أن تعرف تفاصيل ما حدث.. قبل أن تبدأ نظرت إليها بتحديد لمدة طويلة ثم أطفأت سيجارتها أولاً وهي تُشيح بيدها وتقول " شوفي بأه.. ركزي معايا وإسمعيني كويس.. وسيبك من حكاية اللوحات والروايات اللي بتقرئيها وأفلام الأربعينيات.. إحنا هنا في الواقع واحد وواحد يساوي إثنين ما يساويش ثلاثة.. علشان لما تفهمي تعملي لي اللي أنا عاوزاه.. أوكي.. أوكي.." ثم بدأت تحكي لها وبين كل كلمة وأخرى تنطق كلمة بالإنجليزية إلى أن إنتهى بها الأمر إلى الكلام بالإنجليزية.. ضاقت الأم لأنها لم تستطع أن تستوعب كل ما تحكيه.. أكثر من مرة أوقفتها وطلبت منها الكلام بالعربية فكان رد " منى " لها أن عليها أن تتواءم مع فكرة الكلام بالإنجليزية لأنها أكثر قدرة على التعبير بها عن العربية.. شردت منها " سعاد " وإن بقيت شاخصة إليها تجتر طفولتها لقد ألحقتها بمدرسة أجنبية لتُتقن اللغة ولكنها لم تكن تتصور أنه سيأتي اليوم الذي لن تستطيع فيه إبنتها أن تشرح نفسها ومشكلتها باللغة العربية وأن الإنجليزية أصبحت أيسر عليها في التعبير.. شردت أبعد وإن بقيت شاخصة إليها وهي تفكر فيما يُكتب في الجرائد عن التعليم عموماً وفقدان طلبة المدارس الحكومية لمعرفة لغة أجنبية وكانت ترد على نفسها " ولكني لم أكن أقدر أن هذا التعليم نفسه هو ما أسقط إبنتي في مستنقع الجهل " إبتسمت بنوعٍ من الأسى دون أن تلحظها " منى " مخافة أن لا تخلص من تأنيبها لها إذا شعرت أنها تجتر أيام طفولتها وهي في المدرسة وكيف كانت هي وزميلاتها يتعمدون الكلام بعربية ركيكة أو مكسرة كما يقولون فتنادي البنت كأنها ولد وتنادي الصبي كأنه بنت وفوق هذا أسقطوا حرف القاف من أبجدية الكلام العربي وكانوا ينطقونها كافاً هكذا ببساطة حتى صارت ملمحاً في بنات مدرستها.. عادت بسرعة تحاول متابعة ما تروية إبنتها بإنجليزيتها الضالعة وفهمت منها أنها حين تزوجت

" أشرف " كانت تعرف أنه يشرب وأنه يدخن المخدرات وأن هذا لم يزعجها بالمرة .. قاطعتها " سعاد " وهي تقول لها مكملة : " ولما سألت قريبي الذي يعمل في الشرطة أحضر عنه تقريراً سيئاً جداً ومع ذلك صممت على الزواج منه رضيت أنا أم كرهت " قاطعتها بجسارة " أيوة فعلاً لأني لا أعترض على الشرب أو التعاطي " فسألتها بدهشة " لا تعترضي لماذا وكيف!؟ " فقالت بهدوء " لأني أنا نفسي بشرب " خبطت " سعاد " على صدرها فأكملت إبنتها " طبعاً بشرب وهذا ليس ذنبي أنك لم تفهمي.. مش بقولك إنك خيالية وإنك مع اللوحات والألوان.. طبعاً بشرب وأدخن كمان إلا أن ".. فقالت الأم بلهفة " إلا أن ماذا؟ " " إلا إنني توقفت بعد أن تزوجت ثم توقفت تماماً بعد أن أنجبت " شادي " وكنت أتوقع نفس هذا السلوك من " أشرف " على أن يشرب أو يدخن في المناسبات فقط ".. هزت " سعاد " رأسها هزات متتالية تُنبئ على عدم معقولية كل ماتقوله إبنتها... وعرفت منها أنهما كانا في الأسكندرية لتمضية عطلة نهاية الأسبوع إلا أن زوجها تركها في الفندق وبات ليلته في مكان ما ولما عاد نبه عليها أن لا تسأله أين يمضي وقته... فهمت " سعاد " لماذا كانت إبنتها دائمة المتابعة له بمعدل كل نصف ساعة تطلبه تليفونياً لتعرف أين مكانه وكانت " سعاد " كثيراً ما تنهرها عن طلبه بهذه الكثرة اللافتة للنظر فلم تكن تعرف بمسألة التعاطي ولم يوضح هذه النقطة قريبها بصراحة وتأكيد ففهمتها أنه يشرب " البيرة " مثلاً على أكثر تقدير كما أن إبنتها " منى " أخفت هذه الحقيقة عنها فكانت لا تجد مبرراً معقولاً لكثرة إتصالها به... المهم أنهما في عودتهما من الأسكندرية تطور الأمر بينهما بعد أن ضربها على وجهها ففتحت باب العربة ودخلت أقرب قسم شرطة في طريقها وحررت له محضرا... ثم تركتها " منى" جالسة مكانها وإنصرفت إلى شقتها التي فوقها وبين ذراعيها "شادي "... وغرقت الأم في لُجة من التفكير فظاهرة تعاطي المخدرات باتت معروفة في المجتمع المصري ولكنها لم تتصور في لحظة واحدة أن إبنتها تتعاطى ولم تفسر

ذبول وجهها بهذا السبب ومرة أخرى تجد نفسها بلا إرادة تشتهي أن يكون والد " منى " حياً يُرزق.. عرفت الآن لماذا للفقد مرارة موصولة مهما جرى الزمن بالأيام " لو أنه موجود لكان على الأقل إكتشف حالة إبنته أو كان حتـــى لفـت نظري إلى نقص وزنها بل إلى حبتي عينيها المرتفعتين عن وضعهما الصـــحيح وسط عينيها فكثيراً ما كان سواد عينها وكأنه " متشعلقاً " أعلى بيـــاض عينهـــا " وكنت أفسر هذا بتغيرات النمو أو شيئ من الإجهاد يالجهلي وغبائي " .

*****

الشقاء قضاء لها في حياتها والكبد سكة سفرها الدائمة.. سواء بقيت بجسدها أو سافرت وهي الآن باقية تسافر بعقلها تطحن هذا العقل مع إبنها وتستبيح جسد نفسها بضراوة لتقضي " لكريم " كل شيئ ما إستطاعت إلى أن قررت " الخارجية " أن تصطحب الدُفعة الجديدة بعد أن فرغوا من دورة المعهد الدبلوماسي في رحلة إلى الخارج يتعرفوا فيها على البلاد الأوروبية ويزورون السفارات.. يتلمسون بأنفسهم الأماكن التي تُصنع فيها الخطط والقرارات السياسية. وكان من المقرر أن تكون أول مدينة يزورونها " باريس " ثم بعدها " ألمانيا " وآخر مدينة ستكون " روما " شغلها إبنها " كريم " بالتجهيز لهذه السفرة الهامة. أرهقها وأرهق نفسه بكثير من المبالغة في إعداد عدد من " البدل " وتعلم عبارة جديدة عرفها من ذلك الترزي الشهير الذي إشترط على " سعاد " أن يعد له ملابسه تعلم عبارة " أصواف ساقعة " بمعنى أن القماش صوف حتى يحتفظ برونقه وتماسكه وفي الوقت نفسه لا يُكسب لابسه أي حرارة... أيضاً كان مُدققاً إلى حد مبالغ فيه في إختيار قمصانه التي لابد أن تكون من الحرير الخالص... ينزل مع " سعاد " ثلاث مرات إلى قلب القاهرة حتى يكرر " بروفة " ضبط بذلة أو رقبة قميص ثم يضع ما فرغ الترزي منه على كنبة العربة. تكرر نزولهما مرات عديدة حتى شعرت " سعاد " بالإعياء فالجو حار والشوارع مزدحمة بالإضافة إلى المطبات الكثيرة التي كانت تجعلها تسير

بالعربة وكأنها تمشي على حبل مشدود في سيرك.. هذا خلاف ملابسه الداخلية وملابس النوم وأمواس الحلاقة وأنواع الصابون التي أرهق نفسه في إنتقاءها وأرهق والدته معه في شراءها. كان الإعياء قد أخذ منها كل مأخذ حتى أنها كانت تنتظر بفروغ الصبر يوم سفرته المأمولة . لم يكن إبنها " كريم " يأخذ أداء أي عمل مهما صغر مأخذاً بسيطاً إنما كل شيئ عنده لابد أن يلزمه نوع من الدقة الشديدة والتفكير لكي يحصل على أحسن الموجود في السوق.. نفس منطقه الذي يتناول به عملية المذاكرة وكثيراً ما حاولت أن تُفهمه أو تُغرس في عقله البكر أن الأمور لا تؤخذ بهذه الكيفية فالمذاكرة شيئ وشراء الملابس شيئ آخر لا تحتاج إلى كل هذه العناية والتدقيق إلا أنها لم تجد منه أي أُذن صاغية . ولما إقترب موعد سفره شعرت بنوع من الخوف عليه.. خافت من بعاده.. خافت من قلة خبرته في الحياه.. خافت أيضاً من سذاجته.. فهو لا يفرق بين أمور كثيرة كل شيئ أو أمر يأخذه بجدية مبالغ فيها.. تساءلت بينها وبين نفسها " ما الذي يمكن أن تنصحه به وهذه أول مرة يبعد فيها عنها " وكثيراً ما تمنت بينها وبين نفسها أن يكون هناك شخص يساعدها أو يوجهه إلى ما يجب أن يسلكه في هذه السفرة.. أما أن تُطعمه أو تنظفه أو ترتبه كما كان طفلٌ فهذه مسألة غريزية سهلة أكثر منها أمور تستحق أن تجد فيها مثال أو رجل نموذج يمكن أن يوجه أو ينصح .

قبل يومين من سفره بالتمام جلس قُبالتها ثم فاجأها بهذا السؤال " بماذا تنصحيني يا أمي في سفرتي؟ " باغتها فأدارت سؤاله أكثر من مرة في عقلها وأول ما نطقت به " أنت مصري ومن بلد مُنتصرة في حرب الكرامة أكتوبر وكل ما أتمناه أن يكون سلوكك يُجسد الإعتزاز بمصريتك.. لا تنسى أنك الأول على دُفعة كاملة وهذا يُحملك نوعاً من المسئولية " قاطعها " مثل ماذا يا أمي " إبتلعت لعابها وهي تفكر بسرعة كبيرة ثم قالت له " لابد أن تكون أميناً مع نفسك ومع أساتذتك. لا تُسبب أي إزعاج للأساتذة المشرفين. إفهم كل ما يطلبوه

منك.. حافظ على مواعيدك معهم ولا تنسى الصلاة في خضم الزيارات والتجوال هنا وهناك " قفز إلى عقلها مرة أخرى إنتصار أكتوبر.. قفز إلى عقلها خوف مباغت من اليهود.. إنهم سيحاولون ولاشك دائماً أن يتقربوا من المصريين فقالت له " عالم اليوم عالم المخابرات والإستخبارات.. لا تبتعد عن أساتذتك ولا تشرد عنهم لأني أعرفك.. لا تحاول معرفة غير المسموح لك به.. إحذر أن يندس لك أحد.. حقاً أننا إنتصرنا عليهم.. ولكنهم يبحثون عن منفذ ينفذون به إلى كل مصري فرد من فوره " ألم ننتصر عليهم ثم جاءت معاهدة السلام ١٩٧٨.. لماذا لا أتركهم ينفذون على أن يكون سلام ". ضحكت بنوع من الإصطناع وهي تحذره " أرأيت.. ألم أقل لك أنك قد تندفع في شيئ أكبر من حجمك فما هو أنت؟ كنت بالأمس طالباً وهذه رحلة تعليمية لك وليس لك أي دور سياسي بين فطاحل العقول.. الأوفق أن تعرف حجمك فأنت طالب ليس أكثر " قال من فوره " إذاً لماذا ذكرتي سيرة المخابرات والإستخبارات " فكرت قليلاً ثم قالت له " حين ينوي اليهود التفاوض فلن يكون هذا معك.. إنما ما أخشاه وأردت أن أنبهك له هو أن " باريس " مملؤة بمواخير الليل وهذه الأماكن أوكار للمخابرات كما هي أوكار للموبيقات إحذر أن تذهب إلى هذه الأماكن في غفلة من أساتذتك ونتيجة لطيش الشباب أنت وزملاؤك.. هناك ستتعرضون لضغوط كثيرة دون أن تدروا.. وقد يلتقطون لك صوراً يحتفظون بها إلى أن تصل إلى منصب مهم عندئذ يستخرجون هذه الصور ويساومونك عليها " حدق فيها ذاهلاً فأضافت " هذه هي العقلية اليوم تعمل بنظرة بعيدة في كل أمر صغير أو كبير ".. الواقع أنها لم تقدر خطورة ما طرحته على فكره البكر والصغير أيضاً.. أثقلت عليه بمعلومات كان هو في غنى عنها ونابع من هواجسها ومعلوماتها وتقديراتها الشخصية وأيضاً من واقع رؤيتها بسبب أن " كريم " قال لها يوماً " إن الإسرائيليين يا أمي حاولوا يوم أن كانوا في القاهرة في عام ٧٨ أن يجدوا أي أذن صاغية من المصريين أو العرب في المؤتمر

ليتفاهموا معهم أو يحاولون التعاون معهم بعد معاهدة السلام على أساس أن تنموا العلاقات الإقتصادية بين إسرائيل وبين مصر كما نصت معاهدة السلام إلا أنهم ووجهوا بنوع ملحوظ وواضح من التجاهل التام وكان السبب يا أمي إحتلالهم لجنوب لبنان في ذلك الوقت".... أخذت " سعاد " هذه الملاحظة في نفسها ورتبت عليها ما يمكن أن يحدث في المستقبل من محاولة التسرب أو التغلغل إلى الإنسان المصري ماداموا قد فشلوا في محاولة الوصول بنص المعاهدة.. الواقع أن مخاوفها وهواجسها كانت أكبر مما يحتمل الموقف وأكثر بكثير من الواقع فما إينها إلا موظف صغير في الخارجية لم يمر على تعيينه أكثر من شهور تُعد على أصابع اليد كما قالتها بنفسها ولكن كانت " سعاد " تحاول أن تلبس رداء الأب المُحنك فتبعثر نصائحها بلا حساب وبلا تقدير لعقلية إينها كمتلقي لكل هذه المخاوف التي لم يكن هناك داع لها... فسافر إينها مُحملاً بما لا يجب أن يفكر فيه بالإضافة إلى إرهاقه الشديد في تحضير ملابسه وفوق كل هذا كان يقوم وقت سفره أيضاً بالدراسة في المعهد الدبلوماسي كشرط أساسي تطلبه الخارجية ثم دراسته الخاصة في " الجامعة الأمريكية "... ركب الطائرة ووجهه يحاكي صُفرة الموتي ... أُغلق عليه باب الطائرة وإستدارت " سعاد " والقلب قد خُطف منها لا تدري لماذا!! إلا أنها تمنت له التوفيق والرجوع سالماً.. في طريق عودتها من شارع صلاح سالم كانت تستعيد اللحظات الأخيرة قبل أن يفارقها ويبعد تماماً... إندهشت من كم الأباء والأمهات الحضور.. لم تكن تعرف أحداً منهم إلا أن أغلبهم عرفوها كوالدة الوحيد الذي نجح من الدُفعة التي تقدمت.. حيوها بإماءة خفيفة ولم يقف أي منهم معها كانوا مشغولين بأبنائهم.. يتحلقون حول رجلين فهمت أنهما من سيشرفان على الرحلة.. الجميع يتبادلون " الكروت " وأرقام التليفونات.. الأصوات تعلوا وهم يوصونهم على الأبناء إلا هي وقفت وحيدة فرغم حقيقة أن الكل يعرفها إلا أنه تبقى حقيقة أقوى وهي أن والد " كريم " غير موجود ولن يكون موجود... بقيت

تجتر ضراوة هذه الحقيقة إلى أن بدأ الجمع ينفض بعد دخول المشرفين الطائرة فإستدارت عائدة وقدر كبير من الإنكسار في خطواتها تصوب عينيها إلى حذائها وهي تسير في طريقها إلى الخروج من حدود المطار وتتساءل " هل فـاتني أن أوصي الرجلين على " كريم " وهل هذه خطوة ضرورية كان لابد منها... ثـم من أين لهم أن يعرفوا ويتعرفوا بهذه السرعة على المُشرفين ويبدأوا في الإلحاح عليهم.. هذه نقطة كان يجب أن أنتبه إليها. لا يكفي أن يسافر " كريم " بتفوقه فقط وبغرض إستكمال مقومات التفوق . كان يجب أن أنتبه إلى هذا ".

*****

في فراشها تتقلب ليلة بطولها.. فتحت النافذه عن آخرها.. تنتظر الفجـر.. تُحب أن تتلمس اليوم من بدايته.. باقي أكثر من ساعتين على الفجـر.. لمسـة الندى ونسمة الفجر تُريحها.. تشعر أنها تتجدد.. خلاياها تصحو تُحس متعة مـا ودرجة حرارة الدنيا ترتفع مع بزوغ الشمس في ميلاد جديد.. حاولت أن تنام.. وضعت الوسادة فوق رأسها فكان صوت رنين الهاتف يعلو في أذنها.. إلـى أن دق الهاتف فعلاً وقبلها بثوان ثلاث دق القلب منها وعرفت معنى عبارة أن يهبط القلب في رجليها خوفاً.. بـذلت جُهـداً خارقاً مع ذراعها ليمتد وتلتقط " السماعة " إلى أن نطقت :

– ألو

– والدة كريم الناظر

– نعم

– الخارجية المصرية تطلبك .. نأسف علىالإزعاج ولكن كريم في المستشفى هنا في ألمانيا ويحتاج أحداً من أهله .

– هل أستطيع أن أكلمه؟

– نعم بالتأكيد

– إبني كريم

- نعم يا أمي
- إيه اللي حصل!؟
- كانوا عايزين يموتوني ويتاووني هنا
- مين هُم ؟
- أنا خُفت وهربت منهم وعملت لجوءاً سياسياً في ألمانيا. ما الذي يُعقــل الآن ويمكن أن تفعله.. إنتفضت واقفة فوق السرير وجدت نفســها قريبــة مــن مصباح الحجرة المتدلي من السقف نزلت قافزة إلى الأرض.. دارت حول السرير.. نظرت لنفسها في المرآه.. تأكدت أنها هي بذاتها وإقتربت مــن المرآه تنظر في وجهها. بيدها تحسست ذراعها فكانت هي بعينها... أيقنت أن المكالمة لم تكن حُلماً أو كابوساً بأي حال من الأحوال. دويّ القلب الذي إستشعرته من دقائق وكأن قلبها سقط وهوى إلى أخمُص قدميها هي الحقيقة الأكيدة بعينها... إينها الوحيد المتفوق في المستشفى ! وفجــأة دق الهــاتف مرة أخرى.. خطفت السماعة لاهفة كان المتُحدث هو الرجل الأول الــذي إعتذر عن أنه لم يُقدم لها نفسه لتعرف من هــو.. وعرفــت أنــه القــائم بالأعمال في السفارة وأنه يُطمأنها أن حالته الصحية جيدة.. إستفسرت عن ملابسات دخوله المستشفى قال لها بأنه نوع من أنواع الإنهيار العصبي أو الإحساس العميق بالغربة Home sick دفعه إلى عمل لجوء سياسي وهي خُطوة تُعد غريبة وجريئة حيث لا صفة سياسية أو تاريخ سياســي لــه.. ردت من فورها " وما الذي ضغط عليه إلى الحد الذي دفعه إلى اخذ هذه الخُطوة.. لماذا تركوه يُعاني إلى هذا الحد "...... لم تسمع منه شيئاً بعــد هذا ليس أكثر من أنه أعطاها عنوان المستشفى وأقفل الخط أو لعله إكتفى بتوصيل الرسالة ووضع الهاتف وكأنه إذا ما بدأت الأقدار تــأتي بمــا لا يشتهي المرء فالأمر لا يتوقف عند هذا فقط إنما يبدأ الناس.. البشــر فــي توجيه ضرباتهم أيضاً حتى لو كان هذا الضرب أن يُغلق سماعة الهــاتف

وهي على لسانها ألف سؤال وسؤال... كانت الساعة قد تعدت السادسة صباحاً. فكرت في عم إبنها إلا أنه كان مسافر كالعادة وأمها أكبر من أن تُفكر بالسرعة المطلوبة. تَبخر من عقلها كل ما يمكن أن تعرفه لتأخذ " فيزا " لدخول ألمانيا إنمحى من عقلها أقرب الحلول إليها فقد كان أصدقاء العم في مصر يُمكن أن يُنهوا لها أموراً كثيرة منها " الفيزا " طبعاً....... ووجدت نفسها ترتدي أول ما قابلها وتتجه وحدها إلى مبنى مُجمع التحرير في طابق الجوازات وهناك دلوها على الخُطوات وما يجب عمله... ثلاثة أيام " كعب داير " بين مُجمع التحرير والسفارة وبعض مكاتب أخرى أشاروا عليها بها ولم يتفتق عقلها عن معرفة من تلجأ إليه بالمرة.. إنمحى من عقلها كل إسم وبقيت وحدها تقصد المكاتب في أكثر من مكان إلى أن حصلت على " الفيزا " والتذكرة ووجدت نفسها تصعد سُلم الطائرة وعند أول خطوة لها تركت شنطة ملابسها الصغيرة التي تحوي قميص نوم وفستان آخر فلم تقوى بأي حال من الأحوال على أن تصعد بالشنطة فتركتها كان يكفيها حقيبة يدها في كتفها وجواز السفر بداخلها وعنوان المستشفى تقبض عليه بكفها..... ولما إرتفعت الطائرة وتوغلت في الفضاء أكثر من الساعتين واجهت مطبات هوائية مُتتالية كما يسمونها مُتتالية وبكثرة.. تمددت في جلستها وتساءلت " هل أنا خائفة " وكان الجواب " لا " فكرت أنه يمكن أن تموت إذا إستمرت هذه المطبات العاتية وبهذه الكثرة وكان جوابها " في الموت راحة " كأنها عرفت وأيقنت أن المرء إذا عايش الخوف على ولده فلا خوف بعد ذلك حتى لو كان الموت نفسه... بعد الهبوط في مطار فرانكفورت كانت تُلقي بنفسها في سيارة أجرة والعنوان مازال بين أصابعها.. خوف الدنيا بين ضلوعها.. خوف من أن تراه وربما يكون مكسوراً أو تعرض لحادثة ولم يُصارحوها عن طريق الهاتف .. خوفٌ من أن تجده مُسجاً في حالة من

حالات الغيبوبة ولكن كيف هذا وهو بنفسه من كلمها على الهاتف وقال لها بأنه عمل لجوءاً سياسياً... وكان سيل هذه الأفكار المُتتالية ما أوصلها إلى أن تُواجه نفسها بالسؤال الذي تدور حوله ولـم تجـرؤ علـى أن تسـأله لنفسها... " الحقيقة كما قالها الرجل أنه في مصحة للأمـراض النفسـية.. تُرى هل مسه شيئ من الجنون هل لن يتعرف عليّ.. هل سأعود به إلـى مصر لايعرف أحد ولا حتى إسمه ".. هواجس وتساؤلات كانت تصطخب في صدرها صخباً وكأنها زلازل وبراكين الدنيا فما الحال الـذي سـتراه عليه.. نزلت من العربة الأجرة وتقدمت داخلة.. مـرت علـى خُضـرة وزهور في طريقها القصير إلى سلم المستشفى.. وضعت قدمها وطلعـت حوالي عشر سلمات وبلا إرادة كانت تنادي " كـريم.. كـريم.. كـريم " شعرت بريحه قريبة منها ولم تندهش حين أجابها " أمي.. أمي" أكملـت السلالم أسرع فأسرع وكانت وجهاً لوجه أمامه واقفاً.. بقيت مكانها تتطلـع إليه كان مُرتدياً منامة وفوقها الروب الحرير الذي إشتراه إستعداداً للرحلة.. كان بريئاً.. شعُرت بشفافية شديدة منبعثة من نظراتـه.. تقـدمت نحـوه.. تقدمت أكثر.. أخذته بين ذراعيها فأسكن رأسه على كتفها. مع تسرب دفء جسده إليها وهي مُلتصقة به ورأسه مازالت على كتفها كانت دموعها تسح من عينيها بغزارة ...... لم يقابلها أحد ولا أي طبيب مـن المستشـفى.. ووجدت إبنها يأكل كل شيئ ولا أثر لدواء يأخذه أو حتى ينصح به أحـد.. جلست قُبالته.. قالها بصدق "والله سلمات يا أمي من قال بأنني سأراك قبل أن أعود أنا مع الرحلة " .. كل ما كانت تُفكر فيـه أن ترجـع بـه إلـى مصرمادام سالماً معافى.. لم يكن في رأسها أي خُطة أخرى أو أي تصور آخر.. بعد أقل من ساعة خرج من المستشـفى دون أي إجـراءات أو أي سؤال.. إستقلا عربة مرة أخرى وشعُرت هذه المرة أن المسافة طويلة من هذه الضاحية التي فيها المستشفى إلى مطار فرانكفورت مـرة أخـرى...

كانت تمسك يد إبنها في الطريق.. تقبض عليها وأقصى ما تعمله أن تجعل أصابعها تتزلق بين أصابعه ليتشابكا.. وهي لم تترك يده بعد في المطار حيث كان لابد لها أن تحجز على الطائرة المتجهة إلى القاهرة ولكن هناك عرفت أن هذا ليس ممكناً قبل سبع ساعات على الأقل. كانت الساعة حوالي الثانية ظهراً حين وصلا المطار فكيف سيمضيان كل هذا الوقت... المهم أنها حصلت على الحجز وطفقا يتجولان هنا وهناك في مبنى المطار إلى أن شعُرا بالجوع.. جلسا ليأكلا.. سعادة الدنيا تملأ قلبها وإبنها يُكلمها في أمور كثيرة بنفس الدقة التي يتميز بها وبنفس القلق الذي هو جزء من شخصيته فيضع إحتمالات أن لا تأتي الطائرة أو أن تتعطل ساعات مُضافة إلى السبع ساعات الباقية.. وعاودا مرة أخرى الدوران في المطار صاعدين هابطين إلى أن وجدا أنفسهما يجلسان على إحدى " الدكك " الموجودة بكثرة في كل مكان وبعدها تدريجياً راحا في سُبات عميق... لم تغب عن مصر ساعات فما كل هذا الشجن الذي يملأ روحها... كانت الطائرة في العودة شبه فارغة... أتاح لها ذلك أن تتنقل بين أماكن الجلوس وإن بقي " كريم " جالساً مكانه. مُضيفات الطائرة الثلاث يتحلقن حوله يُكلمنه. يتبادلون الضحكات الكثيرة وأحياناً العالية.. أدخلوه كابينة الطيار.. غاب هناك أكثر من عشر دقائق ولما خرج كان يحتسي علبة عصير.. عاود الجلوس في مكانه وعادت المُضيفات يتحلقن حوله ولأنها أبعد عنه بأكثر من ثلاث أو أربع صفوف فلم تعرف ما الذي يدور بينهم ولكنها سمعت إحداهن تُغني أغنية شهيرة " لفيروز ".. أحست بصوتها رقراقاً ينساب في جنبات الطائرة وفجأة بدأت المطبات الهوائية المُتتالية إلا أن المُضيفة لم تتوقف عن الغناء ولا تحركت أي واحدة منهن كل ما كن يفعلنه هو الإستناد بظهورهن على المقاعد حتى يقاومن شدة المطب الهوائي ولما إزداد إهتزاز الطائرة بشدة وكثر صعودها وهبوطها سألت نفسها مرة

أخرى هل تخشى الموت.. هل ترفضه وكانت بكل مشاعرها تتجه إلى الله وشخصت إلى الفراغ من شباك الطائرة المُستدير عن يمينها ودعت الله أن لا تموت الآن من أجل " كريم " فهو صغير وهو بـــرئ.. بعــدها هــدأت الطائرة وتساءلت هل يستجيب الله دائماً لدُعاء الأمهات.. ودون أي جديــد فلم يحُدث شيئ كانت عيونها تسح دموعاً بلا توقف.. عائدة بإبنها مُعـــافى ولكنه لم يُكمل خط السير مع زملائه.. لم يُنهي الرحلة ويعود معهــم وقــد أدى جانباً من شروط الوظيفة وإحتياجاتها.. هل ما في داخلها هو الشعور بإنطفاء الأمل أم بالفشل والخيبة.. أغمضت عينيها وعادت برأســـها إلـــى الوراء وإن لم تتوقف دموعها رغم حلاوة صوت المُضيفة الـــذي كانـــت تسمعه.. الصوت وكلمات الأغنية والتحليق فوق القاهرة والنيل مـــن هـــذا الإرتفاع يتهادى في الوادي عطاء ورحمة أزاد شجونها. من داخلها تختلط الفرحة بعودة " كريم " ونجاته من ألوان من الظنون عبرت بها في الثلاثة أيام الماضية إلى أن وجدت نفسها في طريقها إليه.

*****

" إنت تشوفي لك حل.. إيه ألا تكُفي عن السرحان.. ألا تشبعي من أحـــلام اليقظة.. فوقي بقى وإعرفي إحنا فين وها نعمل إيه " إنتبهـــت " ســـعاد " مـــن سرحتها ومرة أخرى مُضافة إلى عشرات المرة لم تعرف كيف ومتـــى دخلـــت " منى " وفي يدها إينها.. شعرها مشوش.. أثار دموع عالقة برموش عينيهـــا.. حافية.. الوجه أحمر بل الحُمرة تُغطي رقبتها إلى كتفيها وذراعيهـــا.. عـــروق يديها نافرة ولم يبقى إلا أن تنفجر .. أفاقت من سرحتها وقامت واقفة تحتضـــن الطفل إلا أنها شدته مُبتعدة ثم أزاحته على الأريكية الممدودة وهي تصرخ " لن يموت إذا جلس على الأريكة.. إلتفتي ليَّ ما تهربيش " ردت " سعاد " مُحاولة أن تتمالك نفسها " وما الذي يجعلني أهرب " ردت " منى " من فورها " أصلك هادية جداً وما تحبيش تدخلي في موضيع مُزعجة " ردت عليها مـــرة أخـــرى

" أي موضوع أردتِ أن تُكلميني فيه ولم أتكلم فيه معك بـل وأتنـاقش " ردت "منى " " اللهم ما طولك يا روح.. إحنا ها ندخل في مهاترات وشد وجذب هـو ده حوار بتعمليه في أحلام يقظتك ولا لوحة بتفكري فيها بخيالك إسمعيني كويس وركزي " فجلست " سعاد " شاخصة إليها فقالت بلا تردد " أنا طردت أشـرف ورميت له هدومه من السلم ووراها الدبلة.. أنا عاوزة أطلق... " بعد أن إنتهت وشرحت ضرورة مطلبها كانت " سعاد " تقول بنوع مـن الهـدوء المُصـطنع " طيب ممكن أعرف إيه الحكاية " ردت من فورها " لا حكاية ولا رواية أنـا لقيت حباية في محفظته " قبل أن تستفسر أمها عن المقصود كانـت " منـى " تقول مرة أخرى " طبعاً مش حباية فيتامين دي حباية مُخدرات.. إفهمـي بقـى ودي المرة العاشرة في هذا الشهر اللي أطلع من جيبه حبوب مُخدرة.. ده طبعاً غير زجاجات الكودايين المرمية في عربيته " صواعق.. صواعق ترشقها فـي عقلها وهي تعرف كل يوم أفظع ما تتصور أن تعرفه.. وبينما الحسرة تأكل فيها على مُستقبل بل وحاضر إبنتها كانت تصرخ بكلمة " الدكتور.. دكتور لابـد أن يعالج حتى لو أدى الأمر إلى أن يدخل مصحة.. مثل هذه الأمور لم تعد عيبـاً يتوارى منه المرء.. " قاطعتها " منى " " عيب إيه وعار إيه ما تصـلي علـى النبي " لم تتوقف " سعاد " بل أكملت " إذاً لابد أن أذهب إلـى أصـيلة هـانم وأطلعها على الأمر... " قاطعتها مرة أخرى " ما هي حماتي السبب فـي كـل ده.. طبعاً لأنها بتدللـه إلى أقصى حد.. طبعاً هي عارفة إنه بيتعاطى ولكنهـا مُتجاهلة الأمر أو مستعبطة وكل ما تعمله أن تُـردد طـول النهـار. حاضـر ياحبيبي.. أيوه يا حبيبي.. نعم يا حبيبي. عمرها ما تقوله ملاحظة مفيده أبداً .. ثم لا تتسي بعقلك الذي ينسى كل شيئ أننا كلمناها مرة من قبل.. ألا تـذكرى.. وقالت لكِ أنه لن يوافق على الذهاب إلى الطبيب فما بالك بدخول مصحة.. كما قالت لك إن الطبيب لن يفعل شيئاً أكثر من أنه سيستبدل معه الحبوب المُخـدرة بحبوب منومة بديلة تتذكرتِ أم لا.. ياترى السرحان توقف ولا لسّـة " بهـدوء

مُصطنع مرة أخرى كانت " سعاد " تقول " قلت لك ألف مرة إن سوء لسانك وكلامك الجارح المستمر بيضيع حقك مع زوجك ومع أمه كما أنه لا يوصل إلى شيئ... ما هذا تشتمين بالعربية والإنجليزية ده كثير جداً "... دائما تضعها إبنتها بين إحساسين الإحساس الأول بمنتهى الشفقة عليها وعلى سوء حاضرها ومستقبلها وبنفس القدر تُعطيها الإحساس بأنها تستحق ما هي فيه ليس لأنها إختارته وتجاهلت رأيها ولكن لكثرة ما تُخرج من فمها عبارات صفيقة ومتدنية فهي إما أن تسخفها أو تسخر من طبيعتها الهادئة وميلها إلى السرحان.. والحقيقة أن " سعاد " كانت تتعمد الشرود.. تقتات روحها من أحلام اليقظة الموصولة داخلها.. تعيش بنصف عقل مع كل أحداث الحياه اليومية والنصف الآخر يغزل واقع مُشرق من أحلامها هي وأمنتياتها وكان هذا التوازي في مشاعرها يُخفف عنها الكثير لذة تستجلبها لنفسها وقتما تشاء تأخذ بها أجازة من أي حدث مهما كان مؤلماً.. تستمد قوةً وهدوءاً نسبياً على إيقاع حلم يقظتها فترتسم الإبتسامة على ملامحها ويتلاشى الضنا من نظراتها وتعاود إستئناف شئونها ومشاكلها اليومية من جديد والأمل لا يخبو من داخلها في غدٍ آت أجمل بكثير.. جارح العبارات من إبنتها وحقيقة الألم على إبنها " كريم " وذلك المستقبل المعتم الذي ينتظر " منى " ما لم ينصلح حال زوجها والأهم مستقبل هذا الطفل الحائر والذي لا ذنب له إلا أنه أتي إلى زوجين لا يستحقانه بكل المقاييس.. تُقرر مرة أخرى بينها وبين نفسها أن إبنتها لا تستحق " شادي " لأنها تزوجت من أبيه رغم الإعتراضات الأُسرية فأتت بملاك إلى هذه الحياه ليُعاني.. وهل يجوز أن تُعاني الملائكة.. وزوجها لا يستحقه لأنه لم يجعله يُغير من أسلوب حياته الذي تعود عليه ثم أن تبادل الشتائم والسباب بالعربية والإنجليزية المؤمركة لا يُحل شيئاً بل على العكس يجعل الطرف المشتوم يُعاند ويُصر على موقفه... وأخيراً ما ذنبها هي في سوء الكلام الذي تُكيله لها إبنتها وما تلك المثابرة التى تملكها على النقد الجارح والسخرية اللاذعة التي تكلمها بها... وزفرة خرجت منها

وهي تُقرر أن أمهات اليوم من ينفث فيهن الأبناء الضجر والضيق والغل من أي شيئ لا يروقهم وهل هذا صحيح أنه نوعٌ من الحب كما تؤكد لها إبنتها .. حب هذا الزمان !! نوع جديد مثل الأذواق في المأكل والمشرب والملــبس.. إتجــاه جديد مُغاير لما كانت عليه الدنيا من قبل يوم أن كان الإبن يختار الكلمات التــي يُخاطب بها ذويه... ودق الباب دقتين متتاليتين.. قامت من جلستها ومشت فتحته وكانت المفاجأة أن زوج إبنتها " أشرف " أمامها.. إستقبلته بكل ترحاب.. دخل وجلس قبالتها.. إنشغلت عنه دقائق في تجهيز شيئ يشربه فقد طلب كوب شاي وسكر مُضاعف.. عادت بالشاي وجلست قبالته.. لم يُضع وقتاً.. أظهــر لهــا موافقته على فكرة الطلاق وقبولها.. أوجعتها الكلمة حتى نُخاعها وتساءلت هــل أبناء هذا الجيل لا يشعرون بوخز كلمة الطلاق.. فإبنتها تطلبهــا وزوج إبنتهــا يُرحب بها ولم يبق غيرها ينخلع القلب منها عند معنى الطــلاق ... حوارهــا الداخلي مع نفسها قائم رغم أنها مُصغية إلى زوج إبنتها وتساءلت لماذا لا أكلمه وأواجهه بأن المشكلة الأساسية هو السبب فيها بسبب التعاطي.. وكأنه فهم مــا يدور في خلدها ففاجئها قائلاً " سيبك يا طنط من حكاية الشرب والتعاطي التــي تتشدق بها إبنتك " ثم سكت بُرهة وإنفجر قائلاً " مافيش عيل في إبتدائي إلا لما بيشرب النهاردة.. ما فيش راجل إلا لما بيشرب ونبعد ليه أيامك إنت أيام أفــلام فريد الأطرش ورشدي أباظة مش كان كل الرجالة بتشرب ويسكي وبيرة... كل الأفلام بتؤكد الحقيقة دي ".. هالها قوة حُجته وهو يقــول " ده الــرئيس أنــور السادات نفسه كان ها يصرح بالحشيش.. أهه كان أحسن من الهباب اللي مالي البلد ".. قالت من فورها " لكن هذا لا يُعطيك الحق في أن تتعاطى ثــم تقلــب البيت إلى جحيم وتتخانق مع دبان وشك " " بتخانق.. لأن بنتك بتفتح لي محضر تحقيق لما أرجع البيت.. وبتابعني بالتليفون طول وقت شُغلي.. هي عايزة إيــه؟ إذا كانت طلباتها موفاه هي وإبنها " من فورها ردت:

– طلباتها موفاه إزاي وإنت بعت عربتك لتسديد ديونك

- لأ لأ ياطنط ده يُعتبر تداخل في شئوني الخاصة والمفروض إنه يكون فيه حدود .. ثم أنا حر في عربتي !
- حتى إن والدتك زعلت جداً على بيع العربية .. ودي بداية بكرة تبيع عفش البيت ورا الشُرب .

إشطات غضباً :

- إسمعي ياطنط أنا مش جاي علشان أتهزأ .. أنا ما أخدتش بنتك من على السجادة .. ماهي كانت بتشرب زيي تمام .

إبتلعت " سعاد " لعابها ..

- ده كان زمان .. لكن مع وجود الزواج والإستقرار والأكثر مع وجود شادي يجب أن تتغير الأمور وعلى العموم الحمد لله إنك بعت العربة !

فنظر إليها مستفسراً فإستطردت :

- فاكر لما منى طلعت من تحت الدواسة كيس بانجو .. وكان يوم ..

ببساطة وتعجب قال لها :

- واحد من العملاء الأجانب طلب يشرب .. فقلت أجامله علشان يمشي الأمور مع الشركة اللي بأشتغل فيها وعلى العموم صاحب الشركة كان عارف وهو اللي دفع ثمن البانجو .
- هو صاحب الشركة بيشرب كمان !
- أيوه طبعاً يا طنط أنا مش بأقول لحضرتك إن التلامذة في إبتدائي بيشربوا

بعصبية كانت " سعاد " تقوم :

- وما فيش إعتبار لأنه بيعمل تآكل في مناطق عصبية في المخيخ بالذات.

قاطعها :

- ما حدش بيموت ناقص عمر ثم إن اللي بيشرب مش بيمشي على إيديه وبياكل بصوابع رجليه .. مانت شوفتي صاحب الشركة اللي أنا فيها فيه حاجة غلط؟
- لأ بس ...

قاطعها :

- بس بنتك بتحب النكد .. هي مالها ومالي ماتسيبني جاي تعبان ولا زهقان أخش أناملي ساعتين وبعد كده هابقى زي البمب .. لكن ما فيش على لسانها غير كلمة قواعد Rules .. Rules لدخول البيت والخروج منه .

دق الباب .. من دقته عرفت أنها إبنتها أشارت له بأنها " منى " إعتدل في جلسته بطريقة أكثر راحة.. دخلت الإبنة ووجدته فسلمت عليه بإنجليزيتها Hi سأل عن " شادي " أجابته بأنه نائم وأمامه ساعة كاملة ليصحو ... بهدوء كانت تطلب منه الطلاق وبهدوء أيضاً كان يُعلن لها موافقته السريعة عليه.. تكلما عن رؤية " شادي " وقررا أن مرة في الأسبوع تكفيه.. وإتفقا على نفقة شهرية له وبمنتهى اليُسر أخرج من جيبه ورقة وأمسك بالتليفون. بعد بُرهة كان يتواصل مع المأذون وهو يطلب منه الحضور الفوري.. أفهمها أن تتنازل عن مؤخر الصداق ونفقة العام مقابل الطلاق لأن أي قضية ستتكلف أكثر من هذا ولن تحصل على الطلاق قبل عشر سنوات.... كل شيئ تم في هدوء وسرعة حاولت الأم أن تعترض أو تؤجل للتفكير حين إلتفتت إليها إبنتها وهي تقول :

- دي حياتي والقرار قراري
- معلش بس المشورة كويسة
- أنا لم أستشر حين تزوجته فلماذا أستشير في الطلاق سيبك من الأكلاشيهات اللي حطة نفسك فيها وعاوزة تحطيني فيها .

لدهشتها كان زوج إبنتها يُردد ..

- بسم الله الرحمن الرحيم توكلنا على الله

المأذون كان أسرع منهما في إنهاء الإجراءات وهو ينظر مُبتسماً إلى " سعاد" ويردد "معلش ياست هانم الجيل ده يحب السرعة معلش ياست هانم" بعد أن تم الطلاق وإنصرف المأذون بقي زوج إبنتها أكثر من ساعة جالساً يتكلم

في كل المواضيع مع إبنتها بل يتضاحكان.. ويتضاحكان ثم طلب منها كوباً آخر من الشاي بالسكر الكثير.. قامت تعده وعادت بالكوب باغت أمها وهو يقول :

- إيه رأيك يا منى إحنا ناجحين كأصدقاء جداً .

أكملت له :

- لكن كأزواج في منتهى الفشل كأن نار ماسكة في جسمي وأنا زوجتك

ضحك بأناقة.. ثم نظر إلى إبنتها.. فنظرت إبنتها لـــه وكأنهمـــا لا يعرفـــان بعضهما أو كأن هذا أول لقاء بينهما وقال لها :

- إيه رأيك لو رجعنا لبعض؟

أرخت عينيها وبقيت ساكنة.. ثم جرت الأمور على وجه آخر من السرعة كان أكثر من قُدرة " سعاد " على متابعته فقد أمسك الهاتف وإستخرج من جيبه رقم تليفون المأذون مرة أخرى يسأله العودة... جرت الأمور على وجه السرعة والأكيد الأكيد أنها أكبر من قدرة " سعاد " على الإستيعاب أو حتى مجرد المتابعة.. دق الباب.. دخل المأذون.. فتح دفتره وأعاد الزوجين لبعضهما وهو يُردد " معلش ياست هانم الجيل ده كده يحب السرعة " .

*****

معرفتها أكيدة بإحتياج إبنها " كريم " إلى فترة راحة فلم تُكلمه في أي مـــا يمت لموضوع عودته دون أن يُكمل الرحلة مع زملائه.. لاحظت أنه ينام كثيراً فكانت تحرص على ألا توقظه وبينها وبين نفسها تُقرر أن عودته لعمله ليس قبل أن يصل زملائه..... وفي يوم إستيقظت فيه بعد العصر ولم تتخلص من حلمها بعد.. حدقت بعينيها في الحجرة لتتعرف على أشيائها.. لتتأكد أنه كان حُلمـــاً.. مجرد منام وعرفت أنه كان حُلماً خاصاً إلا أنه لم يكتمل.. يا إلهي لماذا تُداهمني الأحلام بكل تلك القوة والواقعية ثم تراخت في رقدتها وأغمضـــت عينيهـــا ثـــم تراخت في رقدتها مرة أخرى وأغمضت عينيها تسترجع ما كان ولكن لم تشعر بخصوصية الحلم مرة أخرى.. لم تفلح أن تستجلبه.. قرصة جـــوع داهمتهـــا..

قامت قاعدة وتناولت زجاجة الماء من جوارها أفرغتها في حلقها.. هدأت قليلاً من إنفعالها وبدأ نبضها ينتظم فتوقف اللهاث.. تناولت وسادة أراحت ظهرها عليها وعاد الحلم يلح عليها وتصدر عقلها سؤال واحد من ذاك الرجل الذي كان.. بالتأكيد لم يكن المرحوم زوجها والد " كريم ومنى ".. حاولت التمسك بتلابيب الحلم للمرة الثانية إلا أن الصور كانت تبدو أشد بُهتاناً ضائعة التفاصيل والملامح.. مدت ذراعها تشد كتاباً تضعه دائماً تحت المُصحف القريب منها كتاب في تفسير الأحلام.. فتحت صفحة حرف الراء ودارت بعينها إلى أن وجدت كلمة رجل ثم أغلقت الكتاب بنوع من خيبة الأمل فالرجل الذي كان لم يكن زوجها ولم يكن رجلاً معلوماً لها.. وهل للرجل المجهول معنى.. الرجل الذي كان واضحاً في تفاصيل جسده ولا وجه له!!...الرغبة داخلها تكبر في أن تناقش مع نفسها أشياء كثيرة وضحكت وهي تقول بصوت مسموع " أبعد هذه السنين التي وصلت لها تتلبسني الأحلام ولماذا؟ " نتيجة واحدة خرجت بها من تكرار هذه الأحلام أنها نوع من الهروب.. من الضغوط التي تُعايشها فكل ما يجري أمامها اليوم قد إختلف وبالتالي كل القيم والمعايير قد إختلفت أيضاً فكان ما يحدث هو أن عقلها الباطن يستجلب اللذة عن طريق الأحلام الليلية كنوع من التنفيس.. فهل لم تعد تكفيها أحلام اليقظة التي تغزلها وتعيشها وتستجلبها بإرادتها؟ ولكنها رفضت أي تفسيروتوغلت داخل نفسها أكثر وهي تُقرر أن المرأة لا تفقد حواسها مُطلقاً مهما تقدم بها العمر لأنها مُستقبلة.. وهل يمكن ألا تستقبل أي إمرأة مهما بلغت من العمر عتياً طعم أي شيئ مادامت حاسة التذوق باقيه فيها ثم واجهت نفسها أكثر صراحة وهي تهمس " ألم تكن أصيلة هانم دائمة الإنتقاد لكل ما ألبسه أو أطلبه.. ألم تقولها صراحة " لمنى " حظ إيه اللي مستنياه أمك بعد عمرها ده " وهنا إقتحم عقلها صورة " منى " إبنتها فلا يمكن للمرأة مادامت أصبحت أماً إلا أن يتصدر بنوها أحلى لحظاتها وأدقها خصوصية.. حبة القلب " منى " تلك اليتيمة التي ربتها بمفردها مهما كان ما

أصبح عليها حالها إلا أنها تُمثل عموداً أساسياً وجزءاً لا يُستهان به من حياتها سواء بلحظات الصفو السريعة التي كانت في طفولتها أو بلحظاتها الضارية والقاسية التي تُكابدها بمرارة الآن... وتساءلت هل لهذه الصغيرة بمعرفة العلاقات الحميمية بينها وبين زوجها؟ في أول زواجها سألتها هذا السؤال مباشرةً وأكثر من مرة وفي أوقات متعاقبة فكانت إبنتها تُراوغها وفي مرات أخرى كانت تؤكد لها بأن " أشرف " زوجها ليس مُتكرر العلاقة بها وأكثر من هذا أنه كثيراً ما كان يحمد لها طبيعتها وأسلوبها المُقل والذي لا يُطالب بالمزيد.. يومها الدماء صعدت في رأسها مما سمعته من إبنتها فكيف يُشجعها زوجها على أن تُخلق الجفوة بينهما متعمداً.. أفهمتها إبنتها أن هذه ليست جفوة على الإطلاق بل هو الأسلوب السائد الآن فأغلب الشباب في حالة عزوف يصل إلى مستوى عدم القدرة وأغلب الفتيات أيضاً لا يُقبلن على مثل هذه الممارسات.... بدأ ذهن " سعاد " يتفتق على أمور كثيرة مرت بها ولم تلتفت أو تتوقف عندها وبسرعة تذكرت أنها من سنوات ذهبت إلى مجلس الشعب بالصدفة مع عم أولادها عندما تذكر فجأة أنه على موعد مع أحد أصدقاءه هناك فإتجه على الفور إلى المجلس إلا أن القاعة أُغلقت عليهما وبدأت مناقشة قضية نقص الخصوبة بين الشباب.. كان الكلام بالإحصائيات والأرقام وأفادت الدراسة التي كان كان يتكلم من واقعها أحد النواب أن هذا يرجع إلى أكل " الفراخ البيضاء" المشُبعة بالهرمون والتي تؤدي إلى هذه الظاهرة.. كما أنهم أشاروا كذلك إلى ظاهرة نمو صدور الشباب بطريقة تُشابه شكل صدر الأنثى وإنبرى آخر يقول بإنتشار المخدرات بأنواعها هي السبب الرئيسي ثم إنبرت نائبة تؤكد أن السبب الرئيسي هو إنتشار ظاهرة الريجيم التي تتبعها البنات وتؤكد أن نُقصان الوزن الشديد لا يجعل للمرأة أي طاقة لممارسة المُعاشرة ثم أضافت وأيضاً لا طاقة لها على الإحتفاظ بالجنين في حالة الحمل فسُرعان ما يحدث الإجهاض وهي ظاهرة أصبحت مألوفة.. ما عاد الجنين يمكن الإحتفاظ به إلا

إذا لجأ الطبيب لخياطة غرز في رحم المرأة حتى **لا يسقط**.. ضجت القاعة بالضحك وتعجبت يومها " سعاد " من غرابة كل تلك المعاني التي إستعرضها النواب مهما كانت موثقة بالأرقام والإحصائيات.. والآن هناك صيحات تقول بأن لبس البنطلون " الجينز " أثر على خصوبة الرجال وبدل " الفراخ البيضاء " أصبح ساندوتش" الماكدونالدز " ومع عودة الهيروييين بعد محاربة الحشيش المسألة زاد سوؤها وتذكرت وهي صغيرة منولوجاً " لشكوكو " على ما تعتقد عن الكوكايين... تنهدت وهي تهمس " كله بيعود ولا جديد تحت الشمس " سمعت رد من داخلها " السيئ فقط هو الذي يعود ".. عادت صورة " منى " تحتل تفكيرها وإن إستقرت في رأيها أنها راضية بل ومُشبعة فالذي لاشك فيه أنه لو كان الأمر غير ذلك لما توانت عن الكلام سواء بالعربية أو بإنجليزيتها الشهيرة فبنات هذا الجيل لا شيئ يردعهن أو حتى يؤخرهن على أن يفصحوا عن أي شيئ وكل شيئ.. والأكيد أنه تبخر من عقلها الحُلم مع الرجل المجهول بكل معالمه.. صورة " منى " إحتلت بؤرة شعورها ومحت ما عداها.. حمدت الله أنها منذ عودتها لزوجها لم تسمع منهما أي خلافات.. كررت لنفسها لابد أنها سعيدة والأكثر مُشبعة.. لا يهُم الوزن ولا يهُم عدد المرات أو التكرار المهم الإحساس بالسعادة.. ضحكت فعبارتها الأخيرة هي ما قاله أحد النواب يوم أن كانت في مجلس الشعب.. يومها أيضاً شردت كعادتها لفرط إحساسها بغرابة ما يُقال وإن بقيت تسمع بأذن واحدة تأكيد نائب آخر بأن هذا تخطيط من إسرائيل لتدُمر البنية القادمة التي يتوقف عليها مستقبل مصر ومستقبل العالم العربي بأجمعه.. نائبة إستنكرت لماذا كل المؤتمرات الغربية والأمريكية تُركز على فكرة تحديد النسل.. أسكتها جميع الحضور بنوع من الإستنكار الواضح وهم يُطالبون بعدم التشكيك في ما يقال عنا خاصة أننا نزيد بمبالغة شرسة وصلت إلى حد مليون مولود في العام.... وفجأة إنتهت الجلسة وإنفتح الباب المُغلق..

قامت من فورها تتجه إلى العربة وبجوارها عم أولادها بعد أن إختلى بصـــديقه أكثر من النصف ساعة ويومها في الطريق قال لها :

- إيه رأيك في الكلام اللي سمعناه؟

- والله هذه أول مرة أعرف أن مثل هذه الأمور تُناقش تحت قُبة مجلس الشعب!

إندفع من فوره :

- ياريت هذه القضايا تُذاع مباشرة

- إزاي ؟

- حتى يستنير الناس .. لكن للأسف كل ما دار من كلام سيُلغى تماماً ولا يُذاع إلا الشكليات .

قالت بعد تردد :

- أصلها أمور حساسة يمكن ......

رد من فوره وبإندفاع أكثر :

- حساسة إيه ياسعاد .. هناك حقائق يجب أن تكون معروفة

قاطعته :

- قصدك إيه يعني ؟

- سعاد عندما تسود حالة الإرتخاء بين أمة تترتب عليها نتائج خطيرة.. عندما يعزف الرجال عن المعاشرة الزوجية يسقط فوراً معدل الإقتصاد كأنما هناك تلازم بين القوة والفاعلية والإرادة من مخدع الفراش إلى بورصة الأوراق المالية في كل شيئ .

*****

ليلها ونهارها موصول بأسلاك من إحساسها بالقلق والخوف على إبنهـا.. ورغم أن يومها يمتلئ أحياناً بأحداث تفرض عليها نوعاً من المشاركة الوقته إلا أن هذا لا يستغرقها تماماً ولا يُنسيها حقيقة وضع " كريم " فقد أيقنـت وآمنـت أنها لابد أن تفعل شيئاً وأن تتخذ خطوات قبل أن تعود البعثـة بزملائـه حتـى

يستطيع أن يعود إلى عمله وتفتق عقلها عن قريبة بعيدة لأمها ويعمل زوج إبنتها سفيراً في الخارجية فلم تتردد في الذهاب إليها وهي تروي للسيدة ما حدث لإبنها عامدةً وكلها أمل في أي نوع من المساعدة حتى لو كانت في شكل توجيه أو نصيحة إلا أن زوج إبنتها السفير الذي كان حاضراً إستأذن من الجلسة وخطى خطوات قليلة ليجلس أمام المائدة والخادم المُدرب يُقدم له أنواع الطعام وكأنه لم يسمع شيئا... وتذكرت أنه كان للمرحوم زوجها صديق أصبح له منصباً مرموقاً ولا تخلو جريدة أو مجلة من صوره وتصريحاته الكثيرة فلم تتردد ذهبت إلى بيته أكثر من مرة وفي كل مرة لم يكن موجوداً فكانت تترك له ورقة مع خادمه وفي مرات أخرى كانت تترك له الورقة مع حارسه تطلب فيها موعداً لأمرٍ هام إلا أنه لم يرد مرة على ورقاتها التي تعدت العشرين أيقنت أن في مصر وطنها يستحيل على المرء أن يقابل مسئولاً إلا لو كان آتياً من مسئول يرأسه أو يوازيه.. وهي تبخر من عقلها أن تلجأ لأي إنسان من أصدقاء عمه ليوصلها إلى أحد منهم.. " ولماذا الواسطة ياربي ".. إمرأة وحيدة بإبنها تريد أن تسوي حالته ليعود إلى عمله وكأنها تحرث في البحر وعم إبنها في الخارج حيث يعمل هناك فسقط عليها الوعي مرة أخرى بضراوة الفقد.. ها هي تحتاج له أباً حيث يستحيل وجوده.. والسماء لا تُمطر آباء.. لا توزعهم هبة.. من مات أبوه فقد مات وإنتهى الأمر.. مرارة اليُتم تسري في عروقها سريان الدم السيال فإلى من تلجأ وإلى من تلوذ.... في خضم حيرتها في تلك الأيام افهمتها صديقتها التي حاولت " سعاد " أن تُزوج إبنتها بأن السائد الآن ومن يُريد أن يقابل أي شخصية هامة ما عليه إلا أن يذهب إلى مجلس الشعب. " ألم تقولي أن العريس الذي رفضته إبنتي الخايبة.. ألم تقولي بأنه يعمل في العلاقات العامة فلابد أن إتصالاته واسعة ويستطيع أن يُدخلك إلى هناك " وكأنها خطفت إقتراح صديقتها حتى قبل أن تسمعها إلى النهاية وعرفت من إتصالها الفوري بالعريس أن له أخ يعمل مخرجاً في التليفزيون وكثيراً ما يذهب إلى المجلس.. ولم يتوان بعد ذلك

في أن يتفق مع أخيه ويرتب لها كل شيئ.. الأمل يكُبر داخلها ويملأ قلبها في أن ترى صديق المرحوم زوجها وتعرض وضع إينها وتطلب عونه وعندئذ سيعود إينها إلى عمله وتنتهي مشكلته.. طعم الأمل تعيشه فإنطبع على سحنتها وأزاح الحيرة والقلق من عليها.. وفي زينة معقولة جهزت نفسها " الناس لا ذنب لهم فيما أنا فيه كما أنهم يعشقون القوة ".. في أول نزولها من عربتها لمحت عربة التليفزيون وعرفت المُخرج من شدة شبهه بأخيه.. مشت بجواره، الضابط في دخولهما إبتسم وأفسح الطريق. دلفت داخلة بإطمئنان القاعة تعج بالنواب والنائبات.. أجلسها المُخرج على بداية الممر.. إبتسم وهو يقول " هذا أحسن مكان لترِي الباشا فور دخوله " سألته بنوعٍ من القلق " هل من الأكيد أنه سيأتي " إستأذن منها وهو يؤكد بأنه لابد أن يُسجل مع " العبادي بيه " المطالب بأكبر عدد من المقاعد للعمال والفلاحين.. لم ينس أن يُشدد عليها بأنها ستستفيد كثيراً من مُتابعة ما يجري ثم تركها مُبتعدا... عدد كبير من شباب الشُرطة يصطفون داخل القاعة.. لاتدري لماذا داهمها شعور بنوع من الأسى وهي تُقرر بينها وبين نفسها أنه ليس شرطاً أن يكون هؤلاء الضباط هم أحسن دُفعتهم أو أكثرهم كفاءة بل الأغلب أن الأفضل منهم مُبعدون في أقاصي الصعيد في الكفور والنجوع لأن ليست لهم واسطة..... كان المُخرج قد جهز ورتب عمله تماماً فعاد إليها حتى لا يتركها وحدها.. جلس بجوارها.. وبلا إرادة أسرت له بما في نفسها فإبتسم على الفور وهو يهمس قريب من أذنها " هكذا مصر يا مدام تأكل بينها " وفجأ قرع رئيس مجلس الشعب المكتب الذي يجلس عليه ثلاث مرات ففُتحت الجلسة وبدأ يقرأ من أوراق أمامه ولم تمر دقائق إلا ووجدت صديق المرحوم زوجها والذي أصبح رجلاً مهماً بشدة يدخل.. يسير في الممشى الذي يتوسط القاعة التي تجلس " سعاد " على طرف أحد صفوفه.. يسير بتواضع ملحوظ.. يُحيي الجلوس على الجانبين وحين تلاقت عينها بعينه حياها بتواضع وسماحة نفس.. وفي مكانه في الصف الأول كان يجلس بين وزراء

وكبراء زملاء له وبين لحظة وأخرى كان يُحييه أحد الحاضرين ويبعث بسلامه همساً فيرد الرجل بإنحناءة من رأسه وإسدال جفنيه وهو يربت على صدره إمتناناً وعرفانا... لم يغب الرجل عن نظرها منذ هذه اللحظات.. ثم حاولت بعد ذلك أن تلتفت لتتابع ما يجري في الجلسة رغم أنه كان يغلبها الشرود الأكيد والإستغراق في مستقبل " كريم "... وهي تسترجع في نفسها ما ستقوله له إلى أن إنتهت الجلسة بعد أكثر من ساعة وبدأت القاعة تموج بمن فيها وتحلق عدد كبير من النواب والوزراء حول صديق زوجها.. شقت طريقها بصعوبة كبيرة إلى أن وصلت مكان وقفته.. إقتربت منه.. دارت حول المُتحلقين حوله.. ثم دلفت بين إثنين ووقفت في مواجهته " ساعدني يارب " إلا أن الرجل تعمد أن لا تلتقي نظراتهما.. كان كمن له عينان في جنب رأسه فإذا زحفت عن يمينه لتراه إلتفت بل إستدار إلى الشمال وإذا زحفت إلى شماله مع الدائرة المُتحلقة حوله إستدار هو إلى اليمين. ظل يحاورها حوالي عشر دقائق والعرق سيال من رأسها إلى ظهرها.. دق قلبها مسموع في أذنيها.. كل معاني الخيبة حطت عليها وإنحسر تفكيرها في ضرورة الإنسحاب من أمامه حين وجدت المُخرج يمسكها من كتفها.. يدفعها من ظهرها تجاه الرجل وهو يقول بصوت مسموع " ياباشا.. ياباشا هذه قريبتي تريد من وقتك دقيقة واحدة " وعلى الفور إبتسم لها في تواضع جم.. إبتلعت لُعابها.. بداية طمأنينة عرفها قلبها.. إقتربت منه خطوتين.. أمال برأسه ناحيتها وهو يسير ببُطء في إتجاه الممشى وبدأت تُكلمه.. أسرع من خطوه.. لم تُكمل جملة واحدة إلا وكان كمن يركب " عجلاً " في قدميه وأسرع من البرق أصبح في نهاية الممشى وفجأة تجهم وجهه وحدق فيها خُيل إليها أنه يكرهها.. أسرع أكثر خارج حدود المجلس حيث كان يقف من يفتح له باب العربة وشباب الضباط يؤدون له التحية تسمرت مكانها ولم تفهم شيئاً وعرفت بأنها إذا كانت موجودة مع شخص ثالث تظاهر بأنه سيُصغي لها حتى إذا أصبحا وحدهما أدار لها ظهره بتجبر محسوس.. مبهوتة تفتح عينيها

عن آخرهما.. في داخلها ندم الدنيا وهي تهمس لنفسها أكثر من مرة " ما كـان يجب أن ألح عليه وأصمم فأول إنطباع هو أصدق إنطباع منذ أن كنت أترك له الخطاب تلو الآخر على باب بيته " عادت أدراجها داخلة.. كان المُخرج مشغولاً مع فريقه يستعد للخروج... داهمتها الرغبة في الإرجاع.. تـوارت قاصـدة " الحمام " وكأنها تقتلع معدتها خارجها.. غسلت وجهها وعلى أحد كراسي الصف الأمامي كانت تسقط قاعدة نفس الكرسي الذي كان يجلس عليه الرجـل.. بقايـا دوار خفيف كان يجعل كل شيئ يهتز هزات مُتتابعة إلى أن إستقرت الأشياء في عينيها. موقف الرجل وذلك النُكران الذي عاملها به كأنه إنتزع معدتها منهـا . بقايا أعضاء ونواب يتكلمون شردت بفكرها تسترجع كل ما سـمعته.. إسـتولى عليها حالة من الشك في كل ما سمعت. تتصور أن كل رجل طلع إلى المنصـة بخطوات واثقة وتواضع ظاهري في حقيقته غير صادق ولا يعمل إلا مـا فيـه مصلحته هو أو مصلحة من هو أقوى منه أما الأغلبية العُظمى من أبناء دائرته من المقهورين والمظلومين فلا يدري عنهم شيئا " ثم يتشدقون بمقاعد للفلاحين والعمال تحقيقاً للعدالة ".. إحساسها أنها تجلس في محفل لعرض أزيـاء وكـل عارضة تطلع تُوزع إبتساماتها ونظراتها الحانية لأنهـا الصـنعة ولزوميـات الصنعة... لحظة كراهية مُعتمة أسقطتها على كل مـا رأت وسـمعت.. ترفـع وجهها إلى القُبة ثم تنظر إلى الكراسي الفارغة.. بعض النواب هنا وهناك تُردد " كل هذا خداع فمصر تأكل بنيها كما قالها المخرج "... الكُره يكبر داخلها أكثر مما تحتمل روحها فلجأت كعادتها الخَلقية إلى أحلام اليقظة.. تسـتجلب الحُلـم لنفسها عامدة وتخيلت قاعة مجلس الشعب مملوءة بالكُبراء.. يعتلـي المنصـة الرئيس.. يدق بيده يطلب الهدوء.. يتكلم نائب ولكن لا تسمع له صوتاً ولا تسمع إعتراضات باقي النواب إلى أن يأتي شاب ويُدحرج كـرة صـغيرة مـن أول الممشى.. الكُرة تدق كدقات المنبه.. الشاب ينظر إليها.. يُشير لها.. تقترب منه في خطوات بطيئة.. يضع يده على كتفها.. يشدها.. يكاد يحتضـنها.. يسـيران

مرتفعان عن الأرض إلى أن يخرجا إلى الطريق.. يرتد باب مجلس الشعب مُنغلقاً.. وعند أول خُطوة لهما تسمع صوت إنفجار.. تبتسم للشاب الواضع يده على كتفها.. تسقط دموعها وهي تقول له " حتى لو أن مصر تاكل بنيها فهي تلد الرجال "..... أفاقت من حُلمها على رجة شديدة أوقعتها من فوق الكرسي الموجود في الصف الأول.. هرع إليها أحدهم.. ناولها حقيبتها.. كان ومازال في أُذنيها صوت الإنفجار.. أفاقت على أحدهم " أي خدمة يا مدام " إتجهت فوراً لتخرج من القاعة.. وهي تبتعد بعربتها نظرت في المرآه كأنها تريد أن تتأكد من إنفجار مجلس الشعب بمن فيه وإنه لم يكن حُلماً من أحلام يقظتها التي تهرب إليها.. كان وجهها مازال ندياً من أثر دموعها وهي داخل المجلس.. أخرجت منديلاً وهي تمسح وجهها وتشرئب بعنقها لترى المرآه من أمامها لمحت عجوزاً تُشير لها.. تمهلت بعربتها وجاءتها العجوز من شمالها طلبت أن توصلها وهي في طريقها للقلعة.. فتحت لها الباب على الفور.. تعود دائماً من سكة صلاح سالم تفادياً للزحمة.. والمرأة بجوارها ذكرت لها أنها من ساكني المنطقة أباً عن جد كانت كأنها تشد " سعاد " من إستغراقها الشديد في كل ما جرى لها إلى أن وصلت في حديثها معها إلى واقعة مذبحة القلعة... كانت " سعاد " تُصغى لها بأذن واحدة إلا أنها سألت نفسها بتأكيد غريب وما الفرق بين مذبحة القلعة ومذبحة مجلس الشعب بخيالي " .

*****

رغم أنها أجلت التفكير في عودة إبنها إلى عمله وربطت هذه العودة لحين وصول باقي زملاءه من البعثة إلا أن القلق والحيرة مازالا يأكلان في صدرها بعد إخفاقها في أن تقابل أي مسئول.. تطحن عقلها طحناً وهي تتساءل هل سيسمحوا له بالعودة إلى عمله بوزارة الخارجية بعد أن أقدم على فعلته الغريبة باللجوء السياسي هناك أم أنهم سيستغنون عنه بحُجة تصرفه الغريب " رحمتك

يارب " وهي غارقة في لُجة من الحيرة إذ دق الباب فجأة ولما قامت مُتثاقله تفتح الباب كان هناك شاباً يمد لها يده ببرقية وعلى وجهه شبه إبتسامة إلا أنها ولا إرادياً توجست خائفة منه ومما في يده وتصورت على وقفتها أنه رجلٌ شُرطي سيقبض عليها لأنها حلمت في لحظة بتفجير مجلس الشعب.. إنتفضت على وقفتها وتراجعت خطوتين إلى الوراء.. إقترب منها الشاب وهو يُحدق فيها ويُقدم لها ما في يده ويقول بنفس إبتسامته " دي برقية يا مدام " لم يتركها الخوف المُفاجئ الذي حط عليها وطلبت منه أن يفُضها وقبل أن يفعل كان يؤكد لها أنها من الولايات المتحدة.. شُحنة إطمئنان تلبستها من رأسها إلى قدميها وخطفت البرقية منه لتعرف أن عم إبنها سيصل في غضون ساعات ليمضي شهراً بالكامل في القاهرة.. إحساسها أنه الفرج الآتي من السماء التي لا تنام ولابد أنها ستجد مع عم إبنها الحل وسيعود " كريم " إلى عمله.. في هذا الوقت كانت تعد الساعات بحساب دقيقة بدقيقة إلى أن وصل العم إلى بيتها.. هاشاً باشاً مُحملاً بالكثير من الهدايا.. سأل عن الولد والبنت.. أطال النظر إليها ثم قال " أنت.. أنت الزمن لم يأخذ منك شيئاً بل زادك ".. إبتسمت فأضاف " أنت الآن بعمرك هذا أجمل من يوم زفافك إلى المرحوم أخي ".. سألته عن زوجته وحال العمل.. إعتدلت في جلستها وهي تشكره على هداياه وبدأت تروي له ماحدث لإبنها حكت له ما صادفها من تجاهل المسئولين وحتى الأقارب.. إبتسم وهو يقول " لا تُحل الأمور بهذا الشكل يا سعاد.. أنت قليلة الخبرة لم تعركِ الحياة كما ينبغي عن طريق التعُلم كمرحلة أولى ثم بعدها عن طريق العمل خارج حدود منزلك مهما كان لعملك الذي تقومين به الآن من قيمة.. هاها.. مازلت تُصدمين من الناس.. يا حبيبتي يا زوجة العزيز المرحوم أتركي لي هذا الموضوع " ثم إنتقل إلى السؤال عن إبنتها " منى".. بالطبع لم تستطع أن تُصرح له بكل شيئ.. فقط ما قالته كان مُنصباً على حقيقة أن زوجها يتعاطى المخدرات بأنواعها إلا أنها لم تجرؤ بالطبع أن تقول له إن " منى " نفسها كانت

تتعاطى هي الأخرى ولكنها توقفت عند الزواج.. أكد لها مرة أخرى بأن عادة تعاطي المُخدرات إستفحلت في المجتمع المصري.. لجأ إليه الشباب كمهرب من واقع لا يؤمن لهم أي إحتياج من إحتياجات الحياه فالعثور على عمل بات صعباً والعثور على مسكن ليس بسهولة ناهيك عن عدم وجود تأمين صحي لكم والأدهى أن التعليم لم يعد مجانياً بكل المقاييس ناهيك عن الإنغلاق الذي تعيشون فيه فرفع أسعار كل شيئ سألته هل حقيقة أن دخل الفرد في البلاد الغربية يوازي الإرتفاع عالمياً.. فأكد لها أن زيادة مليم واحد في السجائر أو البنزين يمكن أن يُقيل وزارة كاملة " أنا ها قولك إيه ولا إيه ده كفاية قانون أجر البطالة المعمول به هناك لا يجعل أي شاب يتضور لا جوعاً ولا عُرياً بلا مسكن في حالة توقفه عن العمل ولا حتى البطالة تؤجل زواجه ها.. ها.. ها ربما هذا ما أوقع الشباب المصري في مستنقع التعاطي " ثم إعتدل في جلسته ووضع ساقاً على ساق وهو يقول لها بأنه لا يجد هذا سبباً للإنفصال بين " منى " وزوجها فهذه ظاهرة في الشباب المصري ولن تجد شاباً نجا من هذه العادة اللهم إلا إذا بحثتِ عن إبرة في كومة تبن.. ثم أضاف وهو ينظر إليها نظرة خاصة " ياستي دي البنات دلوقت بتتعاطى إلا أن " .. دق قلبها وهي تسأله " إلا أن ماذا " أجابها من فوره " إلا إذا تزوجت مثلاً أو أنجبت فإنها قد تتوقف نسبياً " .... تسارعت دقات قلبها وإنقلبت معدتها فكانت تعاني دواراً ورغبة في الإرجاع.. تمالكت نفسها وإستأذنت في دقائق ودخلت دورة المياه.. نظرت إلى وجهها في المرآه.. همست بصوت مسموع " لابد أنه عرف أن منى كانت تتعاطى لا يمكن أن يكون هذا الكلام أتى مُصادفة.. قد أكون بطيئة الفهم كما تقول أصيلة هانم حماة منى ولكن كلماته تجعلني أفهم ولو كنت من حجر أصم.. ماذا أفعل؟ وماذا أقول له؟ هل أقول أنني كنت نائمة على وداني حين إنجرفت إبنتي إلى هذا التيار.. لابد أنه ينظر إلي الآن بنوع من الإحتقار فأنا في نظره لم أكن أمينة على إبنة أخيه"... هل كان عملها في مرسم بيتها وتوزيع اللوحات بعد ذلك قد

إستغرقها إلى الحد الذي قصرت فيه في متابعة " منى " أم شغلها الحلـم الـذي كان يُلح عليها في أنها ستجد أو ستعثر على إنسان ما وهذا ما كانت تُشير إليـه بكلمة الحظ وكانت إبنتها وحماتها " أصيلة هـانم " يسـخران مـن أحلامهـا وأمانيها.. كانت واقفة تستند بذراعها على الحوض وتُحني رقبتها إلى أسـفل.. رفعت رأسها ونظرت إلى وجهها في المرآة وهي تتساءل هل هذا الوجه الدقيق شديد التعبير هو ما شغلها عن " منى " هل شعرت بجمالها فإنشغلت عن البنـت والولد... وكانت تُقرر بأنها رغم السن الذي وصلت إليه فالغريب فعـلاً أنهـا تزداد نُضجاً وثقلاً وهذا إنعكس على سحنتها فبدت أصغر بفارق كبير عن حقيقة عمرها.. نظرت في ساعتها أيقنت أنها تأخرت على عم أولادها.. هرولت إليـه حيث يجلس في الصالة.. إعتذرت عن التأخير.. لم ينتظر رداً منها بـل أكمـل حديثه " أنا أنصحك بأن لا توافقي منى على فكـرة الطـلاق سـوق الرجـال مضروب في مصر " كان يؤكد لها في حديثه أن بقاءها متزوجة أحسن الحلول وأكثرها واقعية حتى من أجل صالح الطفل في الوقت الراهن ثم واصل حديثـه وهو يقول " كما أن سوق الرجال مضروب فإن سوق البنات أيضاً مضروب ".. صوبت حدقتيها إليه وهو يقول بتأكيد " صعب أن تجدي عذراء الآن صعب جداً أن تعثري عليها.. الكل يُمارس من خلف الأبواب وحتى الشباب نفسه لـم تعـد تُعنية أن تكون البنت بنتاً.. فكرة العُذرية إنتهت لم تعد لها قيمة وهذا بسبب قسوة الحياه كما قلت لك لا أدري ياسعاد.. إن كنت فهمت ما أعني أم لا المهم لا أريد أن أوجع دماغك " ثم أراد أن يؤكد لها بأن المسألة لم تعد شخصية وفقط مجرد أن شاباً أراد أن يتعاطى " لا لا ياسعاد الأمر الذي وصل إليـه حـال الشـباب المصري يؤكد أن هناك من يدفعون بأطنان المخدرات على إخـتلاف أنواعهـا عبر سيناء بغرض خلخلة البنية الأساسية لمستقبل مصر بعد ذلك يسهل جـرف الشباب إلى قبول أي قيم أو تنازلات عن أي مبادئ هذا هو المطلوب أن يكـون عليه الشرق لنصير ترس في عجلة تدور من أجل رفاهيـة الغـرب وتـأمين

إسرائيل " ثم قال بلطف " هل أطمع أن أشرب من يديك كوب ماء مُثلج " إنتفضت من مكانها وجرياً توجهت إلى المطبخ وهي تلعن عادة الشرود التي أصبحت مُستفحلة فيها... وهناك جهزت الكثير وعادت تحمل " الصينية " إذ قام واقفاً وهو يتناول من يديها.. نظر إليها طويلاً ثم أرخى جفنيه وبدى مُترددا وهو يستسمحها فيما يقول " آسف جداً ولكني أريد أن أنبهك إلى شيئ هام " بدى مُتلعثماً وهو يسألها ويستفسر عن العلاقة العاطفية بين إبنتها " منى " وزوجها.. توهجت أُذناها لإحساسها بالحرج وأسرعت بإسدال خُصلة شعرها من جنب رأسها لتُداريها ونظرت إليه فأفهمها بأنه يعول كثيراً على مسألة الإشباع بين الزوجين " فإذا ما باتت الزوجة سعيدة مرضية فهذا لا يدع مجالاً للمُشاحنات والخلافات المستمرة التي ذكرتيها مثل الخلاف على تعليق صورة أو لوحة يميناً أو يساراً أو مسألة أن تطرد زوجها وتُلقي بأشيائه من الشباك "... ثم أضاف بما يعني " أن هذا هو عقلها الباطن الساخط الذي يتصرف.. فإن المرأة حين تتعرف على الرجل ولا يُرضيها فإنها تُصاب بما يُشبه الجنون حتى ولو لم تُدرك أو يُدرك من حولها هذا... هذا إذا صدق حدسي. إن العلاقة الصحيحة لا تدع مجالاً لتبادل جارح الكلمات اللهم إلا إذا كانت البنت تُعاني فالمرأة كالمحارة لا تتفتح إلا لتأكل أما إذا لم تجد شيئاً فإنها تنغلق على هواء أوخواء وهذا يسبب أعتى الآلام.. ألا تتذكري جلسة مجلس الشعب التي حضرناها سوياً من عامين تقريباً " بعفوية شديدة كانت تقول له بأن " منى " لم تشكو مُطلقاً من هذه الناحية.. عاد يؤكد بأن العيب الجوهري في تعاطي المخدرات هو وأد الرغبة ثم يتكرر هذا الوضع يومياً وتقل فرص اللقاء الناجح بين الزوجين وتكون المُحصلة أن تبدأ الزوجة بالتوتر ثم العصبية ثم التنفيس عن ذلك بالخناق المستمر.. ضحك وهو يؤكد مرة أخرى بأن هذه حقيقة علمية وليست من عندياته ثم قام واقفاً ليُسلم عليها ولم ينسى كعادته أن يُقبل وجنيتها .

*****

" يا الله أين أنا من أمسي قبل أن يجئ عم أولادي " وشوشت لنفسها بهذه العبارة وهي جالسة عن يمين أحد اللواءات وأيضاً أحد وكلاء وزارة الخارجية لأنه أصلاً من ضباط الثورة.. جالسة مُزغردة.. ترتدي ثوباً فيروزياً لونها المُفضل وتضع ساقاً فوق ساق، إينها " كريم " أمامها يبتسم بأناقة.. خُصلة من شعره الأسود تدلت على جبينه وإينتها " منى " عن يسارها وبجوارها " شادي " أما " أشرف " زوجها فيقف خلف إينها إلى أن تأتي العروس إينة اللواء وكيل وزارة الخارجية والتي حيت الجميع بمنتهى الحميمية وجلست بجوار إينتها.. قُرأت الفاتحة.. تناول الجميع عشاءً راقياً في إختياراته وحانت لحظة الرحيل إلا أن إينة اللواء السفير إنفردت بإبنها في " بلكونة " قريبة مُغلقة بالزجاج إستأذنت من الجميع بود وأدب كبيرين ورحب الجميع بالموقف فهو دليل قبولها الكامل لإبنها... فرحت " سعاد " وعدلت كُرسيها ليكون ظهرها مواجه لمكان ما يجلسان وإنفتح أكثر من حديث.. وتشعبت الأحاديث.. بعضها ضاحك وبعضها في السياسة وجزء كبير عن حبها للرسم.. جاملها السفير بعبارات كثيرة وهو يُعلق بأنها في حقيقتها تبدو أصغر من أن تكون والدة لشاب مثل " كريم ".. شكرته وهي تحرصُ كل الحرص على أن لا تستدير حتى ولو بنصف وجهها هنا أو هناك حتى لا يظن أحد أنها تتسمع أو تبحث عن إينها.. حاولت في كل تصرفاتها أن تُعطي الإنطباع أن إينها له شخصيته المستقلة.. حاولت أن تُعطي الإنطباع أيضاً أن إينها ناضج فكرياً وإنها رغم أنها ربته مُنفردة إلا أن له الكثير من الإستقلالية.. حاولت أن تقول أن ما حدث منه في " ألمانيا " وكانت تعني فعل اللجوء السياسي هناك بأنها كانت لحظة تسرُع لأنه فقط صغير السن قليل الخبرة فلم يتحمل تكتُل الآخرين ضده.. كما أنه جاد فيما يخُص عمله وأراد أن يحقق الهدف الذي سافر لأجله.. كانت بين كل عبارة وأخرى من حديثهم الجماعي تُحاول أن تشرح تصرف إينها وكان اللواء السفير في غاية التفهُم والرقة وهو يُردد بأن على المرء ألا يُربي أولاده على الشفافية فقط إنما لابد من

أن يسُقيهم تناقضات المجتمع بل حقيقة ضراوة المجتمع وقسوته وكيف على الشاب إدارة دفة الصراع في العمل والحياة والعلاقات فما الحياة في حقيقتها إلا مجموعة من صراعات لا تنتهي.. عبارته مست أعمق أعماقها فالواقع الذي إكتشفته مؤخراً بعد واقعة اللجوء أن إبنها عاش مُفتقداً وجود النموذج الذي يحتذي به في حياته فوجود الأب الرجل ومعاناته اليومية مهما كان عمله أو مهما كان مركزه في المجتمع تعلم الإبناء إدارة دفة الصراع في مناحي الحياة فالأب مثلاً لا يلجأ إلى أي مكان أو وزارة غير وزارته أو لا يترك عمله عند أول صعوبة.. إنه يُكابد ويُعاني ويتألم ألماً عظيماً قد يحني رأسه إلى أن تمر العاصفة وقد يصبر إلى أن يأته حل قدري وقد يتفهم وجهة نظر الآخرين ويُعدل هو من سلوكه أو قد يصل إلى النجاح في التعامل حتى مع الأعداء. أيقظها اللواء السفير من شرودها وهو يقول " لا تشغلي نفسك بهذا الموضوع. فقط عليه أن يحضر إليّ في الوزارة غداً " شكرته ورغماً عنها شرُدت مرة أخرى فعبارته الأخيرة كأنما ضغط بها على وجيعتها التي تُلازمها دوماً فرددت بعقلها " صحيح اللي له ظهر ما ينضربش على بطنه ".. في أعماقها حمدٌ لله وشكر لهذا الرجل فكلماته وموقفه أعطاها الشعور الفياض بأنه أب لإبنها ورددت مرة أخرى بينها وبين نفسها " هذا موقف أبوي أكيد " إبتسمت من وعيها بأنه صار لإبنها أبوان العم صاحب الفضل في هذه الخطوة ثم إستجابة اللواء أحد أعضاء الثورة بقبوله أن يكون " كريم " زوجاً لإبنته في المستقبل القريب.. أحمال.. أحمال سقطت عن ظهرها.. الراحة جعلتها تستريح في مقعدها فعادت بظهرها إلى الخلف.. مشت الساعة بهم إلى ما قبل مُنتصف الليل بدقائق عشر.. إستأذنت إبنتها وزوجها ومعهما " شادي " الذي نام على رجليها.. جاءت العروس مُهرولة لتسلم عليهما ثم عادت إلى حيث يجلس إبنها ومرة أخرى إنخرط عم إبنها واللواء في حديث سياسي لأول مرة تعلم أن الملك " فاروق " كان مؤرقاً من وضع فلسطين ولأول مرة تعرف أنه كان هناك إتفاق رفضته أمريكا بشأن

فلسطين.. فقد كان يُمكن أن تكون فلسطين مثل لبنان طوائف.. هذا الفكر كـــان موجوداً ووارداً أيام الملك " فاروق " قبل عام ١٩٤٨ على أن يكـــون رئـــيس فلسطين يهودياً. وكاد العرب العُقلاء أن يقبلوا هذا الحل إلا أن القوى العالميـــة المُتربصة مثل " إنجلترا " رفضت كما رفضت أمريكا ثم قـــال اللـــواء " لـــو أن" رابين " موجود لوُجدت حلول كثيرة ولكن للأسف ليس في إسرائيل رجل كلهم كذابون لا يوجد مثل " رابين " أو " بيجين " أو " جولدمائير " ثـــم عـــاد ليقول " ممكن أن تكون دولة في فلسطين وتتسع ليهود العالم تكون لهـــم وطـــن وليس دوله.. تذكرت " سعاد " على الفور أيام طفولتها وزميلتها التـــي كانـــت تكبرها " جهاد القسام " تذكرت أنه كان لها مثل هذا الكلام إلا أنها كانت أصغر من أن تعيه.. مر بخاطرها حقيقة أن الله سبحانه وتعالى كلم " موســـى " عنـــد جبل الطور ولكن الإسلام خاتم الأديان نزل ولن ينزل بعده دين فكيف غاب عن الناس رفض معنى الإكتمال والأوج.. أكد عم " كريم " أنـــه وســـيادة اللـــواء أصدقاء من أكثر من ثلاثين سنة فضحك اللواء وهو يقول له " ولكنك لم يكـــن لك في السياسة أنت تعشق الترحال " ضحكا سوياً.. أكمل العم " هـــل تعرفـــي ياسعاد أن سيادة اللواء من الضباط الأحرار.. هذا الرجل كان يضع المنشورات داخل عربة الملك " مشت الساعة إلى أكثر من الواحدة والنصف بعد منتصـــف الليل.. نظرت إلى عم أولادها فأشار لها بطريقة خفية أن تنتظر إلى أن تُنهـــي العروس حديثها مع إبنها حيث يجلسان.. أمر اللواء خادمه أن يُحضر مشـــروباً .. شربوا ما قدم إلى أن مشت الساعة إلى ما بعد الثانية.. ووصلت إلى الثالثـــة ولا يُسمع أي صوت أو همس لإبنها وعروسه فأعادت النظرة إلى عم أولادهـــا الذي طمأنها أنه سيستأذن فوراً.. لم تمر ثوان إلا وكانا في طريقهما إلى البـــاب وخلفهما كان إبنها وعروسه التي ودعت الجميع مـــرة أخـــرى بمنتهـــى الـــود والترحاب.... وهي تركب بجوار العم إلتفتت إلى إبنها الذي بدى مشغولاً لتقول له " ربنا يتمم بخير " تنهد إبنها بعُمق قبل أن يرد عليها ويشكر عمه أكثر مـــن

مرة ثم لم تستطع " سعاد " أن تصمت إنما إلتفتت إلى إبنها مرة أخرى وهي تقول " ولكن الساعة تخطت الثالثة كان يجب أن تُراعي أن عمك لديه أكثر من عمل في الغد " أخذ نفساً عميقاً قبل أن يقول لها " معلش الكلام أخذنا يا أمي" .

*****

ما أن وطأت أقدامها عتبة بيتها وإبنها لم يُخرج بعد مفتاحه من الباب إلا وسمعا رنين التليفون يدق نظرت إلى ساعتها كانت قُرب الرابعة.. دق قلبها.. تصورت أنها ولابد أن تكون " منى " قد تشاجرت مع زوجها. قبل أن تجري إلى التليفون نظر إليها " كريم " وهو يقول " خليكِ حتى أقول لها أنك نائمة خطف سماعة الهاتف.. قمة الدهشة بدت في عينيه إلا أنه تمالك نفسه وهو يقول " أهلاً.. أهلاً أهلاً يادوبك رفعت السماعة بعد دخولنا بثانية واحدة ".. إستراحت " سعاد " بعد أن فهمت أنها عروسه وإستنتجت أنه من باب اللياقة والإهتمام أرادت أن تطمئن على وصولهما.. تركته ودخلت حجرتها تُبدل ثيابها.. تزيل طلاء وجهها الخفيف.. تُعلق ملابسها مرة أخرى.. تُشعل اللمبة الموجودة بجوار سريرها.. تفتح نوتة صغيرة لتؤجل للمرة الثالثة مواعيد المعارض والمحال التي تطلب لوحاتها إلى أن تطمئن على إنهاء مشكلة إبنها وعودته إلى عمله تماما.. غسلت أسنانها.. تمددت في فراشها دقائق إلا أن إبنها والذي يُمكن لها أن تسمع صوته مازال يتكلم مع إبنة اللواء.. نظرت في ساعتها.. أكثر من عشرين دقيقة مرت وهي تستعد للنوم.. أطفأت النور وعلى جنبها كانت تتقلب وهي تتساءل عن طول المكالمة بينهما " لو كانت للإطمئنان بالوصول لإنتهت في دقيقتين " وهي لا تريد أن تخرج من حجرتها حتى لا تبدو كأنها تعتدي على خصوصيات إبنها.. إبتسمت وهي تهمس " والله كبرت وأصبح لك خصوصيات يا حبيبي".. عادت تُحاول أن تنام مرة أخرى فسمعت في أذنيها صوت طبول وزغاريد فرح.. رأت إبنها في أبهى زينة يبتسم وعروسه في ذراعه وكالعادة تكاد أن تقع نظارته من على وجهه.. وقعت منه.. إلتقطها فعلاً إلا أن زُجاجها كان قد إنكسر

على الأرض قطعاً صغيرة قامت قاعدة من غفلتها أضــاءت النــور بجوارهــا تأكدت أنها في سريرها.. نظرت إلى ساعتها كانت تمام الخامسة أرهفت سمعها على حركة في " الطرقة " خارج حجرتها.. إتجهت للباب كان إبنها مازال يضع السماعة على أذنه يلصقها بكتف واحدة وبيديه يخلع حذائه.. قام واقفاً ومازالت السماعة على أذنه مشي إلى حجرته يجر خلفه سلك التليفون الطويــل.. مشــت " سعاد " وراءه.. عرفت أنه يُكلم عروسه.. يُكثر من الإصغاء لها.. مد لأمــه ذراعه ففكت له أذرار القميص وسحبته منه.. شدت بنطلونه أيضاً من ســاقيه.. شكرها بعينيه.. وأرادت أن تلبسة المنامة فأشار لها بأنه لا يريد.. بدى مُجهــد الوجه وخلع نظارته ثم جلس على أرضية الحجرة الخشب ومازالــت الســماعة على أذنه.. تمدد على جنبه ومازال يستمع ويُقاطع ببعض الكلمات البســيطة.. كانت الحجرة بلا سرير.. فارغة لأن أمه كانت قد قررت فور أن أطلعها العــم على فكرة هذه الزيجة ورغم سرعتها إلا أنه كان واثقاً مــن موافقــة والــدها وموافقتها هي الأخرى وله من الأسباب الكثير فمنها ثقة والد العروس في العــم وأمنيته في أن يناسبه للإطمئنان على إبنته كما أن العروس نفسها كانت أصــلاً مُتزوجة.. ودوماً المُطلقة طلباتها متواضعة وقابليتها للإقتنــاع أكيــدة و.. و.. فقررت " سعاد " هي الأخرى وعلى وجه من السرعة أن تُغير لــه لــون الحوائط وتضع ستائر جديدة وغطاء لسريره يتمشى مع هذه الستائر..... أشارت له " سعاد " أن يتمدد بجوارها في فراشها إلا أنه رفض تماماً وبدى كأنــه لا يستطيع أن يقوم من تمدده على الأرض، ضحك وهو يُكلم عروسه إلا أن هذا لم يُحسن من لون وجهه، أخيراً وبعد طول وقوف لها بجــواره وضــع الســماعة وأكمل نومه في مكانه على الأرض العارية.. خرجت " سعاد " بعد أن وضعت تحت رأسه وسادة وهي تؤكد له بأنها ستوقظه ليذهب إلى موعده مع اللواء فــي وزارة الخارجية في تمام التاسعة .

*****

لم ترض العروس.. لم تكتفي بأنه يقضي أكثر من إثنى عشر ساعة في اليوم بين عمله وبينها ولا يزيد عن ثلاثة ساعات ينامهم في بيته.. إستغنت " سعاد " عن عربتها " النص عمر " لتُسهل لإبنها الذهاب إلى عروسه وكثيراً ما تتعطل منه في طريق عودته من العمل إلى بيت العروس فكان يستأذنها أن يذهب إلى بيته حتى يستريح بعد إصلاحها ويعود لها في المساء إلا أنها كانت ترفض هذا بتاتاً وتُلح لأن يأتيها من الطريق رأساً وكان يُطيعها ثم لا يخرج من بيتها قبل بزوغ الفجر وحين يصل إلى بيته في ضاحية المعادي يكون عليه أن يأخذ حماماً سريعاً ويحلق ذقنه وتدور " سعاد " حوله بفنجان القهوة أكثر من مرة حتى بات يعبُ منها بشراهة ثم ينزل إلى عمله ليتكرر نفس الحال يومياً.. لاحظت " سعاد " نحوله وإحتياجه إلى " حزام " ليوقف به نزول سرواله وأصبح دوماً قليل الصبر.. سريع الغضب والأكثر من هذا تلك الرعشة التي صارت في يديه بشكل ملحوظ .. إقتربت " سعاد " منه وهي تستفسر " لماذا.. ألست سعيداً " لم يرد عليها إنما أكمل ملبسه بسرعة فائقة وإنفلت خارجاً.. لم تنسى أن تلفت نظره إلى ضرورة أن يأخذ في يديه شيئاً من الحلوى وهو ذاهب إلى هناك بعد عمله.. كانت تعرف أن إبنها ينطبق عليه إنه إنسان معملي.. وخارج حدود معمله لا يعي الكثير.. إهتمامه ينحصر في الكتب والمقارنة بين الفكر السياسي للكاتب الفلاني والفكر الإجتماعي للكاتب الآخر فأرادت أن تنبهه إلى أن هناك ضرورات إجتماعية لابد منها... وهي تؤكد لنفسها أنها لن تتركه في الصغيرة قبل الكبيرة فلا يكفي التفوق في جانب واحد إنما لابد من توسيع وتنمية العلاقات العامة فهي لن تنسى يوم أن أوصلته إلى المطار في سفرته وكان الآباء والأمهات يلتفون حول أبنائهم يُوصون المشرفين بهم. كانت تعي أنها الأب والأم في وقت واحد وعلى هذا يتحتم عليها أن لا تترك ثغرة يمكن أن يتسرب الفشل منها ويمُس زيجته المنُتظرة.... إلا أنه كان يوماً بعد يوم تسوء حالته النفسية ويزداد إجهاده من عبء الذهاب اليومي إلى عروسه وقلة النوم

فيما لايزيد عن ساعتين إثنتين أو ثلاثة.... وفي يوم كانت عروسه في مشوار مع زوجة عمها إلى مدينة " بورسعيد " ولم تتمسك كعادتها أن يذهب معهما فكانت فرصة نادرة بالنسبة له ليرتاح وخاصة أنه يوم جمعة إلا أنه صحى مبكراً وبدى كأنه يريد أن يتكلم مع أمه.. بعد أن شرب الشاي وبعدها القهوة التي أصبحت عادة فيه.. إقترب من أمه يجلس في مقابلتها كعادته على طرف سريرها وبدأ يحكي لها عن عمله وكانت " سعاد " في غاية الشوق واللهفة لمعرفة أحواله في العمل بالوزارة.. إبتسم كثيراً وهو يذكر لها بأن أول يوم له في الوزارة بعد حادثة اللجوء السياسي التي عرفها الجميع.. كان يوماً مشهوداً ففي المكتب كان الموظفون ينظرون إليه بطرف خفي لدرجة أن أحدهم ثقب جريدته ليرقبه من خلف الصفحة.. وفي أثناء عبوره إلى دورة المياه تقابل مع زميلة له في المكتب فإضطربت وصرخت مُبتعدة وهي تراه في مواجهتها.. ضحك وهو يقول لأمه " لابد أن الأخبار بأنني دخلت المستشفى في ألمانيا وصلتهم فعاملوني كأني مجنون " ضحكت " سعاد " بعصبية وصوت عال فمد يده وتحسس قدمها وهو يقول: " سوف تضحكين أكثر يا أمي " وحكى لها أن الموظفين إستمروا على هذه الحالة أكثر من عشرة أيام وهو يتغابى ويتجاهل غمزهم ولمزهم إلى أن... بلهفة قالت له " إلى أن ماذا؟ " فأكمل بما يعني إلى أن عرفوا يا أمي حقيقة علاقتي بسيادة اللواء السفير " كمال محمود " بل وتكهنوا بفكرة خطوبتي لإبنته.. ومن يومها وإنقلب الحال.. ظل يروي لها بأن الإبتسامات ونظرات الإعجاب والإلحاح في المشاركة معهم في إحتساء القهوة والشاي والأكثر كلمات الإعجاب التي أغدقوا بها عليه ثم ضحك عالياً وخلع نظارته يمسحها بطرف " فانلته " ثم أكمل بما يعني أنهم فوق هذا أصبحوا يثنون على ما فعلت ويعتبروه تصرفاً شجاعاً وجريئاً ويثنون على فكرة رغبتي في التعلُم أيام ألمانيا وفي إكتساب ما يُفيدني تعليمياً وفكرياً من الرحلة وليس الشراء أو التسوق.... وفي يوم آخر زفوا إليه خبر أن اللواء السفير " كمال محمود "

أصدر أوامره بتغيير المشرفين وإستبدالهما بآخرين في الرحلة القادمة مع عمل لفت نظر لهما عن الإهمال في شكوى إينها من زملائه وحقيقة ضجرهم منه لإختلاف وجهات النظر من القيام بالرحلة أصلاً... فرحت " سعاد " وهي تؤكد له بأن اللواء لابد وأنه سيضعه في المكان اللائق به بدلاً من وضعه في الأرشيف والأكيد أنه سيكون له مكان في مكتب وزير الخارجية نفسه لأنه الأول بل لم ينجح أحد غيره. وبدلاً من أن يُبدي فرحه نظر إليها طويلاً وهو يسألها " هل تعتقدي ذلك يأمي " أكدت المعنى مرة أخرى ثم أكدتها بالمثل البلدي الذي يقول " اللي له ظهر ما ينضربش على بطنه " نظر إليها طويلاً ومحدقاً وهو يردد " لم أكن أتصور أن النفوس تتغير تبعاً لقيم مادية.. وأن الناس يسيل لعابها بهذا الشكل وتتبدل من النقيض إلى النقيض لمجرد نوع علاقتي بسيادة اللواء السفير " ثم عاد يحدق فيها بتركيز وهو يقول " أين الضمير. لقد علمتيني أن من جد وجد ولكن إتضح لي أن العلاقات الشخصية تسبق أي إجادة أو تميُز " عاد ينظر إليها أكثر تحديداً " ثم أين عدالة السماء التي كنت تكلميني عنها أين هي؟ " قبل أن تنطق بأي كلمة كان يقول لها بأسى " إنني أشتري العدالة من الناس ولكن السماء لم تكن في نجدتي رغم أنني أستحق " من فورها قالت له وقد هوى القلب منها " ماذا تقصد أن تقول " فكر ملياً وقد أحنى رأسه إلى صدره ثم رفعها وهو يقول " العدالة بطيئة ولا تأتي صراحة كفلق الصبح " قالت من فورها " لقد أتتك العدالة في شكل هذه الزيجة المنتظرة إن شاء الله " فرد من فوره مرة اخرى " ولماذا يشاء الله بهذه الطريقة الصعب " فردت " وما وجه الصعوبة فيها ؟! " أحنى رأسه مرة أخرى إلى صدره وهو يهمس " هذه السرعة في العلاقة بيني وبينها " من فورها كانت ترد " يا الله إذا أبطأت العداله تشكو وإذا جاء الفرج أيضاً تشكو إذاً ماذا تريد!! " أحنى رأسه مرة أخرى وهو يقول " إنها شديدة السرعة تأخذ القرار ولا تتواني عن تنفيذه. منذ اللحظة الأولى في بيتها أول مرة.. طبعاً لاحظتي غيابنا الطويل.. الأمور لا

تكون هكذا " ثم أضاف على إستحياء " كلانا لم نعرف بعضنا من قبل فكيف لها بكل ما كان وقبلها هذه الإستفسارات والأسئلة و. و. " نـزل علـى " سـعاد " صمت طويل بعد أن فهمت مقصده وأخيراً قالت : " يجوز يا إبني لأنه سبق لها الزواج فكان عليها أن تعرف الكثير عنك " ضحك بجنب واحد من فمه وهـو يردد " هذا إحتمال أكيد إلا أنني غير فاهم.. غير فاهم "... فسألته بقلق " لماذا يا إبني؟ " " لأن هذه أول مرة أدخل فيها هذا البيت والرجل إستأمنني على إبنته حتى لو كانت إمرأة " ثم ردد بهمس " الأمور لا تؤخذ هكذا " شعرت أن معدتها في حلقها وهي تقول له " العالم الآن يسير بطريقة لاهثة ولا أقول سريعة فقـط وهي أرادت أن تعرفك " رد من فوره " وأنا لا إعتراض لي على أن تعرف بل وتتأكد ولكن ليس بهذه الطريقة السريعة ولا هذا التوقيت يا أمي فكل شـيئ لـه أوان " أرادت أن تُغلق الكلام في هذا الموضوع ثم عادت لتؤكد لنفسها أنها الأم والأب وتساءلت لو أن أباه كان موجوداً بماذا كان نصحه؟ ولو كان العم حاضراً هو الآخر لوجدت عنده الرأي الفصل في كثير من الأمور إلا أنه سافر عائـدا إلى أمريكا لظروف عمله... رباه ماذا أفعل أو أقول.. أخرجها " كريم " مـن حيرتها وهو يردد " يا أمي لا تشغلي بالك فكل شيئ نصيب في النهاية ".

*****

لا يتوقف رنين الهاتف في بيتها.. الأهل والأقارب وحتى من تتعامل معهم في لوحاتها يُهنئون بقُرب إعلان الخطوبة وبعضهم ينصح بالسرعة فـي إتمـام الزواج بدلاً من التطويل المُمل... عاشت " سعاد " أياماً كثيرة تغمرها سعادة لا حد لها وخاصة حين تُزيح مخاوفها مما قاله إبنها عن ذلك اليوم.. وكانت لهـا القدرة الفائقة على إستجلاب الحلم وأحلام يقظتها هي الملاذ لها ففـي الأحـلام تُغني وترقص وتلبس وحتى تتعطر.. تتصور الخطوبة ثم تتصورزفافه ومـاذا سترتدي وهل عليها أن تنتقي ثوباً مُحتشماً داكن اللون أم أنها فرصـة لتتغلغـل الفرحة خلاياها وترتدي ثوباً له لون الورد وتُسدل شعرها الكثيـف وتنتظـر...

ماذا تنتظر... ذلك المجهول أو الحظ كما تسميه. تشعر دوماً أن داخلها قادرٌ على العطاء.. وعلى التلقي.. في حلمها ترتدي ثوباً وردياً بلون الزهور المُفضلة لديها وبكل ما يحمله الوردي من معنى إنها تحب الزهور ليس كحب عجوز لألوان الورد والعصافير إنما بمعنى الحب الفعلي ومظهرها الخارجي يُنبئ عن نفس المعنى تعلم أنها تزداد نُضجاً... لا لم يأخذ منها الزمن على قسوة أحداثه شيئاً مما أعطاه لها الله .. ودخلت أبنتها تمسك بيدها " شادي " تسألها عن أحوال أخيها وتسأل "سعاد" بدورها عن زوجها " أشرف ".. لم ترد إبنتها أن تُطيل معها في الحديث عن حياتها إنما قالت " إحنا عايزين نفرح.. سأشتري ثوباً لم يُخلق مثله في البلاد.. والأكثر من هذا أنني سألبس شادي بدلة سهرة سوداء.. لعل وعسى " فسألتها " لعل وعسى ماذا؟ " ضحكت وهي تقول لها " لعل وعسى أبوه يهتدي حين يعي أن شادي على وشك الإرتباط وإنتقاء عروس له هو الآخر" ضحكت " سعاد " وهي تؤكد لها بأن الزمن يمضي بسرعة عجيبة هذه الأيام وما تقوله الآن بين غمضة عين وإنتباهتها يتحقق . سألتها فجأة " وأنت ألم تجهزي في مُخلتك ثوباً لك؟ " إلا أنها لما عرفت برغبتها في ثوب وردي بدى عليها الضيق وهي تقول " إعرفي الواقع يا أمي إنت إم العريس فلا حق لك ولا خيار إلا في لونين إما الأسود أو الأزرق الداكن جداً " ثم ضحكت مُقهقهة وهي تعرض عليها شيئاً ثالثاً حين قالت " في أحلام يقظتك إلبسي اللون الوردي حتى تشبعي منه ولكن يوم الخطوبة لا تفضحيني أمام حماتي ".

*****

سألها إبنها بلهفة ماذا يأخذ في يده وهو مدعو وعروسه للعشاء عند إحدى صديقاتها.. نصحته بل تطوعت بأن تذهب هي لإحضار هدية تليق بكونه تقريباً خطيب إبنه اللواء السفير أحد رجال الثورة.. ركبت عربتها وغابت ساعة وعادت في يدها لفافة أنيقة للحلوى.. وقفت بنفسها تختار له ما يلبس.. غير أكثر من ربطة عنق وغيرت هي له أكثر من منديل يتماشى وربطة عنقه..

كانت ملابسه في أغلبها جيدة ومازالت جديدة.. تتذكر تلك الأيام التي كانت تنزل معه فيها ليشتري وينتقي ويومها عرفت عبارة " الأصواف الساقعة " كما علمها له الترزي.. تبسمت في سريرتها إلى أن إنتهى من ملبسه وغاب عن ناظريها وهي تدعو له بصوت مسموع فيرفع وجهه وهو ينزل السلم ويبتسم لها... إتجه إلى بيتها... ركب المصعد إلى الدور الخامس ليأخذها، في نزوله معها كان يشعر بنوع من التباهي والفخر لإرتباطه بها... كان " كريم " يُجيد الكثير من أصوليات السير مع إمرأة كما نبهته إلى ذلك أمه من اليوم الأول لإرتباطه بإبنة اللواء السفير وهو يقدمها على نفسه ويفتح لها باب العربة ويدور بسرعة ليركب بجوارها وبين اللحظة والأخرى كان يلمح جنب وجهها وكأنه يستجلب جُرعة رضا لنفسه وبدت هي في أبهى صورة.. عطرها عبأ العربة فلما جاء بائع الياسمين في إحدى إشارات الطريق وأدخل عناقيد الياسمين بيده في العربة لم يتوان " كريم " على أن يأخذ منه كل ما يحمل.. ناوله الثمن وإنفتحت الإشارة فجرت العربة وهي تضحك وتقول " ها أعمل بكل ده إيه! " وتناولت العناقيد من يده وأخذت الجزء الأكبر منها وعلقته في المرآه الموضوعة أمامه ثم حاولت أن تصنع من الباقي سواراً حول معصمها الدقيق.. يتبادلان الضحكات إلى أن وصلا عند صديقتها التي إستقبلتهما بترحاب كبير وتناولت الحلوى منه وهي تبتسم شاكرة فوجئ " كريم " وهو يرى كل هذا الجمع الكبير إلى حد ما عند صديقتها.. وبدأت الأحاديث هادئة.. دافئة.. هامسة عن زيارة الرئيس " السادات " لإسرائيل بعضهم شبهوه " بصلاح الدين " حين زار " ريتشارد قلب الأسد " ولم يتأخر.. وآخرون قالوا بأنها خطوة من سياسي مُحنك بل إنه أكثر من مُحنك إنه " ناب "واعر في السياسة.. البعض أخذ عليه أنه فاته أن يُنسق مع باقي الدول العربية وأن لا ينفرد بالقرار حتى لا يُتهم بأنه يُخفي شيئاً عنهم ولو أشركهم لضمن مساندتهم.. تكلمت عروسه عن لحظة نزوله في مطار تل أبيب وتلك القشعريرة التي أمسكت بتلابيبها.. بعضهم أشار بأن أول ما

واجهه في الكنيست عبارة " من النيل إلى الفرات " لإنهم طامعون فينا إن لم يكن اليوم فهو الغد.. هذا هو الحلم الذي يسعون إليه تداخل " كريم " بما معناه أنه ولابد أن يكون هناك زعيم عربي يضع النقاط على الحروف ويقدم مبادرة حتى تنتهي هذه القضية إلى حل.. كان الحفل يسير أنيقاً.. الحركة فيه مدروسة.. الإضاءة تُزين الأركان دون مباشرة فأضفت لمسة رومانسية على الحاضرين.. وبدأت الصواني تدور.. فضل " كريم " أن يأخذ واحدة من العصائر المختلفة وأختار آخرون أنواعاً من الكحوليات ورغم تكرار دوران المشروبات ورغم تكرار تناول الحضور أكثر من مرة إلا أنه كان للجميع إتزان ملحوظ وهارمونية في الحركات واللفتات وهم يتناولون بعض الأطعمة المخبورة الصغيرة.. وقفت عروسه هنا وهناك تضحك.. تتذوق.. تتناول بأناقتها الملحوظة الكثير مما قُدم إليها وهي في كامل الحضور والتهذيب المحسوس.. وفجأة دخل شاب فارع الطول.. أبيض الوجه له إتساق كبير في طلعته. إلتفت الجميع بنظرة خاطفة نحو الباب وبدأ هو يُحيي الجميع وتوجهت عروسه بخفة خطوات معدودة إلى أن وصلت إليه.. سلم عليها ولم يكتفي بل أخذها بين ذراعية ولامس وجنتيها بالقبلات الخفيفة.. لمح " كريم " هذه الحركة ولم تضايقه فدراسته في الجامعة الأمريكية كان فيها تبادل كثير من قبلات الوجنتين بين الطالبات والطلبة لقد كبر في وسط الإختلاط بالإناث وربما هذا ما جعله غير لهوف على معرفة أماكن اللهو والأفلام المعروفة التي كان زملاؤه في الرحلة تواقين إلى مشاهدتها والإنتهاء في أقل وقت من فكرة التعلُم والإطلاع على ما يجري في مكاتب القنصليات المحددة في رحلته..إبتلع شرابه وهو يمشي خطوتين ليضع الكوب على أقرب مائدة. كانت عروسه ومازالت واقفة قريبة من ذلك الشاب إلتفتت برأسها ناحية " كريم " ورجعت بخطوها إلى الوراء وإن بقيت شاخصة في أغلب الوقت إلى الشاب ثم أمسكت بذراعه ومشت به خطوتين ووقفت بينهما وهي تقول " كريم الناظر خطيبي ومُهاب زوجي السابق "..

سقطت نظارة " كريم " من على وجهه وقبل أن يلتقطها كان الـزوج السـابق يلتقطها ويقدمها له مع عبارات الترحيب به وفهم من كلامه معـه أنـه شـقيق الداعية.

*****

العلاقات بينه وبين زملاءه في المكتب تزداد وثوقاً.. الكل يُبـدي ترحيبـه وإعجابه بأداءه.. يبالغون في الثناء عليه.. أشياء صغيرة في تصرفاته جعلـتهم يحبونه فلم يكن يتوانى على أن يُنهي أي أوراق أو أعمال لزملاءه فالجميع كانوا متزوجين ولهم أولاد ولا تسلم الظروف من ضرورات تُجبرهم علـى بعـض التقصير في العمل مثل مرض الإبنه أو الإبن وضرورة الذهاب للطبيب وأحياناً مرض الزوجة أو حضور قضية أو الخروج مبكراً لشأن ما مثل الدراسة فـي إحدى المراكز أو المعاهد... كان " كريم " دائم الإستعداد ليحل محل من يتغيب ويؤدي عمله على أكمل وجه فأحبوه إلى درجة كبيرة.. وفي يوم إنفرد به أحدهم وكان حديثاً طويلاً.. وكان حديثاً حساساً بكل ماتحمل الكلمة من معنى فقد كلمه عن فكرة إرتباطه بإبنة سيادة السفير.. وأوضح من كلامه حين قال له بلهجـة تحذيرية صريحة بأنها إمرأة ذات خبرة وتجربة ولن يستطيع أن يجاريها أو أن يُقنعها مهما حاول.... مادت الأرض من تحت قدميه هو يؤكد له بأنهـا سـعيدة معه فكان رده " في البداية فقط ولكن هذا الحال لن يستمر لأنك قليل الخبرة " ثم أعقب حديثه بكلمات قليلة قصيرة إلى أن إستأذن وتركه وذهب.. وكأن جـدران المكتب إنطبقت عليه.. ظل جالساً مكانه إلى أن تعدت الساعة السادسة مسـاءً.. لا يقوى على الوقوف كأن رجليه لا يمكن أن تحملاه وأخيراً وبصـعوبة فائقـة كان يقوم ولم ينس كعادته أن يضع الأوراق التي إنتهى منهـا لزملائـه علـى مكاتبهم ورتب مكتبه هو بدقه كعادته ثم أغلق الباب ونزل السـلم، لـم ينتظـر المصعد وهو يخرج كان الحارس يفتح عينيه دهشة.. ركب عربته ولم يـذهب كما هو معروف إلى عروسه وإنما ظل يسير بالعربة هنا وهناك إلى أن قاربت

الساعة من العاشرة ليلاً.... كان ضائقاً ومهموماً ٍ يأكل في صدره تلك الكلمات التي سمعها من زميله في المكتب.. كان هذا الرجل هو رئيس المكتب الذي يعمل فيه في الأرشيف.. أمواج من الشك تصطخب في صدره.. حرارة تهاجم جلده لها شكات حارقة فبدأ يتحلل من ربطة عنقه.. يفتح صدره.. يستنشق هواء يُدخله إلى العمق إلا أنه لم يشعر بالسكينة مُطلقاً.. شيئٌ ما ينهش في صدره فتنطبق ضلوعه ألماً.. توقف بالعربة على كورنيش النيل ونزل وعلى دكة جلس. كلمات الرجل تدق في رأسه بأنه لن يُقنعها ولن يفهمها لأنها إمرأة ذات تجربة علاوة على ذلك أن واقع الأمر أن " كريم " كان بطبيعته ميالاً إلى الشك والقلق.. ألم يصدق وهو في رحلته أن زملاءه يتآمرون عليه حين قالوا له " إسكت لنتاويك هنا ولن يشعر بك أحد يا إبن سعاد طلعت " وكأنهم يعيرونه بأن لا أب له يحميه أو يثأر له إنما ما له هو إمرأة . العبارة أخافته في ذلك الوقت ودفعته إلى طلب حق اللجوء السياسي بل أنه كلم أمه " سعاد " من المستشفى قبل أن تحضر وقال لها " إنهم يريدون أن يقتلوني يا أمي " " كريم " بطبيعته يأخذ كل كلمة مأخذ الجد.. كل عبارة يفكر فيها ويتوقف عندها ولا تمر هكذا بسهولة فما بالك بما قاله هذا الرجل رئيسه في الأرشيف..... أراد أن يخرج معنى ما قيل له من رأسه فإنتفض واقفاً ومشى بضع خطوات إلى أن إقترب من كُشك يبيع السجائر وطلب زجاجة غازية وشربها دفعة واحدة وإشترى أول علبة سجائر له.. عدل رباط عنقة وأغلق بذلته.. ركب عربته.. أدار محركها متجهاً إلى بيت عروسه وهو يؤكد لنفسه أن ما سمعه ليس صحيحاً بل الأكثر أنها وقعت في حبه من أول ساعة رأته فيها.. رطب قلب نفسه بقوله لنفسه " إن المرأة لا تكون شغوفة إلا إذا أحبت ".. صعد السلالم بسرعة فائقة.. وضع يده على الجرس بقوة وإستمرارية فتح له الخادم الباب على مصراعيه.. تقدم خطوات.. مر بحجرة الإستقبال.. تلفت فلم يجدها كما قال له الخادم بأنها في الداخل..تقدم يميناً إلى "البلكونة " المغلقة بالزجاج

وجدها جالسة وأمامها يجلس آخر.. عرفه من ظهره الممشوق وبياض بشرته تبين فيه زوجها السابق.. ما أن عرفه إلا وشعر بضربة في قلبه والرجل هب واقفاً يسلم عليه والعروس تقول برقة " أظنكما عرفتما بعضكما ".. جلس بجوارها وهو يشعر بعمودين من النار يخرجان من أذنه " ما الذي أحضره هنا ولماذا العلاقة بطليقها مستمرة بل وقائمة من الأصل!! " ثوان أخرى وحضر السفير والدها سلم عليه بأبوة ومودة ثم إلتفت إلى طليقها وإحتضنه وهو يقول بصوت مسموع " طبعاً إنت عارف إن مُهاب إبن المرحوم أخي الأكبر " ثم جلس الجميع كانت دقات قلب " كريم " في عنفوانها.. أعاد مرة أخرى فك ربطة عنقه .. للحظات خُيل إليه أن دقات قلبه مسموعة وبلا إرادة كان يقول رغم أن أحداً لم يسأله " أنا مرتاح جداً لا شيئ يُضايقنى " نظر إليه الأب بشيئ من الدهشة وقالت العروس " نعم.. أفندم.. أنا لم أسمع ما قلت " رد من فوره وهو يحاول أن يتمالك " أعتقد أن اليوم حار " قامت العروس بخفة وأدارت مروحة واسعة مُعلقة في السقف ثم عادت إلى جلستها من جديد بجوار " كريم " على الكنبة.. تكلموا في موضوعات شتى... والدها اللواء كرجل ناضج فاهم لأحاسيس من حوله لدرجة أنه وصل ولعلها من الخبرة أو تواتر الأحداث التي عايشها إلى درجة لا يُستهان بها من الحكمة والتقدير لكل ما يجري حوله.. أفصح عن كثير من رُآه في الحياة وهو يؤكد أن من طابع الدنيا تداخل العلاقات حتى إلتحامها وأيضاً إنفصال تلك العلاقات بعينها وتفتتها إلا أن هذا لا يجب أن يدفع الإنسان إلى درجات من الثورة أو الغضب أو القطيعة بمعنى الهجر.. فالإنسان هو الإنسان يرضى ويرفض في اليوم الواحد عشرات المرات إلا أنه يجب أن يبقى داخل المرء دوماً الشعور الأكيد بالتهوين من ضراوة أي شعور يؤلمه حتى يبقى قادراً على الود والتواصل مهما إشتدت الظروف أو الملابسات فما الإنسان في النهاية إلا أخ لأخيه الإنسان من أب واحد وأم واحدة...... بدى الرجل كأنه شديد المُصالحة مع الآخرين مهما جرى

من هؤلاء الآخرين.. قادر دوماً على التفريق بين فكرة الإنفصال من جانب وفكرة الإلتحام بنفس الإنسان من جانب آخر فالحياة لا تستحق ولا يجب أن تؤخذ بأكثر من هذه الفكرة.... كلماته نفذت إلى دخيلة " كريم " ووعاها بشدة وفهم يصل إلى درجة الترحاب خاصة وهو يختم كلامه بعبارة " الحياة أقصر من أن يُعادي فيها المرء شقيقه أو يكرهه لأن ما تكرهه اليوم من المؤكد أنك ستصبح أقرب الناس إليه في الغد " صحيح أن " كريم " بقي ثوان يفكر ويحاول أن يستوعب معاني كلمات السفير إلى أن سأله بقدر كبير من الصدق والبراءة وهو يعرض وجهة نظره حين قال " سيادة اللواء إذا كان الأمر كذلك وأن عمي قال لي بأنك كنت تطبع منشورات الثورة في بيتك فلماذا والأمر كما شرحته عن فكرة التسامح. لماذا أطحتم بالملك فاروق وكنتم باترين قاطعين في قراركم بالنسبة له.. يعني لماذا لم تعاملوه على أساس أن الرجال ممكن أن تختلف حوله.. حول الملك ولكن لا تقتلعوه والأكثر من ذلك أنكم تعقبتوه وقتلتوه في روما وهو بمقاييس ما يُكتب عنه تاريخياً هو وأسرة " محمد علي " قاطبة قاموا بتحديث مصر.. فهل كان من الممكن أن تختلفوا معه إلى اعلى الدرجات وتبقون عليه في الوقت نفسه " ضحك اللواء بصوت مسموع لدرجة أنه عاد برأسه إلى الوراء من الإستغراق في الضحك ثم إعتدل وأول ما قاله " أولاً لا تقل لي سيادة اللواء فأنا عمك " فابتسم الجميع ثم قال " الحق أن خلع الملك أتي من صميم موقفه هو.. وكتب وثيقة تنازله بكل رضاه ثانياً أن الأمور التي تتعلق بمستقبل شعب بأكمله تختلف عن أمور العلاقات الإنسانية بين فردين أو حتى بين أسرتين.. ودعني أقولها لك أكثر صراحة العمل لمستقبل شعب يختلف عن الأمور الحميمية والعلاقات الزوجية مثلاً " ثم سكت بُرهة وعاد ليقول " ما فعلناه كثورة هو ما تعايشه وتراه الآن. لقد قلبنا الهرم الإجتماعي تماماً وغير ذلك كان يمكن أن يعيش فيه المصري أسير طبقته إلى الأبد. الآن الطريق مفتوح لسواد الشعب ليكون كما يشاء كل فرد فيه بلا قيود.. صحيح أن هناك

عيوباً فادحة من جراء هذا الإنقلاب ولكن لن يمر على هذه الفوضى أكثر من خمسين إلى ستين سنة أخرى وتعود كل الأمور إلى صحيح نصابها ولن يكون الإنسان الشعبي الذي من أقل الطبقات في سلوكه وتوجهه أقل من إبن " البرنس " الذي كان " كان " كريم " قد هدأت إنفعالاته نسبياً وبدأ يفكر في كلام اللواء ولم ير بُداً من أن يقول " يا عمي الغريب في الأمر أن من قاموا بالثورة لتحقيق مطلب العداله هم أنفسهم لم يكونوا لا من طبقة العمال ولا طبقة الفلاحين.. لم يكونوا منهم على الإطلاق وأعتقد أن أغلبهم كان من الطبقة المتوسطة ".. فرد اللواء من فوره " وهذا طبيعي لأنها الطبقة المُستنيرة التي تشعر أكثر بآلام الإنسان من حيث كونه إنساناً..وعموما ملاحظتك يا كريم في صالحنا تاريخياً ".

*****

من بين معاناتها الدائمة كانت " سعاد " تتلمس إلى حد ما وكلما تيسر لها ما يُروح ولو قليلاً عن نفسها فرحبت بدعوة صديقتها ورفض " كريم " أن يكون معها في الدعوة رغم أنه سيوصلها إلى هناك.. لم تلح عليه فقد كانت تعرف إرتباطه اليومي بالذهاب إلى عروسه.. فقط ضحك معها وهو يقول لها " إياك يا أمي أن تخطفي الأنظار من العروس.. لا أصدق أن هناك من هي أجمل منك في الدنيا " ضحكت وهي تقول " ده بس علشان أنا أمك " كانت قد دعتها صديقتها لتحضر زفاف إبنتها... وهي بجوار إبنها في الطريق كانت عشرات الأسئلة تدور في عقلها.. تتذكر يوم أن رفضت إبنة صديقتها الشاب الذي قدمته لها ونزلت السلالم " أربعة أربعة " فضحكت بصوت مسموع إلتفت " كريم " يسألها عن سبب ضحكها؟.. وعند المنزل أوقف السيارة ونزلت " سعاد " نظر في ساعته وهو يقول لها " وصلت مبكرة جداً يا أمي الدنيا مازالت نهار " ردت بأنها قصدت هذا لتساعد صديقتها أو إبنة صديقتها في أي أمر...... وهناك كانت الجلسة حميمية ودافئة بين ثلاثتهن العروس وأمها و" سعاد " إلى أن إبتدرتها صديقتها بالحديث عن ظروف الزواج من هذا الطبيب الذي يعمل في

مستشفى ذائعة الصيت ومنذ اللحظة التي رأته فيه إبنتها قررت الموافقة عليه والأكثر أنها صارحته بسرها وبصدق الصدق إلا أنه قبل تماماً الإرتباط بها وعدم التخلي عنها رغم أنه شديد التدين والإنسان يتصور أنه متزمت.. ردت " سعاد " " لا..لا..على العكس تماماً لابد أنه إنسان واسع الأفق عميق النظرة " وإبتلعت باقي كلماتها عندما ظهر شاب فارع الطول يحمل رأساً شامخاً يغطيها شعر بني غزير.. تقدم إليهن وبدأت صديقتها في الترحيب به وهي تقدمه " لسعاد " عرفت فيه عريس إبنتها.. لمحت لحيته الغزيرة ونظراته التي يتعمد أن تكون بعيدة عنهن.. جلس بينهن وقد إحمرت وجنتا الإبنة بطريقة لافتة للنظر ولم تفارق الإبتسامة شفتيها.. وبمنتهى الواقعية كانت تتحدث بلا أي نوع من التردد موجهة كلامها إليه" كنا نتحدث عن موقفك من حكايتي " رفع نظره إليها وهو يقول ببساطة شديدة " إذا كان الله غفوراً رحيما أفلا يجوز أن يكون لنا ذرة من صفاته.. هذا موضوع منسي".. ومع مرور الساعة إمتلأ المنزل تدريجياً بالمهنئين وسُمعت الزغاريد آتية من أكثر من مكان.. بنفس السرعة وصل المأذون.. علت الزغاريد.. لاحظت أن صديقتها وضعت النقاب على وجهها حدثت " سعاد " نفسها بأنها كانت في بيتها منذ أقل من شهرين ولم تكن مُنقبة؟! دخلت العروس لاحظت أيضاً أنها أخفت شعرها تماماً.. وضع العريس يده في يد خال لها فقد رحل والدها قبل ولادتها.. صك أذن " سعاد " أن المأذون يقرأ من ورقة يُقر فيها بأن العروس بكر رشيد. هزة خفيفة بدت على بدن صديقتها ثم سارت الأمور على أحسن ما يكون.. دخلت العروس ثم ظهرت مرة أخرى بفستان أبيض كان اليوم لكتب الكتاب والدخلة في آن واحد.. لم تستطع " سعاد " أن توقف عينيها من متابعة صديقتها بنقابها والغريب أن أهل العريس لم يكن فيهن أي من المحجبات أو المُنقبات ولكن كأن هناك إتفاقاً جماعياً بقبول كل ما يأتي به الآخر دون تفكير إن كان هذا حقاً له أو هو حرية شخصية له كإنسان.. الحقيقة الغالبة لهذا القبول الصامت هو اليقين بأن الآخر يتعذب فالمعاناه مُعاشة

على كافة المستويات من أول المعاناه السياسية والكذب والتزوير إلى المعاناه الإقتصادية الطاحنة مروراً بإنعدام الضمانات لا الصحية ولا المعاشية ولا الإجتماعية فلا أقل من أن يكون للمرء حرية أن يفعل بمظهره ما يريد مادام غير قادر على أن يفعل بواقعه أي أمر كحق من حقوقه كإنسان.........
إنتصف الليل وبدأ المودعون ينصرفون بعد الإستمتاع بتلك المائدة الشهية التي أعدتها صديقتها وكان العروسان يقفان متشابكي الأذرع على باب الشقة يسلمان ويتقبلان التهاني مرة أخرى وهما يودعان المنصرفون في ليلة العمر حتى لم يبقى إلا " سعاد "..... أخيراً إنتهت مراسم كتب الكتاب والزفاف.. جلست الأم و" سعاد " ومعهما العريس إلى أن تنتهي العروس من تغيير ثوبها لتبدأ رحلة شهر العسل.. " والكلام جاب بعضه " وبلا إرادة كانت " سعاد " تسألها " منذ متى وأنت مُنقبة؟ كيف إتخذت هذا القرار الصعب " صمتت صديقتها هوينه قبل أن تُجيبها ثم بدأت تتكلم والحق أنها كانت سلسة في كلامها حُجتها أن هذا أمر الله.. كان على لسان " سعاد " أن ترد بقولها " إن الله لم يطلب منا هذا " إلا أنها آثرت الصمت فقد لفت إنتباهها وأسعدها التغيير الملحوظ في شخصية صديقتها وهذا القدر من الآيات التي تستشهد بها " متى تعلمت كل هذه الآيات؟ ومتى تعلمت إستخراج الحجة بهذه الكفاءة " جلست أمامها صامتة وإحساس بالسعادة داخلها لا يمكن إنكاره فلم ترى صديقتها في يوم ما بهذه القدرة إنما على العكس كانت قليلة الكلام لا رأي لها في شيئ لتُدافع عنه بدت في عيونها كأن شخصيتها تتبلور وأنها أصبحت تملك قناعة ورأي " الكلام جاب بعضه " والعريس بدى ودوداً إلى أقصى درجة وبدى بسيطاً من عينيه يُشع دفئ وكأن الإنسان يعرفه من زمن.. أثنى على الجهد الذي بذلته الأم في إعداد تلك المائدة.. أظهر في كلمات قصيرة إمتنانه من التوفيق الذي حالفه في الإنتساب إلى أسرتها.. شعرت " سعاد " بالإرتياح والصدق من كلماته القيود والشكليات تفككت بينهما فبدى على طبيعته أكثر لم يقم من الجلسة إلا دقائق لم يبتعد فيها

عن الصالة التي يجلسون فيها إلا ليُخرج من جيبه نقوداً أعطاهـا " لأم وليـد " المرأة التي ساعدت في كل هذا الإعداد والطبخ لكل هذا العدد همست " سعاد " لنفسها " صاحب واجب " ثم عاد ليجلس بينهما قبل أن يسمعوا صوت البـاب " وأم وليد " تغلقه خلفها وهي تتصرف إلتفت إلى " سعاد " مبتسماً يستأذنها أن يُسر إليها بأمر على ألا تغضب فكان ردها التلقائي أن شجعته ليقـول لهـا مـا يشاء.. فقال لها بشيئ من التردد " أعرف أنني في عمر إبنك ولكني إسـترحت لك بل أكثر من هذا شعرت بأنني قريب منك وكأنني أعرفك من زمن " ضحكت قائلة " ياربي .. نفس شعوري الذي أحسسته عندما رأيتك " قاطعها " بحق هذا الود الذي شعرته نحوك أريد أن أقولها لك صراحة. لماذا لا تتحجبين وأنت بهذا الجمال رغم سنك الذي وصلت له " ثم توقف عن الكلام تماماً وأيضاً صمتت

" سعاد " هي الأخرى وبود كبير ونبرة تأكيدية وكأن المطلوب شـيئ بـديهي كانت صديقتها تسألها بصوت خفيض وكامل إقتناع " صحيح ما قولتليش إمتـى ستتحجبين؟ " نقلت " سعاد " عينها بين الإثنين وإن أحست بقـدر طـاغ مـن الحرج.. أقل من ثانية وكانت " سعاد " تسأل نفسها " هل أنا غاضبة منهمـا أم أنني غير عابئة بكلام الله " ثم وعت بسرعة بضرورة أن ترد عليهما وبلا توان فماذا تقول لم يكن في رأسها شيئ ترد به لأن أكثر ما كانت له إنتباهً وتقديراً أن هذه الساعة بالذات يجب أن تمر على أحسن ما يكون فلا مجال للجدال أو قسوة النقاش فضحكت بصوت مسموع وهي توجه كلامها إلى العريس " وهل لمثلـي أن تتحجب الآن بعد أن أصبحت من القواعد من النساء ها.. ها.. ها.. " فكان رده مقتضباً وقصيراً وهو يقول" عمراً هذا حقيقـي ولكـن مظهـراً لا فأنـت إستثناء".. تغيرت دفة الحديث بعد ذلك بتلقائية وكأن الجميع يعي أنها ليلة عمر يجب الإبتعاد فيها ما أمكن عن فكرة الجدال والإختلاف..... نظرت " سـعاد " أكثر من مرة إلى ساعتها التي تخطت ما بـعد منتصف الليل.. وجهت كلامهـا إلـى صديقتها بأنها في إنتظار إبنها " كريم " الذي ولابد أنه نساها....ظهـرت

العروس بعد أن بدلت فستان الفرح وإرتدت فستاناً آخر من لونين.. بــدت فــي حجابها كأنها ملاك إنفلت من السماء إلى الأرض.. قاما العروسان وبــدأت الأم تبكي.. فهذه لحظة الفراق.. ستذهب معه في رحلة حياه طويلة.. خرجت مــن تحت جناح أمها ورغم أن الأم كانت بادية السعادة وعقد القران يُعقد وعبارة بكر رشيد قد صكت سمع جيمع الحاضرين إلا أن ألمها كان حتى النُخاع مع خطوات إبنتها وزوجها إلى باب الخروج فالغريب في طبيعة الحياة أن غيــاب الإنســانة المُعذبة يُحدث وحشة ربما أكثر من وحشة تُحدثها لو لم يكن لها هذا الشقاء الذي مضى والذي أرق الأم سنوات قبل أن يعثرا على هذا الزوج التقي الذي أعجبها والذي تقبل منها بفهم الإعتراف بسرها..... نهنهات الأم بدت مسموعة والدموع تُغرق وجهها ولم يكن أمام " سعاد " إلا الإكثار من ترديــد كلمــات الطمأنــة والدعاء للعروسين إلى أن خطت خُطوة واحدة خارج عتبــة الشــقة وبحركــة سريعة شدت من فوق حجابها نقاباً شفافاً أسدلته يغطي وجههــا وهنــا إســتدار العريس إلى" سعاد " وعلى وجهه إبتسامة وهي يهمس " كان هذا هــو مطلبــي الوحيد منها " .

*****

حين إندست في الفراش بجوار صديقتها. أمواجٌ صاخبة من الحب والتعاطف كانت تصطخب في صدرها حتى أنها إحتضنتها بحنان فتجاوبت الأخرى معها.. ثوان بعدها وكانت دموع صديقتها سيالة من عيونها حتى أنها بللت كتفها.. لم تحدد بالضبط لماذا بكت رغم فرحة زواج إبنتها ورغم أن السعادة الواضحة كانت أميز أحاسيسها إستشعرت " سعاد " هذا وصديقتها تكلمها بمنطق وحجة.. ثراؤها اللغوي فاجئ " سعاد ".. إذاً لماذا تبكي.. ربما هي العادة المتأصلة في الشرقيين فمن عمق عُمق الفرح يستخرجون الألم ومن عُمق الألم يستخرجون الرضا.. ظلتا ساهرتين إلى أن فاجأتها صديقتها " سألتيني لماذا تنقبت " وصمتت للحظة كانت " سعاد " فيها شاخصة إليها ثم بعدت صديقتها

بنظرها في فراغ الحجرة وهي تهمس " النقاب نوع من الساتر بيني وبين مخاليق الدنيا.. فمن الذي أريد أن أراه. وكم يساوي أن يعرفني أحد في الطريق مثلاً " لا إرادياً كانت " سعاد " تقول بهدوء وصوت خفيض " ليس في القرآن أمر بهذا " خطفت صديقتها نظرة إليها ثم عادت لفضاء الحجرة لتسمعها "سعاد " تقول " سيبك من حكاية البحث عن نص المهم أن كل ما حولنا يُجسد القُبح وخاصة من الرجل.. لولا إصراراه على إمتهاننا سواء رضينا أم كرهنا ما فكرت أصلاً في الحجاب وياليته أفادني أو حتى أوقف الرجل عند الحد الواجب فإتجهت إلى النقاب وما قلته لك ينطبق من أول الوزير إلى منادي السيارات"... ظلتا تتسامران إلى أن طلع الفجر عليهما.. سقطت الصديقة نائمة حتى علا شخيرها فسوت " سعاد " الوسادة من تحت رأسها فإنتظم تنفسها " لاشك أنها أُنهكت وإستُنفذت في إنتظار هذا اليوم.. كانت الساعة قد تعدت الخامسة.. اللحظة التي تعشقها " سعاد " الخط الأخير الذي يفصل بين الأمس والغد.. إنسحبت على أطراف أصابعها خارجة من الحجرة وهي تسحب بيدها ملابسها.. همست لنفسها " نسى نفسه كالعادة عند خطيبته ولن يُفيق إلا لو طلعت الشمس تلسع أنفه ".. إنسحبت من الشقة كلها وأغلقت بهدوء الباب خلفها.. نسمة الفجر لفحت وجهها فشعرت بها كعادتها ممتعة وأول عربة أجرة صادفتها أشارت لها.. وجه إينها لم يفارقها.. لماذا ترى عينيه دامعتين. كانت تركب بجوار السائق حسبما أشار لها لتُعطي فرصة لراكب آخر... كان الرذاذ يدق على زجاج العربة الأمامي ولم تكن المساحات " الأوتوماتيكية " تعمل.. خطوط المياه على الزجاج الأمامي ترسم وجه إينها بنظارته على وجهه.. الرذاذ يعطيها أيضاً أشكالاً كثيرة له كأنه يتلفت يميناً ويساراً.. دقات قلبها بدأت تتسارع.. فتحت الشباك عن يمينها.. إقترحت على السائق أن ينزل يمسح الزجاج الأمامي وافقها وهو يؤكد أنه منذ اللحظة الأولى كان يود عمل هذا ولكنه تصور أنها في عجلة من أمرها.. إلتقطت أنفاسها وقبل أن يُعاود السير كان الرذاذ قد عاد مرة أخرى

وبشدة فصنع رسماً لوجه إبنها يبكي.. إستعاذت بالله في نفسها وشدت حقيبتها بقوة إلى صدرها كأنها تضغط عليه لتوقف تلاحق دقاته والوجه الباكي يُمحى ليتجدد في كل مرة أكثر بكاء بفعل الماء المنُهمر... بقي لها دقائق على الوصول إلى منزلها لاحظت منذ دخولها الشارع أن عربتها النصف عمر واقفة تحت العمارة في نفس المكان المعروف لها.. ألقت للسائق بما في يدها وإقتربت من العربة.. كان إبنها منكفئاً على مقود العربة والزجاج مغلق من جانبه.. لمحت على الفور ظهره يعلو ويهبط من أثر أنفاسه.. أيقنت أنه حي فخبطت الزجاج.. خبطت أكثر فرفع رأسه مُلتفتاً ناحيتها وإن لاحظت أنه يبكي بدموع غزيرة.. حاولت فتح الباب فإنفتح في يدها.. نادته " كريم.. كريم.. مالك " مسح عينيه ثم ترجل خارج العربة " أبداً يا أمي شوية إرهاق " وضعت كفها تتحسس ظهره.. تمشي بها على ذراعه.. في داخل شقتها كانت تسأله أن تعد له شيئاً يشربه كعادته.. أشار لها برأسه بأنه لا يريد.. إقتربت منه تتناول الجاكت... إلا أنه رفض وهو يردد " أنا كويس يا أمي.. كل ما في لأمر أنني أردت أن أفكر بتركيز ففضلت ان آتي إلى هنا مباشرة لأني خرجت من عندها حوالي الساعة الثالثة صباحاً.. ردت من فورها " لقد نبهتك إلى أن هذا يؤدي إلى إرهاق أكيد " قاطعها " خلاص لقد إنتهى الإرهاق من اليوم. وبهذه المناسبة أعتذر لك بأني لم أذهب إليك في موعدنا ".. عرضت عليه أن تجهز له فنجان قهوة ليفيق ويذهب إلى عمله إلا أنه إبتسم إبتسامة فيها شحوب وهو يقول لها " اليوم هو الجمعة يا أمي وقد إختارت إبنة سيادة اللواء الرقيقة أن تقطع علاقتها بي في يوم الخميس لأستريح الجمعة " خبطت " سعاد " على صدرها وهي تستفسر عن ما سمعت إلا أنه أكد لها ما قاله.. ولما ألحت في أن تعرف السبب أعلن لها بأنها فضلت أن تعود إلى إبن عمها بل إنها عادت إليه فعلاً.. خبطت مرة أخرى على صدرها وتساءلت " طب وأبوها ". أفهمها أن الأب هو من أبلغه الخبر بدون دبلوماسية ولكن بصراحة عارية ولم ينس كعادته أن يذكره " بأن من طابع

الدنيا تداخل العلاقات وإلتحامها وأيضاً إنفصام تلك العلاقات إلا أن هذا لا يجب أن يدفع الإنسان إلى مراحل من الثورة أو الغضب أو القطيعة بمعنى الهجر وعلى المرء التهوين من ضراوة أي شعور حتى يبقى قادراً على الود والتواصل مهما إختلفت الظروف فما الإنسان في النهاية إلا أخ لأخيه الإنسان من أم وأب واحد " صرخت " هو قال لك كده " في هذه اللحظة بالذات تذكرت " سعاد " الحقيقة التي تعيشها في اليوم مائة مرة من أنها الأم والأب في وقت واحد فإقتربت منه وقد هدأت من نبرة صوتها وهي تقول " ولا يهمك " رد عليها بإبتسامة أشد شحوباً من الأولى حتى أنها خافت عليه ومع ذلك كبحت أحاسيس نفسها لتلبس ثوب الأب الرجل وظلت تؤكد له برفق بأنها لم تكن مستريحة طوال فترة خطبتهما.. وأنه فقد الكثير من وزنه.. وتغير لونه.. وأنها ولابد كانت ستكون زوجة متعبة... " أقفل أي محاولة لأمه لتفتح أي ثغرة تنتقد بها إبنه اللواء كما أغلق أي محاولة من أمه للتخفيف عنه.. فقط ماحرص أن يقوله بالتفصيل هو أنه لن يعود للعمل في وزارة الخارجية .. لن يعود مهما كلفه هذا القرار فليس لديه أي قدر من القابلية لإبتلاع طريقة معاملة الزملاء أو نظرات الزميلات مرة أخرى. أرادت " سعاد " أن تثنيه بكل ما أوتت من قوة الإقناع إلا أنها أخفقت تماماً.. حاولت إستثارة الغيرة في صدره.. إستثارة كرامته لما حدث.. أي محاولة لها لم تؤثر بها عليه ولم تثنيه عن الرجوع عن قراره في أنه تارك وزارة الخارجية إلى غير رجعة .

*****

بقي في المنزل ثابتاً على موقفه.. أغلب ساعات النهار بادي الحيرة وكأنه يتخبط في صحراء حتى بلا أفق.. تدخل وتخرج عليه تسأله أن يأكل شيئاً فيقوم واقفاً ليُفرغ زجاجة ماء كاملة في جوفه ثم ينكفئ مرة أخرى مُحاولاً أن ينــــام.. أكثر من أسبوع وهو على هذه الحال و " سعاد " تقدح زناد عقلها وتتساءل لو أن له أباً يعيش في كنفه بماذا كان سيتصرف؟ والعــم بعيــد.. لـــه مســئولياته

وحياته.. الشيئ الذي أدهشها أن أحداً من زملاء عمله لم يسأل عليه والأكثر من هذا أن اللواء السفير نفسه " لم يرفع مرة واحدة سماعة التليفون ليسأل عن غيابه " فهل كانت تتوقع من الناس الذي يستحيل عمله تسائلت مرة أخرى " ألم يكن في يوم من الأيام بمنزلة الإبن منه والأكثر أنه يعرف أن عمه مسافر فلماذا لا يسأل حتى من باب اللياقة " بينها وبين نفسها تتساءل أيضاً " لماذا لم يسأل عنه زملاؤه في نفس الإدارة ونفس الحجرة.. هل لأنه زميل جديد لم يكونوا له عاطفة بعد في نفوسهم أم لأن خبر فسخ الخطوبة وعودة إبنة اللواء لزوجها وصلهم فلم تعد هناك قيمة لإبني ".. حلقة مُفرغة كانت تدور فيها لا تُفيق منها إلا على الدق من شقة إبنتها فوقها رغم أنها إنشغلت عنها في تلك الأيام وهي تتابع " كريم " يُقلقها حالة الحيرة والنوم المستمر التي بات لا يفيق منهما.. الشيئ الوحيد الذي يطمأنها عليه أنفاسه المنتظمة وإذا ما نادت عليه أجابها " بنعم يا أمي" ورغم ذلك من أعماقها من أبعد نقطة في قرارها كانت تشعر وعن قناعة بحمد الله لأن نتائج إنفصام علاقته بإبنة اللواء وصلت إلى حد النوم كنوع من الهروب من واقع لم يكن يرغب فيه وأيضاً النوم من كثرة ما أنهكته من مطالبتها بتواجده الدائم معها دون النظر إلى ضرورة أن يأخذ قسطاً من الراحة.. في إحدى سرحاتها سقط عليها الوعي بأنه من الطبيعي لن لا يسأل على إبنها بل لعله يتمنى إن لم يسع إلى ذلك بنفسه لأن يترك " كريم " العمل نهائياً لأن إبن أخيه والذي عادت إليه إبنته يعمل هو الآخر في الخارجية.. إبتسمت بمرارة وهي تؤكد لنفسها إن الوزارة لا تحتمل أن يكون بها رجلان لإبنته فمثل هذا الموقف من شأنه أن يُكثر اللغط بين الموظفين.. سقطت من عينيها دمعتان وهي تهمس لنفسها " عينى عليك يا إبني " لدهشتها أن فتح " كريم " عينيه نصف فتحة وهو يشير لها أن تجلس بجواره على سريره فجلست فوراً وبكف يدها اليُمنى كانت تُدلك له ظهره وكتفيه.. تعبيرات الإستمتاع بدت على أساريره " أيوه يا أمي وحشتني يدك " قبل أن ينزل العرق

من جبهتها على جسمه كان يجلس قُبالتها.. بدى في عينيها كأنه إستعاد نفسه.. إبتسم وهو يقترب منها ليُقبل جبهتها.. إحتضنته فوضع رأسه على كتفها وظل كذلك لأكثر من دقيقتين وحين تخلص من بين ذراعيها بنوع من الصعوبة لمقاومتها لمحت عينيه مغروقتين بالدموع.. مسحهما بظهر يده وتلفت يتناول نظارته.. لم تقوى أمه أن تقول شيئاً اللهم إلا أنها ظلت تردد " وحشتني عينيك.. وحشتني لك أكثر من أسبوع مغمضهما " ضحك بصوت مسموع فبانت أسنانه المنتظمة.. قالت له " يا واد يا أبو سن جميل " كما كانت تدلله طفلاً ولم تحاول أن تفتح معه أي كلام وكأنه شعر بما يدور في خلدها فبادرها قائلاً بأنه قلب صفحة إبنه اللواء وإنتهى منها ثم أكد لها بأنه لن يعود إلى عمله وبدأ يشرح لها كم التوجسات والهواجس التي ينتظرها من العمل هناك ثم ختم كلامه بأنه فقد حماسه للعمل معهم كما أنه فقد إحترامه للمكان نفسه... عند هذه العبارة أيقنت أمه أنه وصل إلى النقطة الفارقة والنهائية بالنسبة للقرار الذي إتخذه وبشكل تلقائي كانت تؤكد له بأنه في مقتبل حياته والمستقبل أمامه يختار ما بدى له.. طمأنها بأن هذا تماماً ما يفكر فيه وسيعمل على أن يكون واقعاً مستقبلياً له.

*****

كانت تقف أمام إحدى لوحاتها.. عملها هذا هو ما يزيح الكرب عن صدرها وهو ثاني متعة لها بعد إستجلابها لأحلام اليقظة أن تختلي بنفسها في هذه الحجرة تمسك فرشاتها أمام قماش مشدود.. تعجن الألوان وترسم ما تتخيله أو تفكر فيه.. كانت تظن أنها ستتفرغ لهذه الهواية بعد أن تتزوج إبنتها ويتخرج إبنها إلا أن الواقع الذي فاجأها أنها إنشغلت أكثر مما تتوقع وظهر للبنت والولد مشاكل لم تكن تخطر لها على بال.. وهما صغيران كانت تنحصر مشاكلها في ضيق ذات اليد النسبي الذي تحياه وكانت تعالج الأمر ببيع لوحتين أو ثلاثة لها وكثيراً ما كان العم يُرسل لها ما يساعدها كثيراً هذا إذا تذكر ولم يغرق في دوامة عمله التي تعرف " سعاد " أنه يستغرقه تماماً وأنه شديد الإخلاص له...

الآن تمر الأسابيع وربما الأشهر دون أن تقترب من مرسمها الموجود في تلك الحجرة الصغير التي رتبتها لها والدتها يوماً لتكون مرسماً بعد أن كانت حجرة خزين منسية وهمست " لكم أحتاجك يا أمي وآه لوكنت موجودة لعوضتيني كثيراً بل أغنيتيني تماماً في وحدتي هذه.. خُلقت أمي لتعطي بلا كلل رغم صحتها الضعيفة حتى بعد أن شُفيت ".. ترتج لذكرى أمها فحين يكبر المرء وتتلاشى حدود العمر بين الإبنة وأمها وتستطيع أن تحكم على تلك الأم بعينها دون إعتبار للسن أو الخوف فإن " سعاد " كثيراً ما وصلت في تقدير أمها إلى أنها كانت إمرأة غيرية فإستحوذت بالكامل على تقديرها.... عجنت ألوانها على " البالته " الخشبية في يدها.. كُتل من الأحمر والأزرق والأصفر ثم بدأت بخبطات من الفرشاه صغيره وتدرجت معها إلى خبطات أوسع وأشد قتامة ثم توقفت فجأة وتأملت اللوحة وعادت إلى الفرشاه مرة أخرى بدى كأنها خطت لإنسان غير كامل وغير واضح المعالم في ركن من اللوحة فتوقفت فجأة وشدت كرسياً قريباً وتركت جسدها يسقط عليه. لأول مرة تلحظ أنها باتت تفضل رسم تكوينات تشكيلية لا معقولة وربما لا معروفة.. خبطات تفسر نفسها في النهاية بنفسها رغم أن بدايتها كانت تجسد الجمال بالذات إذا ما إستحوذ على مشاعرها ورغم هذا التغيير إلا أنها أيضاً مع التكوينات الجديدة التي أصبحت تُجيدها يبرز لها الوجه الذي تخطه لا إرادياً والغريب الذي لاحظته أيضاً أن مثل هذه الخبطات التي تبدأ عفوية ثم يتكون لها معنى ما.. الغريب أن الناس تقبل على شرائها أكثر من المناظر الجمالية الطبيعية أو الوجوه الأسطورية أو حتى جسد المرأة العاري.. إحساسها أن الأذواق تغيرت وهذا التغيير أوضح ما يكون في نفسها دليلها ما تصنعه الآن بين يديها.. " تغيرت أذواق الناس ".. إلتفتت يمينها فلمحت إبنها يقف على باب الحجرة بادرته بالسؤال الذي يشغلها " لماذا يُقبل الناس على الرسم العشوائي أو اللوحة العشوائية كما أسميها أكثر من إقبالهم على معنى الجمال مثلاً " كمن تلقف منها " كريم " هذا السؤال وكان رده بأنه لم

يعد للحياه معنى أو ناموس ما ولم تعد القواعد البديهية والمنطقية هي التي تحكم أي علاقة سواء كانت علاقة عمل أو علاقة شخصية.. أكد لها أن هناك خلل ما حادث وكأن بوصلة الدنيا فقدت إتجاهها فصارت كثير من الأمور تُقبل رغم بشاعتها وكثير من الأمور تُرفض رغم شفافيتها.. " ليس هناك معيار يقاس عليه ".. ظل يكلمها وهي مُصغية له حتى أنه وصل من شدة إنفعاله إلى أنه أمسك بفرشاتها ولطخ بها اللوحة بخبطات ثقيلة وألوان متنافرة. حدث هذا في بُرهة لم تلحق بها وهو يقول " تعرفي يا أمي شكل الألوان متنافرة وقاسية بهذه الدرجة هي الواقع.. هي الحياة التي نحياها ليس أنا وأنت فقط إنما أنظري إلى أختي " منى " وزوجها.. إنظري إلى إبنة صديقتك وما مر بها وكيف ستبدأ حياتها في هذه الدنيا وهي رافضة أصلاً أن تراها.. لوحتك بما عملته أنا فيها أستطيع أن أقول إنني أرى نفسي فيها ولهذا أشتريها يا أمي.. هل فهمت ما أريد أن أوصله لك ".. عرضت عليه أن يجلس على الكرسي الوحيد.. طمأنها بأنه بخير وبأنه ليس ثائراُ أو حانقاً ولكنه يُقر فقط بحال الواقع والدنيا.. توقف الإثنان فوراً عن النقاش وإبنتها " منى " تقترب منهما والطفل من خلفها.. في البداية سألت إن كانت قطعت حديثهما؟ ولم تنتظر أن يُجيبها أحدٌ منهما إنما إنخرطت في بكاءٍ مسموع. إحتوتها " سعاد " في صدرها فإزداد نشيجها وعلا صوت الطفل باكياً هو الآخر فحمله " كريم " خارجاً من المرسم.. صرخ الطفل مرة أخرى يريد أمه ومشت " سعاد " بجوارها إلى أن وصلا إلى الصالة وجلسوا هناك وبدأت إبنتها تفسر بكائها وكان على غير المتوقع بعيداً كل البعد عن زوجها فقد كان ما يحزنها أن صديق طفولتها " هيثم " يرقد في إحدى المستشفيات نصف الحكومية من فشل كلوي وأنها زارته وكان لتوه خارجاً من الغسيل الكلوي اليومي في منتهى الإعياء.. ثم علا بكاؤها مرة أخرى وهي تطلب من أمها أن تُجهز له صينية " قرع عسلي " طلبها بنفسه لأنها تُذكره بطفولته" أيام أن كان يأتينا وتقدمي له القرع العسلي " وعدتها أن تكون الصينية جاهزة في الصباح......

موعدٌ ثابتٌ ويومياً صار لإبنتها " منى " لتذهب فيه تزور " هيثم " وتعود من زيارته لتجلس مع أمها قبل أن تصعد إلى شقتها لا حديث لها إلا عن مرض " هيثم ".. تجتر لوالدتها كثيراً من كلماته فقد كان يعاني مرتين مرة من عملية الغسيل الكلوي اليومي الذي بات لا يعيش إلا به ومرة أخرى لإحساسه بأنه السبب فيما وصل إليه فقد كان هو الآخر" يضرب " ولما سألتها عن معنى كلمة " يضرب " فسرتها لها بأنه يتعاطى أنواعاً مختلفة من المخدرات أوصلته إلى هذه الحالة ولما إستنفذ التعاطي كل ما لديه وصل إلى درجة شم " الكُلّه " نظرت " سعاد " للأرض بنوع من الخجل الأكيد من مستوى معرفة إبنتها لأنواع المخدرات وأسمائها ثم رفعت وجهها بعد ثانية أخرى خوفاً من إبنتها وقبل أن تقول لها كعادتها " هو ده وقت تسرحي فيه ركزي معايا " هذه العبارة زرعتها حماتها ضمن ما زرعت من أفكار داخل رأس إبنتها ولم يكن أمامها إلا أن تواسيها بكلمات لعلها تخفف بعضاً من آلامها ثم سألتها مُستفسرة " هل هيثم متزوج " فأجابتها بأنه متزوج أيضاً من إحدى زميلاته أيام الدراسة وأن لديه طفلين في عمر" شادي " وأنها الآن تقتسم ملابس إبنها مع الطفلين..... أوجعت قلبها بالتتبع اليومي لحياة " هيثم " وكانت إبنتها دؤوبة في زيارته وفي نفس الوقت دؤوبة في متابعة زوجها بالتليفون لا تمر الساعة إلا وتكون على تواصل معه وكثيراً ما نهتها " سعاد " عن عملية الملاحقة المستمرة إلا أنها لم تجد منها أي أذن صاغية قبل أن تبدأ في لفت نظرها تكون " منى " بطريقة لا إرادية قد طلبته فعلاً فتتحين الأم فرصة أخرى لتبدأ معها من جديد وبأساليب متعددة ومعانٍ كثيرة إلا أن " منى " كانت ترد عليها بحسم لتُفهمها بأن المسألة ليست حباً من جانبها كما تتصور وليست غيرة أيضاً إنما المسألة أن يكون لبيته عليه حق في مواعيد منضبطة يخرج ويدخل فيها ليرى إبنه قبل أن ينام وفي أحيان أخرى كثيرة كعادتها ترد عليها بسخرية قائلة " حب ايه اللي إنت جاية تقولي عليه ما تفوقي يا ماما وبطلي سرحان ده إنت في اللأ لا خالص " وحين سألتها

عن معنى " اللاّ لا " كانت ترد عليها في قالب كأنه هزار بأن تقول لها " والنبي إنت أم إنت! ما تعرفيش اللاّ لا .. ماتعرفيش الضياع.. ما تعرفيش اللي بيعمل دماغ.. عيشي شوية في الواقع يا ماما يا فنانة ها.. ها.. ها.. " فلا يكون من " سعاد " إلا أن يعلو صوتها وهي ترد بعبارة واحدة " إزاي أعرف مفردات الغرز اللي إنتوا عارفينها " فتضحك إبنتها بطيبة وهي تقول هي الأخرى " ما خلاص سيبنا الغُرز وأيامها وأصبحنا أمهات.. ألم تشعري بالفرق في شخصيتي.. لأ طبعاً ما دام لك إهتماماتك الفنية.. إنك حتى لا تشجعيني على ما أصبحت فيه من إنضباط " ثم تُكمل " طبعاً هو إنت شعرت بي لما كنت غير مُنضبطة " أغلب الأوقات بينهما تتهكم " منى " عليها وتؤنبها بأنها لم تتنبه وتفهم مبكراً..... هذا هو النقاش اليومي بينهما والذي ينتهي بعلو صوت " منى " عن الحد المفروض لتشد إينها بعد ذلك وتصك باب الشقة خلفها وهي تقول لها " إنت منعدمة الأمومة لأنك لا تركزي معي أنت هناك مع القمر ولوحاتك التي تظنين أنه لم يُخلق مثلها من قبل " وتسمع " سعاد " صك الباب مُدوياً بعد ذلك فتنشغل في تناول قرص للضغط وإبتلاع قرصين " أسبرين"وكثيراً ما تأخذ أيضاً حبة مهدئه ثم تروح وتجئ بعصبية تفكر أن تصعد إليها لتصفعها إلا أنها كانت تخشى على نفسها من رد فعلها ثم لا تدوم هذه الحالة أكثر من دقائق لترتمي بعدها على فراشها.. فقد بدأ مفعول الأقراص التي تجرعتها.

*****

لم يُوفق " كريم " في العثور على عمل لأنه هو نفسه لم يكن يعرف أي نوع من الأعمال يريدها تمنت أن يكون العم موجوداً لتسأله فكيف لها أن توجهه إلى أي وجهه وهي لا تعرف عن ملكاته شيئاً اللهم إلا أنه يحب العلم وله صبر على القراءة رغم أنها بدأت تلاحظ أنه أصبح ضيق الصدر قليل الصبر على أن يفتح كتاباً لأكثر من عشر دقائق فلم يكن أمامها إلا أن تنظر بإعتبار إلى دراسته التي تخصص فيها وهي العلوم السياسية فأين هي الوظيفة التي يستطيع فيها أن

يمارس ما تعلمه.. تذكرت بقدر لا يُستهان به من الحسره أستاذه الأمريكي الذي كان يرى أن أنسب عمل له هو أن يكون باحثاً إلا أنها في ذاك الوقت رفضـــت هذه الفكرة تماماً لأن إينها لن يكون له وظيفة ذات دخل ثابت وليس له مكتـــب دائم " ياخيبتي وقصر نظري " أن الطريق الوحيد الذي كان يستطيع منه ممارسة ما تعلمه عن السياسة حتى لو كان على المدى الطويل بل الطويل جداً هو وزارة الخارجية وكان قد أفهمها " كريم " كذلك أن " مصر " لا أحزاب فيها ولا تسمح بذلك وهي الطريق الوحيد المشروع لممارسة ما تعلمه عن السياســـة رغـــم أن الصحافة تطالعنا كل يوم بقرب السماح بقيام الأحزاب وقد أفهمها أيضاً " كريم " أن هذا لأن السادات أدرك منذ بداية عهده وحتى يـــرتبط بالمعســـكر الغربـــي ويستفيد منه إقتصادياً وسياسياً لابد أن يتخلص من النمط الشمولي وأن تحـــدث إنفراجه ديمقراطية وقدر من حرية الرأي وبدأ السادات يا أمي رويداً رويداً كلما مكنته الظروف حتى يُصبح مستوفياً للشكل الغربي وكان قد سبق ذلـــك إلغـــاء الحراسات في أول حكمه عام ١٩٧١ ومن قبلها بل والإفراج عن المعتقلين منذ ١٩٧٠ هذا فضلاً عن طرد الخُبراء السوفيت في ١٩٧٢ وأيضاً إستقبال الرئيس الأمريكي " نيكسون " في القاهرة عام ١٩٧٤.. "هذا ما تعلمناه في الجامعة يـــا أمي "...... وهي واقفة أمامه وجدته شارداً يفكر نادت عليه بصـــوت خفـــيض إنتبه إليها وهو يقول " نعم يا أمي " تقدمت ناحيته فقام واقفاً يسحب لها كرســـياً لتجلس عليه.. كان في ذهنها أن تعرف منه أي الوظائف يتطلع إليها و يأمل أن يعمل بها.. لاحظت أن رده عليها كان مُشبعاً بنوع ما من اليأس فقد مضى عليه أكثر من ستة شهور ولم يعثر على أي عمل بعد وقبل أن تستدير لتخـــرج مـــن حجرته لأنها سمعت جرس الباب.. في خروجها كانت تعرض عليه أن تُحضر له كوباً من الليمون.. ولما فتحت الباب كان " شادي " يتعلق برقبتها.. إختطفته من على الأرض وإحتضنته لصيقاً بصدرها.. هذا الطفل كان يخلق بين حناياها الشعور بالسعادة.. حقيقة أنها سعادة مؤقته لأنها تعود مرة أخرى بوعيهـــا إلـــى

المشاكل إلا أن أخذه في حضنها كانت معه تُعايش إكتمال لحظات السعادة وهي تُمطر وجهه بقبلاتها.. كانت تنسى كل شيئ وأقرب شيئ في لحظاتها هذه.. لحظات تغتسل فيها من أطنان الهم وكثيراً ما عرفت أن الصغير غالباً ما ينزعج وهي تنهال عليه بإندفاعها إلا أنها لم تكن تملك أن تتروى أو تتعقل في عاطفتها حين تراه.. لا تملك إلا أن تركع على ركبيها وتتفحصه بل تحتويه داخل عينيها قبل أن تشده إلى صدرها وتعيش لحظات من النسيان والبهجة لا يمكن.. لا يمكن أن يُضاهيها إحساس آخر وعندما يعلو صوته صارخاً أو مُستنجداً تتركه ينفلت من بين ذراعيها.. يجري خطوات وهي تمسح ساقيه وقدميه الممتلئين بعينها وتتظاهر أنها ستجري خلفه فيُسرع في خطوه مستنجداً بخاله " كريم " الذي يحمله بدوره ليجعله يُلامس مصباح الحجرة أو يُجلسه فوق الدولاب فيُكركع من الضحك وكأن البيت في هذه اللحظات يستعيد أنفاساً له هربت هنا أو هناك من التألم أو التعجب.. يحيون لحظات أو دقائق مسروقة من عمر واقعهم اليومي الذي غالباً ما يكون قلقاً يتساءلون فيه ماذا يفعلون.. ثم يهدأ كل شيئ ويعاود " كريم " الجلوس في حجرته وتنخرط " منى " في الكلام عن مرض " هيثم " الذي يبدو أن لا أمل في شفائه وقد يطلب الصغير ورقة وقلم يخطط عليها فتضحك " منى " وهي تؤكد لأمها أنه بالتأكيد سيكون مهندساً مرموقاً أو رساماً شهيراً أو.. أو.. شيئ صغير كان يزرع الألم في قلب الأم أن " منى " حين تتوقع لإبنها أن يُصبح رساماً أو مهندساً لا تتذكر أنه سيكون رساماً كجدته أو أنه ورث موهبة الفن منها كأنه يعز عليها أن تُقر إبنتها بهذه الحقيقة ومن ثم تشعر " سعاد " أن " منى " تستبعدها حتى من توقعات منتظرة للصغير بل وتحس أنها لا تُجيد الكلام إلا ساعة أن تؤلمها أو تتهمها في أمومتها " لماذا ياربي لا تملك منى ولا تجيد إلا أن تجرح " سؤال كثيرا ما أرق عقل " سعاد " فلم تكن إبنتها قبل زواجها بهذه الضراوة في معاملتها فيزداد إحساس"سعاد" بقبح

كل ما حولها سواء من الظروف أو الأبناء حتى بات القُبح وسيادة الأليم سـمة من سمات حياتها اليومية .

*****

جار لهم تونسي الجنسية يقطن في الدور الذي فوق " منى " كثيراً ما كـان يقف مع " كريم " يتجاذب أطراف الحديث.. هذا الجار كان من الذين تعلموا في مصر.. أمضى أول شبابه فيها ولما أراد أن يعود إلى وطنه عاد وفي ذراعـه زوجة مصرية.. كان شديد الإعجاب " بكريم " يمتدح فيه حبه للقـراءة وتلـك المناقشات التي كانت بينهما عن الهم العربي والأمل العربي.. لما عرف بقصة تركه الخارجية عرض عليه أن يعمل في الجامعة العربية لأنها في حاجه إلـى موظفين جُدد وهو عرف هذا بحكم عمله هناك .. قبل أن يفرح " كريم " كـان الرجل يرفع سبابته مؤكداً ضرورة أن تكون له "واسطة "ذات ثقل لأنه لاحظ أن كل التعيينات الجديدة لا تخرج عن زوجات الوزراء الحـاليين أو السـابقين أو أولادهما.. وأد الأمل قبل أن يبزغ داخله وبدى هذا واضحاً على أسارير وجهه عندما إنزرع واقفاً في خرس تام أمامه ولما لم يجد الجار أي إستجابة مـن أي نوع بعد ذلك من " كريم " لما يقول. طلب منه أن يرى والدته لدقائق.. أفاق " كريم " وأدخله مرحباً وأجلسه إلى أن حضرت أمه فكثيراً ما كانت تسلم على زوجته وأحياناً تتبادل معها بضع كلمات حسب ما تسمح به الظـروف.. أثنـى الرجل على لوحاتها التي تملأ الجدران.. أكد لها أن المرء يجد دائماً في مصر أصداء لما يجري في العالم فمصر بينها وبين الحضارة صله خَلْقية كأنه حبـل سُري غير مرئي يوصل لها كل ما هو جديد فتتفاعل معه بل وكثيراً ما تضيف إليه ثم دخل مباشرةً إلى لُب الموضوع الذي أتي من أجله فأكد لها على ضرورة وجود توصية قوية.. في لمح البرق تجسد في مُخيلة " سعاد " صورة صـديق المرحوم زوجها الذي راوغها في محاولتها لمقابلته والآخر الذي تركها تُكـرر وهي تئن مما حدث لإبنها وإستدار ليجلس إلى المائدة ويتناول غذائه في شـهية

كاملة!!...... كل ما أستطاعت أن تعمله أن دفعت إينها ليتقدم بالأوراق المطلوبة من شهادة التخرج وشهادة الميلاد و.. و.. ويترك الأمر بعد ذلك لله..
كان النقاش مع إينها عاصفاً وهو يؤكد لها أنها تحلم وبعيدة عن أرض الواقع فكانت ترد عليه بحجة أقوى من أن على المرء أن يسعى أما النصيب فهذا شيئ آخر.. مرة كانت تقنعه ويبدو عليه الهدوء وفي مرات أخرى كان يتهمها بعدم المنطقية فما فائدة السعي مع حالٍ وواقعٍ لا ريب فيه.. خطف يدها يقبلها وهو يرجوها " أرجوك يا أمي لا تتعلقي بأحبال الهوى.. أنا لا أتحمل صدمات أكثر من هذا ".... إنشغلت معه يومين إلى أن جهز أوراقه وقفت تنتقي له ما يلبسه وهو ذاهب ليقدم أوراقه.. تأخر في عودته فقد قاربت الساعة من الثالثة ولم يأت بعد.. هذه الساعات مرت بها وهي تتخيله يقدم الأوراق للموظف المُختص الذي لابد أنه فحصها وإنبهر من تقديره الدراسي فأدخله إلى رئيس الجامعة نفسه الذي لابد أنه سيتمسك بكفاءته وكذلك مظهره الأميل للوسامة وتزيد في أحلام يقظتها لترى أن الرئيس سيلمس فيه طيبة القلب ولابد أن ستقع نظارته من على وجهه فيبدو كطفل إقترف خطأً ما إلى أن يلتقطها من على الأرض تحت قدميه ويضعها على عينيه دون أن يمسحها حتى أفاقت على رنين جرس الباب بلا إنقطاع.. فتحته على مصراعية.. كان إينها.. إرتمت في صدره بطريقة لا إرادية فإحتضنها وسمعها تهمس " يا حبيبي يا إيني " وعلى الفور تحسست رأسه بشعره الأسود الغزير وقبل أن ينفلت من بين ذراعيها إذ تساءلت وهي قريبة من وجهه " طَوِلّ بالك لما أشبع منك أنا لا أعرف إنت مش طالع عاطفي ليه زي المرحوم أبوك " ضحك مبتعداً عنها ومتوجهاً إلى حجرته.. مشت وراءه بخطوات سريعة كانها تجري لتلاحق سرعة رجليه إلى أن دخل الحجرة وبدأ يخلع رابطة عنقه.. تناولت منه " الجاكيت " ولاحظت أنه بدى مشحوناً بقدر من الضيق يحاول السيطرة عليه.. سألته عن ما جرى وطلبت أن يحكي لها بالتفصيل.. بضيق ملحوظ كان يطلب ماء فهمت أنه يريد أن يبدل ثيابه في

عدم وجودها.. خرجت متظاهرة بإحضار الماء.. لامت نفسها لعدم إلتفاتها إلى حقيقة أنه كبر وأنه يريد قدراً من الخصوصية... ولما عادت بالماء كان شارداً في وقفته ويدخن سيجارة.. إقتربت بالماء منه وقبل أن تلومه على عودته للتدخين كان يبادرها بما معناه أنها مجرد تسليه وأنه قادر على التوقف عنها في أي وقت يريد.. لم تشأ أن تُثقل عليه.. ثم ظل يروي لها ما قابله في مشواره وهو يقدم أوراقه إلى أن وصل إلى قرب نهاية كلامه بما يعني أن الموظف الذي إستلم منه أوراقه قلب فيها ليتأكد من سلامتها وإبتسم له إعجاباً أكثر من مرة إلا أنه في النهاية سأله أن يكون معه كارت أو خطاب توصية أو شيئ من هذا القبيل.. ولما لم يجد عنده شيئاً توقع أن واسطته ستتكلم عن طريق الهاتف مثلاً ولما لم يجد لديه أي شيئ من كل ما إقترح أو توقع رفع إليه عينيه متعجباً وهو يقول " مهما كان لك من مؤهلات فهذا لا يغني عن التوصية.. الناس يا أخ تتصارع على العمل هنا ".

*****

الشهور تمر تباعاً ولا يفلح " كريم " أن يجد عمل.. طرق أبواب أعمال كثيرة لا تمت إلى دراسته بشيئ إلا أنه كان يريد أن يعمل فلم يعد من المقبول بالنسبة له أن تعوله إمرأة حتى لو كانت أمه خاصة بعد أن أنهت مهمتها في تعليمه.. كل يوم يمر عليه يزداد عصبية ويزداد ضيقاً ويُسرف في التدخين وإذا ماحاولت أمه لفت نظره رد عليها بأنه سيرد لها الكثير حين يجد عمل ولو بعد الستين من عمره فكانت " سعاد " تضحك وهي تقول له " ومن أدراك أنني سأعيش إلى أن تبلغ أنت الستين من عمرك " مثل آلاف المرات التي مرت بها تتمنى وجود الأب الذي يُرشد ويوجه أو يوصي على إبنه بنفسه أو يطلب التوصية من أصدقائه وزملائه ثم تتمنى مرة أخرى لو أن عم إبنها يأتي لينتشلها من تلك الحيرة التي تعيشها فالأيام تمر ولا بارقة أمل في أن يعثر " كريم " على عمل وهي علاقاتها الإجتماعية محدودة وأن من يشترون لوحاتها لا صلة

لها بهم فهم يشترون من صالات العرض أو المحال المعدودة على أصابع اليد الواحدة التي تعرفها " سعاد " وليس من المنطق أن تسأل صاحب صالة العرض عن زواره أو عن من يشتري منه فصاحب المكان حريص على أن لا يكون لها إتصال بالمشتري طبعاً... خطر ببالها أن تلجأ إلى زوج إبنتها " أشرف " فلعله يعرف أحداً قريباً أو صديقاً أو جاراً.. بينها وبين نفسها كانت تتمنى أن تسأل " أصيلة هانم " حماة إبنتها إلا أنها تراجعت ليقينها أنها لن تساعدها لأنها لا تطيقها من حيث المبدأ... قررت أن تسأل زوج إبنتها " أشرف " وتحينت أول مرة رأت فيها إبنتها أن تسألها على زوجها وتطلب منها أن تناديه لتتحدث معه في أمر هام.. وكانت فرصة بالنسبة لإبنتها " منى " لتقول لها بأنه يمضي كثيراً من وقته خارج البيت وإذا ما حضر فهو ينام أغلب الوقت وأنه بات لا يطيق صوت " شادي " ولا يداعبه أو يلاعبه بالمرة بل إنها تركته مرة معه لتشتري شيئاً ولما عادت كانت أصابع كفه واضحة على فخذي الطفل " تصوري يضرب طفل " إندهشت " سعاد " من تلك الواقعة من فعل أن يُضرب طفل أصلاً إلا أنها وكطبيعة في تكوينها بحثت في عقلها سريعاً عن شيئ بديل تخفف به ألم إبنتها فقد علمتها أمها في يوم بعيد أن المرء إذا ما حصل على ثُلث أمانيه فلابد له أن يعتبر نفسه محظوظاً.. دق في رأسها هذا المعنى وأستقر داخلها فحدقت في " منى " قبل أن تقول لها " إحمدي الله أنه أصبح أهدأ وأقل شجاراً من زمان وله موعد ثابت يعود فيه إلى بيته... " ظلت تحاول أن تزرع داخل دهاليز عقلها ما يمكن أن يطمأنها إلا أنها لم تر في إبنتها أي إستجابة لها أو بادرة إقتناع لما تقول بل على العكس بدت ضيقة الصدر وكثيراً ما تصورت " سعاد " أن في نظراتها إليها نوعاً ما من الإشفاق عليها وكأنها تقول لها " أنت ساذجة ولا تعرفي الجيل الذي نعيش فيه الآن " كفت عن الكلام فجأة مع حركة إبنتها متجهة إلى الهاتف وسمعتها تكلمه فعلاً وتطلب منه أن ينزل ليقابل أمها لأمر هام لا تعرفه ثم أغلقت الهاتف..... وعلى مدار أكثر من أسبوع لم تفلح "سعاد "

أن تقابل " أشرف " أو تجلس معه لتحكي ما في صدرها علها تجد نوعاً من المساعدة منه.. دائماً يرسل لها إعتذاراً ما مع " منى " بأنه يأتي متعباً ولابد أن ينام ساعة واحدة وسينزل لها إلا أنه عادة " ما تروح عليه نومة " حتى ينست فهو لا يأتيها إلا لو كان على خلاف مع إبنتها وقد ألقت له من الشباك ملابسه يسبقها الدبلة من أصبعها أو أنهما تضاربا إلى درجة إسالة الدم.. همست لنفسها " في الفرح منسية وفي الهم مدعية " لم يكن أمامها وخاصة بعد أن وصلها خطاب من عم أولادها يسأل عليهم ولم يذكر فيه موعداً لحضوره.. لم يكن أمامها إلا أن تُكثف من صلواتها ودعواتها.. بجوار سريرها تضع كتاب لم تترك منه أي دعاء إلا وكررته مئات المرات وفي لحظات كان يغلب عليها الوعي بأنها مهما دعت فما هو مكتوب لإبنها لا فرار منه.. أصداء تتردد في تجاويف عقلها بأن الرسول " صلى الله عليه وسلم ".. وهو رسول كان يدعو " للحسن والحسين " ولم يمنع ما هو مقدر لهما ثم تعود لتفكر بأن إبنها " كريم " الذي لم يُكلفها مليماً واحداً في تعليمه لتفوقه.. إحساسها أكيد بالحيرة والتخبط بل والتسول الذي باتت تحيا فيه من أجل أن يعثر إبنها على عمل حتى أن بواب العمارة التي تسكنها الأكيد أنه فكر هو الآخر فتتطوع يوماً وعرض عليها أن يكتب " كريم " طلباً يوصله بنفسه إلى بواب عمارة في الميدان الذي يسكن فيه أحد الوزراء وما على البواب قريبه إلا أن يعطي للوزير الطلب والحقيقه أنها فكرت بجدية أن تعمل هذا إلا أن إبنها فزع فيها وهو يهدد بترك البيت نهائياً وفوق هذا عرفت ساعتها من البواب أن الوزير المقصود هو وزير الكهرباء فلم يتزعزع إحساسها بتقدير البواب لمشاركتها على الأقل مهما كانت بعيدة عن القصد المطلوب أو المأمول...... شدها من تأملاتها دخول زوج إبنتها " أشرف " سلم عليها بود كبير وإعتذر عن تأخره السابق بسبب ظروف العمل وتوعك والدته... ثم وعدها بأنه سيشتري شريط أغنية في دقائق من أقرب مكان. كانت قد طلبته منه " منى " ويعود فوراً ليستمع إليها... إلتفت خارجاً

من أمامها على عجل ودخلت هي إلى المطبخ تعد له شيئاً من الحلوى وتجهــز صينية الشاي... لقد كانت تعرف أنه لا يقاوم الحلويات ويشكو دائماً مــن قلــة السكر فيما تقدمه له.. الساعة مرت وراء الساعة ولم يحضر زوج إبنتها إلى أن إنتصف الليل وهي جالسة أمام التليفزيون يغلب عليها النوم أحياناً فتصحو لتغسل وجهها.. تمنت أن لا يأتي هذه الليلة فقد أخذ منها التعب كل مأخذ وتريد أن تنام لا تقوى على السهر أكثر من هذا.. وحين تسهر مضطره لا تستطيع أن تستمتع بالفجر ولحظة الشروق من نافذة حجرتها ويكون من الإستحالة بمكان كــذلك أن تمسك فرشاتها لتخط أي شيئ إلا أن الجرس دق فجأة رنيناً متواصلاً وهناك من يدق بقدمه الباب.. قامت في حالة كبيرة من الإضطراب تتخبط في الممشى قبل أن تصل إلى الباب وهي تؤكد " حالاً حالاً حالاً يــا أشــرف ســأفتح البــاب " وعندما فتحته كانت إبنتها " منى " مشوشة الشعر ترتدي بنطلون " جينز " ومن فوقه قميص أبيض.. كانت شاحبة الوجه. جاحظة العينــين.. إنــدفعت داخلــة كالسهم وهي تسأل أمها " هل سمعت صوت شادي " فردت عليها بأنــه غيــر موجود معها أومأت لها برأسها أنها تقصد هل سمعته من شقتها فوقها فقد تركت الطفل نائماً عندما غاب زوجها أكثر من ساعة وذهبت إلى أحد أصدقائه لتســأل عليه.. وعرفت أنه سافر إلى " شرم الشيخ ". خبطت " سعاد " علــى صــدرها وهي تؤكد لها أنه وعدها بأن يأتي إليها ليستمع لما تطلب.. أكدت لها أنه سافر وأنها لم تكن مستريحة لصمته الأخير ونومه الكثير وأنها كانت متشــككة بــأن الأمر ليس طبيعياً وفجأة إتجهت إلى الهاتف وبأصابعها كانت تطلــب " أصــيله هانم " أمه.. أرادت " سعاد " أن تُثنيها لأن الساعة تخطت منتصف الليل إلا أن " منى " بادرتها " حماتي بتسهر مش زيك " تواصلت إبنتها مع حماتها وبدت في البداية كأنها تكلمها لمجرد السؤال فقط ثم بالتدريج سألتها عــن " أشــرف " وأفهمتها أنه إستأذن من والدتها في دقائق ولما تأخر نزلت تسأل أحد اصــدقائه الذي أنبأها أنه سافر لتوه إلى " شرم الشيخ ".. ظلت تستمع لحماتها أكثر مــن

العشر دقائق حين سُمع صوت الطفل بوضوح كأنه صحى من نومه أشارت " منى " لأمها أن تطلع لتُسقيه.. أشارت لها مرة أخرى بعصبية أن تُسرع .

*****

تُكثِر" منى " من الذهاب إلى حماتها يومياً صباحاً ومساء وإن لم يعد زوجها من شرم الشيخ للآن.. ولا هو حتى يتكلم يُبرر غيابه.. ولا يتكلم أيضاً ليسأل عن إبنه كان كمن نساهم أو قطع علاقته تماماً بهم.. في البداية أخذت " منى " الأمر بنوع من الإهمال الممزوج بالسخرية إلى أن وصلها قصة إختفائه كاملة حين عرفت أنه تعرف على سيدة أجنبية أكبر منه وأنه إعتاد قضاء وقت طويل معها.. والأهم أنه تزوجها في نهاية الأمر.. " أصيلة هانم " تتمسك أن تراها ليل نهار تقنعها بفكرة عدم الطلاق على إعتبار أن المسألة لا تزيد عن كونها نزوة وتنتهي.. كانت " منى " تعود إلى أمها تحكي لها كل مادار بينها وبين حماتها لتؤكد لها مراراً أن حدسها كان صحيحاً حين كانت قلقة من مسألة قضائه كل ذلك الوقت الطويل خارج المنزل رغم أنه كان يهادنها في كل أموره سواء الشخصية أو المنزلية وكأن كل همه إسكاتها بأي ثمن.. وكانت " سعاد " تقف عاجزة تماماً على أن تُبدي رأياً وكثيراً ما قالت لنفسها بأن أمه أعلم الناس به ولعل رأيها بأنها نزوة يكون هو الرأي الأصوب.. ثم يأكل الغل والضيق في صدرها حين تسترجع تمسُك وإصرار إبنتها السابق عليه تجتر في مخيلتها وقت أن كانت رافضة تماماً لهذه الزيجة وخاصة بعدما قاله قريبها.. ولكن فاجأتها " منى " يوماً بخروجها كالسهم من حجرتها إلى المطبخ وفي لمح البرق دخلت عليها حيث تتمدد وفي يدها " سكينة " ترفعها في وجه أمها وهي تُهدد بحتمية الزواج من" أشرف " فإنزاحت الأم من رقدتها و" منى " تغرس السكين مكان رقدتها.. تكررت هذه الحركة منها أكثر من خمس مرات زحفت الأم فيهم مساحة السرير كله لدرجة أن الغطاء وضحت فيه خبطات غرسها للسكين.. لم تكن الأم خائفة منها بالمعنى المعروف بقدر ما

كانت خائفة عليها وقد إستحوذ على عقلها أن ما أوصلها إلى هذا الفعل لابد وأنه شيئ فوق طاقتها وأكبر من تحملها مع يقينها بالضروره بأن هذا الشاب هو آخر الدنيا... ثم تقرر بينها وبين نفسها أنه في كل الأحوال فإن إبنتها تستحق كل ما يجري لها فلم يحدث أنها سمعت أو إعتبرت لها رأياً أو حتـــى حاولـــت ذلـــك " ولكن ما فائدة الكلام " وتذكرت مثلاً كانت ترددة والدتها " الكلام في الفايـــت عايب " ثم تعود لتشعر بنوع من الخجل والإنطواء وتتذكر مقولة لأم " أشرف " في يوم من الأيام بأن إبنها لم يأخذ " منى " من على سجادة الصلاه.. عنـــدما تصل " سعاد " إلى الإحساس بهذه الحقيقة لا يبقى لها إلا أن تسُد سكك الكلام أو النقاش أو حتى العتاب مع " منى " وتكتفي بالإستماع إليها بنصف عقل والنصف الآخر يعيش أحلام يقظة تُنبأ بأشياء تتمناها فتحلم بأن الهاتف دق وأنها إلتقطـــت السماعة فسمعت بتعيين " كريم " في المكان الفلاني أو العلاني... أو تحلم بأن زوج إبنتها دخل عليهم يحتضن إبنه ويقبل رأس إبنتها وهـــو يؤكـــد إســـتحالة إستغنائه عنهما... فهل هذا نوع من الإيمان بالغيب واليقين به بأنـــه يمكـــن أن يتحقق معه ما لا يتوقعه المرء بمقاييس الحياه التي نعرفها.... تظل تحلم وتحلم وهي مفتوحة العينين تصغى إلى إبنتها ولكن لا تسمع لها صوتاً ولا تحس بشيئ تجاه ما تقول أو تحكي أو تتوعد أو حتى حين تتطاول عليها.. تظل " ســـعاد " على هذه الحالة الساعة تلو الأخرى إلى أن تستكفي وتتجدد مع الأحلام فتُغمض عينيها وتتمطى كأنها تفيق من نوم كان. عند هذه اللحظة تكون إبنتها قد إنتهـــت من حكيها ويكون " شادي " الصغير قد ضاق من طول المدة فقد حـــان موعـــد نومه فتأخذه لتصعد به وتستدير" سعاد " بعد أن تقبله قُبلة المساء الطويلة لتدخل حجرتها أو تدخل مرسمها تعجن الألوان وتمســـك بفرشـــاتها تســـجل خبطـــات كثيرة.. دوما.. دوماً تُعطي معنىً ما في النهاية .

والأيام تقطعهم جميعاً أو يقطعوها في رحلة الكبد اليومية فلا جديد بالنسبة لإبنها. لا أحد يطلبه ولا عمل يُعرض عليه أما " منى " فمازالـــت " الســـكينة

سرقاها " كما يقولون تروح لحماتها وتعود أشد يأساً من أن يعود زوجها مـــرة أخرى وإن كانت عاطفتها نحوه تتأجج وتظهر يوماً بعد يوم فهي لا تـــذكره إلا وتذكر لا إرادياً جماله الذي كان مساراً لتعليقات صديقاتها ولا تأتي سيرته مع " سعاد " إلا وتؤكد أن ذوقه رفيع في إختيار ملابسه وأن دخيلته طيبة مما يؤكد لأمها أنها شديدة الحب لزوجها بل والإفتتان به... و "سعاد" لفــرط إحساســها بأنها الأب والأم في آن واحد فكانت لا تتأخر بعد أن تلمس هذا من إبنتها إلا أن تقول لها وكأنها ومضة فكرية من داخل ذهنها الدوار بما يعني بأنه بعد أن يعود إليها لابد أن تكف عن ملاحقته وإحراجه بحساب الوقت بالــدقائق معــه حتــى تعطيه فسحة مقصودة ما دامت قد قبلت من المبتدأ أن ترتبط به فكانــت إبنتهــا تؤكد هي الأخرى أن هذه نصيحة حماتها لها.. وما دام الرجل يقوم بنفقات بيته ولا ينتقص من طلباتها شيئاً فلا داعي إلى مسألة التدقيق الشديد الذي تتابعه بــه وقد أضافت أن حماتها أكدت لها أن ما يعمله " أشرف " أصبح سمة في الشباب كلهم وأنها عادة تفشت في المجتمع على إخــتلاف طبقاتــه وأن.. وأن.. ورغم أن " منى " تتظاهر بالتفهم والتقدير الكبيرين لما إرتكبــه زوجهــا إلا أن واقعها وداخلها كان غير ذلك تماماً فقد عافت نفسها الطعام بصورة مبالغ فيهــا حتى بدى وزنها كأنها طفلة لها من العمر عشر سنوات على الأكثر وأصــبحت تُثير تساؤل كل سكان العمارة وجميعهم بلا إستثناء قد تبرع بالكلام مع " سعاد " لعرض إبنتها " منى " وبأسرع ما يمكن على طبيب بعضهم أشار بطبيب نفسي وبعضهم أشار بعمل تحليلات دقيقة وبعضهم وصل إلى طلب تحليــل البصــاق لأنهم يشكون في إصابتها بداء الصدر لأن هذا المرض عاد ليُطل برأســه فــي بعض البلاد... كان هذا الكلام يُعذب " سعاد " يُفتت كبدها.. يُجســد الحســرة داخلها حتى تشعر بها مرارة تسح في فمها فلا " منى " تقبل بالذهاب لأي طبيب ولا توافقها أن تأكل أي شيئ أو تحاول ذلك والأكثر أنها كانت أشد قســوة مــع والدتها إذا ما تجاسرت وفتحت أي ثغرة للنقاش معها على مسألة الطعــام هنــا

كانت ثورتها تزداد وتصل إلى مرحلة اللا عودة لها منها في التمادي والتجاسر على الرد على أمها وتؤكد دوماً وبكل وضوح أنها لم تستمع إليها يوماً في أي أمر من أمورها فهل ستطيعها الآن وهي غاضبة ومهزومة ولا مستقبل لإبنها معروف.. وتضطر " سعاد " أن تبتلع لسانها ألماً على إبنتها وألماً أشد من إبنتها وتترك لها المكان وهي تُقسم أغلظ الأيمانات بأنها لن تعود إلى فتح أي موضوع معها يخص حياتها ... كان هذا الحوار وذاك الموقف يتكرر يومياً وأحياناً في اليوم الواحد أكثر من مرة إلى أن إعتادت " سعاد " وتعلمت أن لا تكلمها وبالتدريج أخرجت من رأسها صورة إبنتها تماماً فلم تعد ترى ما يراه الجيران وإذا ما قابلها أحدهم ونصحها تعلمت ان تبتسم وهي ترجوه بحرارة أن يحاول إقناعها هو بالذات بما يقول .

*****

لما توقفت " سعاد " عن متابعة إبنتها في مسألة وزنها ونحولها الشديد بدأت الإبنة تشكو من إهمال أمها لها ولكن أيضاً بأسلوبها الجارح وكأنها صقر هوى من مرتفع لينقض على فريسة فبعد أن تسألها إن كانت تلاحظ قلة وزنها أم لا؟ تنبري لتُكيل لها بأن أمومتها ضعيفة وبأن إهتمامها منصب فيما تصنع من لوحات فاشلة بكل المقاييس وأن سبب سقوط لوحاتها أنها لا ترسم الواقع الذي يحياه الشباب إنما ترسم أحلام يقظتها هي. فإذا أجابتها أن ما ترسمه يُقبل عليه الناس فيكون ردها أن من يُقبلون هم من العواجيز الذين بقوا على قيد الحياه كصدفة وتؤكد لها أنها لم تر في حياتها أو تسمع عن شاب أو شابة إقتنى ما تعمله.. وإذا ماردت عليها أمها بأنها ترسم للهواية ولحب الفن وليس للمتاجرة كانت تسخر من رأيها لتواجهها بأن مثل هذه الأفكار الساذجة والطيبة هي ما جعلت أخاها يفشل في حياته.. وتظل تناقشها بأسلوبها الفج لا تفرغ لها حُجة ولا تتوقف عن إستنبات الأفكار تلو الأفكار التي تهاجمها بها.. في هذه اللحظات تشعر" سعاد " بضربات قلبها تعلو وتتصارع حتى أنها تشعر النهجان وهي

مازالت مكانها لم تتحرك منه.. هاجس يطاردها أشد ما تخشاه أن تُصاب بجلطة مخية أو تسقط على الأرض مشلولة فتهرع من أمام إبنتها لتدخل حجرتها وتتناول حبتين مهدأتين وثالثة لتقليل الضغط ولا مانع من إبتلاع حبتين من " الأسبرين " وقبل أن تغسل وجهها تكون الحبوب قد بدأت عملها لتشعر بنوع من التهدئه ودوماً تعد إبنتها بأنها حين تشعر بتحسن لابد أن تتناقش معها بالمنطق وبعيداً عن سوء الألفاظ التي تخرج من فمها فلا يُعجب إبنتها هذا الرأي حتى لتقول لها بأنها دوماً تعتمد على المهدآت لتتخلص من أي موقف أو رد يُمكن أن يُجهدها وفي هذا أنانية كبيرة من جانبها وهروب من مواجهة الحقيقة... وعندما لا تجد " سعاد " وسيلة لحل الموقف المشتعل بينهما تدخل حجرتها مسرعة وتدير المفتاح في الباب مرتين فتركل الإبنة الباب برجليها وهي تُقسم بأنها لن تنزل عندها مرة أخرى.. ولن تُريها " شادي " في أي وقت ثم تشد إبنها وتصك الباب خلفها بمنتهى العنف قبل أن تصعد إلى شقتها.. تفتح " سعاد " حجرتها لتخرج جالسة على أقرب مقعد إليها تفكر أنه كان بوسعها أن تنهرها أو حتى تطردها إلا أنها كانت تضع في إعتبارها على الفور وقبل أي شيئ أنها تمر بظرف غير عادي لا تحتمله إمرأة أكبر منها بعشرين سنة والدليل على ذلك نحولها الشديد.. إنها لا تتكلم ولا تصرخ أو تبكي لتعلن ألمها لفقد زوجها أبي إبنها وأنها تألم أيضاً لكرامتها وأنها تألم كذلك لأنها لم تسمع أي نصيحة من أحد... كانت تشعر أن إبنتها تندم أشد الندم إلا أنها لا تُعلن هذا. يخرج " كريم " من حجرته أكثر من مرة وهو يقدم لها زجاجة ماء باردة يؤكد عليها للمرة المائة بعد الألف أنه قادر على أن يوقف أخته عند حدها رغم أنه يصغرها إذ أنها لا يجب أن تصب فشلها يومياً على أمها كنوع من التنفيس عن ما تعانيه.. ولا يجب.. ولايجب.. ولا يجب.. يكلمها وهو في قمة ثورته وضيقه ليبسط لها الأمر ويقنعها بأن صفعتين إثنتين منه كفيلتان بإيقافها عند حدها وأن " شلوتاً " واحداً منه سيجعلها تلزم حدودها إلا أن " سعاد " كانت ترفض كل ما

يقول أو يقترح بل وتبالغ في تحذيره من أنها باتت شديدة النحول والضعف ولن تتحمل أصلاً أي نوع من أنواع العنف والذي يمكن أن يودي بحياتهـا فـي أي لحظة فكان يرد عليها وعلامات الضجر والثورة مُرتسمه على وجهه بأنه يخشى أكثر ما يخشى أن يأتي اليوم الذي تتجاسر فيه وتمد يدها عليها وعندئـذ ربمـا تدفعه هو إلى عواقب لا يعلم مداها إلا الله... وجود " كريم " المستمر بلا عمل في البيت جعله على علم وصلة بكل ما يجري بين أمه و" منى " ولم يكن يفهـم هذا أيام الدراسة فقد كانت " سعاد " تبعده ما أمكنها ذلك عن ما يعطله كما أنـه هو نفسه كان شديد الإنشغال وكثير الخروج لزيارة المكتبة، وهي واقفة مع

" كريم " إذ سُمع دقاً متتالياً على الباب وفي نفس الوقت الجرس لا يتوقف عن الرنين . هذا الواقع بالنسبة للأم وإبنها كفردين أصلاً في حالة من الثورة البدنية والإعياء النفسي . هذا الدق جعلهما قبل أن يفتحا في حالـة أشـبه مـا تكـون بالجنون وإنصرف الإثنان إلى الباب ليجدا " منـى " وهـي تصـرخ وتلعـن الظروف التي دفعتها إلى اللجوء لوالدتها مرة أخرى وهي التي أقسـمت أن لا تنزل أو تراها مهما كلفها الأمر فما كان من " كريم " إلا أن شدها من ملابسها ليدخلها من عتبة الباب وهو يحذرها من مزيد من التطاول على أمها.. فما كان منها إلا أن إنتفضت وهي تصرخ في وجهه " من إمتى بتتـداخل بيننـا روح.. روح إبحث لك عن عمل بدلاً من البطالة اللي عايش فيها علي قفا ماما " ولـم يدري بنفسه إلا وهو ينهال عليها ضرباً وركلاً حتى أنها كانت أشبه بالكرة التي يتقاذفها بين رجليه.. صرخات الأم غير مسموعة من شدة الضـجيج الحـادث بينهما بعدها دخلت " سعاد " إلى حجرتها وأغلقت الباب إلى أن هدأ الأمر نسبياً وقد إنكمشت إبنتها في أحد الأركان تجلس القرفصاء وهي تُجفف دموعها وجلس " كريم " على الكرسي المجاور لآلة الهاتف وهو يؤكد بأنه على إستعداد يوميـاً لضربها بهذه الطريقة إلى أن تتعلم الأدب وكيف تعامل أمها... بقيت " منـى " على مكانها تحاول أن تتمالك نفسها إلى أن توجهت إلى أمها تطلب منها مفتـاح

شقتها الإحتياطي الموجود لديها لأن " شادي " دخل وأغلق على نفسه الباب وهو الآن والمفتاح بالداخل.

*****

لا تأتي " منى " لزيارة أمها وإن كان " شادي " في طلوعه ونزوله ينـادي عليها أو يضغط جرس الباب وأمه تنزل أو تصعد به فتتمنى " سعاد " لو تخرج لتحتضنه لصيقاً إلى صدرها وتمطره بقبلاتها التي يتضايق منها إلا أنها كانـت تخشى من رد فعل إبنتها فكانت تكبت مشاعرها وتكتفي برؤيــة " شادي " من العين السحرية. وهو صاعد معها يصوب عينيه المعبرتين إلى الباب وتتطـاير خُصلة شعره أبعد من جبهته.. يظل ينظر إلى الباب وهو يهبط إلى أن يتـوارى تماماً وتبقى هي تدللـه بصوت مسموع وهي تزرع " الطرقة " الموجودة بـين حجرتها وبين حجرة إبنها ورغم أن " منى " لا تكلمها إلا أنها تطمـئن عليهـا بإستمرار.. تعرف موعد خروجها مع إبنها وموعد عودتهما.. تعـرف توقيـت ذهابها إلى حماتها إلا أنها في هذا اليوم إنتظرت أن تأتي كعادتها فـي حـوالي العاشرة مساء حتى تطمئن " سعاد " وتنام بعد ذلك إلا أن إبنتها لم تعد ولم تسمع أي وقع أقدام من الدور الذي يعلوها وهي لا تُخطئ قدمي " شادي " السـريعين المتعاقبين فبدأ القلق يستولي عليها وفي لمح البرق كانت تطلب " أصيلة هانم " حماة " منى " التي إندهشت كل الدهشة لعدم معرفتها أن " منى " لابـد وأنهـا مازالت في المستشفى تزور " هيثم " ولم تنسى أن تؤكد لها أن " منى " طلبتهـا أكثر من مرة من هناك وآخر هذه المرات قبل أن تنزل من عنده منـذ عشـر دقائق فقط.. لم تشأ " سعاد " أن تناقش معها شيئاً ووضعت سماعة الهاتف وقـد إلتقطت أنفاسها بعد أن عرفت مكان إبنتها.. ولم تمض دقائق خمس إلا وسمعت وقع أقدامها على السلم في صعودها.. إنسحبت إلى سريرها تتمدد عليه تحـت حجرة نوم " منى " تماماً وأرادت أن تنام إلا أن جلبة من فوقها أيقظتها قاعـدة في فراشها كأن شيئاً ثقيلاً وقع وأعقب ذلك بكاء كثير مــن " شادي " لثـوان

فقط... أغلقت نور الحجرة من فوق رأسها وتركت لجسدها أن ينزلق في الفراش إلا أن صوت صراخ وأشياء تتكسر أقعدها مرة ثانية وكأن هناك من يقلب الشقة رأساً على عقب.. جرت إلى إبنها في حجرته كان مستغرقاً في نومه.. أيقظته ليطلع معها إلى أخته فهب واقفاً وهو يشير لها بأن تصعد هي أولاً إلى أن يلحق بها. إستدارت من أمامه وفي لمح البرق صعدت السلالم وكانت على باب إبنتها تضع يدها على الجرس.. بعد دقائق جاءت إبنتها ومن خلف الباب كانت تسأل عن الطارق.. طلبت منها أن تفتح الباب إلا أنها رفضت وهي تقول من بين صرخات الطفل إنها لا تريد أن يتدخل في حياتها أي مخلوق.... وقفت "سعاد" لدقائق ترجوها أن تفتح الباب إلا أنها كانت قاطعة في رأيها بإصرار فوضع "كريم" كفه على كتف أمه وهو يحثها أن ينزلا إلى شقتهما... تتكرر في ليال كثيرة ومتتالية مسألة وقوع الأشياء وإن كانت" سعاد " لا تعرف تماماً ما الذي يقع إلا أن هذه الأصوات ويعقبها صوت كعب حذاء " منى " في الممشى بين حجرتها وبين حجرة " شادي " صارت معلماً من معالم المساء بالنسبة "لسعاد ".. وفي ليال أخرى كانت الأصوات تخمد تماماً ولا تخرج " منى " من شقتها بالأيام.. إنقطع ذهابها لحماتها تقريباً.. لاحظ " كريم " قلق أمه على شقيقته فكان يطمئنها وكان أيضاً يعاتبها لأنها لا تعطيه فسحة ليتداخل بينهما.. كانت وجهة نظر" سعاد " أنه أصغر منها عمراً وطوال دراستة كانت تعمل على أن يتفرغ للتعلم والتحصيل لا تريد أن تعكر صفوه بمنغصات أخته التي لا تنتهي.. وكانت تخجل في نفس الوقت أن تبلغه بتفاصيل سوء معاملة إبنتها لها وهي تمني نفسها بأنه بقليل من الصبر ستتصلح الأمور وتنتهي هذه الفترة بل مع مرور الوقت ستنضج " منى " وتتعلم من أخطائها... عرض عليها " كريم " أن يصعد لأخته ويجعلها تأتي لأمها تعتذر لتعود المياه إلى مجاريها مرة أخرى ولكن لم تطاوعه " سعاد " خشية أن تعرضه لأي نوع من الإستفزاز من جانب أخته ومع ذلك فإن قلقها لم يهدأ وتتبعها لنزولها

وطلوعها لم يتوقف.. تقضي اليوم تروح لتطل مـــن " العين السحرية " أكثـــر من عشرين مره... حتى صوت حفيدها " شادي " إنقطع هو الآخـــر... أخيـــراً حسم " كريم " الأمر دون أن يستأذن أمه وصعد إليها. وضع يده على الجـــرس مدة طويلة نسبياً وسمع خطوها من الداخل رغم أنها حافية القـــدمين.. فتحـــت الباب عن آخره وعندما وجدت أخاها أزاحت الباب تريد أن تغلقه وضع قدمـــه يمنعها فحاولت المقاومة لتُغلق الباب.. دارت مناقشة بينهما فقد نبهها إلى عـــدم جواز غلق الباب في وجه أخيها فردت عليه بأنها لا تعتبره أخاً لأنـــه أنـــاني لا يفكر إلا في نفسه وفي وزارة الخارجية التي تركها وأن أمه ربته على الأنانيـــة والإلتفاف حول الذات فقط وأنها.. وأنها لا تريد أن ترى أو تعرف أحداً منهما لا أمه ولا هو وقبل أن يحاول الرد عليها كانت في لحظة تصك الباب بقوتها فـــي وجهه .

*****

كذبت " سعاد " أذنيها فهذه دقة " شادي ".. يده علـــى البـــاب.. إقتربـــت وسمعت صوته جرت تفتح الباب على مصراعيه كانت إبنتها تقف وفـــي يـــدها " شادي " تبتسم.. خطفت " سعاد " الطفل من على الأرض وأمواج من الحنـــان والشوق والإرتواء وصلت إليها.. نسيت أن تسلم على إبنتها.. نسيت أن تُغلـــق الباب.. مازالت تحمل الطفل تلف حول نفسها كأنها نحلة مما يلعب بها الأطفال تدور.. تدور.. تصدر أصواتاً دليل فرحتها وفوق هذا لا تشعر بقـــدميها علـــى الأرض إنما كأنها مرتفعة عن الأرض كل ما ينقصها جناحان لتطيـــر بالطفـــل خارج جدران البيت.. كل هذا و" منى " واقفة تضحك والطفل يضحـــــك وإن كان أحياناً يُطبق على رقبة " سعاد " من الخـــوف.. سمعت " منـــى " وهـــي تُقسم بأنها لن تمنع عنها " شادي " ما حيت بعد ذلك.. شُحنة إطمئنان غزت قلب الأم فبينما هي تحتضن حفيدها إلا أن عينيها لم تبعد عن قسمات وجه إبنتها ولما سمعتها إزدادت راحة وإطمئناناً.. إلتفتت " منى " وهي تسأل بصوت مســـموع

عن أخيها وقبل أن ترد عليها أمها كان " كريم " يدخل من الباب عائداً من مشوار يبحث فيه عن عمل.. بأرق الكلمات كانت تناديه " أخويا يا حبيبي أنا أسفة جداً " وإنتهى الموقف بين الإثنين في ثوانٍ و" منى " تقترب لتقبله وهي تردد " يا أخي إنت طويل قوي.. إنت عايزلك عروسة تناسب هذا الطول " الكل عاش لحظات كانوا في أمس الحاجة إليها وإن تساقطت دموع " سعاد " أكثر من مرة تحاول أن تداريها.. إقتربت منها إبنتها وهي تقول " إبكي إن أردت ففي البكاء راحة.. ياليتني أستطيع أن أبكي لإسترحت " بسرعة كانت " سعاد " تؤكد لها أن واقعها أفضل من كثيرات ويكفيها صحة وذكاء " شادي " الملحوظ.. إبتسمت " منى " ولم تعلق بكلمة واحدة.. يتكرر نزولها لأمها. عادت كعادتها السابقة تجد عند أمها متنفساً ولو بالخطأ في أمها نفسها ويجد " شادي " راحته وسعادته مع جدته.. ريح الأم حول إبنتها ولو كان يقفان على بركان أفضل وأنسب من أي علاقة لها مع آخرين.. بدت " منى " كأنها تفهم وتقدر هذا المعنى إلى أن بدأت بالتدريج تعترف لأمها بأن حماتها يئست من عودة إبنها وأنه منساق مع تلك المرأة الأجنبية تماماً.. والأكيد أن لا عودة له ففهمت " سعاد " سر الأشياء التي كانت تتكسر أو تقع من فوقها فالغالب بل الأكيد أنه من شدة توتر وحزن إبنتها ولكن الذي بات واضحاً أن " منى " لا ترضى بهذا الواقع ولا تقبله وأنها تدفع أمها بطريقة فيها الكثير من اللين والأدب لتتصل بزوجها " أشرف " وتلح في ذلك بل وتعدها بأنها ستنفذ كل ما تراه أو ما ستشير به عليها مستقبلاً.... كانت فرحة " سعاد " طاغية لأنها باتت أمام عينيها وبين يديها تستطيع في كل اللحظات أن تطمئن عليها.. تضع رأسها في آخر الليل مطمئنة عليها وعلى أحوالها مهما كانت هذه الأحوال.. تمني نفسها أنه ربما مع الأيام تتغير" منى " وتتعقل في تصرفاتها المستقبلية..... فلم يطل ترددها إنما أمسكت الهاتف وكانت تكلم " أشرف " الذي أحسن إستقبالها وكأن شيئاً لم يكن يسأل عليها وعلى أحوالها الصحية وعن لوحاتها ولم ينس أن يسأل على "كريم"

وهل وجد عملاً أم لا وأخيراً بادرته " سعاد " بكلمة عتاب لعدم سؤاله عن " شادي " أو أم شادي فكان أشد ذكاءً من أن يُحاصر إذ رد عليها بأنه يطمئن يومياً عليهما من أمه... تكرر إتصالها به تحت إلحاح " منى " ودفعتها دفعاً إلى أن تقول له أن الطفل يسأل عليه وأهمية وضرورة أن يرى والده. مرة أخرى كان في منتهى الذكاء وهو يؤكد لها أنه مطمئن إلى كفاءة " منى " وحصافة أمومتها وشدة عنايتها الفائقة بالطفل وأخيراً مع ضغطها عليه كان يعد بأنه سيأتي ليراه وربما يأخذه لبضع ساعة في فسحة قصيرة... تصورت " منى " أنها ستستطيع أن تسترجعه عن طريق الصغير إبنهما إلا أن الأيام كانت تثبت لها بل وتؤكد أن هذا الأمل محض سراب فقد أتى مرة واحدة أخذ فيها الطفل لبضع ساعة ثم أعاده.. فعادت " سعاد" تلح عليه وقد أفهمتها " منى " أنه يمكن له أن يجعله يبيت معه ليلة لما في هذا من سعادة نفسية للطفل. فأطاع للمرة الثانية وأخذ الطفل ليبيت معه إلا أنه بعد أن أعاد الطفل " لمنى " لاحظت أنه ينام على سريرها ويرفع ساقيه على ظهر السرير ويغني لاحظت أنه ظل يغني طول اليوم وإذا ما نادت عليه أو حاولت أن تشده ليقف على رجليه كان يسقط منها على الفور إستنتجت " منى " أن إبنها قضى ليلته مع والده وزوجته الأجنبية وهما يدخنان.. صحيح أن الطفل أصغر من أن يفهم معنى ما يجري حوله إلا أنه تأثر من الدخان ولهذا كان كالمُخدر تماماً فلا هو نائم ولا هو يقظان يتحرك.. كان مسطوحاً يغني قالت بهواجسها على الفور لأمها فإستوعبت إحتمال صحة كلامها.. وبعد هذا كانت " منى " تقرر بأنه إذا ذهب لوالده فليكن لساعة فقط أما فكرة أن يبيت عنده فلن تتكرر إلا أن والد " شادي " لم يحاول مرة واحدة بعد ذلك أن يطلب الطفل ولما سألتها " سعاد " إن كان يُرسل مصاريف له أم لا فكان ردها أنه لم يُرسل من شهور أي مبلغ اللهم إلا ما تُرسله الحماه ولما ضغطت " منى " على أمها لتعاود الإتصال به مرة أخرى كان يترك زوجته الأجنبية ترد بأنه سيطلبها فيما بعد أو أنه مسافر.... لم تصدق

" منى " أن يكون هذا موقفه كأب إلا أن " سعاد " أفهمتها باللين مرة وبالتفسير المنطقي مرة أخرى بأن سلوكه رد فعل طبيعي لما هو فيه.. ومع مرور الأيام وعدم سؤاله جعل" منى " تستوعب حتى نخاعها أنه لن يعود لا من أجلها ولا من أجل إبنهما وإنه ذهب وإنخرط فعلياً في طريق اللاّ عودة.. كانت أمه أشد حزناً منها فقد حل اليأس وتوقع المجهول محل أي أمل لها في عودته حتى إلى بيتها هي وفي مرات على قلة هذه المرات التي أصبحت تري فيها " منى " حماتها كانت تكلمها عن هواجسها الكثيرة فهي مرة تخشى أن يموت في شقته ومرة تخشى أن يُقبض عليه وفي عربته هذه المُخدرات ومرة.. ومرة.. وكان هذا وقعه مريراً شديد الألم ومعذباً على نفس " منى " فإرتسمت المرارة على جنب فمها وإزداداً نحولاً بل وإعياءً فأغلب نهارها راقدة مسطوحة على الأريكة التي في الممر الموصل إلى حجرة أخيها ومع مرور الوقت أصبحت لا تقوى على الطلوع إلى شقتها إنما تُكمل ليلها في الغالب نائمة على تلك الأريكة ليأتي صباح اليوم التالي وهي أكثر إعياءً وهموداً.. ما بقيت متمسكة به هو الذهاب كل ثلاثة أو أربعة أيام لزيارة " هيثم " تعود بعدها لتبكي على حاله وعن كل ما كلمها فيه فكان في رقدته كثير الندم على أنه السبب فيما أصابه من كثرة المُخدرات هو الآخر وأنه لم يكن يعتبر لكلام أي مخلوق فكان جزاؤه مرة أن يألم ومرة أخرى أن يندم ومرة ثالثة أن يفرح على أساس أن ما هو فيه ربما يُخفف من ذنوبه الكثيرة.. و" منى " تعود وقد إنعكس عليها كل ما ترى.. تتعذب معه وتتعذب بعد أن تتركه.. يظل صوته وأنينه يدق رأسها فيزيدها ذبولاً وليس في يدها ما يمكن أن تقدمه اللهم إلا ما جمعته في يوم من الجيران والأصدقاء في نفس الحي فالكل يعرف " هيثم " كان هو الآخر طالباً في مدرسة " منى " وشقيقها " كريم " وزوجها " أشرف " فسارع الجميع إلى مساعدته وحين قدمت المبلغ " لهيثم " أخذه وهو ينظر إلى زوجته ويناولها إياه لتدفع حساب المستشفى النصف حكومي الذي يرقد فيه.. كانت " منى " قد إنشغلت في

جمع المال له وكأنها أفاقت من رقدتها ولكن بعد أن أوصلت له المبلغ سقطت مكانها على الأريكة مرة أخرى وخاصة أن " هيثم " دخل في طريق الغيبوبة الطويل التي لا يفيق منها إلا لدقائق معدودة يسأل فيها عن طفليه وقبل أن يأتيا يكون قد إنسحب إلى غيبوبته مرة أخرى فيعودا أدراجهما قبل أن يريا " بابا " أو يكلماه، هذا الموقف الذي يتكرر تقريباً يومياً ما جعل " منى " تكف عن زيارته فقد كان هذا الواقع يضنيها.. إلى أن لزمت بيت أمها تنام في حجرتها القديمة أغلب ساعات النهار ولا تُفيق إلا لتحتضن " شادي " ثم تروح في نومها من جديد وكثيراً ما كانت تنتابها نوبات بكاء طويلة وكثيراً ما كانت تكلم الله بصوت مسموع تستغفر مرة.. وتعتب مرة أخرى.. تطلب من الله أن يكون القصاص منها وليس من إبنها.. ثم دخلت في مرحلة أسوأ وهي الإمتناع عن الطعام تماماً.. أرادت " سعاد " أن تستنجد بالطبيب أكثر من مرة إلا أن " منى " كانت تُغلق عليها الباب بالمفتاح وتتركهم يتوسلوا إليها أكثرمن ساعة ولا تفتح وفوق هذا لم تكن تقبل من أمها فكرة أن تأخذ قرصاً مهدئاً... وقعت " سعاد " في حيرة ما بعدها حيرة فلا أي نوع من المحاولات نجح معها لا عن طريقها كأم أو طريق الأخ ولم يبق أمام " سعاد " إلا أن تتصل بزوجها الذي تناول السماعة زهوقاً ضائقاً إلى أن عرف بحالة " منى " فوعد على الفور بالحضور في المساء... كل هذا الذي يحدث لم يكن يوافق عليه " كريم ".. كان رافضاً لأسلوب أمه تماماً يطلب منها بإستمرار وبإلحاح أن تُنهي "منى " علاقتها "بأشرف " فالطلاق لمثل هذه الحالات هو الأصوب والرأي الثاني له أن تعمل فوراً ثم يُبرر إقتراحه بأن دراستها للسياحة تُتيح لها العمل بسهولة وفوق هذا هناك الحقيقة التي تقول بأن الإقبال على توظيف النساء أكثر من الرجال جرت " سعاد " إلى إبنتها تُنبئها بزيارة زوجها المرتقبة فتحت عينيها ولما إستوعبت ما تقوله أمها وسألت عن السبب الذي دفعه للحضور إلتفتت إلى أن تهذب من مظهرها قليلاً فقد علفت نفسها النظر إلى المرآه أو تسوية شعرها أو حتى تغيير

قميصها وظلت تتحدث مع " كريم " الذي كان يحاول بدوره أن يقنعها بوجهة نظره في ضرورة طلاقها ثم البحث عن العمل وحتمية أن تقلب هذه الصفحة ولا تعود إليها مرة أخرى.. إلى أن دق الباب وغشى البيت صمت مُطبق قبل أن يتقدم " كريم " ليفتح وعرفت " منى " صوت " أشرف " فإندفعت الحُمرة إلى وجنتيها وإبتسمت إبتسامة وإن كانت واهية على شفتيها.. جرى الصغير يمسك بركبتي والده فرفعه بذراعه وكان باليد الأخرى يقدم له لعبة صغيرة أحضرها له.. دار " شادي " باللعبة يعرضها على الجميع.. في عينيه بريق نافذ لم تلحظه " سعاد " من قبل. فتساءلت بينها وبين نفسها من أنبأ هذا الطفل أن هدية والده الصغيرة يكون لها مفعول السحر على دخيلة قلبه البرئ.. يتحرك طرباً هنا وهناك لوجود أبيه أيقنت أن ما يبدو أمامها من مشاعر" شادي " ليس لأحد دخل فيه.. اليقين كله بأنه شعور غريزي رغم أن كل من حوله يُسرف في تدليله والعمل على فرحته.. جلس بود معهم إلى أن إستأذن " كريم " خارجاً إلى أمر هام وبقيت " سعاد " و" منى " في مواجهته " والكلام جاب بعضه " وهو يقرر أن " منى " " زي القمر " ولما لفتت " سعاد " نظره إلى شدة نحولها كان يُبدي رأياً غريباً بما معناه أن النحافة هي المطلوبة اليوم بالنسبة لذوق الشباب وطاقاتهم المحدودة فالحياه صعبة ولايوجد الشاب الذي يستطيع أن يلاحق على كل واجباته والمطلوب منه!! فتذكرت " سعاد " على الفور كلمات عم أولادها وقت زيارته الأخيرة لمصر وسؤاله المُلح إذا كانت " منى " في حالة إشباع أم لا.. الآن عرفت الرد الصريح فكلما كانت المرأة في جسدها أقرب إلى الطفلة فيسهل بذلك إرضاؤها... مازال جالساً وإن جعل " شادي " يجلس على ركبتيه.. والطفل في حالة من السعادة لا يمكن وصفها.. ملاك صغير مُزغرد كأن أعياد الدنيا إجتمعت مع زيارة أبيه.. وتدريجياً وبطريقة ناعمة كان" أشرف " يُلمح إلى ضرورة أن تلتفت " منى " إلى مستقبلها وأن تترك هذا الدلع وتبحث عن عمل يؤهلها لأن تكون لها حياه... نبت الشوك

ناعمة كان" أشرف " يُلمح إلى ضرورة أن تلتفت " منى " إلى مستقبلها وأن تترك هذا الدلع وتبحث عن عمل يؤهلها لأن تكون لها حياه... نبت الشوك إنغرس في صدر " سعاد " ونظرت إلى إبنتها فلم تجدها قد وصلها أي معنى.. كانت فقط نشوانة بوجود زوجها.. الحُمرة إشتعلت في وجنتيها وظل ما من رونقٍ كسى وجهها فمدت يدها المعروقة تلمس يديه فأمسكها من يدها ثم إحتضن بكفيه يديها وبتلقائية شديدة كانت تقول له " إنت حبيبي " فرد عليها وهو يطأطئ برأسه " أنا عارف " وجلس وإبتدأ حديثه معها وهو يؤكد أنه أحبها إلا أنه في غاية الراحة من زوجته الأجنبية لأنها لا تحاسبه ولا تتعارك.. ثم أضاف "إنها شجاعة لم تدفن رأسها في الرمال أخذتني على ما أنا عليه ورضيت بذلك " فأعادت على مسمعه مرة أخرى " لكن إنت حبيبي " فرد عليها وإن إقترب منها وهو يردد " ما أنا عارف " ثم نظر إليها وهو يقول " إنت أم كويسة بل رائعة الناس كلها بتحكي عن ذكاء شادي ها تقولي أنا لا أراه.. طبعاً لأن ما عنديش فلوس أدفعها له لأني تركت شغلي " بهدوء وكياسة بالغة أدخل رسالته إلى دهاليز عقلها.. فتحت عينيها على وسعها وطلبت منه سيجارة فأخرج العلبة من جيبه وإنتفض واقفاً يُشعلها لها... كانت " سعاد " في المطبخ تُعد لهما شيئاً يتناولاه وبذلك تنتهز الفرصة أيضاً لتُطعم إبنتها ملعقتين " جيلي بالموز ".. وحين حملت ما تقدمه إذ وجدته ينتفض من مكانه وهو يتناول منها الصينية ليضعها جانباً ثم يستأذن في الخروج. تمسك بركبتيه " شادي " الصغير وفوجئت الأم أما " منى " فقد أشارت لأمها بأن تتركه وهو يبتعد كان يلتفت إليها وهو يقول بنبرة واضحة " لو قررت أنا تحت أمرك في أي وقت ".

*****

الهاتف يدق أكثر من مرة في بيت " سعاد " تسأل زوجة " هيثم " عن " منى ".. تبلغها رسالة من بعد رسالة من أن " هيثم " في شدة الحاجة إلى رؤيتها وفي مرات تطلب من الأم صينية " القرع العسلي " أو " الكوسة

إلى حالتها السابقة.. هول الأيام عاشتها " سعاد " من جديد تحاول أن تتسمع أي حركة من شقة إبنتها حتى وصلت إلى أنها كانت تتسمع " شد السيفون " من الحمام فتطمئن عليها وفي يوم مُحدد ومعها " كريم " قررا أن يكسرا الباب بعد أن فشلا في أن يفتحاه بالمفتاح الإحتياطي فقد تركت " منى " مفتاحها في الباب من الداخل.. ظلت " سعاد " تدق الباب وليس من مُجيب! فبدأ " كريم " يدفع الباب بكتفه مرات تزيد على العشرة بلا فائدة وليس من مُجيب أيضاً! ولم يكن هناك بد من الإستعانة بالبواب الذي حضر ومعه " طفاشة " لفتح الباب فالسكان كثير منهم يغلقون الأبواب على مفاتيحهم سهواً ولا يستطيعون الدخول إلا بمساعدة البواب.. طوال محاولة فتح الباب كانت الهواجس تأكل في عقل "سعاد".. فمرة تراها على شفا الموت ومرة تراها في حالة من الإعياء وثالثة تسمع طفلها يبكي.. عذاب ما بعده عذاب في تلك اللحظات التي تعيشها خارج الباب في إنتظار أن يُفتح فقد أتعب البواب كثيراً أن المفتاح في الكالون من الداخل وفوق هذا تشير" سعاد " وتُكرر عليه أن لا يُحدث أي جلبة ما أمكنه لا بالحركة ولا بالكلام حتى لا تجد سكان العمارة حولها يشهدون موقف فتح الباب.. على وقفتها في إنتظار " فسخ " الباب كثيراً ما رأت بعين رأسها الأرض من تحت قدميها بعيدة فيُفزعها المنظر وتفرُك عينها لتعود الأرض إلى مكانها.. ومرات أخرى تتموج الأرض من تحت قدميها.. العطش في جوفها حصوات ملح تحاول أن تتسمع أي صوت عبثاً في وقفتها حتى كادت أن تسقط مُغشياً عليها.. الإحساس بالخوف هو الدم السيال الذي يدور في جسدها.. وأخيراً.. أخيراً إنفتح الباب.. إندفعت وإبنها وهي تنادي بصوت لا يخرج "منى .. منى.. شادي.. شادي " إلا ووجدت طفلاً آتياً من آخر حجرة حافياً يمشي إليهما.. صرخت " منى.. منى " لم ترد .. تقدمت وضربات قلبها هدير ثائر يتوالى إلى أن وجدتها أيضاً في آخر حجرة في البيت وقد تمددت على أريكة هناك.. نادت عليها.. ففتحت عينيها على مهل ونظرت إليها.. سقطت

ثائر يتوالى إلى أن وجدتها أيضاً في آخر حجرة في البيت وقد تمــددت علـــى أريكة هناك.. نادت عليها.. ففتحت عينيها على مهــل ونظرت إليها.. ســقطت " سعاد "جالسة على الأرض فإقترب الطفل يجلس على رجليها.. طلبــت مــن " كريم " أن يستدعي طبيباً إلا أن " منى " التي بدأت تحاول التركيــز بشــكل واضح وتطلب عدم إحضار الطبيب فالأمر لا يستحق.. هي فقط لم تأكل شــيئاً وحتى لم تشرب.. أسرعت " سعاد " إلى المطبخ تُذيب نصف علبة السكر فــي كوب ماء وعادت به إليها.. سألتها عن إطعام " شادي " فقالت بأنه عاش هــذه الأيام على " البسكويت " وأكياس البطاطس الجاهزة.. خبطت علــى صــدرها وتقدمت تحاول أن تجلسها إلا أنها كانت شــديدة العنــد والعصــبية وأول مــا إستجمعت نفسها وإنتبهت إلا وعاتبت أمها وأخاها على فتحهمــا البــاب عنــوه وكونها ليست طفلة ليفعلوا هذا كما أنها حره في حياتها ولا تريــد تــدخلاً مــن أحد.. تمالك أخوها زمام نفسه وهو يقول " ليس من حقك أن تقتلي طفلاً لا ذنب له " فكانت ردودها تميل إلى العند والإستفزاز الأكيد ما بين أن تعلن لهما بأنها لا تحترم رأيهما وبين أن تطلب منهما مغادرة شــقتها.. و " كــريم " يحــاول جاهداً ضبط النفس ما أمكن ثم إنسحب من بينهما نازلاً إلى شقة والدته وبقيــت الأم جالسة على طرف الأريكة التي ترقد عليها محاولة إقناعها بــالنزول إلـــى بيتها لتقوم على العناية بها وبالطفل في الساعات التي لا تستطيع فيها ذلك "منى" ثم تُغريها مرة أخرى بإعطائها حجرتها الواسعة وتنتقل هي إلى حجرة " كريم " و.. و.. كل العروض الممكنه ومحاولات الإقناع لجأت إليها بكل ما أوتت مــن قدرة وكياسة إلا أن " منى " لم تستجب البته حتى بدأت " سعاد " تشعر التعــب وتتخطف منها الأنفاس مسموعة بــوضوح وفجــأة قامت إينتها ودخلت المطبخ ثم عادت ويالهول مــا رأت " سعاد ".. في يدها سكين تُشيح بها في وجه أمها وكأنها تهددها.. لم تصدق الأم ما يجري واقعاً أمامها فجرت من أمامها مُبتعــدة وجرت " منى " وراءها إلى أن تواجها.. خطفت السكين من يدها ونادت بعلــو

تهددها بأنها ستمسك " الفيديو " لتضربها به.. نظرت إليها الأم وقد أيقنت أن إينتها فقدت عقلها.. كانت " منى " في ثورة لا حدود لها صبتها بلا هوادة فوق رأس الأم.. فهي السبب في فشل أخيها في وظيفته لأنها لم تُعلمه وتعرفه الواقع المُعاش وكذلك هي أيضاً سبب فشلها في زواجها.. بل أنها صرخت فيها أكثر من مرة وهي تمسك " الفيديو " لتضربها به على رأسها وما زالت تصرخ بأعلى ما في جعيرتها بأنها كأم كان من الواجب عليها أن تجد طريقة لمنعها من الزواج من " أشرف " من الأصل.. نظرت إليها الأم وهي تصرخ بدورها " وهل قبلتي أي رأي أو إستمعتي من الأصل لي في أي كلمة " فكانت ترد من فورها " كان من واجبك أن تمنعيني بالقوة وطول النفس وليس الإستسلام السريع مهما يكن فقد كنت صغيرة وأحتاج إلى توجيه " دوماً اللوم واقع على " سعاد " في كل المواقف والظروف.. حتى في هذه اللحظات الفارقة من حياتها لم تستطع " سعاد " مقاومة السرحان والتمني أن يكون والد " منى " موجوداً.. " يالفظاعة الترمُل " إحساسها أنه أشد قسوة من اليُتم وكلاهما حريق تعيش الأرملة وإينتها في أتونه وهل يمكن أو تنتظر أن تجد أي نوعٍ من الراحة؟.. إنها النار وهي وإينتها حطبها فتمنت أن تلفُظ أنفاسها على وقفتها ولكنه كان المحال.. شب الحريق فيها وفي إينتها وإنتهى الأمر وعليها مع الأيام القادمة سفر طويل.. طويل في طريق المُعاناه والحيرة.

*****

أكثر من شهرين و" منى " تُعالج من طبيبين أحدهما صديق للأسرة منذ أن كانت جدتها أم " سعاد " حيه والثاني قرأت له مقالاً في إحدى المجلات وبذلك لم يسلم الأمر من إشاعة بعض التفاصيل الخاصة عن حياتها ومنها ضرورة طلاقها الذي أوصى به الطبيبان بل أكدا عليه بإلحاح.. يقين " سعاد " أن إينتها أكثر مرونة بل ورضا لتقبل ما يوصي به الطبيب وفي أحياناً كثيرة تشعر أن إينتها مع الطبيب وكأنها مع أب لها.. تنظر إليه بنوع من الثقة حتى لو كان

يقول ما قالته عشرات المرات من قبل لدرجة أن " سعاد " إمتلأت قناعة بالمثل الذي كانت تُردده والدتها " الي مالوش كبير يشتري له كبير " وها هي تشتري من الطبيب وقته ليسمع لإبنتها وينصحها في قالب أبوي مرة وفي قالب مبني على الصداقة التي صارت بينهما مرة أخرى..... كانت علاقات " سعاد " الإجتماعية محدودة جداً بسبب إنشغالها"بكريم ومنى " وبسبب إنشغالها أيضاً بهوايتها التي إلى حد معقول تتكسب منها ما يقيم أكثر من طلب لأسرتها الصغيرة كما أن أقاربها ومن لهم نفس عمرها هم أنفسهم حددوا علاقاتهم بها فهي على كل حال أرملة بدأت هذه المرحلة مبكراً وهي أيضاً فيها شيئ لم ينطفئ بعد.. عطية من الله حباها بها فكان لها دوماً ومضة مرئية وعدم إنشغالها بالصغائر من الأمور طبع على وجهها نوعاً من السماحة شيئٌ آخر مُضاف في تكوينها العقلي أنها مهما عايشت أو مرت بمواقف وظروف من الحياه والناس إلا أنها لا تعيش الموقف إلا بنصف عقل فقط لأن النصف الثاني من عقلها إما أن يكون مشغولاً بفكرة للوحة ما أو يتساءل عن معنى قرأته هنا أو هناك فكانت تولي إهتماماً كبيراً لفكرة شراء الكتب التي تسمع أو تقرأ عن مضمونها في بعض المجلات القيمة التي تشتريها.... منذ صغرها وأمها حببت إليها القراءة منذ أن كانت تندس بجوراها تشم رائحة عرقها المعجون برائحة الأدوية الكثيرة التي تُعالج بها وهذا نفسه ما شجع على أن لا تنمو علاقاتها لا مع الجيران ولا مع الأقارب..... و " منى " تتقدم حالتها الصحية وإن بقيت آثار ضرب أخيها المُبرحة على جسدها هذه الشهور فلم يُطق بعد أن سمع أمه تُنادي عليه أن يراها تُهاجمها بالسكين فأوسعها ضرباً لا يمكن أن يوصف وحين حاولت"منى" أن ترد عليه بإلقائه بمزهرية تتوسط المائدة وكأن فعلتها هذه هي التي قسمت ظهر البعير فإنهال هو يسبقها ويحطم كل ما طالته يداه في بيتها وهو يصرخ فيها " إنت عاوزة تخوفينا أم تهددينا وتعملي مجنونة " لم يترك شيئاً واحداً في شقتها سليماً اللهم إلا سريرها ودولابها وما عدا هذا فقد إنهال على كل شيئ

ليقسمه نصفين وتناثر الزجاج وإنقلبت الدنيا رأساً على عقب ونـزل الجيـران وكانت قصة " منى " قد وصلت الجميع..... وإذا كانت " منى " قـد أُصـيبت بحالة شديدة من الإنهيار العصبي إثر كلام زوجها بحتمية الإنفصال فـي آخـر لقاء لهما فإن " كريم " شقيقها والذي يصغرها أُصيب هو الآخـر بنـوع مـن الإكتئاب تربى داخله على مدار ثمانية أشهر منذ أن تـرك عملـه فـي وزارة الخارجية بسبب عودة إبنة اللواء خطيبيته إلى زوجها وأيضاً لأنه لم يوفق فـي العثور بعد ذلك على عمل آخر فكان لا يكف من عمل المقارنات بينـه وبـين الآخرين فهو الوحيد الذي نجح في دفعة كاملة وهو الوحيد الذي أخـذ مسـألة السفر بجدية وأمانة وهو الذي قدم بحثاً مطلوباً لم يصدق أحد من السفراء أنه قام به وحده وهو.. وهو.. وهو..فكان يكلم نفسه بصوت مرتفع في حجرته يحاسب الأقدار ويسأل الله عن العدالة.. عن الحق.. عن إحسان العمل و" سعاد " لاهية عنه في الإهتمام " بمنى " فلم تعد تجالسه طويلاً كما كانت تفعل من قبـل.. لا وقت لديها للإستماع لأنينه وشكواه بل وإعتراضه على هذا القضاء فقد ضربت الصفح عنه تماماً وعاشت بكلياتها مع إبنتها مذعورة من تتبـع وزنهـا تـارة وإصفرار وجهها تارة اخرى... الأكيد أن مسألة الإحساس بالإكتئاب كانت قـد كبرت داخله وهي لاهية عنه حتى توغلت تماماً في أعماقه وتسربت إلى دهاليز عقله وإلا ما كان منه ما حدث في أنه لم يُبق على شيئ سليم داخل شقة أختـه التي نظرت بذهول إلى ما يجري وأخوها يصرخ " فكرك إنت بس اللي تقدري تمسكي سكينة وترميني بالمزهرية "..... إلا أن " منى " والحمـد لله تتحسـن وتتقدم صحتها.. تُكثر من النوم وأمها تتخير أجمل الأطعمة وأجمل طرق التقديم لها حتى بدأت ترى في عينيها ما يُشبه بداية الإبتسامة وإن كانت تتلاشى علـى الفور ليحل محلها عبوس أو سرحان طويل ومع ذلك كانت" سعاد " تُمنى نفسها بقُرب شفائها نهائياً فتزداد صبراً وتزداد هدوءاً وإن تسبب إبنها في نوع غريب من الفزع أصابها وهي تفكر بما فعل مع أخته.... إمرأة مُحاصرة مـن النـار

والرمضاء فأين لها من مفر.. أيام عاصرت فيها فلذتّي كبدها وكــأن الإثنــين أصيبا بمس أكيد.. ومهما حاولت في ذلك اليوم أن توقف إينها فلم تفلــح ولــم يتوقف إلا عندما أغلقت " منى " باب دورة المياه عليها وفي يــدها " شــادي " يصرخ هو الآخر من الفزع والأم تُحذره بأعلى صوتها من أن كل ما أفسده هي التي ستُصلحه لا أحد غيرها وعندما وعى فعلاً ما تقول توقف على الفور ونزل من الشقة وهو يصر أن يأخذ أمه معه و" سعاد " أطاعته دون أي كــلام حتــى يهدأ وتبتعد به ما أمكنها عن بؤرة الجنون التي يعيش فيها ثلاثتهم..... وعــادت " منى " تُداوم على زيارة " هيثم " في المستشفى وتعود تحكي لأمها عن حالته وتردد نفس عباراته وندمه على ما فرط من صحته كما أنــه حــذرها كثيــراً وبإلحاح من رؤية إينها " شادي " ومعايشته لكل هــذه الأحــداث مــن عــراك وصراخ في بيتها وخاصة أن الطفل بدى بعد واقعة التكسير وكأنه فقد النُطــق وظل لعدة أيام متوالية لا يتكلم ولا يرد على سؤال... كانت " سعاد " في تلــك الفترة تجاهد مع نفسها حتى لا تعكس جزعها على الطفل وهواجسها على"منى" فيؤثر ذلك على المأمول من علاجها فليس هناك أغلى من " حبة القلب " فقط ما كانت تُحث إينتها عليه أن تساعدها على الشفاء حتى يسافرا " بشادي " إلى أحد الشواطئ ليغير جواً... من كان يُطمأنها فقط هو الطبيب والذي رفض أن يُعطي طفلاً له من العمر سنوات قليلة أي نوع من العقاقير بسبب قيامه لــيلاً يصــرخ فزعاً... فقط ما قدمه له أنواع مختلفة من الأعشاب مثل مغلي التيليو والنعنــاع واليانسون والأهم والذي أكد عليه سرعة السفر إلى أحد الشواطئ.. لم ترفض " منى " بل على العكس أبدت إقتناعاً بالفكرة كما أن أسلوبها مع أمها تغير نســبياً فقد صارت تخاف من التطاول لأن أخاها في غدواته ورواحه يؤكد لها أنه لــن يتوانى عن وضعها في مصحة نفسية.. نوع من الخوف وصلها وبدأت تحســب حساب كثير من تصرفاتها أما بالنسبة للتعامل المباشر مع أخيها فكانت تتجنبه ما أمكنها ذلك وإذا ما لزم الأمر أن تُكلمه فكانت لاتتخطى حدودها وبقيت " سعاد "

تعاني فرغم تظاهرها الدائم بأخذ الأمور ببساطة وبأن ما كان كان سحابة صيف وإنقشعت عن حياتهم جميعاً ورغم حشرها لكلمات وعبارات تؤكد بها أن الإنسان خُلق خطاءً والعبرة بالتعلم من الخطأ ورغم إنغماسها في رعاية إبنتها إلا أنها ومن الساعة التي رفعت فيها السكين في مواجهتها صار من المستحيل أن تنام نوماً آمناً أو تستغرق في نومها بأي شكل وتحت أي ظرف مهما كانت مُجهدة فهي تنام يقظانه تشعر بأقل حركة تصدر من إبنتها مع " شادي " أو من حجرة " كريم "... خوفٌ ما تلبسها.. لم تعد آمنة على نفسها لأنها فقدت ثقتها في إبنتها ولم تكن فكرة أن تفقد حياتها هو ما يقلقها إذا ما طاشت " منى " ولكنها على العكس كانت تخشى عليها من عواقب فعلتها سواء أصابتها أو لم تُصبها.. فماذا سيكون مصير " حبة القلب " وماذا سيكون مستقبل إبنها.. حين تصل في تفكيرها إلى هذه النقطة وكأنها لازمة صارت في عقلها قبل أن تنام فتقوم قاعدة تُفرغ زجاجة الماء في حلقها الجاف وتنتفض تسير إلى حجرتها على أطراف أصابعها.. تطمئن عليها في نومها وهي تحتضن " شادي " ثم تطمئن في عودتها على " كريم " في حجرته وتستعيذ بالله وتقرأ شيئاً من القرآن الموضوع بجوارها حتى تنزلق في فراشها في محاولة للنوم الذي لا تصل إليه إلا مع سماعها لآذان الفجر فتروح مستغرقة لمدة ساعتين..... إلى أن عاد إبنها من الإسكندرية وقد نجح في تأجير شقة على البحر مباشرة ورغم أن المنطقة التي إختارها بعيدة عن قلب الإسكندرية حيث يتوافر الأطباء والمستشفيات إلا أن " سعاد " آثرت أن لا تعترض حتى لا تلفت نظر " منى " إلى توجسها وخوفها منها وخاصة أن " كريم " فضل أن يبقى في القاهرة ربما يتصل به أحدهم يطلبه في عمل فبعد تلك المشاجرة بدى هو الآخر وكأنه أفرغ شحنة الضيق المحبوسة في صدره وتوقف بالتالي عن الكلام بصوت عالي منفرداً في حجرته أو وهو ينظف العربة أسفل العمارة وكأن المشاجرة بما صحبها من تحطيم وتكسير أعادا إليه قدراً من التوازن فتوقف عن الإعتراض أو الدهشة من

حال الدنيا وبدأ يعود ليقرأ أبواب الإعلانات عن الوظائف في الجرائد اليومية وفي يوم آخر قرر أن يزور جامعته ليُكمل دراسته التي كان قد توقف عنها أيام خطبته لإبنة اللواء السفير بسبب تمضيته كل الوقت معها بعد إنتهاء عمله... رغم هذه الأحوال التي بدت " لسعاد " فيها قدر من الإطمئنان حتى أنها كانت تقول في سريرتها " وتأتي العطايا على ظهور المنايا " كما كانت تقول أمها. فقد جاء العطاء بنوع من السكينة من جانب إبنتها وإبنها وإن أتى في خضم حالة من الجحيم كانت تعيها ولا مفر من التعايش فيها مع الإثنين. ولكن دق الهاتف وهم جميعاً على باب الخروج فقد بقي علي موعد قطار الإسكندرية أقل من الساعة.. ترددت " سعاد " أن تستجيب للهاتف وكان " كريم " قد سبقهم نازلاً ليُدير محرك العربة لدقائق.. كادت " سعاد " أن تسحب الباب لتغلقه وقد خرجت"منى" وإبنها في يدها إلا أن " منى " نفسها أزاحت الطفل فجأة وإندفعت داخلة وهي تُردد إسم " هيثم.. هيثم " خطوتين وإمسكت بالسماعة ثم سقطت جالسة على الكرسي ولم تنطق بكلمة واحدة اللهم إلا " متى حدث هذا؟.. متى حدث هذا.. " ثم تركت الهاتف وقبل أن تهم " سعاد " لتسألها أن تُسرع كانت تقول لها " معلش يا أمي البقية في حياتك " خبطت على صدرها وهي تستفسر لتعرف أن " هيثم " زميل طفولة إبنتها لفظ أنفاسه الأخيرة من أقل من عشر دقائق .

*****

دوماً إحتياج " سعاد " عارم للرسم بفرشاتها كلما إلتحمت الظروف في إثر بعضها بقسوة تدخل مرسمها الصغير.. من أول لحظة فتحها لبابه ورائحة بقايا الألوان المعجونة والخيش المشدود تنفذ داخل أنفها إلا وتفتح فمها لتسحب به كل ما يمكنها من رائحة المكان.. أنفاسها في هذا المرسم لها معنى الحياه.. الحياه كما تريدها.. هنا لها القدرة على التحكم فيما تصنع وما تختار وكان من الطبيعي أن مردود هذا يعكس نوعاً من السعادة في دخيلتها فتتلفت نشوانة تستعرض لوحاتها وتنسى كل شيئ لأنها بين ما تألفه حتى الرضا.. حتى الإقتناع لأنها

تصنعه بنفسها مثل أحلامها التي تغزلها.. حلمها حلم خاص جداً وسري جداً لا يمكن أن ترويه لأحد فلم يُخلق بعد من يفسره.. أعماقها تغزل الحلم وتنتظر أن يتحقق ومن الأماكن التي تتسع لحلمها هذا المرسم الصغير فبينما تمس بفرشاتها سطح القماش أمامها إلا ويتحور في عمق اللوحة شكل مـا لإنسـان مجهـول وغامض بالنسبة لها ولكنه يظهر دوماً في كل لوحاتها لو دققت النظر تلمح في أرضية اللوحة هذا الوجه. بذاك المعنى... لم تكن تشعر بمرور الساعات الثلاث التي عبرتها وهي واقفة تعمل أمام لوحتها وكأنها لا تقف علـى الأرض إنمـا تسبح على حافة سحابة بيضاء مرة وبلون الشفق مرة أخرى وفي النهاية معنـى السحابات كلها يعكس نوعاً من الفرحة التي يرتعش لها جسدها لأنها فـي قمـة نشوتها ولكنها فجأة سقطت دكاً على الأرض حين نادى عليها " كريم " وعلـى الفور وعت بأنها في مرسمها وأنه بقي لها أكثر من الثلاث ساعات وأن إبنهـا عـاد مـن الخـارج وأن اليـوم آخـر خمـيس فـي عـزاء المرحـوم " هيثم " ولابد أن " منى " ستتأخر إستدارت بعد أن تخلصـت مـن الفرشـاه وضعتها في علبة بها سائل ليحفظ طراوتها ثم تناولت قطعة قماش تمسح يـديها كان إبنها قد وصل إليها.. فتح ذراعية.. إرتمت في صدره فحملهـا ودار بهـا دورة واحدة وهو يقول " تصوري يا أمي أن الجامعة أبلغتني.. وإطلعت بنفسي على الخطاب الرسمي والموقع الذي ينوون إرساله إليَّ يطلبون تعديلين إثنـين فقط في البحث الذي تخرجت به على أن أقوم بهما في أسرع وقت وسيعتبرون أن هذا البحث بمثابة حصولي على درجة الماجستير.. قفزت " سعاد " من على الأرض قفزات متتالية وسريعة وصرخت مثل الأطفال تماماً من فرحة سماعها لما يقول.. إحساسها الأكيد أن إبنها في ذكائه يصل إلى درجة العبقرية وأن مـا أفرحها أن هناك من يقدرونه فليست كل الحياة ظالمة وإذا ما تمكن الشـر فـي لحظة ما فلابد أن الخير يقبع هناك وهذا المعنى ترجمته على الفور في شـكل عبارات كثيرة لإبنها في محاولة منها ليتصالح مع أقداره وظروفه الصعبة.. كان

" كريم " يصغى إليها والإبتسامة لا تفارق وجهه أو يعتذر أحياناً بكلمات قصيرة يريد بها إضحاك أمه حين يقول لها " معلش يا أمي هل تذكري عمي حين كان يسميني كريم قلقان هذه طبيعتي يا أمي " فما كان من أمه إلا أن قالت من فورها " إنت أكثر من قلقان إنت شكاك.. تشككت في عدالة السماء وتشككت في محدودية الشر " فكان يضحك وهو يرد عليها " بأن الإنسان خُلق عجولاً إذا مسه الشر يئوساً " كم من الأحضان تبادلاها.. ولما سأل عن أخته كانت تقول له بأنها في أربعين المرحوم " هيثم ".. أخذ الصمت بينهما مساحة دقائق إلى أن عاد " كريم " يقول لها " إلا أن العيب يا أمي في الجامعة الأمريكية أنها لا تمنح شهادة الدكتوراة... من يريدها عليه أن يسافر إلى هناك " ودق الباب فجأة وكانت " سعاد " تُسرع بخطوها لتصل إليه ولما فتحته فوجئت بإبنتها وبجوارها الصغير يبحلقان فيها وقد وقفت " منى " مكانها لا تتقدم إلى الداخل ويحازيها في الوقوف " شادي " وبعد ثانية من الزمن إنتبهت إلى أن إبنتها كانت ترتدي الحجاب لا يظهر منها إلا وجهها.. وعت شدة جمال إبنتها رغم أنها أخفت شعرها.. أشارت لها بالدخول فدخلت وهي شاخصة إليها كأنها تريد أن تعرف رد فعلها.. بسرعة دار في عقل " سعاد " مواقف كثيرة لإبنتها وكلها لا تُعير فيها إهتماماً إلى رأيها فكلمت نفسها بصمت " لتفعل ما تريد وكلها خبرات تتعلم منها " ثم إنتبهت إلى أن إبنتها مازالت شاخصة إليها وأخيراً قالت لها " ما رأيك في الحجاب عليَّ يا ماما " فردت من فورها "إذا كان هذا يُريحك ويطمئن سريرتك فلا مانع" وإنخرطت إبنتها تحكي لها بأن" هيثم " كان قد أهداها في يوم هذه الملابس أثناء مرضه وأنه نصحها بالصلاة والعبادة وأن تكُف عن أمركة الألفاظ وخاصة الشتائم ثم قالت لها أيضاً بتأكيد " آه يا أمي لو كنت معي في العزاء لوجدتي طلاب المدرسة بأكملها هناك والبنات كلهن محجبات " نظرت إليها أمها وأرادت أن تسرح بخاطرها في ملاحظات ورؤى لها كثيرة لأعداد غفيرة من البنات والسيدات الصغيرات وطالبات المدارس وقد إنتشر بينهن

الحجاب " تُرى لماذا!؟ هل يوجد بينهن من ينشر المفاهيم الدينية الأكيد أنــه لا فلا وعي بأبسط قواعد التعامل مع الوالدين موجود وكأن الأم في هذا الزمن هي من ينفث فيها الأولاد شُحنة الغضب أو الضيق أو التطلع في شكل سـيل مـن الشتائم والتطاول والسباب إما بالأمريكية أو العربية " فالسائد أن إبنتها " منــى " هي الصورة المُكررة من بنات جيل كامل وأن زوجها " أشرف " وإبن دفعتــه المرحوم " هيثم " هما الصورة الأكثر تكراراً وحضوراً بين الشباب وكأن هناك خللاً ما لا يعرف الأباء مصدره.... فلم تتوان " منى " منذ أن كانت في الثالثــة عشر من أن تروي لأمها وببساطة شديدة ودون أي تقدير لما يحــدث للبنــات صديقاتها لا تختلف إبنة الوزير منهن عن إبنة بواب العمــارة فكلهــن يعــرفن عناوين الأطباء الذين يقومون بالعمليات المعروفة قبل ليلة الزفاف والأكثــر أن هذه العملية لم تعد ضرورية فالشباب أنفسهم لم يعد يعنيهم مسألة العُذريــة ولا يسألون عنها ولا يرضون بأن يكونوا مغشوشين بعملية لا تزيد تكلفتها عن بضع جنيهات لتمر الليلة كل هذا دار وتذكرت كلام كثير للعم.. في عقلهــا حاجتهــا ملحة لتفسر وتُحلل وتقيس في رأسها السبب أو الأسباب التي دفعت جيلاً كاملاً وكأن هناك من أزاحه وألقاه ليغرق في قاع من الألفاظ المعينــة والســلوكيات الغريبة.. ثم تحدث نفسها وليس الشباب فقط إنما الكبار والرؤساء ومن بيــدهم الحل والربط وكأنهم جميعاً فقدوا البصيرة أيضاً وتجسدت داخلها صورة مرحلة

" كريم " أثناء عمله في وزارة الخارجية وكم الظلم والجور الذي وقع عليه ولم يتحرك أحد.. معاني كثيرة دارت في عقلها الذي يعمل كساقية فأغمضت عينيها ثم هزت رأسها كأنها تُخرج منها كل فكرة تتمنى مناقشتها مــع "منــى " فمــن خبراتها أنها إذا ما حاولت أن تناقش معها أي أمر أو تُبدي رؤيتها في أي حدث أن تُشير لها الإبنة بضيق وهي تقول " هاتي من الآخر " أو تظل تنفخ من شقيها وهي تُخرج الزفرات متتالية لا تطيق أن تستمع لأمها أكثر من ثواني معــدودة ودائماً تطالبها بموجز لكلامها إلى أقل مدى أو تُطالب بالخُلاصة كما تســميها..

عادت بسرعة قبل أن تصرخ فيها إبنتها وهي تقول" بطلي سرحان وأحلام على رأي حماتي " أو تقول لها " أمومتك ضعيفة رغم أن أنا وإبني مــن ســنُدخلك الجنة وليست اللوحات التي ترسميها وفاكرة أنها لم يُخلق مثلها هأ.. هأ.. هأ.. " خشيت من كل هذا الموجع من الكلام فإنتبهت إليها بكلياتها.. لوت عنق نفســها لتبقى أمامها في كامل يقظتها تستمع إلى صوتها العاتب دوماً اللائم دوماً إلا أنه لدهشتها وجدت إبنتها تقول لها برفق لم تألفه " لا تفكري يا أمي ولا تألمي، تلك مرحلة وربما يأتي الإصلاح والعقل بعدها إجلسي.. إجلسي سأدخل لأُطعم شادي لأني سأعاود الذهاب إلى العزاء مرة أخرى " تركتها وإنسحبت بنوع من السكينة والهدوء مع إبنها لتدخل به المطبخ .

*****

هل لبس الحجاب فرض عليها نوعاً من التأدب مع أمها؟ أم واقعة مــوت " هيثم " زميلها.. هل لبس الحجاب طقس إسلامي يحُد من جموح الإبنة الــذي كان.. حارت " سعاد " في فهم هذا التغيير البادي في سلوك إبنتها حتى أنها كان أكثر ما يغلب عليها أنها متوجسة منها خيفة وكأنه السكون قبل العاصفة العاتيــة فكانت تطيل النظر إليها.. وكانت تبذل جُهداً جباراً مُخالفاً لطبيعتها التي خلقهــا بها الله في أن تركز معها لا تشرد لحظة. تحاول أن تعيش بكل عقلهــا بكامــل عقلها معها فإذا تكلمت أصغت إليها وإذا ضحكت تُسايرها وضعت " شادي " في بؤرة نفسها فهي تتابعة إينما إتجه حتى أنها في لحظات كثيرة كان سلوكها معــه يتشابه بمربية مأجورة وليست جدة معها الثقة والأمان.. تحاول قدر إمكانهــا أن تدرأ عن نفسها عبارات إبنتها حين كانت تراها واقفة لترســم فتصرخ فيهــا " أتركي ما أمامك فلا قيمة لشيئ مما تفعلين.. القيمــة الوحيــدة هــو عنايتــك وإلتفاتك " لشادي "هذا ما سيُدخلك الجنة وليست الفرشاة والمعــاجين التــي تصنعي بها أعــاجيبك "... والغريب أن " منى " كانت الوحيدة التي إستطاعت أن تحس أن هناك ملامح لشخص ما مجهول تظهر في أرضية كل صورة لهــا

إلا أن " سعاد " لم تصارحها في أي يوم لا من قريب ولا من بعيد عن ما يملأ خاطرها ويعيش حياً في وجدانها وإلا ما إستطاعت أن تخرج من تعليقاتها أو تعليقات حماتها "يا الله " وهل تنسى يوم أن طلبت البرنس الذي نزل فيه" شادي " لحظة ولادته وما جرى لها بعدها لايمكن.. لايمكن أن تتجاسر وتفضفض لها عن ما يجول في خاطرها.

*****

كانت قد وصلت مناقشات إكمال دراسة " كريم " إلى أنها صارت الموضوع الأساسي والوحيد في الأسرة وكانت " سعاد " كأم تتوق إلى أن يُكمل دراسته في جامعة مصرية بعد أن عرفت أن الجامعة الأمريكية لا تمنح درجة الدكتوراة فأسرعت بعرض الأمر على إبنها " لماذا لا تأخذها من كلية الإقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة " أجابها بنوع من المرارة الممزوجة بالعصبية بأنه سأل وإستفسر بنفسه وذهب أكثر من مرة فأجابوه بأن جامعة القاهرة لا تُقر بالطريقة التي حصل بها على الماجستير من الجامعة الأمريكية ولابد له من عمل سنة تمهيدية ثم تحضير الرسالة فيما لا يقل عن خمس سنوات هذا إذا عثر على أستاذ يقبل الإشراف وإلا يمكن أن ينتظر سنوات حتى يأتي عليه الدور... خبطت " سعاد " على صدرها وهي تقول بجزع الدنيا " لا يقبلون أنك حاصل على الماجستير كيف! اساتذة علماء مثلهم منحوك الدرجة لأنك أهل لها " ثم قالت بدهشة كأنها تكلم نفسها " وهل تنسى يا كريم يوم تخرجك والعميد الأمريكي يمنحك شهادة التخرج وهو يُعلن بأنه لو أن هناك درجة أعلى من مرتبة الشرف لمنحوها لك " بعدها إنقلب بياض عينيها إلى لون الدم لدرجة أن إبنها هدأ من ثورتها أكثر من مرة وهو يقول لها " الموضوع إنتهى يا أمي وأنا أراسل أكثر من جامعة في أمريكا لأسافر وأستكمل دراستي هناك " سقطت على أقرب كرسي وهي تسأل بلهفة وبصوت كادت أحباله أن تصاب بالخرس " وهل وافقوا على أنك مُنحت الماجستير " فكان رده " طبعاً يا أمي بل رحبوا بي

لأستكمل الدراسة عندهم.. الفكرة الآن أنني أفاضل بين الجامعات وفـوق هـذا أنتظر رأيك يا أجمل أم وأحب أم ".

*****

" لا تحملي همي يا أمي سأنجح بتفوق لأحصل على المجانية مثلما حدث معي في مصر " طمأنته أمه بأن لديها مبلغاً من المال هو في الحقيقة قيمة نصيب والدك من بيت كان يملكه عمك وأبيك معاً وهذا المبلغ بقي له أكثر من عشرين عاماً في البنك بإسمك " طمأنته أيضاً بأن عمه هناك وأنه يمكن أن يعتمد عليه وهي تكلمه برز في مُخيلتها الشكل المجهول الذي تُجسده في لوحاتها كادت تنطق.. ولكن بماذا ستنطق فالمجهول لا إسم ولا عنوان له هو محض تخُيل فقط فلم تزد على قولها " ربنا يرعاك ويعثرك فيمن يساعدك وينير لك طريقك " قال ضاحكاً " يا أمي طريقي معروف وقد إستقريت في ذهني على كل شيئ.. آخر خطاب وصلني اليوم من الجامعة ينتظرون وصولي بقبول أكيد.. لا.. لا يا أمي أنا لا أحتاج للكثير هناك سأكون مجرد طالب وسأرى إن كان يمكنني الإقامة في بيوت الطلبة هناك بذلك لن أحتاج إلا إلى الطعام.. أستطيع يا أمي أن أعمل أي عمل بسيط داخل حدود الجامعة ليساعدني لا.. لا أريد أن أمس فلوس البنك التي بقيت فيه عشرين سنة كما قلت وسأطلب من البنك أن يحول لي فقط الأرباح ها.. ها.. ها.. لا تكوني قلوقة مثلي يا أمي ولا تنسي أن عمي هناك " يمضي اليوم وهما يقلبان الأمر على كل وجوهه يتناقشان.. يختلفان... يتفقان وكلما إقتربت الأيام من موعد سفره الخوف يعصف بقلب "سعاد " شوقاً لإبنها قبل أن يفارقها وخوفاً عليه كذلك فكم كانت تتمنى لو أن بلاده كانت الأولى به.. لو أنهم قبلوه ليُكمل رحلة التعلم تحت سماء وطنها " آه ياربي من قسوة الإنسان على أخيه الإنسان " شعورها أنه لا يوجد المخلوق الذي يدفع أخاه الإنسان ولهذا يهجر إبنها الأرض وسماءها ويرحل إلى الآخرين. ثم تسأل نفسها " ومهما كان الآخرون هل يجوز أو يمكن أن يكونوا أكثر رحمة من

ناسه وأهله.. وآه على من يُجدّ ويُخلص ويكون جزاؤه الغربة لأنه إفتقد الرحمة كأنها السراب " تهرب " سعاد " من واقع لا تألفه بل تخشاه وكعادتها تلجأ مقطوعة الأنفاس إلى أحلام يقظتها ترى فيما يرى اليقظان أن الباب يدق وأن البوسطجي يمد لها يده بخطاب تفضه لتقرأ فيه أن الجامعة المصرية يُسعدها أن تقبل إبنها باحثاً لدرجة الدكتوراه فتبتسم .. تغمض عينيها بلذة وتفتحهما لا تريد أن ينتهي الحلم أو ينقطع الأمل وقبل أن يتواصل حلمها ويعاد في رأسها بصورة أخرى في شكل تلغراف أتي والبوسطجي يقدمه لها ودقات قلبها تعلو لتقرأ أن الجامعة المصرية في إنتظارك للقبول بها.. قبل أن تدور صفحات الحلم لتعيش وتسعد بصورة ثالثة لها نفس المعنى إذ دق الباب فعلاً دقاً متواصلاً.. أفاقت.. جرت إليه تفتحه ويا للفارق بين الحلم والحقيقة فقد كان خطاب من جامعة القاهرة جرت بعيونها على سطوره لتقهم " سبق وأن أخبرتك إدارة الكلية أنه لا يمكن قبول درجتك العلمية " الماجستير " من الجامعة الأمريكية ويتعين عليك أن تبدأ من فرقة التمهيدي ثم تجهز الماجستير.. ولما كان أغلب الأساتذة الذين يمكنهم الإشراف عليك في حالة من الإنشغال المكثف بسبب متابعتهم لباحثين أمثالك فنرجو العلم بأنه يتعين عليك الإنتظار لمدة لا تقل عن السنتين.....

"عصرت الورقة بين أصابعها وهي تتناول القلم لتوقع بالإستلام وإنسالت الدموع من عينيها وهي تكتشف أن " كريم " يبذل محاولات أكيدة ليتم دراسته في مصر حتى لا يُقلقها وإنه سأل حتى على أن يبدأ من السنة التمهيدية ويغض الطرف عن ما منحته إياه الجامعة الأمريكية من أجل خاطر أمه إلا أنه مع ذلك كان يتعين عليه أن ينتظر سنوات.. مسحت عينيها وقررت بينها وبين نفسها أن لا تُظهر قلقها أمامه مرة أخرى.. لا يجب أن تجعله يعيش صراعاً بين ما يحبه وما تفضله هي.. دقائق مرت إلا وإبنتها وفي يدها " شادي " يدخلان من الباب إلتفتت إليهما وهي تسألها بأنها لم تسمع جرس الباب كالعادة إلا أن " منى " قالت لها بهدوء بأنها إستعملت المفتاح الموجود عندها حتى لا تُقلقها من

مكانها.. قبلت منها هذا التفسير شديد الحساسية وحاولت أن تركز معها ما أمكنها ذلك فلا أحلام يقظة ولا إنشغال " بكريم " تحاول أن تتفرغ لها كلياً إلا أن " منى " وكأنها فهمت ما يدور بخلد أمها فكانت تشرح لها بكلمات مختصرة أن الإنسان يتغير إما بفعل الأحداث وإما بفعل الوعي وأنها كذلك تحاول ما أمكنها أن لا تنزل عندها كثيراً ومعها " شادي " حتى تتفرغ لأخيها فقد إقترب موعد سفره.. في قلبها كانت " سعاد " ترد " وآه من مرارة فكرة الرحيل.. لم أفرح به.. لم آنس بوجوده.. ولم أفرح بزوجة له " إلا أنها ردت على إبنتها على الفور وبتركيز كبير بأنها يهمها أيضاً أن تطمئن عليها وعلى إبنها.. الأكيد أن شيئاً ما تعدل في " منى " فقط ما يُقلق " سعاد " شراهة التدخين فلا يمكن أن تنطفئ السيجارة بين أصابعها.. مرة تخاف عليها ومرة أخرى تخاف على الصغير الذي لا تراعي معه التدخين المستمر ولكن كمن فهمت " منى " ما يجول بخاطر أمها فردت عليها وهي تضحك " إطمئني فقد عثرت على وظيفة في شركة أجنبية قريبة من منطقتنا ويشترطون فيها عدم التدخين لا في المكتب منفردة ولا بين الزملاء الموظفين "... عرفت الأم أنها كانت تبحث عن عمل من أكثر من شهر وأن من نصحها بهذا أيضاً كان المرحوم " هيثم " وأنها ستتسلم العمل في الغد وما عليها إلا أن تأخذ " شادي " إلى أن تجد له مدرسة مناسبة.. أفهمتها بهدوء وفي كلمات مقتضبة أن شراهتها في التدخين هي البديل لما كانت تتعاطاه وأنها بمرور الوقت يجوز أن تتخلص نهائياً منه " يمكن مين عارف هي المسألة تحتاج إرادة " وصلها تماماً أن إبنتها على وعي كبير بأمور كثيرة فإستراحت وإن كانت ثقتها فيها مازالت مشكوكاً فيها .

*****

كأن الدنيا خلت من معناها بسفر إبنها.. قلبها فارغ.. صدرها فارغ.. حناياها خاوية فإذا شربت لا ترتوي وإذا أكلت لا تشبع إذا تنفست لا يمتلئ قرارها لأن " كريم " سافر.. أكثر من إثنى عشر ساعة طيران بينها وبينه وأكثر

من ثلاثة آلاف من الجنيهات ثمن التذكرة إليه.. كأنها تمس الجحيم تلمسه بقلبها وتعيشة حقيقة.. لم يكلمها إلا مرة واحدة.. ثمن المكالمة غالياً وهي تعرفه لن يمد يده ويرفع سماعة تليفون عمه مهما إشتاق إلى أمه.. سيجوع ليُكلمها وسيبرد ليكلمها ولكنه لن يطلبها من عمه.. إبتسمت بينها وبين نفسها فرحة لإحساس إبنها بكرامته وبعدها قررت أن تطلبه هي ولكن المشكلة أنها لا تستطيع أن تسيطر على نفسها من البكاء أول ما تسمع صوته فتضيع الدقائق عليها وهي في نشيج وهو على الطرف الآخر يُطمئنها.. تحاول " منى " أن تُطيب خاطرها وتضحك معها وهي تطالبها بأن تكون أماً عصرية أو مثل الأمريكية التي سافر إلى بلادهم إلا أن " سعاد " كان الخواء يهزها هزاً ضارياً حنيناً إلى إبنها فلم يكن الإبن.. ولكنه أنفاس الرجل التي تقتسم معه الحياه.. ينام في حجرته وتصلها أنفاسه فتحس المشاركة وتحس الونس.. تتعذب لعذاباته وتطير من على الأرض في لحظة رضاه أربعة وعشرون عاماً وكأنه مازال مربوطاً فيها بحبله السري.. كأنه داخلها في أحشائها وفي قلبها.. صور حياته كلها تمر في مُخيلتها تباعاً لم تستطع أن تأخذ عليه شيئاً كان فيه جباراً أو كان فيه عاقاً يوم واحد فقط آلمها يوم أن كسَّر منزل أخته رغم أنه عندما عرف أن له رصيداً بإسمه في البنك أخذ جزءاً من الأرباح وأعطاها لأمه لتقوم على إصلاح ما أفسده. كان يكفيها أنها في أيام كثيرة من ليالي الشتاء شديدة الصقيع كما كانت تقول له " جو الدنيا تغير يا كريم " فكانت تطلب منه أن ينام بجوارها في فراشها ليُدفئها.. " لم أكن وحيدة بوجوده وكان للدنيا معنى آخر.. أكثر رحمة.. وأكثر حنانا " لم تنجح ولم تفلح أن تُداري كثيراً مما يدور في صدرها أمام إبنتها فكانت " منى " تُهدئ من روعها وكانت أحياناً تقول لها " لا تظني يا أمي أنني سأنفرد بك وأسبب لك متاعب بعد سفر كريم " الواقع أن " سعاد " لم تكن تخشى إبنتها أو تخاف جسارتها إنما كانت هي من داخلها خاوية غير متمازجة في أي أمر من أمورها ما كان يُلهيها ويجعلها تفرح حقاً هو شادي

حفيدها حين يشاور لها على زجاجة الماء وهو يقول لها " عاوز أشرب ميه عليها كولونيا ياسعاد " هكذا يناديها بإسمها شأن أطفال الجيل.. لقد عودته منذ مولده على الماء الذي تضع عليه نقطتين " مزهر " فصار لا يشرب الماء إلا به ودائماً ما يسميه " كولونيا " حين ينسى إسم " المزهر " فكانت تضحك من قلبها وتحمله لتذهب به إلى الثلاجة تضعه أولاً فوق مائدة المطبخ ثم تتناول الزجاجة وتضع عليها القطرات فيشير لها بأن تعطيه كوباً لتصب له الماء.. هنا تضحك.. تضحك وهي تحتضنه. يمضي وقتاً طويلاً معها وأمه في عملها إلى أن تأتي في حوالي الخامسة فالعمل مع الشركات الأجنبية يتطلبون فيه ساعات عمل طويلة.. تأتي " منى " ملهوفة على إبنها تُكيل الشكر الكثير لأمها.. تحمله وتطلع به إلى شقتها ليس أكثر من ساعتين إلا وتكون والطفل في نومٍ عميق لأن يومها التالي يبدأ من السادسة صباحا لتكون في عملها تمام الثامنة.. أشياء كثيرة إنتظمت في حياتها.. الوقت وطعامها تسعى بدأبٍ أن تتخير له مدرسة مشهود لها إلى أن إختارت له واحدة صاحبتها ومديرتها أم زميلة لها في عملها.. توصله " منى " تمام الثامنة وتُحضره أمها من المدرسة في الثالثة أعطى ذلك " لسعاد " وقتاً كافياً كانت تشغله بممارسة رسم لوحاتها ولكن هل يفارقها وجه إبنها لحظة؟ نعم تبهُت صورته وهي في مرسمها لأنها تنسلخ عن كل شيئ وأقرب شيئ وتمضي وقتاً لا تعي فيه إلا نفسها فهي نفسها الواقفة تغرس يديها في المعاجين شيئ ما يحدث في دخيلتها وهي تحتضن الفرشاة بأصابعها بل بكلياتها كلها.. شيئ ما يحدث. هل هي مُتعة! هل هي سعادة! هل هي لذة! هي أكثر من كل هذا فالفرشاه بين أصابعها كأنها تعيد خلقها في اللحظة الواحدة مائه مرة كأنها تستقبل الحياة لأول مرة.. تولد من جديد.. تتنفس وكأن شهقة الهواء أكثر برودة لأنها الشهقة الأولي.. مع فرشاتها وألوانها تحقق ذاتها المنتقاة بإختيارها فلا واقع مفروض ولا ظروف لا فكاك منها إنما هي ذاتها وبذاتها... ساعات " ليتها تطول لتاخذ العمر كله " تتجرد فيها من واقعها لتعيش الحلم والأمل والمدينة

الحانية ورغم كل ذلك يظهر الوجه المجهول ذو العينين النافذتين. لماذا هذا الوجه لا يفارقها! فترد على نفسها لأنه غير حقيقي وغير ملموس لأنه أصلاً غير موجود إلا أنه في لوحاتها هذه الأيام كثيراً ما يبتسم لها " يا إلهي " وكيف يبتسم الشكل الذي رسمته سواء بوعيها أو بدون وعيها إلا أن الحقيقة تظل هي الحقيقة بأن الوجه يبتسم وكثيراً ما تلفتت مذعورة إلى حد ما أو متوجسة كأنها تسمع أنفاساً لهذا المطبوع في لوحاتها ودفء ما يلفها كأن هناك من يشاركها وقفتها... تترك اللوحة وتمسح يديها وتندفع خارجة وهي تقرأ شيئاً من القرآن ثم تؤكد لنفسها أنها خيالاتها عن إبنها وبعد أن أصبح البيت خالياً منه فهي تسمعه وتحسه وتشمه لا أكثر ولا أقل إلا أن الواقع إنها لم تكن تفكر فيه لأنها أمام لوحة لها وهنا في المرسم لا ترتبط بمخلوق فما هذا الإقتحام الذي يستبيح عقلها وأحساسيها! بعد ذلك لا تتوقف طويلاً أمام هذا الذي يشغلها.. تهز رأسها فيدور شعرها الكث حول وجهها وتعاود الرسم من جديد تحب وهج اللون الأحمر بدرجاته حتى الوردي وكثيراً ما قال لها عم أولادها إن من يرى ألوان لوحاتها يعتقد أنها أصغر من عمرها بعشرين سنة فدائما الوردي ودائماً الأحمر المتوهج اللونين الأكثر إستخداماً عندها.. حين تذكرت هذا ضحكت بصوت مسموع وقبل أن تنتهي ضحكتها كانت إبنتها خلفها تقول " الحمد لله أنك تضحكين.. هذه أول مرة تضحكين فيها منذ سفر أخي ".

*****

عامٌ كاملٌ مر على سفر إبنها.. تجتهد في اللوحات حتى صار لها إنتاج كبير.. العطاء تعود وتمرين.. بات من الضروري لديها أن تقف أمام اللوحات ما لا يقل عن أربعة ساعات يومياً ساعد على ذلك دخول " شادي " المدرسة وإنتظام إبنتها في عملها الذي كانت به في غاية السعادة.. تقول لأمها كثيراً

" كلمة يا أمي حين كنت أسمعها منك لا أفهم معناها أو على الأصح لا أحس معناها وهي عبارتك التي تقولين فيها بتحقيق الذات.. كل يوم في عملي أشعر

بمذاق ومعنى هذه العبارة " ثم تضيف " هذا ما يشجعني ولو قليلاً على التقليل من التدخين من أجل " شادي "…. " سعاد " تجتهد أكثر في لوحاتها وتدور تتفق مع أكثر من مكان في أكثر من حي أن تعرض عندهم.. والأمل في قلبها يعشش بأن تُرسل مبلغاً أكبر لإبنها في غربته… كم من أشياء وجدتها في أثناء جولاتها معروضة كانت تتصور " كريم " يرتديها وفي أحيان أخرى كانت تمر بعيونها على محال الحلوى فتتمنى لو أنها تستطيع أن تُرسل له " البسبوسة " أو " الملبن بالجوز " الذي يعشقه.. أين منها إبنها لتطعمه بيدها لدرجة أنها كانت تحس بملمس شفتيه على أصابعها وهي واقفة أمام المعروض " آه يا حبيبي يا إبني ".. تمد في خطوها لتدخل أغلب المحال تعرض ما لديها وتتفق وكان الترحيب بما تفعله معقولاً وكان رسم الشخوص إذا جسدتها أو روعة الطبيعة إذا نقلتها وأضافت إليها لتكون من أجل فرح الإنسان تُعجب الآخرين.. وفي أحيان أخرى تُبدع الخطوط والألوان المُتداخلة التي تصنع منها أشكالاً ومعاني حسب ما يفسرها الناظر إليها وكان هذا النوع بالذات يلاقي إقبالاً من الناس فتتذكر على الفور إبنها أيام محنته في وزارة الخارجية وأيام معاناته مع إبنة اللواء.. حين خطف " كريم " منها يوماً الفرشاه وبقي يلطخ لها اللوحة ليجعل منها خطوطاً وألوان متداخلة ثم صرخ فيها وهو يقول " هذا هو الواقع الحالي الذي يجب أن ترسميه لتجدي إقبالاً يا أمي لأن إنسان اليوم سيجد فيه نفسه " لم تكن " سعاد " ترسم خطوطاً عفوية إنما كانت كأنها تغرس الفرشاة في قلبها لتتشبع بالمعاني ثم تترك الفرشاة بعد ذلك وحدها تتحسس القماش المشدود لتجسد هذه المعاني في شكل ظلال ملونة تعطي معنى العيش.. في كل يوم تخرج فيه تعود بحصيلة من المال تشتري بجزء منه أنابيب وألوان وتُبقي جزءاً منه " على جنب " تخفف كثيراً من عبء " منى " وإبنها بعد أن وجدت عملاً إلا أنها كانت كثيراً ما تهرع إليها وهي تقول بصوت عال " أمي لا يمكن كل هذه المصاريف التي تُنفق في اليوم الواحد.. لم أكن أتصور أنك كنت مطالبة بالكثير والكثير.. كنت أظنك

تعملين كنوع من الدلع " ثم تقول مرة أخرى " كيف وقفت في الحياة وحدك أكثر من خمسة وعشرين سنة! كيف علمتيني وزوجتيني وإشتريتي لي شقة.. " فكانت ترد عليها " سعاد " بصدق " إنه عون الله إنني كنت أُرزق من أجلكما "... أيضاً كانت نعمل بهمة بعد أن وصلها خطاب من عم إبنها يدعوها فيه لزيارة أمريكا ولكنه إشترط أن يُحدد لها الموعد المناسب بالنسبة للجو ولمدى إنشغال إبنها وحتى يكون قد قطع شوطاً من مشواره العلمي.. وشوشت لنفسها " لابد أن أدخر ثمن التذكرة " فكانت تقف في مرسمها ليل نهار تبتكر اللوحات وتُلبي بعض الطلبات للمحال والزبائن إلى أن إطمأنت إلى أنها تقترب من المطلوب لثمن التذكرة... لما علمت " منى " برغبتها في السفر كانت تعرض عليها أن تعطيها من راتبها الكبير ما تشاء إلا أن " سعاد " شعرت بالغُصة وغالبت الدموع فقد إستكثرت أن تمد يدها لإبنتها وهي قادرة على التكسب.. كل ما قالته لها بأن سفرها لن يكون قبل عام آخر حتى تطمئن عليها.. لن تتركها إلا وهي مستقرة في عملها وإبنها مستقر في مدرسته وعلى ذلك أرسلت " سعاد " في طلب بنت عم لها تُقاربها في العمر إن لم تكن أكبر بقليل لتعيش مع " منى " فترة غيابها.. كل يوم كانت ترتب خطوة وراء خطوة في سبيل إستقرار إبنتها بقيت مشكلة واحدة فقد كان " شادي " يُكثر من السؤال على " بابا " وخاصة بعد ذهابه إلى المدرسة وكانت " منى " تقع في " حيص بيص " فبماذا ترد ولم يكن أمامها إلا أن تقول له وبكل صراحة لم تتردد فيها من أن أباه يعيش مع إحدى صديقاته وإنه سيأتي كلما أمكنه. طبعاً إختارت أن تقول له صديقة وليست زوجة لأنه لا يعي معنى كلمة زوجة، هكذا هي التربية وطريقة التعامل مع أطفال اليوم حيث يجب الصدق المُطلق وبلا أي حساسيات من قول الحقيقة إيماناً بأنه مهما كانت الحقيقة مؤلمة فالأشد خطر هو الكذب إلى أن بدأ يتباعد في سؤاله عليه... ثم عادت " منى " فجأة تقلق على والده حين سألها أصحاب الأكشاك المنتشرة في كل ناصية فقد كانوا يعرفونهما منذ أن كانا طالبين في إحدى المدارس

الأجنبية يكلموها بأنه يمضي أغلب وقته مع أحد المقاولين المعروفين في المنطقة والذي يتجر في نفس الآن في مادة البانجو وكثيراً ما نصحوها بأن تعاود الإتصال به حتى يعتاد على رؤية " شادي " ولكن "منى" لم تقبل على الإطلاق أن يتواجد إبنها في مثل هذا الجو فهي لن تنسى اليوم الذي جعلته يبيت عند أبيه على أمل أن تسترجعه بإبنه فكان أن أمضى اليوم التالي مسطوحاً في فراشه رافعاً رجليه إلى الحائط يغني ويومها عرفت أنه ولابد بل الأكيد أنه جالس أباه في وقت غير صحيح.. لا..لا تريد أن ترسله إليه فقد عرفت أخيراً أنه ولابد سيضل معه السلوك السليم ببساطة شديدة لأنه مُغيب أو نصف مُغيب أو ربع مُغيب المهم أن عقله مُعطل عن الفهم الصحيح.. طلبت منها " سعاد " أكثر من مرة وبأساليب مختلفة أن تُقيم عليه قضية لتأخذ نفقة للطفل لأن هذا سيكون في صالح الأب أولاً ليعرف أبسط واجباته ويعتاد عليها فليس من المعقول أن تعتبر " سعاد " الطفل يتيماً وتعتبر " منى " أنه كاليتيم ويقومان بالإنفاق عليه فهذا يُزيد من إختلال تصرفات أبيه ويُنمي داخله أكثر الشعور بعدم المسئولية إلا أن " منى " كانت ترفض مبدأ رفع قضية أصلاً بأي شكل من الأشكال وفي نفس الوقت لا تُعطي تفسيراً منطقياً لموقفها فكانت الأم تحار معها " فهل يا تُرى مازالت تأمل فيه حتى بعد أن تزوج ولا تريد أن تقطع كل الخيوط وتُغلق الأبواب لإحتمال أي رجعة ولهذا تترك الباب موارباً ففي يدها أن ترفع قضية وأن تأخذ حق الطفل إلا أنها لا ترضى بذلك.. أم يا تُرى تُشفق عليه كأب لإبنها ولا تريد أن تُثقل عليه لعل وعسى يعود يوماً إلى صوابه " حارت " سعاد " في أكثر من تفسير لموقف إبنتها إلا أنها كانت تعرف في نفس الآن أنها دوماً تهدف من وراء أفعالها وأقوالها لأشياء أخرى فهي بطبيعتها هدافة وغالباً لا تفصح عن السبب وأيضاً لا تفصح عن الهدف الذي تقصده فآثرت بعد طول الجدال معها السكوت وهي تقول لنفسها " ومنذ متى كانت تسمع لي رأياً " إلا أن منى بدت كأنها فهمت ما يدور في خاطرها فإذا بها تقول " لا تقولي يا

أمي أنني لم أسمع لك رأياً من قبل فقد تغيرت إلا أنني أُقدر أنه ترك عمله فإذا أخذت سآخذ من زوجته وليس منه " آثرت " سعاد " أن لا تقول لها " وأن زوجته مهما كانت سترفض أن تستمر في الدفع لإبنه ومن ثم سيبحث عن عمل ومن ثم سينمو داخله الإحساس بالأبوة " إلا أنها في النهاية آثرت أن تصمت وأن تُخيط فمها حتى لا تنطق ببنت شفه .

*****

يا الله إيحتمل جسدها كل هذا الدق من داخله.. رجة أقعدتها قاعدة.. قلبها الذي لا يزيد في حجمه عن قبضة يدها يدوي بين جوانحها بهذا القدر من العنفوان كأن شيئاً يُنسف داخلها.. مالذي حدث! دارت بعيونها في المكان بعد أن أشعلت النور.. كل شيئ في مكانه.. أرهفت سمعها وأيقنت أن إبنتها و" شادي " لا يدقان فوق رأسها. أمورها اصبحت هادئة منذ أن طُلقت وبدأت العمل بل أمورها مستتبة إذاً ما تلك الرجة الجسورة التي أقعدتها قاعدة وتساءلت على الفور أيكون حدث مكروهاً لإبنها الغائب في أمريكا ولكنها تذكرت أنه كلمها من أيام تعد على أصابع اليد الواحدة وكانت أحواله على أحسن ما يكون بل كان كثير الضحك.. حاضر النكته رغم بعد المسافة. ولكن " سعاد " لديها حاسة تستشف بها الأحداث قبل أن تقع تحلم بها ثم يتحقق حلمها وكأنه يتكرر أمامها المرة الأولي يكون في منامها والثانية تعايشه حقيقة واقعة.. فكرت أن تطلب إبنتها " منى " تطمئن عليها ولمحت ساعتها. كانت الثالثة بعد منتصف الليل ولا يمكن أن تطلبها في هذه الساعة. إحساسها أكيد بأن رجة قلبها لا يمكن أن تكون بلا سبب..... مازالت مفزعة الفؤاد والجوارح.. إنها تستطيع أن تطلب إبنها في أمريكا ففارق التوقيت يجعله يقظان في هذه الساعة ولكنها أحجمت.. حاولت أن تشغل نفسها عن عمد بأن تقارن بين حاله الآن وما كان عليه في وزارة الخارجية المصرية حين سافر بغرض إستكمال مقومات التدريب والتعليم أما الباقون فإنشغلوا بالترفيه أولاً ثم إستكمال مقومات التعليم ثانياً وعرفت وقتها أن

إينها كار يذهب في الزيارات المحددة لهم حسب البرنامج المرتب والموضـوع بمعرفة الوزارة في مصر قبل أن يبدأوا الرحلة فكان الزمن المحدد مثلاً لزيارة القنصلية الفلانية هو ساعتين كان الزملاء والمشروفون يحاولون إختصارها من ساعتين إلى نصف ساعة فقط وبذلك يختصر الثلاث زيارات المحددة في حوالي الساعتين بدلاً من الست ساعات وكانت حجتهم أن يلحقوا بمسألة " الشوبنج " أو التسوق لأن المحال تُغلق مبكراً في أوربا وبالطبع لم يكن هذا المبرر ما يجعـل " كريم " يُعجل بالزيارة فكان يُكثر من الأسئلة لأنه يريد أن يعرف ماذا وكيـف ولماذا تعمل القنصلية الفلانية إلى آخر تلك الأسئلة التي في جُعبتـه والتـي لا تنتهي في وقت قريب وقوفه مستفسراً كان من شـأنه تطويـل الزيـارة أكثـر وخاصة أن ما يُقال كان له وقع جذاب جداً في نفسه فحين زاروا مقـر الأمـم المتحدة في " جنيف " عرفوا أنه حين يكون الإجتماع على مسـتوى الـوزراء تكون المائدة مستطيلة حيث يكون الوزراء أمام بعضهم البعض أما فـي حالـة إجتماع رؤساء الجمهوريات فتكون المائدة مستديرة حتى لا يكون لها رأس وما دون ذلك من إجتماعات فتكون على شكل صالة المسـرح. أسـئلة " كـريم " المتتالية والتي لا تنتهي كانت دائماً تثير تبرم المشرفين والطلبة فهـو مسـافر للغرض الرسمي من الرحلة وليس لأداء مهام شخصية جانبيـة كمـا أن بـاقي الزملاء إن لم يكن غرضهم التسوق كان لهم هدف آخر وهـو زيـارة أمـاكن " البورنو Porno " أي أماكن إستعراض العُري وكانوا يُفضلون الذهاب فـي الصباح ويخافون الذهاب في الليل ولعلهم سمعوا من ذويهم بعض التحـذيرات مثلما فعلت " سعاد " مع " كريم " لأنها كانـت فكـرة سـائدة فـي منتصـف السبعينيات وهي الحذر من هذه الأماكن. المشرفون وراءهـم أعبـاء الشـراء للأسرة فالأمر لا يخلو من وجود من له إبنه يجهزها أو عروس يشتري لها ثوب زفاف أو زوجة مريضة أو أم لابد أن يعرض أشعاتها ورسـوم قلبهـا علـى الطبيب ثم يشتري الدواء فمصر في ذلك الوقت الأغلب أنها لم تكن فـي حالـة

إنفتاح أو لعلها كانت في بدايته. كان " كريم " يقف متعجباً من شدة لهفة زملاءه وإهتمامهم " بالبورنو " وربما مرجع ذلك في أنه لم تكن لديه نفس اللهفة، لأنه تعلم في مدارس أجنبية فيها الإختلاط من البداية بين الصبيان والبنات ثم أكمل تعليمه بالجامعة الأمريكية دون أن تدفع له " سعاد " أي شيئ بسبب تفوقه. لم يكن عنده هذا التركيز واللهفة الشديدة على رؤية أجساد النساء فقد تربى سنوات عمره بجوارهن.. أيضاً كان نوع الدراسة في مادة الأحياء في مدرسته الأجنبية التي يتعلمون منها ويدرسون فيها الجنس كعلم بحرية كبيرة وكذلك بالنسبة لدراسته لعلم السلوكية في الجامعة حيث كان الأساتذه يتعرضون فيها للغرائز والدوافع الجنسية ببساطة ووضوح.. لكل هذه الأسباب حدث الصراع بين الدفعة بمشرفيها وبين إينها فإتخذوا منه مادة للسخرية والتهريج على شخصه الجاد أكثر مما ينبغي وأحياناً ما كانوا يتهمونه بنقصان الرجولة رغم الشارب الصغير الذي يحرص على تسويته وفي مرحلة تالية حاولوا إيذاءه فبعد أن يدخل لينام يقفزوا له من الشُرفة ويصرخوا بجوار رأسه فيصحوا منزعجاً أو يقطعوا عن حجرته النور ولما لجأ إلى المشرفين بالشكوى كان المشرفون مؤهلين لعدم إستساغة تعطيله لهم عن ممارسة التسوق وكنا في زمن إنغلاق أو لعله كان بداية الإنفتاح وكانت مصر فقيرة في إستيرادها للبضائع من هنا كان إهتمام المشرفون بتخليص تلك المهام الصغيرة والنتيجة أنهم أهملوا شكواه بينما إزداد الزملاء في التطاول عليه ولم يعد في أفواههم كلمة إلا عبارة " إسكت أحسن لك لنتاويك هنا " مع تكرار هذه العبارة وتغاضي المشرفون عن شكواه مما أشعره أنهم ليسوا في جانبه حدث له نوع من الإحساس بالوحشة مع الشعور بالغربة مما جسد عنده الإحساس بالقلق الذي هو مكون من مكونات شخصيته تذكر له " سعاد " عندما كان تلميذا في المرحلة الإعدادية وأراد أن يغير نظارته حسب رأي الطبيب فأمهلته "سعاد " أسبوعاً واحداً لتكون جاهزة إلا أنه بكى بكاءً شديداً وراح يشكو شكوى مريرة من أن " سعاد " لا تستجيب بينما

الأمر يخص عينيه تتذكر في مخيلتها وتسمع صوته حتى بعد هذا العمر وهـــو يقول " دول عينيَّ يا عالم.. دول عينيَّ يا عالم " القلق وقلة الصبر مكون رئيسي من مكونات شخصيته والإنسان لا يتغير من عمر سبع سنوات إلى عمر سبعين سنة... ولما شعر " كريم " في رحلته بالوحده حتى نخاعه ولم يجد له من معين أو متفهم والإختلاف بينه وبين الآخرين يزداد إتساعاً لم يكن أمامه من بد إلا أن يتفتق ذهنه على أن يطلب حق اللجوء السياسي كما تعلم من كتب السياسة التـــي درسها عند وصولهم إلى ألمانيا وبعد ليلة لم يستطع أن يُغمض له جفن فيها من مضايقات الزملاء كما أنه لم يتعرف على من فعل ذلك على وجه التحديد فقـــد إختفى كل ما معه من نقود وإن أبقوا له الحافظة بكل ما تحوي من أوراق وفوق هذا هو في الأصل ركب الطائرة مُجهداً من كل شيئ وبلا توصيات عليه وبـــلا معارف في كل بلد يرحلون إليها فكان طلب اللجوء السياسي هو الحل.. قبل أن تغمض " سعاد " عينيها وتفتحها بقدر لا يستهان به من ألم الذكرى كان الهاتف يدق دقاً متتالياً وكان الفجر لم يبزغ بعد. لقلبها دوياً لم تستشعره من قبل وضعت يدها على قلبها وضغطت.. تمنت لو تستطيع أن تحتوي قلبها في قبضتها لتسكت دقاته المُفزعة.. تريد أن تذهب إلى دورة المياه.. تشعر بعطش يذبحها.. كل هذا مع تهالك في أعصابها حتى الوجع والهاتف يدق بإصرار كأنه يقول لها " لـــن أتوقف عن الدق قبل أن ترفعي البوق هيا.. هيا إقتربي إلتقطي السماعة.. قربيها من أذنك " وكانت تستقبل صوت إبنها ولما إطمأنت ضاعت رغبتها في الذهاب إلى دورة المياه وتلاشى العطش تناولت الوسادة بقوة تضعها خلف ظهرها وهي تسأله عن أحواله وعمله........ غامت الدنيا في عينيها. عمودان مـــن النـــار يخرجان من أذنيها.. الحوائط تنطبق عليها وتساءلت هل هي في حجرة نومها أم في لحد لها.. وهي نفسها موجودة في أي حفرة هل هي عند أهل أمها في مدافن المجاورين؟ أم في مقابر أهل والدها في بلدته؟ أين هي، تعيش أم ميتة كان من الصعب عليها أن تعرف الرد على أسئلة كثيرة تصطخب في رأســـها الضـــاج

وترتسم على وجهها الذي ضاعت ملامحه والمطبوع أمامها في المرآة .. هل هي حية أم ميتة وهو يقول لها " يا أمي لقد قررت أن أتنازل عن الجنسية المصرية واريد أن أبعث بهذا المعنى إلى الجهة المختصة ".

*****

شعور بالخوف يجتاحها وكأن كل الناس من حولها ينظرون إليها بل ويدققون فيها حتى إبنتها " منى " في غدوها ورواحها تعطيها نفس الإحساس وكأنها تقول لها " هذه تربيتك وتنشأتك .. ها هو يطلب أن يتنازل عن الجنسية المصرية ". لحظات كثيرة مرت عليها كرهت فيها إبنها.. كيف يجرؤ على هذا المطلب مجرد التفكير فيه ليخلف لها العار! كيف تعيش؟ ولها إبن يتنازل بإرادته وبكامل رغبته عن جنسيته المصرية " هذا الأرعن ألا يعرف أن الجنسية المصرية تاج والأسوأ يطلب مني أن أدله على الإجراءات المتبعه ليبعث إلى مصر ويقول إنه تنازل عن جنسيته في مقابل الجنسية الأمريكية.. يا لعار ما يطلب ".. الغُصة تمسك بحلقها لا تستطيع أن تبتلعها بالماء ولا تستطيع أن تتخلص مما في معدتها.. أشواك لها مرارة تبدأ من حلقها وتنتشر في فمها ثم تتسرب إلى بلعومها لتحول معدتها إلى " جورة نار ".. كانت تعرف أنها إذا شربت جُرعة لبن ستسريح ولكنها لم تفعل وكأنها تستكثر على نفسها أن تنعم بجُرعة الحليب من بلدها " مصر " في مقابل موقف إبنها.. عاشت كأنها تستكثر أن تستنشق حتى الهواء. تردد لنفسها في صمت " أنا لا أستحق.. أنا لا أستحق خير هذا البلد فكيف يخرج إبنٌ لي في الحياه يطلب أن تُنزع عنه جنسيته المصرية ".. ثلاثة أيام بلا طعام ولا حتى الماء كأنها تعيش أيام المأتم الأولى وبعد الثلاثة أيام خرجت من حجرتها وقبلت أن ترد على رنين الهاتف كانت إبنتها " منى " تسأل عليها ولم تنس بحكم العادة أن تُسمعها بعضاً من عباراتها السابقة مثل " أنا قلت ماما عندما حالة إلهام جديدة ها.. ها.. ها " حمدت الله أن إبنتها كان تفكيرها ينحصر في فكرة الإلهام.... " رباه كيف يفكر! وكيف يقبل

بهذا التفكير الخائن " بدت كأنها وقعت في يم عميق بلا قرار مهما جاهدت على أن تخرج منه فليس هناك بصيص أمل في نجاه بلا إرادة وبحركة كأنها أوتوماتيكية أدارت مؤشر الراديو الموجود بجوارها على الوسادة قرب رأسها وسمعت تلاوة للآية " لولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لفسدت الأرض " ظلت تسمع ودموعها تسح كأنها سيل فقامت تلتقط ورقاً تجفف أنفها وعيونها بعدها بدأت تخلع ما عليها من ملابس وتحت الماء البارد كانت تقف وهي تؤكد لنفسها إحتمال أن تصعد روحها إلى بارئها فلتكن طاهرة بريئة من فكر إبنها ومطلبه العار، تحت الماء تخلصت من الكثير من أوجاع الموقف وإن بقيت تردد الآية التي سمعتها " لولا دفع الناس بعضهم لبعض لفسدت الأرض " وتساءلت هل كان للناس يد فيما يطلبه إبنها؟ ولحظة بصيرة هبطت عليها لتقرر بعدها أن قسوة الناس في معاملته منذ كان الأول على دفعة كاملة بل لم ينجح أحد غيره وعاملوه بكل ذاك الإهمال الذي كان حين وضعوه في قسم الأرشيف وأخذوا من لم يستطيعوا حتى مجرد النجاح في المواقع الرئيسية ومنها مكتب الوزير نفسه لم يكتفوا بذلك إنما كرهوه أيضاً في الرحلة لأنه كان مسافر للغرض الرئيسي من الرحلة ولم يلتفت إلى أنهم كان لهم أغراض أخرى من السفر غير التعلم. ولأول مرة في محنتها هذه تحس هول ما كابده إبنها من النسيان والنكران والحيرة التي عايشها همست بينها وبين نفسها بصوت مسموع " يا حبيبي يا ابني " إحساسها الخالص أنهم آلموه إلى حد الكُفر بأي قيمة أو إنسان وكان من المفروض أن يساندوه.. تعي أنه بعد أن سافر وجد هناك من يقدرونه ويُحسنون معاملته لأنه في يوم طلبها كعادته وقال لها في معرض حديثه إنه طلب أن يترك عمله في مكتبة الجامعة التي يدرس بها في أمريكا حتى يتفرغ للإعداد لجمع مادة تساعده في بحثه وعلى ما تتذكر أن المادة التي يريد أن يحصل عليها ستفيده في الكتابة عن نظرية جديدة في الحكم حين طلب منهم ذلك تمسكوا به أكثر ووصلوا معه بعد مناقشة قصيرة إلى إعطائه أجازة لمدة

ستة شهور بنصف أجر ليتفرغ لبحثه ثم يعود ليستأنف العمل معهم مره أخرى! والأكثر من هذا أن مدير المكتبة الذي قدم له هذا العرض كان يهودياً!! وكـــان الإحتمال الأكبر أن يستغني عنه بمنتهى البساطة وبالذات مادام ســيكتب نحــو نظرية إسلامية جديدة في السياسة أو الحكم إلا أن الذي حدث هو العكس تمامــاً وأيقنت أن كل ما في إبنها من خصال خلقية ومنها ذلك القدر من القلــق الــذي يصطخب دوماً في داخله كان بالنسبة للأمريكيين مزيه تجعلهم يتمســكون بــه أكثر.. هكذا هو خُلق قلوقاً حتى أن عمه كان يخلع عليه إسم " كريم قلقان " كم عانت هي نفسها من خصلة القلق المتمكنة منه فلم تكن تستطيع أن تستمهله فــي أي طلب له خاصة إذا كان هذا الطلب يتعلق بشراء كتاب أو قاموس أو نظــارة طبية جديدة وهكذا كان في أمريكا في عمله في المكتبة حيث تُغلق أبوابها فــي الخامسة ويبقى هو إلى السابعة يُرتب المكان ويتأكد من حركة إستعارة الكتب أو شرائها فأحبوه وقدروه وإزدادوا له إحتراماً وتمسكاً وكأن هذا القلق الذي يعتمل في داخله ظاهرة صحية تدعوهم إلى التمسك به وتساءلت " هل النــاس هنــاك غير الناس هنا في وطنها ولماذا وُجد هذا الإختلاف " وعرفت ببساطة وبديهيــة أن كل الناس هناك يتمتعون بهذا المستوى من الإحساس بالعدل فلابد أن رئيسه اليهودي يُعامل نفس المعاملة ممن يرأسه ومن يرأسه يُعامل بتلك الطريقة مــن الأعلى مرتبة وهكذا.. عالم يتمسك بتقدير الآخرين في سلسلة تبدأ من الصــغير إلى الكبير.. هل تسميها عدالة أم تسميها ديناً أو تسميها وعيــاً أو لعلــه العلــم والمعرفة الذي يجعلهم يُقدرون الآخرين ليصبح التقدير الواجب ديناً لهم وشعرت بلا أدنى تردد أن العلم يأتي أولاً ثم يأتي الدين أي دين ليضع القواعد والنواميس للتعامل بين الناس ولابد أن إبنها عايش هذا المعنى هنــاك. عــايش الشــعور بإنسانيته بل بتميزه فأحب تلك البلد وتمادى في حبه إلى الحد الذي أراد بــه أن ينزع عنه أي تعريف له إلا أنه أمريكي!! خرجت العبارة من فمها " رباه كــل

هذا لا يُبيح له أن يتنازل عن جنسيته ألم يولد هنا.. ألم يكبـــر تحـــت ســـماء "مصر".. ألم يتعلم هنا ".

*****

الجزء الثانــي

وقفت كأنها تستعد تماماً " لإقامة فرح "وكثيراً ما دعت ربها وهي واقفة أن تكون سفرتها التالية" للحج "كأن لا بعد السفر إلى أمريكا والعودة منها شيئ إلا حج بيت الله الحرام. وكثيراً ما ضحكت منها " منى " وهي تُعلق عليها والأيــام تجرى سراعاً وهي أكثرت من سؤال أصحاب المحال الذين يأخذون منهــا مــا ترسم فكانوا ينصحونها بعمل ما يشتهيه إبنها فلابد أنــه فــي شــوق " للجبنــة البيضاء " و" البسطرمة " التي لا توجد في أمريكا " واللــب والســوداني " ولا تنسي " البسبوسة " وأيضاً " شاي التموين " فهــو الــذي يضــبط الــدماغ... نصائحهم لا تنتهي " لسعاد " بدفع الكهرباء والتليفون وتجديد رخصة عربتهــا حتى لا تدفع بالغرامة... أوصت إبنتها بحُسن معاملة إبنة عمها الست " زكية " التي إستدعتها لتعيش معها لحين عودتها كانت " منى " تحبها فكثيرا.. فكثيــراً ما حكت لها عن حياتها والأزواج الذين إرتبطت بهم وأسباب تركها لهم فكانــت الست " زكية " تسليها وكانت تُضحكها أيضاً وهي تقص عليها مدى عنادها في شبابها وتحديها لكل من يحاول أن يُملي عليها أمراً رغم أنها بطبيعتهــا طيبــة، الواقع أن الست " زكية " كانت وحدها متفردة بطبع العنــاد الشــديد والــردود الفورية حتى أنه كان لها مثل تقول فيه " اللي ما يرد جوابه السيف أولى بــه " كناية عن حتمية الرد فكانت بمقاييس ذلك الوقت متُفردة في طبيعتهــا.. أنهــت " سعاد " جميع ملاحظاتها وتنبيهاتها الخاصة بإبنتهــا " منــى " و" شــادي " حفيدها.. تركت لها خمسمائة جنيه لا تستخدمهم إلا للضرورة.. أوصت عليهــا بعض الجيران على قلة معرفتها وإندماجها بالجيران.. أفهمتها أنه إذا حدث أي طارئ تستطيع ان تذهب للمحال وتأخذ من ثمن لوحاتها... وحانت ساعة السفر

وطائرة أمريكا لا تتحرك إلا بعد منتصف الليل..... وهنـــاك ســـلمت حقيبتهـــا الأولى المملؤة بالأطعمة والثانية ببعض الكتب التاريخية والفلســفية والفكريـــة لكُتاب معينين طلبهم " كريم " وبجوارهم في نفس الحقيبـــة وضـــعت ملابســـها والتي تتسم بالبساطة الشديدة جداً فلم تكن في يوم ما ترتدي إلا ما هو بسيط في مظهره وفي سعره ليس لأن إمكاناتها لا تسمح بأكثر من هذا ولكن لأنها حقيقـــة تعرف أنها ليست في حاجة لما يُظهرها فانتظام خلقتهـــا وخصوصـــية طلتهـــا تمنحها أكثر مما تصنعه الملابس الغالية..... وكان الوداع حـــاراً منـــذ لحظـــة وجودهم في شقتها وهي تُغلقها كانت تقول لابنتها " ألم أقل لك أن الحياة جُلبـــت على فراق إما بالموت أو بطبيعة الدنيا نفسها " فكانت إبنتها تُجيبها بنهنهـــات أو أنفاس مُتقطعة تؤكد صعوبة اللحظة وكانت أحياناً أخرى تُضيف لها " وكنت يا أمي توصيني أن أترك ذكرى حسنة مادام الأمر الطبيعي إلى فـــراق " فكانـــت " سعاد " تنظر إليها شبه عاتبة من كثرة ما أوصتها ولم تستجب لها ثم سرعان ما تنشغل بإنزال " الأكباس " من لوحة الكهرباء وفتح باب الثلاجة وقطع الماء تماماً ثم تدلف خارجة وتكون قد سبقتها " منى " وإبنها. بـــين دعـــوات الســـت " زكية " وهي تقرأ " الفاتحة " " وقل أعوذ برب النـــاس ".. إحساســـهم أنهـــم قطعوا الطريق أسرع مما توقعوا إلى أن إبتعدت " سعاد " داخلـــة فـــي عمـــق المطار وأسياخ حديد السور تفصلهما.. " سعاد " أصبحت في الداخل في طريقها إلى الطائرة و" منى " وإبنها والست " زكية " في الخارج يسحون من عيونهم.. علا صوت"سعاد " وهي تقول لإبنتها " مش عايزة حاجة معينة. ما نفسكيش في حاجة " ثم نظرت إلى إبنة عمها الست " زكية " وهي تقول بصـــوت مرتفـــع " دواء الركُب أنا فاكرة كويس " وتوارت و" منى " تقولها عالية ترجعي لنـــا بالسلامة ".

*****

ثاني مرة في حياتها تركب الطائرة. المرة الأولى كانت " لكـــريم " إلـــى ألمانيا أيام رحلته مع الخارجية. لم تشعر بأي نوع من الخوف من فكرة الطيران فالأفلام السينمائية على قلة مارأت والتليفزيون والمجلات التي كانت تتصـــفحها وهي تعرض لوحاتها في المحال جعلتها كأنها سافرت مئات المرات وشـــاهدت مئات البلاد. فقط رهبة ما تملكتها من كونها موجودة داخل أنبوبة بين الســـماء والأرض ولكن ما أن يتجسد وجه إبنها في مُخيلتها إلا وتتضاءل أي أفكـــار أو مخاوف من داخلها.. تستعجل الوقت والساعات الإثنى عشرة لتصل إليـــه " يـــا حبيبي يا إبني " وغفت غفوة قصيرة إستيقظت بعدها وبدنها ينتفض تلفتت حولها كان عن يمينها مشهد بزوغ الفجر وعن يسارها جارها يغُط في نومه، الطـــائرة كلها في حالة من الصمت التام حتى المضيفات والمضيفين لم يظهر لهـــم أثـــر كأنهم أخلدوا إلى النوم هم الآخرون.. إذاً من الذي مس رأســـها بحنـــان وهـــو يوشوشها " أخيراً وجدتك".. " يا إلهي " خرجت من بين شفتيها فإستيقظ جارها وهو يقول " I Beg your Pardon Mme " " أسف هل تكلميني ســـيدتي " فإعتذرت له بدورها وتظاهرت بالإبتسام ورباطة الجأش ثم أدارت وجهها بعـــد أن عاد جارها إلى نومه تتلفت يميناً وشمالاً علها تلمح ظل أي مخلوق وضع يده على رأسها إلا أنها لم تجد أحداً. الطائرة بحالها تغُط في نومها فإستدارت بهدوء ترقب الفجر من النافذه.. تذكرت على الفور أنها يجب أن تصلي فـــدخلت فـــي صلاتها مطمئنة تعايش لذة وحقيقة أنها تؤدي فرض الله حتى وهي سابحة بـــين السماء والأرض وعادت تنظر في ساعتها. وفجأة أُضـــيئت الطـــائرة وبـــدأت الرؤوس التي تراها على إمتداد بصرها تتحرك يميناً ويساراً البعض قـــام مـــن مكانه يقضي حاجة. الأذرع ترتفع إما لتضبط مفاتيح الإضاءة في سقف الطائرة أو تُعدل من إتجاه فتحة التهوية وبما يُشبه الهمس كان ميكروفون الطائرة يعلـــن عن موعد الهبوط في مطار " باريس " " ترانزيت " لمـــدة ســـاعتين ويتمنـــى

الطيار للسادة المسافرين فترة سعيدة يقضونها في المطـــار وأيضـــاً يشـــكرهم ويودعهم لأن زميلاً غيره سيُكمل بهم الرحلة إلى الولايات المتحـــدة.. أُطفئـــت الأنوار وعاد كل راكب إلى مكانه ورُبطت الأحزمة وبدأ الهبوط.. نبهها جارها لتنظر من النافذة فرأت مدينة النور تسبح في النور فخرجت من شفتيها "يا إلهي" فإلتفت الراكب وهو يقول بإنجليزية واضحة " هذه الكلمة أريد أن أعرف معناها فقد قلتيها قبل ذلك وأنا نائم " ضحكت بصوت مسموع وهي تقول له " إنها نداء لله ".. فسألها هل أنت أسبانية فأجابته بلا فقال لها " إذاً أنت من الهند " فأجابته بلا.. بعدها قالت له بأنها مصرية. تهلل وجه الرجل وهو يؤكـــد أنهـــا تُشـــبه " نفرتيتي " الملكة الفرعونية ثم يأسف كيف غاب عنه هذا الفهم فقتامة عيونهـــا وشموخ أنفها بل لون بشرتها فيه من خصائص الفراعنة.. ضحكت راضية عن التشبيه وهو يكلمها كانت تفهم كلامه بصعوبة فإنجليزيتهـــا " مكســـرة " كمـــا يقولون إلا أنها طلبت من إبنتها أكثر من مرة معانٍ كثيرة للكلمات التي يُحتمـــل أن تصادفها أو تستعملها كما أن الراكب حـــاول أن يُبســـط مـــا يقـــول قـــدر مستطاعه...كانت أثناء الحديث تختلس النظر والطائرة تهبط لترى " بـــاريس " من علو.. جوهرة.. عقد من الماس يمسك الأرض من يمينها إلى شمالها " يـــا إلهي " إبتسم الراكب وهو يهز رأسه فرحاً بأنه فاهم للكلمـــة إلـــى أن لامســـت عجلات الطائرة أرض المطار.. وجرت.. جرت حتى توقفت فهـــب الركـــاب واقفين في شبه تسابق لملامسة أقدامهم أرض " باريس ".. نزلت مع النـــازلين ومع اللافتات والأسهم وسير الناس كانت تمشي.. تتجول في المنطقة الحرة من المطار. تعرف أن عليها أن تمضي ساعتين إلى أن تستعد الطائرة مرة أخـــرى للإقلاع... مبهورة من نوعية الذوق المعروض. رائحة القهوة تقـــتحم صـــدرها وقررت أن تطلب قدح قهوة بعد أن تنتهي من جولتها فقهوة الطائرة التي يمرون بها بين كراسي الركاب لا رائحة لها لم تشمها.. دارت هنا وهناك في المكـــان

فإما أن تطغى رائحة القهوة الفرنسية أو تفوح رائحة العطور الفرنسية التي لا بديل لها.. أوصلتها أقدامها داخل منطقة شديدة الإتساع. تلفتت لتعرف أنها لبيع العطور وربما كانت هي مصدر هذه الرائحة الموجودة في المكان كله على إتساعه. وهي تمشي قدم لها بائع زجاجات صغيرة هدية أخذتهم وخارج المكان وأمام " فاترينة " معروض فيها " شنط ومناديل " للسيدات كانت تتوقف تفتح إحدى الزجاجات من العينات الصغيرة.. كان وجهها لزجاج" الفاترينة " وهي تُبحلق باسمة بينها وبين نفسها بإعجاب ويدها مازالت تعبس بغطاء الزجاجة إذ لمحت منطبعاً على الزجاج الذي أمامها ظل لرجل.. فتحت عينيها على وسعهما مشدوهه هذه الهيئة كأنها تعرفها..الوجه رغم أنه خلفها وهي تراه في الزجاج من أمامها إلا أنها تحس أنها تعرفه ووضعت كفيها على عينيها وهي تهمس " يا إلهي " وهمت أن تستدير كانت الزجاجة قد وقعت منها على الأرض ومعها حقيبتها.. مالت تأخذهم ولما رفعت وجهها وإستدارت لترى الواقف وراءها لم تر أحداً البته تلفتت كثيراً لأن ما رأته كان الوجه والهيئة التي ترسمها في لوحاتها ولمدة سنوات عمرها.. تساءلت " هل أنا مُتعبة من الرحلة.. هل فقدت أعصابي لأني تركت بيتي وايامي وحياتي في مصر.. ولكني مشتاقة لرؤية إبني ولكني أُقسم بالله أيضاً أن ما رأيته مطبوعاً أمامي في زجاج " الفاترينة " كان نفس الوجه والرأس والجسد الذي ظللت أرسمه أو ترسمه يدي دون إرادة مني عشرين سنة " إنتبهت مذعورة تلمح ساعتها.. بقي لها أقل من عشرة دقائق على إقلاع الطائرة.. جرت في كل إتجاه.. حاولت أن تلمح أحد الركاب الذين معها على الطائرة لتمشي خلفهم.. تتبعت الأسهم.. ووقفت على المشايات الكهربائية. الخطأ أنها لم تعرف رقم البوابة التي خرجت منها إلا أنها بالحاسة وبقوة دفع كل شيئ.. الركاب.. السهام.. المشايات والتلقائية الفطرية أوصلتها إلى المكان الصحيح ووضعت قدمها داخل أول الطائرة وهي تشعر أنها فعلاً تسير في

أنبوبة لا تزيد عن أنبوبة معجون أسنانها إلى أن وصلت إلى مقعدها "وإنهبدت " قاعدة وما أن إنغلق باب الطائرة وجرت مرة أخرى قبل أن ترتفع في الجـو إلا وكانت " سعاد " في حالة من الإسترخاء التام إلى أن هبطت الطائرة مرة أخرى في مطار " كنيدي " قام الركاب أجمعهم في لحظة وقـوف الطـائرة وهمّـوا للخروج.. لم يكن في يديها حقائب اللهم إلا حقيبة يدها. أول إنطباع حُفـر فـي صدرها هو الإحساس بالعظمة.. عظمة الأرض التي تقـف عليهـا.. الأعـلام الأمريكية مُتصدرة أي بوابة أو ممشى وسارت كثيراً صعدت سـلالم ونزلـت أخرى وعند سلم معين إنقسم الركاب إلى طابورين واحـد مخصـص لحـاملي الجنسية الأمريكية وواحد للأجانب كافة وهناك وقفت طويلاً حتى تعبت.. حدثت نفسها " في مرسمي كنت أقف بالساعات لا أتعب ولا أملّ أما هنا فلـي قـرب الساعة والنصف إلا أنني أشعر بمنتهى الإعياء بحق " هناك كان لها لذة العمـل والخلق أما هنا فرويداً رويداً ملأها الإحساس بالدونية لماذا؟ لأن طابور حاملي الجنسية الأمريكية إنتهى بأجمعه في أقل من الثلثي ساعة أما الأجانـب فالأمـل ضعيف والمنتظر من الزمن كثير إلى يأتي عليها الدور. وياليته ما جاء فببساطة شديدة إعتقدوا أن كيس الملوخية الناشـفة الـذي تحملـه عبـارة عـن نبـات " القات اليمني " أو على الأرجح هو نبات " البانجو " أما الحمام المحشي الذي جمدته في الثلاجة والذي ذاب الثلج من حوله وصار ليناً بعض الشيئ ويبدو أن العالم الغربي لا يعرف أكل الحمام بكل أنواعه وربمـا لا يسـتبيحه فالدهشـة والإستغراب كانت في عيونهم من صغر حجم الطير كنوع يؤكل فلا هو دجاجة ولا هو أرنب ولما تطوع أحد الركاب من خلفها ليقول في كلمات أنـه الحمـام المحشي كانت الطامة الكبرى والتوجس منها شخصياً وإسـتدعى ذلـك الأمـر بإعدامه على الفور... أما " عرق البسطرمه " فقد نادوا الكلاب البوليسية لتشمه وتشممتها هي الأخرى. الكلاب تدور حواليها وتنفذ من بين ساقيها ثم تعود مرة

أخرى إلى "عرق البسطرمة ".. أما بالنسبة للعسلية ولُقمة " الإفطار الخضراء " فقد طلبوا تحليلها... تلفتت يميناً ويساراً لم تجد من ينجدها.. أكثر من مرة حاول ضباط الجمرك سؤالها إلا أنها إمتنعت عن الكلام تماماً وكأنها بموقفها هذا إنما قررت أنه إذا كان ولابد أنهم سيخرجون روحها حسرة على ثمن ما تكبدته من مصاريف " فيكفي ثمن العشرين زوج حمام المحشي فريك ياربي و.. و.. وإذا كان ولابد فليكن ولكن بكرامتي " فلم تضعف إرادتها وتبكي.. لم تتوسل لأي موظف إنما وقفت متصلبة تقدم جواز سفرها لكل من يريد الإطلاع عليه.. إقترب منها أحد الركاب المسافرين وأفهمها أنه عليها أن توقع على ورقة إعدام كل ما معها وعليها كذلك أن تكتب إسم وعنوان من ستُقيم عنده..... إنتهت من كل شيئ وإستلمت الحقيبتين والدم يهدر من رأسها إلى أخمص قدميها في عصبية ظاهرة تقلصت يداها على الحقيبتين وحملتهما بمفردها نظرت في ساعة معلقة لتعرف أنها بقيت أكثر من الساعة في عملية التفتيش وحدها.. لم تفتح فمها بكلمة واحدة. تريد فقط أن تصل إلى باب الخروج.. نست أن تأخذ " ترولي " جرار لتضع عليه الحقيبتين من شدة عصبيتها.. مشت فإقترب رجل منها تناول الحقيبتين ووضعهما على " الترولي " شعرت بأنها تخلصت من ثقل كبير ودون أن تتكلم أراحت رأسها على كفيها الموضوعين على يد التوللي وإنخرطت في بكاء شديد حتى أن دموعها كانت تتساقط على الأرضية تحت قدميها.. أفاقت على من يرفع رأسها من جبهتها فرفعتها وسمعته يقول " لا تتصرفي كالأطفال إنهم للأسف لا يفهمون شيئاً " رفعت عينيها للحظة في وجهه ثم أرخت رأسها تبحث في حقيبتها عن منديل فمد يده لها بمنديل لا إرادياً كانت تتناوله منه ثم كأن الدنيا وقفت فجأة. فتركت حقيبتها تقع منها على الأرض وبالتالي تبعثر كل ما بداخلها حتى جواز سفرها وعنوان عم أولادها وإسم المنطقة التي ستذهب إليها تبعثرت حتى نقودها ومازالت شاخصة إليه..

بعربية صحيحة كان يقول لها " هل ضايقتك في شيئ.. هل ضاع منك شيئ.. أردت فقط أن أساعدك منذ البداية لأني كنت خلفك في الطابور.. لقد ركبت من باريس أنا الآخر " كل هذه العبارات ولم تنطق بكلمة واحدة أو حتى تحاول ذلك.. عينيها فقط عليه وإن بقي بهما آثار من دموعها... مال الرجل يلملم لها أشياءها التي وقعت.. كل ما زاد عليها أنها فتحت فمها وكأن فكها السفلي سقط منها وأيقنت أن هذا الرجل هو نفس الوجه الذي كانت تخطه في لوحاتها.. له نفس اللفته.." رباه لو كانت اللوحات تنطق لشهدت على ما أري " قدم لها حقيبتها بعد أن ملأها بما تبعثر فلم يكن أمامها إلا أن قالت مقدمة نفسها " سعاد طلعت " فمد يده يسلم عليها وهو يقول " يوسف إيجيه " ثم سألها هل تعملين؟ كانت كأنها لم تفق بعد من المفاجأه ومازالت شاخصة إليه تتحقق من ملامح وجهه إذا حرك رأسه تُبحلق في فوديه إلى رقبته إلى عرض منكبيه أفاقت وهو يهمس " عيونك جميلة أوحشتني العيون السود " أرخت عينيها وهي تقول " سألتني هل أعمل " أشار لها برأسه فإنفلتت خصلة من شعره العسلي اللون.. أزاحها بيده وردت عليه " طبعاً أنا أعمل برسم اللوحات " إبتسم بنوع من الثقة وهو يقول " لقد خمنت أن يكون لك علاقة بالفن ".. بادرها " لهجتك مصرية " قالت " أكيد أنا مصرية وصعيدية كمان " مد يده يصافحها فتصافحا بقوة وكلا منهما يشد على يد الآخر إلى أن إنفرجت أساريرها فقال بعفوية " أقدر أعرف نفرتيتي نازلة فين " أشاحت بيدها وهي تقول " نفرتيتي تاني ".. نظرت إلى ساعتها بنوع من اللهفة وعرفت أنها تحدثت مع هذا الرجل بما يقارب العشر دقائق رددت بينها وبين نفسها " إن لم يكن عم أولادي في إنتظاري فسآخذ " تاكسي " ومعي العنوان كما أكد لي حسن " بقي واقفاً بجانبها وهي تنظر يميناً ويساراً ولا أثر لعم أولادها " حسن " تقدمت خطوتين ثم خطوتين إلى أن خرجت من حدود المطار إلى ساحة سألته عن " تاكسي "

أوصلها إليه.. وهما يتكلمان ومازالت العربة " الترولي " معهما ورغم الكبد الذي عايشته ونقودها التي سفوحها على الأرض إلا أنها مع خطواتها الأولى في الولايات المتحدة ملأها الشعور بمعنى القوة والجمال والبراح.. مد لها يده ببطاقة عليها إسمه وعنوانه مكتوبة بالإنجليزية فلم تقرأ شيئاً إنما أسقطتها في حقيبتها... ودعها بإماءة وهو يهمس " سأنتظر مكالمتك ".. ساعدها في حمل الحقيبتين وأكد لها بأنه سعيد برؤيتها وأغلق باب " التاكسي " عليها.

•••••

صحيح أنها كانت مفتوحة العينين ترى من نافذة التاكسي مشدوهه الطرق السريعة والواسعة واللافتات المغسولة الواضحة بين كل حوالي خمسين متراً تجد لافته تدلها على الطريق إلا أن الإحساس بالألم كان يغلب عليها من عدم مجيئ عم أولادها.. " كيف هان عليه أن لا ينتظرني في أول مرة أسافر فيها إلى أمريكا ".. صحيح أنه نبهها إلى أنه يمكن أن يحدث ذلك إلا أنها لم تتصور مع ذلك أن لا تجده.. الطريق طويل.. تنظر إلى السائق في المرآه فتجده منهمكاً في الإنتباه إلى الطريق.. سألته عن إحتمال موعد وصولها للعنوان طمأنها أنه ليس أكثر من نصف ساعة أخرى " يا إلهي كم سأدفع ثمناً لهذا المشوار " كان قد نبهها الرجل شبيه المطبوع في لوحاتها أنه يمكنها أخذ " الأتوبيس " إلا أنها فضلت أن تتصرف بحرفية ما قاله لها عم الأولاد.. الآن لا حل أمامها ماقد حدث قد حدث.. رغم كل ما يدور في سريرتها إلا أنها لم تغفل عن مشاهدة الطريق الواسع والبيوت في بعض المناطق تماماً كما عرفتها على شاشة التليفزيون همست " كيف هان عليه أن يتركني في هذه الغربة وحيدة لقد أصبح أمريكياً عملياً لماذا يأتي كل هذا المشوار ليعود إذا كانت العربة الأجرة تؤدي نفس الغرض أو لعله العمل فإدارة مستشفى كاملة شيئ ليس بالهين " مرات كثيرة ألمح لها أن الأجور في هذه البلاد مُجزية إلا أنهم يتطلبون صحوه وأداء

كاملاً لا ثغرة فيه في أثناء ساعات العمل.. " يعني يا سعاد لم يستطع أن يستأذن في ساعة لوصول زوجة المرحوم أخيه " وكانت ترد على نفسها بأن حضوره سيكون في ساعة وإنتظاره لها قد يستغرق أكثر ثم العودة في ساعة أخرى. في طبيعتها التي جُلبت عليها أن تلتمس الأعذار للآخرين وعلى الفور كانت تُلقي باللوم على إبنها " كريم " لماذا لم يأت ليأخذها ولكن شعرت بالشفقة تترى في قلبها على إبنها وهي تُقرر أنه ولابد يبذل جهداً مُضنياً ليحصل على أعلى الدرجات التي يمكن أن تعفيه من جزء كبير من مصروفات التعليم فما بالك بجهد الحضور إلى المطار ثم العودة في نفس اليوم " يا حبيبي يا ابني " رجعت بظهرها على مقعد العربة الخلفي وشعرت بالراحة تسري في أوصالها لأنها وقفت مدة طويلة جداً في مقر الجوازات. فتحت حقيبتها وأخرجت البطاقة التي أعطاها لها الرجل وقرأت إسمه "يوسف إيجيه " ثم أسقطت البطاقة مرة أخرى وقد طغت حيرتها من شكل هذا الرجل على أي أمر آخر تراه أمام عينيها فكيف رسمته مرات وهي لم تره من قبل ولم تعرفه يوماً وما هي الأقدار التي جعلتها ترى من رسمته ؟ فكثير من الفنانين رسموا وجوهاً ألفوها من كثرة ما إستحوذت على تفكيرهم وهم في الحقيقة لم يروها ولم يعيشوا الزمن الذي عاشته تلك الشخصيات. كان يمكن أن تستوعب أن يرسم المرء من عقله الباطن الذي هو مخزن للمنسي الذي ضاع في خضم الحياة ولكن هذا الرجل لم تره مُطلقاً " فين مصر من أمريكا " المسافة بينهما لا تسمح بإمكانية أنها رأته أو عرفته في أي من سنوات عمرها.. إنه هو نفسه من عمرها تقريباً فمتى رأته وألفته حتى أنها طبعته في لوحاتها " غريبة الحياة حين تلمس منها اللأمعقول " وفجأة إنحرف السائق بها يميناً.. دخل قلب المدينة وعلى الفور تخللها الشعور بضآلتها بين ناطحات السحاب بل وضآلة كل السائرين والراكبين... إنحرف السائق أكثر من مرة وفي مكان أوله شارع طويل طويل وعلى الجانبين فيلات لها حدائق

صغيرة كان يتوقف أمام إحداها وإستدار السائق بجدية شديدة يُعلمها أن هذا هو العنوان المكتوب في ضاحية " بروكلين " نزلت وفتح السائق مؤخرة العربة وأنزل الحقيبتين على الرصيف. قرأت العداد كان أكثر من ٣٥ دولار وكسور قبل أن تبتلع لعابها كانت تحسب المطلوب بالجنيه المصري " يا إلهي " وهمت بأن تفتح حقيبة يدها إلا ووجدت رجلاً يخرج من حديقة منزله يُقدم لها مظروفاً مكتوب عليه إسمها باللغة العربية تناولت المظروف وأرادت أن تضعه في حقيبتها لتدفع للسائق إلا أنه أشار لها بأن تقرأه على الفور. سحبت الورقة منه كان الخطاب من " حسن " عم أولادها يُعلمها بأنها يجب أن تذهب إلى العنوان الموجود في الخطاب الذي بين يديها وبنفس العربة التي أتت بها وتستريح هناك إلى أن يحضر لها في تمام الرابعة من بعد الظهر وأن هناك ظروفاً إستجدت سيشرحها لها. ذكر لها أيضاً أن زوجته غير موجودة في المنزل لطارئ. قرأت الخطاب مرة ثانية وثالثة وتأكدت من المطلوب منها فطلبت من السائق أن يُكمل بها وإلتفتت تشكر الجار الذي قدم لها الخطاب.. في الطريق سألت السائق عن المسافة إلى العنوان الجديد فأجابها بأنها في الطرف الآخر من الحديقة العامة على بعد ثلث ساعة لا أكثر... ودخلت شقة صغيرة جداً مُكونة من حجرة واحدة داخلها حمام وداخلها مطبخ يأخذ مساحة من الحائط الأمامي موضوع فيه ثلاجة وبوتاجاز وحوض وله باب جرار يُغلق على كل هذه الأشياء.. في مساحة صغيرة يوجد كل المطلوب.. لم تستوعب لماذا هي هنا ولم تتصور أن هذا المكان لإقامتها فجلست ولم تفتح حقائبها إنما جلست على كرسي مُريح بجوار " الكنبة " عبر بخاطرها " الحمام " الذي أعدموه في المطار وهمست " أغبياء " شعرت بالجوع " حتى العسلية أخذوها " لم يمض عليها أقل من النصف ساعة إلا ووجدت من يدق عليها الباب سألت وعرفت قبل أن تفتح بأنه عم أولادها.. جلس إليها بود كبير وبدأ يشرح لها بأنهاستعيش في هذا المكان لأن زوجته

الأمريكية لها إبن عم مريض بالسرطان أتى من أسبوع واحد فقط لتذهب به إلى بعض المستشفيات المعينة حسبما أوصى طبيبه في محاولة لعلاجه وعلى هـذا أصبح البيت غير مناسب وغير جاهز لإستقبالها وخاصة أن زوجته مستغرقة في محاولة أكيدة لإنقاذ إبن عمها... الحقيقة أن هذا الخبر نزل عليها نـزول الصاعقة وبسرعة كانت تتساءل في نفسها هل أنا غير مرغوب في حضوري؟ وهل أُشكل عبئاً إلى هذه الدرجة ؟ تساؤلات دارت في ذهنها كالطاحونة بـلا توقف.. كمن شعر عم أولادها بما يدور في رأسها فحاول إفهامها بمزيد من الشرح حتى لو كان الشرح حساساً ويمسه شخصياً حين أوضح لها أن إبن العم هذا كان خطيباً لزوجته قبل أن يرتبط هو بها ولما تركته بعد أن أحبته هو لم يُعاديها ولم يكرهها بل إنه أوصى بكل ثروته لها بعد وفاته " وهكذا تجدي يا سعاد أننا مُلزمون بالعناية بل وبالتفرغ له وهذ لم يكن في الحسبان حين حددت لك موعداً لمجيئك فأرجو المعذرة " وبهذا التفكير الودي إنتهى شعورها بأنها ضيفة غير مرغوب فيها وثقيلة ولكنها فكرت بينها وبين نفسها في إمكانية أن تذهب لتعيش مع إبنها ومرة أخرى كان " حسن " عم أولادها يسألها بلطف أن تعرض عليه أي فكرة أو حل آخر تراه هي ؟ فلم تتوان إنما قالت من فورها " أعيش مع إبني على الأقل حتى أطبخ له ما يشتهي.. فالأكيد أن الملوخية الخضرة وحشته " وتضاحكا طويلاً ولكنه أفهمها أن إبنها يعيش في المدينة الجامعية وأن يؤجر لهما بيت سيفقده مكانه في المدينة الجامعية لعام قادم مُقبل على الأقل كما أنها ودون أن تقصد ستأخذ من وقته وعلى ذلك سيتأخر برنامجه الدراسي قالت " ولكني قلقة وخائفة من فكرة أن أعيش وحدي و.." إندفع يقول لها بصدق أن عليها أن تتعرف وتسعى إلى الآخر والأمريكان شعب بسيط وودود يأتون بسهولة لزيارتك وتذهبين لبيوتهم بكل ترحاب " هذا شعب هجين فيه كل الصفات الشرقية والغربية " ثم قال " أنت لم تأت لتسجني نفسك بين

أربع جدران أخرجي وإنطلقي Go ahead ده إنت لو زرت مكاناً واحداً لـن تخرجي قبل المغرب منه ".. وكانت مصر لم تعرف فكرة " المول " بعد إلا أن " سعاد " لم تكن مما يعشقون ممارسة الشراء أو تهمها هذه المسأله فقالت له " أنت تعرفني لا تهمني هذه المسائل في كثير " رد عليها شارحاً " إن المول لا يحوي الملابس فقط ولكن كل شيئ حتى الألوان والمعـاجين والخـيش الـذي تشتريه.. إطلعي على الفنون الحديثة يا سعاد في الرسم والتشكيل " المهـم أنـه أفلح في أن يزيل الهم عن قلبها وأن يجعلها تضحك حتى حدق فيها وهو يقـول " لك ضحكة شابة يا سعاد أنت لا تكبرين مطلقاً مطلقاً ".

•••••

صباح اليوم التالي كانت في طريقها إلى " منهاتن " قلب " نيويورك " وإن كانت هي موجودة في ضاحية " بروكلين " في " نيويورك " أيضاً والتي لا تبعد عن مكان إبنها بأكثر من أربعين دقيقة. أوصلها عم أولادها وهو يؤكـد عليهـا بضرورة أن تحفظ الطريق وتتذكره حتى تأتي إلى إبنها في عطلة نهاية الأسبوع ولما سألته ولماذا لا آتي إليه كل يوم فالمسافة نصف ساعة أو يزيد تقريباً. كان يؤكد لها ضاحكاً أن هذا يعطله عن دراسته وإلا لكان إستطاع أن يـؤجر لهمـا مكاناً في " منهاتن " أكد عليها أكثر من مرة أن تستغل وجودهـا فـي أمريكـا لتتفرج وترى الدنيا فهي فرصة ربما لا تتكرر.. كان على لسانها أن تقول لـه أتفسح وأتفرج مع مين؟! كمن فهم ما يدور بخلدها فرد مـن فـوره " لوحـدك ياستي.. أنا مش قلت لك إنطلقي ولا تنتظري أحداً.. الظرف أصبح هكذا.. لولا إبن عم زوجتي لكانت معك ليل نهار رغم أنني سأحاول قـدر إمكـاني إلا أن زميلي المساوي لي في المركز توفت زوجته وسافر هو مع جثمانها إلى الهنـد وياعالم متى سيعود " ثم سكت قليلاً وأخرج زفرة وهو يقول " الحقيقـة حظـك غريب يا سعاد " حاول مواساتها بعد ذلك بأن أكد لها أن المهم أن " كريم " في

أحسن حال وأن التخصص الأكاديمي الذي إنخرط فيه هو أنسب ما يكون له لأن العمل فيه قائم على البحوث وتجميع الأفكار ورؤيته هو بعد ذلك أما المجالات الأخرى مثل الخارجية فهي تقوم أكثر على الوعي بإدارة دفة الصراع مع الآخر وكذلك على نوع " غويط " من العلاقات العامة بالآخرين وإعتقد أن صغر سنه وإلتفاته إلى مسألة التفوق الدائمة لم يبقيا له وقتاً لعمل علاقات والصبر عليها والتضحية بالكثير من أجلها فأضافت له " سعاد " بما معناه أن غياب الأب منذ طفولته المبكرة جداً لم تُتح له أن يكون لديه أو أمامه النموذج الذي يحتذي به في تخطي عقبات الحياه التي لا تتوقف ويتعلم من أبيه كذلك كيف يواجهها أو كيف يحلها " ضحك العم وهو يؤكد لها مرة أخرى أن ما هو فيه الآن أفضل له ردت عليه بما يُشبه الهمس " الخيرة فيما إختاره الله "... وتخطيا بوابة " منهاتن " ومر الوقت بهما سريعاً حين وقف بها أمام مبنى فنزلت ولم تنتظره.. مشت داخلة.. الممشى طويل.. خطوها مُزغرد.. خطوها موقع كأن قدميها لا يحتكان ببلاطات الممشى أو أحياناً بالأسفلت.. الزروع من حواليها.. ريح إبنها من حواليها.. دخلت المبنى.. صعدت دوراً واحداً إلتفتت يميناً.. ريح إبنها تشمها فنادت بصوتها " كريم " أجابها من بعيد " أمي " تلفتت يميناً ويساراً.. تشعر أنه حواليها إلا أنها لم تستطع أن تحدد أين.. وأخيراً برز لها من آخر الممشى.. يرتدي بنطلونه الجينز وقميصه السماوي.. أسرع بخطاه.. أوسع خطى.. إندفعت إليه كالقذيفة وإستقرت بين ذراعية.. راحة الدنيا.. بل لا عذاب في الدنيا.. تعانقا طويلاً.. إنفلت لحظة ليسلم على عمه الذي كان بادي الإبتسام وعادت إلى صدر إبنها تتحسس منكبيه وهي تشعر بأن جميع أجهزتها الداخلية تعود إلى مكانها فالقلب يتعشق في مكانه بعد أن كان مخلوعاً بين ضلوعها.. والكبد إرتوى بعد جفافٍ طال أكثر من العام.. عاد دمها يتهادى في دورته بين أوصالها.. هتفت " ولكنك خسيت هذه ليست أكتافك " ضحك وهو يقول لها

" يا أمي عينك ميزان " وظل يشرح لها بأنه يأكل كل العناصر المطلوبة.... سارا ثلاثتهم يفرجها المكان يُشير لها إلى موقع أكثر من مكتبة يحتاجها في عمله.. ظل ثلاثتهم يمشون إلى أن وصولوا إلى مكان في نفس منطقة الجامعة يمكن لهم أن يشربوا فيه شيئاً.. بادره عمه " هل من جديد " فأجابه " كريم " بأنه ينوي أن يتعلم بل أن يتقن إستخدام الكمبيوتر ويتعامل مع إمكاناته الكثيرة والأهم من كل هذا أن عليه أن يدخل إمتحاناً في الرياضيات الحديثة لابد منه قبل إجراء الأبحاث " فالمسألة ليست بالسهلة يا أمي " خبطت " سعاد " صدرها بيدها وهي تقول " هو إنت يا ابني ما بتخلصش إمتحانات " فأفهمها العم أن منهاج التعلم في البلاد المتقدمة يستلزم الإلمام الدقيق بكثير من العلوم الحديثة وأن واقع طالب العلم في حالة إمحان دائم وحتى بعد أن يحصل على درجته العلمية ويعمل كدكتور أو أستاذ لابد أن يقدم بإستمرار أوراقاً علمية وأبحاثاً يسبقها إمتحانات في بعض الأحوال حتى تتجدد أفكاره كأستاذ متخصص هذا هو الـ " System " أو نظام العمل في البلاد المتقدمة.. بل في حالة الأطباء البشريين لا يُجاز له الإستمرار في ممارسة المهنة إلا إذا قدم أوراقاً علمية كل عام وأحياناً كل بضعة شهور.. كل هذا من أجل أن يكون الممارس الذي في يده أرواح الآخرين على دراية بالحديث والجديد في مجاله.... مشى بهم الوقت إلى ما بعد الثانية ظهراً.... قام " كريم " وعمه معه يقفان في طابور قصير ليأخذ كل واحد منهما صينية عليها أصناف من الطعام وأحضروا " لسعاد " واحدة.. " في هذه البلاد يا أمي كل واحد يخدم نفسه ".... أخذت منه رقم هاتف الجامعة والرقم الداخلي لحجرته والأوقات المناسبة التي تطلبه فيها وأيام أجازاته إن وجدت وكيف سيقضيها والمسموح له بالزيارة فيها وأخيراً سألته إن كان في الإمكان أن يأتي لزيارتها.. رحب بكل أسألتها وطمأنها في أغلب ردوده عليها ثم تغير لونه ووقفت اللقمة في حلقه لما أنبأه العم بأن أمه تسكن وحدها بسبب

ظروف إبن عم روجته مريض السرطان. إعتذر العـم بصـدق عـن سـوء الظروف إلا أن " كريم " همس " وهل تستطيع أمي أن تعيش وحدها هنا " وفي لمح البصر وقبل أن ينتظر إجابة من أمه أو من عمه كان يفكر سـاهماً وهـو يقول بصوت مسموع " الوحدة ليست جديدة عليها " ثم إلتفت إليها وفي عينيـه إبتسامة واضحة وهو يقول " أعتقد أنك ألفت الوحدة.. فأنا لا أذكر شكل والدي رحمه الله " ثم عاود الضحك المسموع من جديد فتداخل العم وهو يؤكد " مـن ناحية الوحدة فهذا ليس جديداً على أمك ولكن في مصر عندها دائماً ما يسـليها لأنها تمارس الرسم وأنها نهمه القراءة أليس كذلك يا سعاد؟ " على الفور كانـت تتنبه إلى أنها لا يجب أن تكون مصدر قلق لإبنها فقد أتت لتراه وتستريح وأيضاً ليراها هو الآخر ويسعد بها... بأوسع إبتسامة تُعلن أنها ستكون مستريحة فـي وحدتها حتى تقضي اليوم في الفرجة على الصغيرة قبل الكبيرة في منهاتن قلب " نيويورك " وتدخل المتاحف التي قرأت عنها وترى لوحات هذه المتاحف على الطبيعة.. حاولت أن تملأ الجلسة وتبدو أن لها أحلامها الفنية الكثيرة التي تريد أن تتعرف عليها في أمريكا حتى نجحت كعادتها في أن ترسم البسمة الصـادقة على ثغر إبنها وهي تجاهد لتدخل في روعه أن فكرة سكنها منفردة من أروع ما جادت به الظروف لتكون سفرتها إلى هنا لها متعتها وحريتها " تغيير بـالمعنى الحقيقي للكلمة " أكد العم أنه سيبذل كل جهده ليكون معها ما أمكنه ذلك وكـان صادقاً في وعده وكان آملاً بذلك أن يطمئن إبن أخيه... بعد أن إنتهوا من الغذاء عاودوا المشي في حديقة المكان إلى أن إقتربوا من مبنى و" كريم " ينظر فـي ساعته فنبهها العم هامساً إلى إرتباطه بجدول مواعيد يقابل فيه الأساتذة يوميـاً ليتابعوا سيره في رسالته. سألت إبنها وعرفت أنه يبقى على موعده أقـل مـن الساعة الواحدة إبتسمت لما أحست بسعة الوقت وبقي الجميع يسيرون دون قصد معين في الغالب و" كريم " يسأل عن " منى " وإبنها فتنتقي الأم أكثر الكلمـات

تطميناً لتبلغه بها.. كان يسير واضعاً ذراعه على كتفها ثم ينزله إلـــى وســطها ويناوشها فتتوقف وتضحك وهي تقول له " ياولد إختشي من عمك إحنا في وسط الجامعة " بينما تلفتت يمينها إذ لمحت طالبين جالسين على الأرض الخضـــراء غائبين في قبلة طويلة.. أدارت وجهها وهي تعاود الضحك إلى أن وصلوا إلـــى مبنى جذبها " كريم " من ذراعها ودخلوا ثلاثتهم يتقدمهم " كريم " صعد حوالي سبع سلمات فصعدا وراءه " سعاد " والعم ثم مشى خطوات قليلة دخلوا بعـــدها حجرة متوسطة المساحة تجلس فيها سيدة منهمكة فيما أمامها مـــن أوراق ولمـــا رفعت وجهها كان " كريم " يقدم لها أمه بنوع من الفخر. شدت المرأة نظـــارة القراءة من على أنفها ونظرت بإهتمام ومدت يدها تصافحها ثم قدم عمه إليهـــا فعلقت بقولها إنه يشبهه ثم إستأذنت منه وبعد أقل من دقيقة كانت تخـــرج مـــن حجرة داخلية وهي تفتح الباب عن آخره.. دخلوا جميعاً وأمه تعترض بما يشبه الهمس " أنا سأقابل من.. كان يجب أن تقول لي " إلا أنه رد عليها مبتسماً وهو يقدم أمه إلى الرجل الذي هب واقفاً بينما " كريم " يقول " هذه أمي يـــا دكتـــور التي كلمتك عنها "... وهي تضع يدها في كفه كانت الحجرة تميد بها فإتكـــأت أكثر على كفه لتتمالك نفســـها وقبـــل أن ينطـــق هـــو بكلمـــة كانـــت تهمـــس " يوسف إيجيه " وبقيت يدها في كفه وهو يقول" نفرتيتي " كنت متأكـــداً أننـــي سأراك سريعاً ثم إلتفت بوجهه على الفور إلى " كريم " وهو يقول " لقـــد كنـــا سوياً في الطائرة الآتية من القاهرة لأني ركبتها من باريس كما تعلم " ثم ضحك دون صوت وهو يقول " هل حكيتي لهم " نقلت عيونها بين العم وبين الـــدكتور " يوسف إيجيه " ليدور في مخيلتها جميع لوحاتهـــا الســـابقة ووجـــه الـــدكتور " يوسف " منطبعاً فيها.. دقات قلبها لا تستطيع السيطرة عليهـــا.. تقـــدم بهـــم خطوتين ليجلسوا في صالون صغير أمام مكتبه وبادرهم الـــدكتور " يوســـف " بعربية " الدنيا صغيرة جداً كما تقولون في مصر " حكى لهم بأســـلوب ســـريع

ومختصر أنه يعرف القاهرة أكثر مما يعرف نيويورك لأنه عمل مدرساً في الجامعة الأمريكية من عشرين سنة وكان يسكن في منطقة باب اللوق فكرت " سعاد " بينها وبين نفسها هل رأته في هذه المدة ؟ أو ربما صادفها يوماً في طريق.. وإلا مالذي جعل تقاطيع وجهه وتكوين رأسه تخرج رغماً عن إرادتها في لوحاتها بل لقد كان الواقع الأكيد أنها لم تقصد في مرة واحدة عن إرادة منها أن ترسم هذا الوجه إلا أن هذا ما كان يبدو لم يُدقق فوجهه موجود دائماً وكأنها لازمة لها... لم تكن " سعاد " تُقيم معارض تدعوا لها شخصيات ويأتي مصورون ليلتقطوا الصور إلا مرة أو مرتين في حياتها وبالتالي لم يُكتب عنها أي نقد لأعمالها، لم يُقل عنها أي إنطباع اللهم إلا من بعض من تعرض في محالهم أعمالها كان بعضهم يفطن إلى وجود هذا الوجه وينبهوها إلى ذلك وإن كانت " منى " إبنتها أول من إكتشفت هذا إلا أن " سعاد " خشيت أن تفتح لها قلبها ويجرها الكلام إلى الربط بين ظل الرجل المجهول وبين إنتظارها هي للمجهول وكأن هناك رجلاً ما تنتظره أو تتوقعه في حياتها.. هذا الشعور كان سرها الذي تحلم به وإن كان يلح عليها مع تغيير فصول السنة يُلح حتى الألم مع مجيئ الربيع ويهاجمها مع هبة الخريف فتكاد تتلمس الحُلم... الدهشة بدأت تزول عنها رويداً رويداً وهو مشغول بالكلام والترحيب بعم إبنها.. شعرت أنه يعرف الطبيعة المصرية وليس اللغة فقط.. إحساس بالأمان بدأ يتخللها وهو يدير عينيه أكثر من مرة ليراها أثناء كلامه مع العم.. إعتدلت في جلستها ووضعت حقيبتها بجوارها ثم فتحت حقيبتها وأغلقتها مرة أخرى وهي توقف نفسها بصعوبة من أن تُخرج مرآتها الصغيرة.. إلتفت إليها الدكتور وأثنى على إبنها متوقعاً له النجاح.. أسعدتها الكلمات.. قام من مكانه وأخرج من درج مكتبه علبة وقدم لهم منها وهو يؤكد " لسعاد " أن السُعرات قليلة في هذا النوع من الحلوى.. تناولت واحدة فأصر أن تأخذ أخرى.. شعرت بأنها أمام رجل مصري

ضحكت وهي تقول هذا المعنى.. إستأذن العم فقد فهم أن على " كريم " أن يبدأ جلسة عمل مع أستاذه.. ألمح هذا المعنى إلى " سعاد " فإنتفضت واقفة.. دقائق وكانا في طريقهما إلى العودة وقد تركا " كريم " مع أستاذه.

•••••

في بيتها المؤجر وصلا.. إستأذن العم على موعد في الغد في نزوله من الشقة غشيها شيئ من الخوف والتوجس.. إستدار يُربت على كتفها وهو يؤكد لها أن المكان آمن وإنسحب خارجاً... فتحت حقيبتها الموضوعة منذ الأمس وسوت ما فيها في دولاب حائطي بجوار سريرها بعد أن أخرجت الكتب التي طلبها " كريم " ووضعتهم على مائدة قريبة.. إنتبهت إلى أنها لم تُحضر معها أي كتب لها وهي قادمة ولكنها إهتمت أن تُحضر لوحتين هدية إلى زوجة العم. كانا ملفوفين في غلاف " نايلون " طويل وفكرت في أنها لابد لها أن تعرف مكاناً تستطيع فيه أن تضع إطارين للوحتين قبل أن تقدمهما لها. خافت عليهما وأرادت أن تطمئن على سلامتهما بعد تفتيش المطار الطويل.. أخرجتهما ووضعتهما على السرير الذي يتحول إلى كنبة أثناء النهار.. تأملتهما وهي تسأل نفسها هل أحسنت الإختيار؟ ومدت أصابعها تتحس ملمسهما وهي تحدد مكان الوجه الذي ترسمه دوماً وقررت أن تحتفظ بلوحة منهما لتقدمها للدكتور "يوسف إيجيه " لتعرف إن كان سيفطن إلى وجهه أم لا. من حقيبة يدها كانت تُخرج البطاقة المكتوب عليها رقم هاتفه إذ دق الهاتف بجوارها.. بعفوية كانت ترد " أيوه يا حسن " على أساس أنه عم إينها إلا أن الطرف الآخر ضحك وهو يؤكد لها أنه " يوسف إيجيه " أشار لها بأنه لما عرف من إينها أنها تسكن وحدها فأراد أن يؤكد لها أن تطلبه إذا إحتاجت أي شيئ بل ويسعده أن يسمع صوتها في أي وقت.. سألها إن كانت تقرأ كثيراً مثل إينها وعرف أنها لم تُحضر معها أي كتاب ماعدا الكتب التي طلبها " كريم ".. كانت المكالمة قصيرة

إلا أنها أشعرتها بقدر كبير من الإطمئان والشعور بالأمان.. لم تكن تعرف أنها تسكن قريبة منه إلى هذا الحد لا يفصلهما إلا الحديقة التي كانت تراهـا وهـي تكلمه من النافذة الزجاجية العريضه التي أمامها أنهى التواصل معها بعد دقـائق ليعود إلى بيته فقد كان يكلمها من الجامعة.. كانت بطاقته مازالـت فـي يـدها فوضعتها بجوار سريرها ووضعت بجوارها النوتة الصغيرة والقلم.. فكرت أن تنزل لتشتري جريدة تتسلى بها وحتى تقطع الوقت إلى أن تنام.. فتحـت بـاب بيتها وتأكدت أن المفتاح في حقيبتها وعند أول خُطوه لها خـارج المنـزل رأت الحارس الذي ساعدها بالأمس في حمل حقائبها إلى شقتها كان يبتسم وهو يقـدم لها مظروفاً كبيراً تناولته منه ورفعت بصرها إليه فأفهمها بإنجليزيته أن شخص مر عليه بعربته وطلب منه توصيل هذا المظروف فتناولته منه وعادت داخلـة تتوقع أن يكون من " حسن " عم إينها وأغلقت الباب وهي تشـكره ووضـعت المظروف على أقرب مائدة وهمت أن تخرج مرة أخـرى إلا أنهـا تراجعـت وقررت أن تُلقي عليه نظرة... ولما فتحته كان يحوي كتاباً قيماً علـى غلافـه لوحة ملونة قرأت عنوانه متحف " المتروبوليتان " قلبت صفحاته ولـم تتمالـك نفسها من الإعجاب بلوحاته فجلست على حرف السرير وبقيت مستغرقة تقلـب الصفحات وعند كل لوحة كان تشهق من الإعجـاب.. وقعـت عينيهـا علـى المظروف مرة أخرى بجوارها وتحسسته كان يوجد بداخله شيئ آخر وأخرجت كتيباً صغيراً منه ولما قلبت صفحاته عرفت أنه لتعلـيم الإنجليزيـة.. الكلمـة وبجوارها معناها بالعربية وفي صفحات متقدمة جمل كاملة وبجوارها معناهـا بالعربية سقط من الكتاب بطاقة مكتوب عليها " يوسف إيجيه " إنتفضت واقفـة .وهي تعي أن المظروف منه وليس من عم إينها إلتقطت رقم منزله وبعد ثانيـة واحدة كانت تتواصل معه وهي تشكره بصدق.. قال لها " قلت أنك لم تحضري معك شيئاً يُقرأ فأردت تسليتك حتى لا تشعري بالملـل " تكلمـا عـن كتـالوج

اللوحات الملونة وإقترح عليها أن يمر في يوم ويأخذها إلى هناك لترى اللوحات على الطبيعة.. فرحت بالفكرة وتمنت أن تتحقق سريعاً فقد عاشت حياتها تجد في ممارسة الرسم مجموعة من المعاني كان أقواها عدم الشعور بالوحدة بعد وفاة زوجها وأيضاً إحساسها بأنها تُحقق معنى المزج والإختبار الجمالي وأيضاً تُحقق ذاتها فلم يداهما في أي مرحلة من مراحل عمرها أنها تعيش فقط لتربية " منى " و" كريم " مُتناسية نفسها وكأن دورها ورغباتها يجب أن تتوقف عند حد تربية الإبنين مهما كان حبها للإبنين ومهما كانت رسالة الأمومة تُعتبر نوعاً من النُبل والإحساس الجسيم بالمسئولية.. في ممارستها الجانب الفني كانت تحس بأن لها كياناً وأن لها خياراً فلم يُثقل عليها الإحساس ويخنقها بأنها تؤدي رسالة جبرية وينتظرها الموت في نهايتها.. إنشغالها بالرسم لم يترك لها فُسحة بأي حال من الأحوال لتقف عند الصغائر.. الكلمات أو التصرفات مُرة المذاق من الآخرين أياً كانوا أقارب أو جيران.. الفن الذي تمارسه صنع سياجاً حولها لا يمكن إختراقه حتى لا تتوقف مسيرتها.. إحتمت بالفن دون أن تدري ودون أن تتعمد ذلك إنما التلقائية وما جُلبت عليه أوصلها إلى نوع حياتها التي إرتضت بها وعشقتها لدرجة أنها لم تحترق بنار رغباتها أيضاً كأنثى فطاقتها مُستنزفة مسفوحة دوماً بين الأولاد وعملية الخلق التي تحياها كل يوم. عملية لها بداية كامنة داخلها ولها ذروة وهي تقف بفرشاتها تعمل إلى أن تصل إلى درجة إنسكاب المعنى أو إكتمال المعنى من بين يديها فتعيش لحظة الإنتهاء من اللوحة بكل معنى الفرح العظيم. لم تكن تتخلف عن الإنتاج إلا في النادر وبسبب الظروف القهرية فسرقتها السنوات.. إنسرق منها العمر في كل مرحلة من مراحلها فلم تنظر في مرآتها وتقرر أن هذه الغضون المحفورة على وجهها تُعلن أنها وصلت إلى الأربعين وتؤكد في مرحلة أخرى أنها تعيش الخمسين إلى أن تعدتها ولم تمر عليها هذه المواجهه سرقها الفن وتلبسها جباراً فبقيت تنتظر

أن تسرق بدورها الساعة " الفاضية فيها " لتقف في مرسمها ترسم ما يموج في صدرها ما يتسرب تحت جلدها أياً كان الإحساس الذي يتهادى في عروقها. فأحب الناس صدق عملها لأنه بعيد عن الإفتعال بعيد عن الصنعة هو فقط ما تحس به. عاشت أيضاً لها أحلام يقظتها التي تنتظر بها مجهولاً ولكنه هل هو رجل أم إين ؟ لا تدري وكيف ستتعرف عليه؟ ومتى؟ وما مصيرها بعد أن تعرفه ؟ كلها أسئلة كانت حية وثائرة وتكاد أن تكون ملموسة بالنسبة لها تضغط بنوع من الإلحاح على عقلها وكأن هذا الضغط نفسه يُولد المتعة... والمتعة أيضاً تأتي من الأمل وأملها كان موصولاً بعدد سنوات عمرها بأنه سيأتي الوقت الذي يتجسد فيه الحلم إلى واقع.. سيأتي الوقت الذي ستتعرف فيه على الحلم ودق الهاتف بجوارها مرة أخرى ورفعت السماعة بكسل تحاول أن تخرج ما إستطاعت من إحساسها الشعور بلوحات الكتاب التي بين يديها إلى أن سمعت صوته ولم تكن قد وضعت البوق بعد على أذنها وبلهفة كان يناديها " سعاد سعاد " عرفت صوته وهي تبادره " هل تأخرت إلى هذا الحد في الرد " قال لها أخذت السماعة ولم أسمع صوتك لأكثر من عشرين ثانية ضحكت وهي تقول" من شدة إستغراقي مع الكتالوج "... توقف التواصل بينهما على موعد في الغد صباحاً ليذهب بها إلى المتحف لترى على الطبيعة وعلى الفور بعد أن وضعت السماعة إتصلت " بحسن " عم إينها لتُخبره بموعدها في الغد.. لا تدري لماذا أرادت أن تُعلمه وكأنها فتاه صغيرة تستأذنه بطريق غير مباشر في أنها ستخرج مع أستاذ إينها إلى متحف" المتروبوليتان " لم تتوقف لتناقش نفسها إنما طلبته بلا تردد.. بدى صوته وكأنه لشيخ مُتعب وصلها معنى أن هناك أمراً جلل ولم يتوان العم أن يقول لها والمرارة تسح من حلقه أن زوجته إكتشفت أن عندها ورم هي الأخرى والصمت أخذ مساحة بينهما فلا " سعاد " نطقت بكلمة ولا " حسن " همس ببنت شفه إلى أن عاود كلامه على مهل وهو

يؤكد لها أن هذا يعني السير في نفس الطريق الصعب.. نفس الطريق الذي سار فيه إبن عمها.. حاولت أن تُدخل في روعه الأمل إلا أنه قطع عليها الكلام ليؤكد أن زوجته قبل أن تصارحه بحالتها كانت قد أجرت جميع التحاليل المبدئية وعلى هذا فهي لا تتكلم من فراغ.. طلبت منه ضرورة زيارتها فوعدها أن تزورها ولكن في التوقيت الذي يراه مناسباً بالنسبة لحالتها النفسية لأنها في هذه المرحلة الأولى يغلب عليها البكاء السريع... وإنتهت المكالمة ولم يكن هناك مجالٌ بالطبع لأن تقول له بزيارة المتحف مع الدكتور " يوسف إيجيه ".

•••••

تمام العاشرة في اليوم التالي كانت تقف أمام بيتها ثوان إذ جاء بعربته.. نزل يفتح لها الباب وهو يردد عبارات الترحيب بها.. في الطريق إلتفت إليها وهو يؤكد بأنها مُشرقة في طلتها. كان يشرح لها الطريق ويعرفها إسم أهم المباني التي يمرون بها إلى أن وصلا المتحف..... في تجوالها أمام اللوحات قال أكثر من مرة بأنها تبدو مشغولة البال أو أن هناك ما يجعل في ملامحها معنى القلق وهذا مالم يلاحظه عليها بالأمس فأسهب في كلامه عن إبنها وعن ضرورة إطمئنانها عليه إلى أن باحت له بحقيقة ما يدور في خلدها من ضيق بسبب مرض زوجة " حسن " التي إكتشفت بنفسها حقيقة ما عندها. عرف منها أنها أمريكية من جذور إنجليزية وأنها مُحبة للحياة.... وهو يبذل مجهوداً كبيراً ليطمئنها بإحتمال شفائها الكبير كان يؤكد لها أيضاً أنها كإمرأة أمريكية لابد أنها ستتقبل واقعها أياً كان بطريقة هادئة وواقعية وأنها ستجتاز رحلة العلاج يحدوها الأمل الأكيد في الشفاء فالإكتشافات الطبية في أمريكا متلاحقة وكأنهم في سباق للقضاء على هذا المرض ومعرفة أسبابه سواء كانت وراثية أو أي أسباب أخرى إلى أن نجح في أن يُخفف عن " سعاد " وطأة خبر زوجة " حسن ".... تكلما كثيراً عن إرادة الإنسان وما يمكن أن تفعله الإرادة والرغبة الأكيدة في

الشفاء " وأن هذا ما يوصل المرء إلى أن يتغلب وينجح حتى لو كان المــرض هو هذا البغيض " لما جلسا في ركن يحتسيان فيه القهوة كان يحاورها ويُمعــن النظر والتفسير في هذه الدنيا بما فيها من أقدار تُملي على الإنسان وتدفعه دفعاً إلى واقع لم يختره إلى أن أنهى كلامه بما يعني وكأن الإنسان لا يكفيه ولا توقفه الخبطات القدرية إنما أيضاً يسعى بنفسه ليصنع الخلافات والحروب ليزيد بهــا من معاناته كإنسان. حروب يصنعها ويحققها بنفسه وكأن الحياه ينقصـــها هــذا الدمار وهذا الألم والصراع. ردت بعفوية " أما يكفيه صراعه مع خلاياه التـــي تنمو هنا وهناك بدون سبب مفهوم " ثم قالت بصوت خفيض " اللهم إكفنا الشر " فكان يقول " كأن الحرب هي سر سر الحياة سواء مع الآخر أو مـــع الـــنفس الواحدة " ثم عاود الكلام " وفي حالة من يكسب الحرب لا يُعتبر منتصراً فالذي لا شك فيه أن الإنسان خاسر خاسر حين يفقد نفسه ودرجة إقباله على الحياة من ضراوة المعاناه التي كانت سواء بين الدول أو بين الناس وبعضها " لم يكن لها من رأي إلا أن توافقه بهزات متتالية من رأسها وإن كان بصيص من الإحساس بالنشوة قد تغلب عليها وهي تستمع إلى كلامه... نشوة داخليــة مــن مســتوى حواره معها كاللذة التي كانت تستشفها من القراءة في مصر قبل أن تنــام فـــي مراحل مرت حين كان إبناها مشغولين بالدراسة وكانت تقضـــي فتــرة النهــار الطويلة وحيدة في بيتها تقرأ أو ترسم..... حكت له عن حياتهــا وعــن تلــك المراحل المختلفة التي إجتازتها وحيدة إلى حد كبير يؤنسها كتاب أو فرشاتها... وعادا مرة أخرى لأجنحة المعرض يتفرجان ويقفان هنا وهناك وأمــام لوحــة بعنوان " الزمن " كانت تخرج منها الشهقة مسموعة إلتفت إليها يريــد تفســيراً نظرت إليه وهي تؤكد له أنها رسمت مثل هذه اللوحة في بيتها من قبل ولم تكن قد رأت اللوحة التي يقفان أمامها فسألها وأين هي تلك اللوحة ؟ وهــل لاقــت إقبالاً؟ فتذكرت أن هذه اللوحة بالذات طُلبت منها أكثــر مــن خمــس مــرات

" لقد كان الإقبال عليها كبيراً حتى أنني بدأت في السادسة ولم أتممها وتركتهـــا على الحامل في مصر في مرسمي الصغير " في أثناء تجوالهما كان يشرح لها عن العلاقة السرية وغير المعروفة بين الحضارات.. علاقة الأخذ والعطاء دون إتفاقات مكتوبة مهما بعدت المسافات والأزمان ثم توقف وإلتفت إليها ولأول مرة يضع يده على كتفها وهو يقول " لا تغفلي التراث الذي يجري في دمائك كـــأول وأقدم حضارة للبشرية قاطبة " ومازالت يده على كتفها " أنت يا سعاد الأصـــل والكل فرع منك لأنك نفرتيتي " ثم سحب يده من على كتفيها وأكملا السير ، ين إلتفت إليها مرة أخرى وهو يقول بنوع من التردد " ألم تحضري معك أي لوحة لك " ردت عليه بالإيجاب وطلبت منه أن يدلها على مكان يضع البرواز عليهما وبلا تحفظ كان يُعلن عن فرحته بأنه سيرى لها عملاً ثم قال فجـــأة " لا تقـــولي على يهودياً إذا عرضت عليك أن أشتري إحداهما وتُبقي الأخرى لعـــم إينـــك " وبمنتهى التلقائية كانت تقول له بأنها فكرت من قبل أن تُهديه واحـــدة وتحـــتفظ بالأخرى للعم فرد بسرعة " إذا أعطيتنى الإثنين أضع لهمـــا إطـــارين أحـــتفظ بواحدة وأعطيكِ الأخرى ولكن لابد أن تكوني معي لتختـــاري الإطـــار فهـــذا أفضل.. إنك أكثر دراية بالأنسب " برق في ذهنها لثانية واحدة أن يفطـــن إلـــى وجود وجهه في أرضية اللوحة إلا أنه أخرجها من صمتها وهـــو ينظـــر إلـــى ساعته ويهمس " إني أشعر بالجوع "... وعلى مائدة صغيرة في ركن من أحـــد المطاعم كانا يجلسان وتطرق الحديث إلى أنواع الأكل في العالم... قال لها بأنها تستطيع أن تجد في أمريكا كل ما تشتهيه لأنها سوق مفتوح لكل شيئ وضـــحك وهو يقول لها " طبعاً حتى الفول المدمس " تكلم عن الفول كقيمة غذائية كـــان يؤكدها قبل أن يقول لها بأن الفول جاء ذكره في القرآن.. إبتسمت وهي تقول له " طبعا لقد عشت في مصر وبالمناسبة إنني كريم يحبه جداً " أضاف لهـــا بـــأن لديه صديقاً أمريكياً من أصل لبناني إسمه " هارت سترونج " متزوج مصـــرية

إسمها " ماري فانوس " وهو ينوي أن يدعوهما فـي يـوم لتتعـرف عليهمـا وبالأخص لأن إبنتهما متخصصه في الشراء ولديها علم دائماً بكل ما هو جديـد في الأسواق لأن عملها كمديرة لكبرى المحلات في" نيويورك " يجعلهـا دائمـاً خبيرة ببواطن الجديد والحديث والأكثر من هذا أنه يمكنها عمل خصم كبير لها إذا أعجبها أي شيئ شكرته " سعاد " إلا أنها نوهت إلى أنها ليست مـن هـواة الشراء مثل أغلب النساء فرد عليها برغم أنك أنيقة وببساطة شديدة وعاد مـرة أخرى ليؤكد لها أن " نفرتيتي " كانت بسيطه فـي ذوقهـا وكانـت لا ترتـدي الملابس المزينة ولا التاج المرصع إلا في المناسبات الرسمية فقـط ضـحكت بصوت مسموع فأكد لها أن في دمائها أكيد جينات الملكة المصرية...... بـدى لها أنه إنسان إستطاع أن يحتوي الخليقة من بدايتها إلى يومنا هذا وإنه يستطيع أن يُترجم هذا الإحتواء أو هذا الفهم في كلمات قصيرة ولكنها مُركزة فقالت لـه هذا المعنى فلم يندهش إنما لامس خصرها وهو يقودها ليخرجا من المطعم ولم يُعلق إلا بعبارة " لعلها القراءة أو التدريس يا سعاد " مُعتبراً أن جامعة كولمبيـا التي يعمل بها تُعتبر جامعة عريقة بالمعنى الواسع وبالتالي تعامل مـع أجنـاس الدنيا قاطبة وقرأ لهم... أكد لها أيضاً أنه ولوع بالقراءة عن الأديـان المقارنـة لعله يفهم كُنة الحياة فسألته هل هو مشغول مثلها في التفكير فيما بعد الحياة لأن الجانب الأكبر من لوحاتها ترسمه من إلهامها وتصوراتها عن شـكل الموقـف العام بعد الحياة على الأرض سألها هل قرأت الفلسفة فأجابت بالنفي القاطع اللهم إلا من بعض المقالات القليلة التي تُنشر هنا أو هناك في بعض المجلات القيمـة فأكد لها بما يمنع أي شك أو تردد أن القراءة الحرة في أغلبها أكثر فائدة للمرء من القراءة المُنهجة التي ينشغل فيها الإنسان بتتبع الخطوات الفكرية وتحولاتها وإختلافها ودحض الأفكار بأفكار على أساس أن القراءة الحرة يمتصها العقـل وتترك له الفسحة لمزيد من التأمل فيحدث للقارئ اللذة أولاً ثم الوصـول إلـى

النتائج دون قهر أو تلقين بغيض... وكأن الجو يوشوش بإنخفاض مؤكـد فـي الحرارة شعرت به فإنتفضت على جلستها إنتفاضة مرئية فإبتسم وهو يقول لهـا إنه أكتوبر وقد يبدأ اليوم مُشمساً ثم يتغير.. إستأذن منها دقائق... أكثر من عشر دقائق ولم يعد بعد.. فكرت أنه قد قام ليدفع الحساب إلا أنها تذكرت أنه دفع كل شيئ أمامها ومنذ دقائق " إذاً مالذي أخره كل هذه المدة؟ " دقيقة أخرى وظهـر في عُمق المكان ملهوفاً يحث الخُطى إليها وقدم لها بطاقة كبيرة ثم فتح كيساً بين يديه وأخرج لها " سويتر " وإقترب يضعه على كتفيها وهو يؤكد أنه تعمـد أن يأخذه وهو في طريقه إليها لأنه يتوقع أي إنقلاب في الجو وفي يده شمسية أشار إليها تحسباً أيضاً لأي تغيير في الجو.. قال لها بأن ما عطلــه أنــه كــاد أن لا يعرف مكان عربته من كثرة العربات في الخارج فاليوم هو الأحد. ما أن وضع " السويتر " حول كتفيها إلا وشعرت بالدفء يتخللها فأغمضت عينيها قريرة في لذة من وجد كوخاً في يوم عاصف فهتف بها " كأنك طفلة تماماً " من فورهـا ردت عليه متسائلة " لماذا.. لماذا أسمع هذه العبارة كثيراً " فشرح لهـا بأنهـا تمتلك ناصية الدهشة وأنها لا تأخذ الأمور بواقعية باردة... دقـائق وأمطـرت رذاذاً كان مرئياً على زجاج المكان من حولهما فعادت لتبتسم من جديـد وهـو يقول مرة أخرى " ألم أقل لك أنك تملكين ناصية الدهشة " فردت عليه " إنهـا ليست دهشة ولكني سعيدة بصوت الرذاذ " أكد لها أن هذا التجـاوب الموجـود حولها مع الطبيعة هو ما يميزها فالذي لا شك فيه أنها رأت الرذاذ بل المطر في مصر وأنهاسمعت صوته في أكثر من مكان حتى لو كان زجاج بيتهـا ولكـن القدره على تكرار التجاوب هو ما يميزها... مشيا خطوات خارج المطعم فـي طريقهما إلى العربة إلا والرذاذ بدأ يكثر ويتحول إلى مطر غزير. كانا قد قطعا مسافة بعيدة عن المطعم ويبقى الكثير أيضاً إلى مكان العربـة.. فـتح شمسـية المطر وبعفوية جذبها بسرعة لتحتمي تحتها قريبة منه مشيا مسافة وهي بجواره

فرعدت السماء والمطر أصبح سيلاً.. وضع ذراعه على كتفيها يشدها أقرب ما تكون إليه أدخلت ذراعيها في " السويتر " فجذبها مرة أخرى ناحيتــه بقــوة.. كانت سعيدة بالمطر وفي صوت مزغرد كانت تؤكد له إن مصر لا يمكــن أن تمطر في شهر أكتوبر.... أوصلها إلى بيتها ولما إزداد المطر كان يؤكد لها أن السماء مزمجرة لأنها ستتركه هذه الساعات القليلة على وعد بلقاء في المســاء ليذهبا إلى أحد مسارح شارع " برودواي " في بيتها أول ما فعلته فنجان شاي.. خلعت " السويتر " ونفضته من الماء وتركته مُعلقــاً قــرب البــاب.. البطاقــة العريضة في يدها.. نسي الدكتور " يوسف " أن يقول لها عنها شــيئاً.. فتحــت المظروف المطاطي الملمس وكانت المفاجأة أنها وجدت نفس لوحة " الــزمن " المعلقة في المُتحف والتي رسمتها قبل أن تراها مطبوعة على البطاقة العريضة " رباه هذا الرجل يتقطر فهماً وحناناً ".

•••••

في المساء توقف المطر يؤكد لها أن سهرتها ستكون على أحسن ما يمكــن وهتفت بصوت مسموع " رباه مسرح في برودواي بحاله!! " كانــت الســاعة حوالي الرابعة وموعدها هناك ليس قبل ثلاث ساعات تمددت في فراشها " هناك وقت لأستريح " فكرت فيما يمكن أن ترتديه وشعرت بالندم نوعاً ما لأنهــا لــم تُحضر معها أشياء كثيرة.. أخذت فقط أبسط ملابسها على أساس أنها ســتكون دوماً مع ابنها.. لم تقدر أنه سيكون مشغولاً وملتزماً بجدول إلــى هــذا الحــد والأكثر من هذا أنه لم يعبر بخاطرها أنها ستتقابل مع من عاش داخلها ولو في أبعد نقطة وإنطبع في لوحاتها " يا إلهي ما هذه الأقدار " كان من عادتها أو هذا ما تعلمته من كتاب " كيف تفكر أو كيف تقرر " لا تتذكر الإسم تماماً تعلمت أن تُحدد الموضوع ثم تقسم الصفحة التي أمامها نصفين نصف للإيجابيات ونصف للسلبيات حتى تُقيم الموضوع وتحكم عليه وكانت دوماً تفعل هذا في مرسمها في

" مصر ".. تمسك فرشاتها وتقسم اللوحة تُعطي لجانب الإيجابيات اللون الأحمر وتُعطي لجانب السلبيات اللون الأسود وهمست " أين لي بالألوان الآن " وتناولت النوته الصغيرة من جانبها وكتبت رأس الموضوع " الدكتور يوسف إيجيه " وسألت نفسها كل ما خطر على بالها.. " لماذا يهتم بي؟ وهل أنا سعيدة بمقابلته هو بالذات؟ وما هي السعادة؟ هل السعادة درب من دروب الحب أم أنها نتيجة له؟ " وبدأت تسأل نفسها أيضاً أسئلة أشد غوراً وأقصى في معناها وهي تقول " وهل لإمرأة تعدت الخمسين من عمرها أن تحب ؟ وإن كان الحب نوعاً من الإحساس فهل بقي فيها بعد هذا العمر أحاسيس؟ أليس الأجدر بي أن أترك مثل هذه الأمور لإبنتي وإبني " وكانت أكثر صراحة في مواجهة نفسها وهي تقول"وهل أزيد عن كوني عجوزاً بكل المقاييس فكيف يجوز لي أن أحب؟ الناس من خلفي سيضحكون عليَّ بلّ وفي وجهي" بعد هذه المحاسبة مع نفسها خرجت بنتيجة واحدة وهي أن ما شعرت به اليوم لا يبعد عن كونه نوع من الصداقة على أحسن الفروض بين شرقية وحيدة واستاذ أراد أن يُجامل طالباً عنده أو لعله يحمل وفاءً ما " لمصر " التي عاش فيها عشر سنوات كاملة يحاضر في الجامعة الأمريكية ويسكن حي " باب اللوق " ولا إرادياً كانت تفتح ضلفة دولاب الملابس لتنظر إلى نفسها في المرآة وفي عينيها عتاب على نفسها فلا هي بالعجوز ولا هي بالشمطاء وإذا وافقت نفسها على هذا الرأي وإستراحت له فهل تملك مشاعر الأنثى أو مازالت تملكها وكأنها خجلت من نفسها ولما رفعت بصرها إلى المرآة مرة أخرى حيث مازالت واقفة لاحظت على الفور إحمرار وجنتيها.. أحست سخونة وجهها وجبهتها.. تذكرت وهو يجذبها من خصرها لتحتمي بالشمسية وفي النهاية كانت أجبن من أن تعترف لنفسها بأن لها مشاعر وأنها يمكن أن تستأثر بإعجاب رجل... هزت رأسها كأنها تريد أن تُسقط منها هذا الموضوع الشائك وإنتزعت الورقة من النوتة وإنهالت تقطيعاً

على ماكتبت.. لم يكن أمامها بعد ذلك إلا أن تقف لتأخذ " دُشا " بارداً وتحت الماء شعرت بنوع ما من السكينة.. خمدت ثورتها.. إعتدلت درجة حرارتها وإنتظمت أنفاسها داخلة خارجة لبست قميص نومها ودون أن تقصد راحت في غفوة عميقة لم تستيقظ منها قبل الساعة الكاملة... بقي لها ساعة أخرى ويمر عليها الدكتور " يوسف إيجيه " إختارت ما تلبسه ولم يكن معها أي زجاجة عطر " لا يهم ومنذ متى كنت أهتم بالعطر " دارت أمام المرآه تطمئن على إنتظام شعرها الأسود الذي يغطي كتفيها.. إقتربت من المرآه تُبحلق في مقدمة رأسها.. كان الشعر الأبيض منثوراً فيه " لا يهم ومنذ متى كنت أهتم بتلوينه " دق الهاتف فأسرعت تلتقط البوق وهي تقول " أنا جاهزة " كعادتها كثيراً ما تتوقع المتحدث فيتسابق الرد على شفتيها إلا أن الواقع أن المتحدث كان "حسن " عم إينها إرتبكت للحظة ثم تمالكت نفسها وهي تسأل عن زوجته فأخبرها أنها حُجزت في المستشفي سألت عن إين عمها ولم يطمئنها عليه فقد كانت حالته تُعتبر حرجة وإن كانوا جميعاً لم يفقدوا الأمل... إعتذر العم بالمشاغل والذهاب للمستشفى وإنه مُقصر معها إلا أنها طمأنته أنها بخير وقد ذهبت إلى المتحف في الصباح تهلل صوته وهو يعرف أنها تمضي وقتاً طيباً قررت أن تقول له بأن من دعاها هو الدكتور " يوسف إيجيه " فبدى كأنه نسيه تماماً إلا أنه عاد وتذكره وهو يقول " أستاذ إينك " بعد ذلك أظهر لها إرتياحه الشديد لمصاحبة هذا الدكتور على أساس أنه كان يخشى عليها وهي التي لا تعرف المجتمع الأمريكي أن تقترب أو تتصادق مع من قد يسببون لها متاعب لا قدر الله طمأنته عن نفسها وهي تؤكد له أن الدكتور" يوسف " وعدها بأن يقوم بتعريفها بأستاذ معه أمريكي متزوج من مصرية أظهر العم مرة أخرى إرتياحه وإطمئنانه عليها بين هذه النوعية من الأمريكيين قبل أن تنتهي المكالمة بينهما كانت تلح عليه مرة أخرى أن ترى زوجته " حتى لا تأخذ على خاطرها مني أو تعتبر أن هذا

إهمال من جانبي " أفهمها أنها بدورها تسلم عليها وتأسف لكل تلك الظروف... نظرت في ساعتها وإبتدأت تلبس على عجل دق الهاتف مرة أخرى وعرفت أنه الدكتور " يوسف " ينبهها أن لا تنزل من بيتها قبل خمس دقائق مسافة وصوله عندها من طرف الحديقة الآخر..... بجواره في العربه كان يعدها بقضاء ليلة لن تنساها وكلما إقتربا من شارع " برودواي " كان كل شيئ لامعاً.. الأنوار تملأ الشارع والناس بعربات فارهه.. دخلا في هدوء لتعي أن مكانهما في أول صف.. لم ينس أن يشتري كتيباً صغيراً عرفت منه إسم المسرحية " Phantom of the Opera شبح الأوبرا " حاولت أن تقرأ الكتيب قدر إمكانها وحاول هو في كلمات قليلة أن يعطيها موجزاً لموضوع المسرحية الغنائية إلى أن دقت الثلاث دقات المعروفة وبدأ الفصل الأول وإندمجت "سعاد " في تتبع الموضوع وقدر كبير من الفرحة يختلج في صدرها حتى وجدت نفسها في نهاية الفصل تصفق بكل قوتها فالفن الجيد يصل للجميع بصرف النظر عن اللغة.. تأكدت من فهمها للموضوع من أسئلة صغيرة ولما إطمأنت بدأ هو الآخر يشرح لها تتابع الفصل الثاني بصوت خفيض إستدارت تُلقي نظرة خاطفة على الصالة من خلفها كان الهدوء محسوساً رغم الجمهور العريض.. الرجال والنساء في ملابس بسيطة وعادية كل الألوان وكل الأنماط وتقريباً كل الجنسيات سألها أن تشرب شيئاً في المكان المخصص خارج الصالة إلا أنها كانت سعيدة بتواجدها في القاعة فبقيا في مكانهما وإن كانا واقفين تُدير النظر بطريقة تلقائية يميناً وشمالاً.. همس في أذنها أن الناس تنظر إليها فالأكيد أنهم يحسون أن الملكة المصرية جاءت من علياءها بينهم إبتسمت وقدر كبيرمن الثقة كان يختلج في صدرها وبين جوانحها وعند بداية الفصل الثاني كان الحضور كاملاً وفي ترقب ملحوظ مر الوقت أقصر كثيراً مما كانت تحسب. توالي الأحداث والموسيقى الممزوجة مع صوت الغناء الأوبرالي الرقراق أنعشها حتى

أعماقها.. إستعاد الجمهور بتصفيقه إنحناءة البطلة أكثر من مرة إلـــى أن نــزل الستار ببطء ليُغلق المسرح من أمامها وبدأ يخرجان في خطوات محسوبة وأيضاً بلا ضجيج إلى أن خرجا إلى الطريق.. كان الشارع مغسولاً من المطر الــذي هطل بغزارة.. إستأذنها أن يسيرا إلى أحد المطاعم رحبت بالفكره وبدأت تُسرع في خطوها وهي تقول بصوت مسموع " أحب طعم الدنيا بعد المطر " بدى هو الآخر يبادلها الإحساس بالسعادة.. مشيا على نفس الرصيف وهو يقول لها بأنــه إختار مطعماً إيطالياً يعرف أكلاته وأنه إختاره لأنه أقرب ما يكون إلى الأكــل الشرقي في بعض الأنواع.. ضحك وهو يؤكد لها أن الإيطاليين مــن شــعوب البحر الأبيض المتوسط. كان تعليقها أنه يؤصــل كلامــه دومــاً تاريخيــاً أو جغرافياً.. إنتبه للملاحظة وهو يرد عليها بأن من أسباب البقاء معرفــة المــرء لتاريخه على مر الزمان... في المطعم تركت له الإختيــار فتحولــت المائــدة الصغيرة بينهما إلى مهرجان من العجائن المخلوطة بفواكــه البحــر وغيرهــا المحشو" بالجبن والسبانخ "... شهيتها في أوجها.. لم يأخذا وقتــاً طــويلاً فــي الكلام المُتبادل بينهما ولكنه أكد لها أن الشعب الفرنسي مثلاً يتناول وجبة العشاء فيما يقرب من الساعتين أو أكثر ثم عاد للكلام عن مسرحية " شــبح الأوبــرا " أكدت له أن زمنا طويلاً سيجئ قبل أن تنسى روعة الموسيقى ذكر لهــا إســم المؤلف الموسيقى " Andrew Lloyd Weber أندرو لويــد ويبــر " وهــو واضع كثير من الأعمال المسرحية أكد لهــا أنــه ســيحاول أن يُريهــا بــاقي المسرحيات التي وضع موسيقاها مثل " القطط Cats " ثم إعتذر بأنــه نــاس لباقي أسماء أعماله... ثم فجأة قالت له أنها خافت على البطلة والشــبح الــذي كانت تعتقد أنه ملاك الموسيقى يجري بها لتعيش في القبو في عالمه الخاص رد عليها بأنه كان حباً من طرف واحد طرف الشبح ثم أطرق للحظة واحدة وهــو يقول بصوت شعرت أن به مسحة من الحزن حين قال " إن البطلة لم تُــرد أن

تغامر وتذهب معه رغم حبه الشديد لها " علقت " سعاد " بأنها ربما تكـره مـا تجهل فرد من فوره أنها لم تعطه الفرصة كاملة لتعرفه وتعرف عالمه....... ثم إنحرف بالعربة يساراً عند أقرب ناصية ليأخذ طريقه إلى بيتها.. نزل من فوره ولف بسرعة يفتح لها الباب وقبل أن تخطو فوق رصيف بيتهـا تنـاول يـدها وإنحنى يمسها بشفتيه.. شلال من الخجل سقط عليها وسحبت يـدها فـي لمـح البرق وهي تُغمغم"شكراً.. شكراً" فكان رده" لقـد كـان لـي حـظ مصـاحبة نفرتيتي ".

•••••

لم تنتظر المصعد إنما صعدت الدورين على رجليها وبسرعة ثـم أغلقـت الباب ووقفت مستندة بظهرها عليه متلاحقة الأنفاس.. تحسست يدها التي قبلهـا ثم شعرت بنوع بسيط من الدوار وهي تقول " عجوز تلهث من قبلة على ظهـر كفها بالتأكيد أنها مجرد عادة غربية لديهم " شربت كوب ماء وهي تخلع ملابسها وإتجهت لتنام فالغد سيكون لإبنها ومع إينها أطول وقت ممكن. لقد أوحشها تُرى كيف ستصل إليه وراحت في نوم عميق.. ليس أكثر مـن ثـلاث سـاعات إلا ووجدت نفسها تستيقظ للذهاب إليه.. كتب لها " حسن " من قبل رقم "الأتوبيس " الذي تأخذه من المحطة القريبة ليُنزلها أمام الجامعة تماماً.. كان الوقت مـازال مبكراً فلم تتعدى الساعة السادسة بعد.. صنعت لنفسها كوباً من الشاي تقطع بـه الوقت رغم أنها لم تكن في حاجة إليه لأنها في كامل يقظتها.. دق الهاتف بعـد ساعة بجوارها وكانت تتواصل مع الدكتور " يوسف " الذي عرض عليهـا أن يأخذها معه للجامعة.. ترددت قبل أن تجيبه فشجعها وهو يؤكد لها أن " كريم " في إنتظارها منذ أكثر من ساعة فخرجت العبارة فوريـة مـن بـين شـفتيها " ومن أين عرفت " ضحك وهو يؤكد لها أن إينها قلوق بطبعه والأرجح أنه لم ينم من الأمس في إنتظارها. حكى لها في الطريق عن قلقه وترقبه لها لما عرف

منه بموعد مجيئها.. بهدوء كان يقرر لها ولو أن القلق سمة في أي شاب إلا أنها أكثر ما تكون وضوحاً في الشباب الأكثر ذكاءاً ضحك وهو يلتفت إليها " فما بالك بإبنك العبقري ياسيدتي "... ذكر لها في معرض حديثه أن " كريم " سيكون موضوع بحث رسالته" نحو نظرية إسلامية جديدة " كررت العبارة بصوت مسموع أكثر من مرة " نحو نظرية إسلامية جديدة " ثم إلتفتت مستفسرة إليه " نظرية إسلامية جديدة في إيه؟ " رد من فوره " في الحكم " قالت بوجع " ياه يا ابني دائماً تختار الصعب " إلتفت إليها وهو يعلق " هذا صحيح.. هذا صحيح " ظلت الوقت الباقي من الطريق تحكي عن إبنها منذ طفولته وكيف كان مُحباً للتعليم وكيف كان يحصد أعلى الدرجات بإستمرار وإكتشفت أن الدكتور " يوسف إيجيه " يعرف إبنها معرفة واضحة لا لبس فيها بل ومعرفة كبيرة.. ولما لا وكل درجاته منذ دخوله الجامعة الأمريكية بالمجان بسبب مجموعه الكبير في الثانوية العامة. هذه الدرجات بعينها تحت بصر الدكتور " يوسف إيجيه " إلى أن وصلا وكلاهما ذهب إلى طريقه الدكتور " يوسف " إلى مكتبه وهي سارت في الممرات التي تعرفها لتصل إلى مكان سكن إبنها وكعادتها كانت تنادي عليه قبل أن تصل إلى أن سمعته كعادته يقوم " أهلاً يا أمي "...دعته أن يتناولا غذاؤهما خارج الجامعة على أن يختار هو المكان... دقائق وقررا قضاء هذا اليوم في إحدى الحدائق العامة ليستمتعا بالهواء والشمس إذا طلعت " ولكني خائفة أن تُمطر " طمأنها بأن الحدائق مُجهزة بأماكن ومطاعم يمكن أن يحتميا فيها... ذهبا سيرا على الأقدام. طعم السير إلى جوار إبنها فيه معنى الفخر والتباهي. خطواتها متتابعه بجواره وهي تؤكد له أن خطوه سريع أكثر مما تقدر فكان يبطئ ثم ينسى ويعاود المشي السريع وعند مساحة خضراء مرتفعة قليلاً عن باقي أرض الحديقة جلسا.. نظرت حولها ثم هتفت " كل هذه المساحة الشاسعة حديقة عامة " ثم أردفت

" كيف يعتنون بها " ضحك وهو يؤكد لها أن حشائش النجيلة قوية ومثابرة وكأن لها قدرة عالية على التمسك بالبقاء قالت من فورها " لقد أصبحت فيلسوفاً يا كريم " ثم وكأنها لا تحتمل الإنتظار فسألته " إيه حكاية إنك إخترت لرسالتك أن تكون بعنوان نظرية إسلامية جديدة في الحكم " قبل أن يكلمها كان يقول " أنا سعيد يا أمي إن درجة إهتمامك بي في أمريكا هي درجة إهتمامك بي في مصر" وظل يكلمها بما يعني أن الحضارة الإسلامية وفكرها كانت النبع الذي نهلت منه حضارة أوربا فازدهرت وأفلت حضارة المسلمين.. ولابد الآن من تطوير القانون الأخلاقي وتفعيله حتى نقطف ثمار العلم ونلحق بالعالم علماً بأن الأخلاق تجنبنا شرور العلم الكثيرة لأن الأخلاق ستقضي على أسباب الحروب لأننا سنتواصل بالحوار يا أمي " شردت عنه لثانية واحدة وهي تقول " ماذا تقصد بتطوير القانون الأخلاقي " ظل يشرح لها بما يعني أن الأخلاق هي الأخلاق والإسلام له نظرة في مسألة الأخلاق بالمعنى العام الذي يمس جميع مناحي الحياه إلا أن عالم اليوم يُحكم بكيانات مالية تسيطر على الكون وتتعارض مع الأغلبية الفقيرة وهذا مايسمونه " بالعولمة " وهي كلمة لم تنتشر بعد في مصر إلا أنها هنا مثار كتابات وأبحاث كثيرة عن مستقبل العالم.. كانت تستمع له على جلستها في الحديقة على الحشيش الأخضر وقدر كبير يتأكد كل يوم من إحساسها بالفخر به ولكن كعادتها هي الأخرى دب القلق في أعماقها وهي تقول له بما يعني وهل يسمحون في الجامعات الأجنبية بسهولة أن يؤصل أحد نظرية إسلامية بهذا المعنى وهذه البساطه فكان رده أن أستاذه رحب بالفكره فهم يريدون أن يعرفوا عنا كل شيئ ويعرفون إن أمكن مالذي يدور في عقول الجيل القادم أيضاً " وأنا يا أمي من الجيل القادم " فكان دكتور " يوسف " سعيداً جداً بالفكرة فكرت ملياً وحدقت في المساحة الخضراء على إتساعها من حولهما وهي تقول " إذن أستاذك له حق فهو يكرر دوماً أن إبني عبقري دون شك "...

ضحك حتى عاد برأسه إلى الوراء وهو يؤكد لها أنها كأم تتلمس سماع كلمة مديح حتى لو كانت مجاملة وقاما على الفور يبحثان عن مكان يبيع " الساندوتشات ".

تحشرج صوتها وشعرت بجفاف حلقها وهي تُخرج كلمات قليلة تودعه بها إحتضنها لأكثر من دقيقة قبل أن تستدير وتضع قدمها على أول سلم الأتوبيس لتعود إلى بيتها وهي تهم في طلوع السلمة الثانية كانت دموعها تسقط على نفس السلمة ودلفت داخل الأتوبيس جالسة. المقعد أراحها وأزاح قدراً من الضيق عن نفسها قبل أن تنتبه لتتفرج على الطريق وهي تهمس بدعواتها له.

*****

" أمي أشعر بفراغ رهيب من يوم أن سافرت.. كيف حال أخي ومتى ستعودين.. شادي يقبلك " سيل منّ عبارات كلها شجن وحنين وهي تكلمها.. تمنت " سعاد " لو أن " شادي " أمامها لأخذته بين ذراعيها وشبعت هي منه وهل يمكن أن تشبع منه ! طمأنتها عن نفسها وإطمأنت عليها.. سألتَ عن بنت عمها المقيمة معها وعرفت أن كل الأمور تسير على مايرام.. الحياة لا تتوقف لغياب أي فرد حتى لو كان الأم وإبتسمت وهي تعي بأن الحياةَ لا تتوقف أيضاً لغياب الأب وكأن المرء في دنياه يمشي بقوة دفع خفية إلى مصير ما جزء منه محدد سلفاً. وجزء منه يتسبب في صنعه ليؤكد أيضاً أنه نفس المحدد سلفاً الأيام تجري بها وقد توطدت علاقتها بالدكتور " يوسف إيجيه " وزميله في الجامعة الدكتور" هارت سترونج " وزوجته المصرية " ماري " ولهما إبنان الكبرى " ناديا " تعمل في مجال الأزياء وأخوها " آدم " يعمل في مؤسسة تصنع أجهزة التسجيل.. معهم لا تعرف الوحدة أو الغربة. الأيام تمضي بها بينهم وفي كل يوم ترى وتعرف جديداً حتى شبعت من الفُرجة على صالات عرض اللوحات والتماثيل.. عرفت كل المحلات حفظت دور دور في برجي التجارة الشهيرين

و" ناديا " إبنة " ماري " لا تتأخر عن دعوتها لعروض الأزياء المختلفة التـــي تقام دورياً هنا وهناك. تتركها " سعاد " وقد أعياها اللف والدوران الجميل لتتام ساعتين على موعد مع الدكتور " يوسف " الذي كان غالباً ما يدعوهم جميعاً إما لأحد المسارح أو لتناول العشاء في بيته وكثيراً ما كانوا يقضون وقتاً آخر فـــي بيت الدكتور " هارت سترونج " الأحساس مستقر داخلها بالسعادة ونوع لـــيس قليلاً بالإحساس أيضاً بالود الموصول. علاقة هي في حقيقتها درب مـــن دروب المودة التي لا يجبرها فيها أحد على شيئ إنما دائماً يعرضون ثم يتركون لهـــا الخيار وهي بدورها لا ترفض أي عرض وكأنها تعوض سنوات التقوقع التـــي عاشتها وكأنها كانت داخل محارة أو صدفة لتربي " كريم ومنـــى " الإحســـاس بالأسرة والعائلة متربع داخلها.. يكلمونها عن إبنها " كريم " ويتوقعون له نجاحاً ثم يتكلمون عن وطنها وناسها لقد إكتشفت أنهم يعرفون الكثير عنها كمصرية بل إنهم يجلونها لكونها مصرية ودوماً ما تذكر " ماري " أيامها في حـــي الظـــاهر وجيرانها.. يطلبون من " سعاد " أحياناً أن تعد لهم " الكشـــري " ولمـــا يشـــتد المطر يطلبون " شربة العدس ".. إشترت " ماري " " الملوخية الخضراء " في أكياس معبأة لتقوم " سعاد " على طبخها وأعجبت الدكتور " يوسف " وهو يردد مرات أنه يعرفها من عيشته في القاهرة سنوات.. لأول مرة تعرف أن الدكتور " يوسف " أمضى جانباً من طفولته في القاهرة أيضاً وعلى الأخص فـــي حـــي مصر الجديدة وبالتحديد في ميدان الجامع فقد كان لوالده محل يبيع فيه القمـــاش وقصة طويلة رواها عن مجيئه إلى أمريكـــا... حكـــت لهـــم " ســـعاد " عـــن " الحمام المحشي " و" عرق البسطرمة " الذي أحضرته معها من مصـــر ومـــا جرى لها من رجال الجمارك والكلاب... ظلوا يضحكون ليلتهـــا إلـــى ســـاعة متأخرة من الليل فقد كان اليوم التالي أجازة نهاية الأسبوع..... وفي يوم دُعيت في بيت الدكتور " هارت " وزوجته " ماري " وهناك قدموا لهـــا البروفســـور

" حكيم " الهندي الأصل وعرفت أنه كان يعمل مراسلاً صحفياً في البلقان والآن يعمل مديراً تنفيذياً لمركز حقوق الإنسان في جامعة معروفة حياها بطريقة ودية هو وزوجته " ميرا " الهندية أيضاً، شبك كفيه في مواجهة صدره وإنحنى وهو يقول لها " إمرأة من مدينة الهرم وأبو الهول " عرفت أن رؤيته لمصـــر حُلــم كبير له ولزوجته، حكي لها عن عمله أيام أن كان مراسلاً في بلاد كثيرة فــي الشرق ولذلك تعلم الفصحي... إختلجت على جلستها بينهم فلم تعش مــن قبــل الإحساس بأن مصريتها تفرض كل هذا الإجلال والتقدير وفي آخــر الســـهرة أوصلها وزوجته إلى بيتها. أيقنت أن حياتها بين هؤلاء الأصدقاء مكافأة لها من السماء عن طول معاناتها وحيدة تربي البنت والولد ومع الأيام نسيت أنهم جميعاً مجرد أصدقاء لفترة محدودة فقد باتت تشعر أنها بين أهل لها فكرت في إبنهـــا وتمنت أن يعايش لحظات الود والصدق كما تعيشها هي... فهل ياترى لديه من الزملاء والأصدقاء في مكانه الذي يسكنه في الجامعة كدارس مثل مـــا لهـــا.. حقيقة أن بعض من يتعامل معهم من أساتذة هم بالتقريب من تراهم يومياً ولكــن هل تختلف المعاملة ويقل الود بينهم كأساتذه له عن كونهم أصدقاء لها؟... وعت أنها وإبنها تتعامل مع أكثر من جنسية فعادت تتساءل هل يمكن أن يختلفوا أم أن العلم والتعلم أكسبهم سمواً حتى صار هذا منهاجاً لحياتهم وتعاملهم مع الآخرين فلا يمكن أن يكون الإنسان مزدوجاً يحوي داخله شخصيتين يتعــاملون معهـــا بطريقة ويعاملون إبنها بطريقة مختلفة لمجرد أنه دارس يطلب العلــم مـــنهم... تذكرت ترحيبهم به عبر الخطابات التي كانت تصله في مصر والأكثر والأكيــد أنه لم يشكو لها من شيئ صحيح أن وزنه نقص إلا أن أساريره رغم الدراســـة إستشفت " سعاد " منها الراحة والسعادة... فكرت أن تنزل في الغــد تشـــتري معاجين وفرشاه لترسم معاني جديدة عليها ومشاعر تصطخب في داخلها يجــب أن تسجلها فالحياة رغم حلاوتها في هذا البلد إلا أنهـــا ينقصـــها الكثيـــر لعـــدم

ممارستها هوايتها.. هذا ما ستفعله في الغد وقبل أن تذهب إلى الدكتور " يوسف " الذي طلبت منه أن لا يأتي لأخذها إذ يمكنها أن تذهب إلى الطرف الآخر من الحديقة حيث بيته سيراً على الأقدام وإستدارت تنظر ناحية النافذة العريضة لتقرر أن المبنى الذي يسكن فيه والذي حددته من بيتها بل والدور الذي يقطنه مظلم تماماً " لابد أنه أخلد إلى النوم " فتراجعت عن فكرة أن تكلمه وإنشغلت بإعداد مشروب ساخن من التيليو الذي أسلمها لنوم عميق... وأول ما عملته في صباحها الباكر أن طلبت عم أولادها لتعرف بكل أسف عن رحيل إين عم زوجته ويُنبئها أن الأيام القادمة سيكون فيها مشغولاً بسبب هذا الظرف وبسبب ضرورة وجوده بجوار زوجته ولما سألت عن وقع خبر إين عمها عليها طمأنها بأنها مستريحة لأنها عملت كل ما يمكنها وبأن إحساسها بعدم التقصير هو ما يجعلها في حالة نفسية مُرضية نسبياً.. ألحت مرة أخرى لتراها فوعدها بإمكانية ذلك أقرب مما تتصور... لما وضعت الهاتف كان القلق قد أخذمنها كل مأخذ فأدارت القرص لا إرادياً تطلب إبنتها في القاهرة ورغم إختلاف التوقيت الذي لم تحسب حسابه إلا أن الوقت عند إبنتها ما زال عصراً وإندهشت أن الهاتف لم يدق وسمعت إبنتها ترد على الفور " أيوه يا أمي " ولما إستفسرت قالت لها بأنها في الليلة الماضية بالذات كانت كأنها تعيش معها وأن قلقاً ما تملكها وأنها كانت تنوي أن تطلبها بنفسها... هل يظل المرء موصولاً بأمه حتى بعد أن ينفصل عنها... سألت عن أحوالها وإطمأنت على " شادي " وأخبرتها " سعاد " أنها لا تترك فرصة إلا وتشتري له ألواناً من الملابس واللعب إلى أن سمعت ضحكة إبنتها فأغلقت الهاتف مطمئنة ورغم أنها تحرص على كل دولار معها لتشتري به شيئاً مفيداً إلا أن إطمئنانها على حبة قلبها يتضاءل أمامه أي ثمن كمكالمة مهما وصل ثمنها.

*****

اليوم عيد ميلاد دكتور " يوسف إبجيه " وتقف " سعاد " تُعد أصنافها الشهيرة بل وأصعب هذه الأصناف.. إنها تعرف منطقة " بروكلين " التي تسكنها بل تحفظها عن ظهر قلب.. إشترت كل شيئ ووقفت تصنع محشي " ورق العنب " تحرص على أن تجعله صغيراً ما أمكنها إلى أن إمتلأت " الحله " بين يديها وأشعلت تحتها النار ثم إلتفتت لتصنع صينية البسبوسة المعروفة وتجهز العسل.. زينتها بحبات اللوز وتركتها تبرد وإلتفتت مرة أخرى إلى تجهيز أحب أكلاتها " المسقعة " من قطع الباذنجان.. " تجهيز الوجبات في هذا البلد أياً كان نوعها لا يستغرق وقتاً طويلاً فكل شيئ جاهز أو نصف جاهز والفرن كهربائي " يِسْعِفْ " ومضبوط "... نقلت أصنافها على أطباق واسعة ومزينة من ورق الألومنيوم وكانت قد إتفقت مع" ماري " على أن يُجهزا الأطباق وأرادت أن تشاركهما " ميرا " زوجة البروفسور الهندية.. كل هذا الإتفاق دار بينهم دون أن يفطن دكتور " يوسف " إلى اليوم أو يتذكرأنه بمناسبة ميلاده إلى أن فاجأوه في حوالي الخامسة، إعتقد أنها زيارة عادية وإستأذنهم في نصف ساعة منفرداً في مكتبه ليكتب تقريراً يحتاجه في الصباح وبعد حوالي الساعة فتح الباب ليفاجأ بالجميع في إنتظاره حول مائدة عامرة " وكل عام وإنت طيب وعقبال مائة عام " فضحك وهو يفاجَأ بقصدهم بعد قليل وقبل أن ينتهوا من المائدة كان الهاتف لا يتوقف عن الدق بعض مكالمات من الأصدقاء يهنئونه بيوم ميلاده.. تعجب كيف لم يفطن إلى التاريخ وسألهم " هل هذا من علامات الشيخوخة أم أنه يرفض مرور الزمن ليكبر عاماً " جلسوا جميعاً في صالون ملحق يغلب عليه اللون الأبيض... دقائق ودق جرس الباب إتجه الدكتور " يوسف " إليه كانت " ناديا وآدم " إبنا " ماري " وزوجها دكتور " هارت سترونج " ومعهما باقة من الزهور بينما كان " آدم " يعتذر عن تأخيره بسبب عمله في إحدى المؤسسات التي تصنع أجهزة الكمبيوتر وقطع غيار عديدة

للتليفزيون وفي الحال أخرج من جيبه قطعه مستطيلة من البلاستيك وهو يقـول للدكتور" يوسف " " هذه هديتي إليك قطعة غيار للكمبيوتر تجعله أكثر تحديثاً " ثم توجه من فوره إلى حجرة مكتبه وإنشغل في تركيب القطعة والكل يستنتج أو يعلق على أن صناعة هذه الأجهزة باتت في سباق مع الزمن ومع مشرق كـل يوم دوماً هناك الجديد في عالم تلك الأجهزة.. كان الدكتور " يوسف " في غاية السعادة بفكرة التحديث هذه ولما إنتهى " آدم " من تركيبها داخل الجهـاز عـاد ليجلس معهم فما كان من دكتور " هارت سترونج " والده إلا أن إلتفت إليه وهو يقول " إني أحسد أبناء جيلك على رفاهية التعامل مع الأجهـزة عمومـاً " رد الدكتور" يوسف " " معك حق ولكن الذي لا شك فيه أن الشاشات فـي المقابـل تسرق أعمارهم، على قدر ما تُعطي تأخذ، إنهـا قريبـة مـن فكـرة تعـاطي الماريجوانا، في ممارستها نوع من الإدمان " إبتسم " آدم " وهو يقول " بحكـم أنها وظيفتي فأنا مع الشاشات وما تقدمه لأنها متعة حقيقيـة " رفـع حاجبيـه البروفسور الهندي وهو يقول " لا شك في ان الشاشات تمتعنا بشحنات إلكترونية لا يزيد تأثيرها عن لحظات.. ولماذا لا تتكلمون عن الأقوى وهو جهاز الموبايل القادم " فقاطعته زوجته " ميرا " لتؤكد أن في المستقبل ستُدار الأسـرة بجهـاز التحكم عن بعد وهذا هو الموبايل.. الأباء سيعتمدون عليه ويستكينون في كـل إلى إمكان العثور على أبنائهم في أي وقـت " تـداخل الـدكتور " يوسـف " " الواقع أن الشاشات بأنواعها أصبحت تمنحنا إستثارة فقط ودائماً نخرج منهـا بضجيج ثقافي في آذاننا ولا يُزيدنا ما نأخذه منها إلا تلوثاً فكرياً رغـم الحقيقـة التي تقدمها الصور إلا أنها في جوهرها ليست الحقيقة إنها تلوث فكري " وعلى إستحياء وبعد تردد طويل كانت " سعاد " تقول " أعتقد أن الشاشات حرمت أبناء هذا الزمن حكايات الأم ولا أظن أنه يمكن لطفل الآن أن يشعر بقـدر السـعادة التي كنت أعيشها لصيقة في جنب أمي أسمع حكاويها قبل النوم " ثـم سـكتت

فجأة.. خشيت أن تكون فكرتها ليست على المستوى الذي يتكلمون به لأنها قالت ما تحس به وغشيَ المكان صمت تام لأكثر من دقيقة قبل أن يرفع البروفسور الهندي حاجبيه وهو يقول " إذا كان حليب الأم يُصبح ضاراً وهذا غير معقول فكذلك الحكايات التي عشنا عليها لا يمكن إلا أن تكون أساساً للنمو النفسي والعقلي الصحيح " إبتلعت " سعاد " لعابها وقد شعرت بقدر محسوس من الثقة فهاهم يشبهون عبارتها وتفضيلها للحكايات بحليب الأم الرباني.. نظر إليها الدكتور " يوسف " بإعجاب كبير ليضيف " إن حضارة الضغط على الأزرار أفسدت فطرة أجيال لأنهم سرقوا منهم نمو الوعي والقدرة على التخيل الذي هو أساس الإبتكار فلن نجد الشاب الذي يملك خبرة معاشة حقيقية عن الحياة إذا كان في قدرته أن يستدعي كل الصور بزر تحت إصبعه ولكنها دكتاتورية الصناعة في الرأسمالية وفي الشيوعية، صناعة سرقة الوعي تساوي المليارات التي تُقيم الممالك يا سادة " عادت " سعاد " تشاور عقلها وتتردد في أن تتكلم مرة أخرى.. نظرة من عين الدكتور " يوسف " شجعتها أن تبدأ وعادت لتسأل على إستحياء " وهل يمكن أن يتخلص العالم من هذا الواقع الورطة " ثم سكتت فحسها الدكتور" يوسف " " وماذا ياسعاد تكلمي " فأخذت شهيقاً وهي تُكمل " ونعود إلى الزمن الرحيم نعيش الصدق ونلمس قلب الأشياء " وقف البروفسور " حكيم " وهو يضم كفيه إلى بعضهما وأمامها كان ينحني بطريقته الهندية وهو يقول " لقد رأيت في بلادي كثيراً من عشاق الشاشات يُفطمون دون أن ينظروا إليها مرة أخرى إذا صادفوا حكاية صادقة والصدق يا سيدتي لا يأتي إلا عن طريق الحب في الأسرة وليس عن طريق الريموت كونترول " ثم وضع الدكتور " حكيم " كفه على جبهته لثالثة " حكايات طفولتنا الخرافية من جداتنا بالذات كانت معجونة بأشعة شمسنا وغبار نجوم سمائنا المتلألئة لأنها منا وعنا وهذا الغبار نفسه علمنا أننا حين نكبر قليلاً ونعشق القراءة قد لا نصدق كل ما نقرأه

ولكننا دوماً نجد فيه صدى لإحساس مر يوماً في داخلنا ونحن نسمع الحكايــات لأننا نتكون وننضج مع الحكايات وإذا بدلنا أسماء الأبطال صارت القصة عنــا ومن أنفسنا " لأول مرة تجد الدكتور" يوسف " ساهماً ومسحة من حزن دفــين بدت على أساريره فسحبت سحنته وبدى وجهه أنحف من حقيقته ثم نظر إلـــى البروفسور" حكيم " وهو يقول" إنني أحس بما تقول فإن الطفل الــذي يُعــايش تاريخ له يتبلور أمام عينيه أكثر سعادة من الذي يعرفه عن طريـــق الشاشـــات المعلبة والجاهزة وهذا يعنى أنه مع تعاقب الأيام والسنين يمتلك جــذوراً يظــل موصولاً بها والأغلب أنه ينسج مستقبلاً مهماً على عكس الذي يعــيش شــتاتاً فينبت هاشاً دون جذور حتى وإن نجحت تجربة فقدان الجذور لفترة ".

•••••

ما أن أوصلوها بيتها بعد الإحتفال بيوم ميلاده إلا ودق الهاتف فنظرت إلى ساعة يدها كانت حوالي العاشرة مساءً توقعت أن تكون إبنتها " منـــى " هتفــت بإسمها فسمعت على الطرف الآخر من يضحك تبينته على الفور وهـــي تقــول " يوسف " رد من فوره " ما أحببت إسمي أكثر من هذه الساعة وأشكرك علـــى كل ما قمت به وأشكرك أكثر على آرائك الثاقبة رغم أنها بعفوية " كانت تــرد عليه بحقيقة شعورها وخوفها من الخوض في نقاش مع إناس على هذه الدرجـــة العلمية كان يُطمئنها بعبارة واحدة" الصدق أقوى من العلم " فكرت ملياً وهـــي تسأله " كأنك تفتقد الصدق " ضحك وهو يؤكد لها بأنه لو كان الصدق نـــاموس الدنيا ما قامت حروب وجحيم.. تدرج الحوار بينهما إلى ولعه بالشعر العربـــي بالذات وسألها مرة أخرى إن كانت تقرأه.. ومضى الحديث بينهما في هذا الوقت من الليل وهو يقرأ لها بعض كلمات للشاعر" جبران خليل جبران ".. ثم قالت له بأن جفاف المهجر وذلك الشوق الذي كان يكابده هو ما ألهمه كثيراً من المعاني ذكرت له أن إبنها " كريم " يقتني في مصر دواوين لشـــعراء عـــرب ومـــنهم

" جبران ".. سألها مباشرة إن كانت حاولت كتابة الشعر فردت عليه ولماذا هي بالذات ؟ ولماذا يتوسم فيها هذا ؟ وظل وقتاً يؤكد لها حدسه بأن الأرض التي نبتت عليها مهبط للرسالات السماوية وأيضاً للرسالات من كل لون آخر علمية أو أدبية... ومع إقتراب الليل من هزيعه الأخير كان يؤكد لها أنه صار لا يستغني عنها فهي الأصل لأنها التاريخ ولا يمكن أن يكذب التاريخ يظل هكذا يولد ويؤكد الحقيقة مهما حاول طمسها الآخر فهي بالنسبة له المرأة الحُلم التي عثر عليها... لم يكن ينتظر منها تجاوباً إنما تمادى في الهمس لها ووشوشتها وهو يؤكد أنه يحمل هم اليوم الذي ستعلن فيه أنها لابد أن تعود إلى " مصر " إنه لا يتصور هذا اليوم... بتلقائيتها المُعتادة : " وهل أنت نفسك لا تحن إلى العودة إلى مصر "...بكل معنى الألم مُجسداً كان يقولها " بل إنني أتمنى حتى أن أُدفن في مصر" ولما سألته " هل تحبنا إلى هذه الدرجة " وبقي سؤالها بلا جواب يقوله وطال الصمت بينهما لأكثر من دقيقتين بحالهما قبل أن يقول " وكيف لا يحب المرء أصوله وجذوره. ألم أقل لك إنني تربيت في مصر وأن إسم " يوسف إيجيه " هو في الأساس " يوسف عبجي " وكان لوالدي فيها تجارة القماش " هللت وهي تقول له " فعلاً إسم " عبجي " كان في مصر وكانت أمي تشتري منه القماش في مصر الجديدة وعلى وجه التحديد في ميدان الجامع فعلا.. فعلاً أنا أعرف هذا الإسم إذا أنت يوسف عبجي وليس إيجيه! " رد عليها بل إنني أذكر أين كان المحل على وجه التحديد في شارع صلاح الدين المتفرع من ميدان الجامع وأعرف أغلب شوارع طفولتي هناك شارع نخلة المطيعي وشارع أسوان وشارع المنيا "... كمن عثرت على شيئ فجأة فصرخت صرخة خافتة وهي تقول " لقد تربيت وعشت في شارع من هذه الشوارع القريبة من محل والدك ".. " الدنيا صغيرة كما تقولون في مصر " بعد لحظة صمت كان يقول لها بنبرة قوية نوعاً ما " ربما رأى كل منا الآخر في ذلك الوقت " توقفت

أنفاسها للحظة وهي تعي أن هذا مُحتمل فعلاً إلا أنه أسرع وهو يقول لها" أنا لا أعني أنك من عمري أو لك مثل عمري " وكانت " سعاد " من طبيعتها أن لا تُنكر عمرها بل وتعلمت أيضاً أنه إمعاناً في أن لا يؤلمها الآخر وهي التي عاشت وحيده بذراعها في هذه الدنيا أن من يسألها عن عمرها أو يحاول أن يصل إلى عمرها التقريبي فكانت من فورها ترد عليه بأن تُضيف إلى عمرها الحقيقي سنوات عشر زيادة فينقلب من أمامها وقد غشيته الدهشة ليقرر أنها لا تبدو كما تُعلن إنما هي أصغر بعشر سنوات على الأقل.. صحى هذا الهاجس داخلها فردت عليه بقوة ولماذا لا أكون في مثل عمرك بل لعلني أكون حتى أكبر منك، ظل يعتذر طويلاً عن وصول الحديث بينهما إلى هذا المستوى فالمرأة تعتبر أن عُمرها سرٌ لا يجب أن يطلع عليه الآخر. كما أنها تبدو أصغر منه على الأقل بعشرين سنة وأنها.. وأنها.. ولما إطمأنت إلى نجاح خطتها المحفوظة عادت لتؤكد له أن مسألة العمر لا تُشكل لها أي نوع من الحرج.... تسرب الحديث بينهما إلى أكثر من موضوع إلا أنه أدهشها حين قال لها قبل أن تنتهي المكالمة بينهما بما معناه أنها لا تعرفه إلى الآن!! وضعت السماعة وإستلقت على فراشها ولحظة إستبصار سقطت عليها وهي تهمس " لعلني فعلاً رأيته ولهذا تتطبع ملامحه في أرضية العديد من لوحاتي بل الأرجح والأكيد أنني رأيته ونحن صغار ".

*****

دخولها أي مستشفى يُصيبها بنوع من القلق بل إن ساقيها إلتفتا على بعضهما أكثر من مرة وكان " حسن " عم أولادها يمسكها بقوه من ذراعها رغم أنها كانت تنوي قبل هذه الزيارة أن تبدو متماسكة ما أمكنها وسعيدة بزيارة زوجته وأن تنقل لها ما أمكنها أيضاً الإحساس الأكيد بقرب نجاح علاجها إلا أنها كانت كلما إقتربت من الممرات الكثيرة التي توصلها إليها بجوار" حسن "

كانت قواها تخور إلى أن وجدت نفسها وجهاً لوجه أمامها وهنا تيقظت تماماً إلى ضرورة أن تتمالك زمام نفسها وفوق هذا تبدو متفائله وقد أفلحت في هذا إلى حد كبير وخاصة عندما وجدت زوجته نفسها وكأن الأمل داخلها حي في حتمية شفائها.. كانت تجلس وإن لاحظت " سعاد " أنها تغطي شعرها بغطاء بسيط وأنيق ولم تتردد في أن تُعلن أمامها بكل بساطة أنها فقدت شعرها من أثر العلاج الكيميائي الذي سيستمر لفترة أخرى إصطنعت " سعاد " أمامها وكأنها لم تلحظ هذه الحقيقة... كان العم ينظر إليها بنوع من الرضا عن نجاحها في التظاهر أمام زوجته وكأن كل شيئ عادي أو كأن هذه مرحلة دقيقة وستنتهي، تبسم العم وهو يُشير إلى زوجته بأن " سعاد " وضعت لها هدية في البيت ستسعدها عند عودتها ولما إلتفتت " سعاد " نفسها مُستفسرة كان العم يسارع بأن يُعلن عن اللوحة التي علقها في البيت والتي هي هدية من " سعاد " سألت الزوجة عن مضمون اللوحة فقال لها " حسن " أنها بعنوان " الأمل " فإبتسمت زوجته وهي تؤكد أن بداخلها الأمل أكيد بأن الغد يحمل لها شفاءً كاملاً. لأول مرة منذ أن حضرت " سعاد " لزيارتها تشعر بالراحة فالزوجة تتلمس أي معنى لتتأكد من قرب الشفاء ثم أشارت بأصبعها إلى سقف الحجرة ولما نظرت إليها " سعاد " كانت تقول جملتهم الشهيرة والتي قرأتها " سعاد " مكتوبة على الدولار الأمريكي " Soad in God we trust " " سعاد إننا نؤمن بالله " ضحك " حسن " وهو يشرح " لسعاد "... في وقفتها في الحجره بدت وكأن المريضة هي نفسها ما تُزيح كل قلق عن نفوس من هم في زيارتها.. نظر العم إليها وهو يقول بالعربية " إنها شديدة الإيمان " فهمت زوجته الأمريكية مقصده فقالت بإنجليزيتها التي كان ملموساً أنها تحاول أن تبسطها لتستوعبها " سعاد " " الله رحيم على أرضنا وفي الآخرة أيضاً لأنه الأب الفعلي " عند هذا الحد وشعرت " سعاد " بنوع من الود والراحة معها.. إنزاح عن روحها الألف ألف

حساب الذي كانت تعمله لهذه الزيارة. كان قد مر عليهما أكثر من الثُلث ساعة فغمز لها العم بعينه أن ينصرفا... أشارت لهما بيدها على جلستها في سريرها... وهما يبتعدان وكانت ترسل لهما قبلاتها في الهواء وعند أول خطوة لها مع العم كانت تأخذ شهيقاً عميقاً حين إلتفت إليها وهو يقول " هذه طبيعة المرأة الأمريكية شديدة الواقعية وتأخذ كل الأمور بهدوء" ثم سكت وعاد ليقول لها بتأكد بما يعني أنها سواء عاشت أو رحلت - لا قدر الله – فهو على يقين من أنها ستجد السعادة في الحياتين. في خاطر " سعاد " الوعي كبير بأن الإنسان في جهاده لتلمس الفرح حتى ولو كان مؤجلاً فإنه يواجه كل الصعاب يمر منها أو تمر فوقه والهدف لا يتغير إنتظار السعادة كمكافأة في آخر الرحلة الصعبة وتساءلت هل السعادة في الراحة أم في الصحه أم في الأولاد والواقع أنها لم تستطع أن تحدد معنى بعينه فالذي لا شك فيه أن مصادر السعادة التي منحها لنا الخالق لا تُحصى المهم أن يعيها ويعيشها الإنسان حتى يصل إلى درجة الإيمان بها حتى بعد الإنتقال.. بعد السفرة الأخيرة.. وبدى عم إينها كمن أحس بما يدور في خلدها كطبيعة في شخصيته فقال لها " فعلاً يبحث الإنسان دوماً عن السعادة " ثم توقف وقد إلتفت إليها وهو يقول " ألم تشعري بمدى إيمان زوجتى.. على العموم الشعب الأمريكي بكل المقاييس شعب مُتدين دائم النظر بل الترتيب إلى ما بعد الحياة " وعاد ليتوقف بعد أن بدءا يخطوان مرة أخرى وهو يقول لها " لا تصدقي الأفلام الأمريكية فالحقيقة فيها لا تتعدى العشرة في المائة وإنما السينما هنا صناعة بمعنى الكلمة وتخضع لمسألة العرض.والطلب ".

*****

بدت وكأنها لا تُصدق أذنيها.. لا تُصدق ما تسمع فالحجرة مُظلمة ولا بصيص من ضوء " هل يُعقل أن يكون هذا الدق حقاً من الهاتف؟! " وقبل أن تسترسل في عمل مجادلات وحسابات للوقت كانت تهب جالسة ويدها على النور

وبلا توانٍ كانت ترفع السماعة ولم تكن حتى قد فكرت في إحتمـــال شخصـــية الطالب وجُرعة إطمئنان تسربت إلى نفسها لما عرفت أنه الدكتور " يوســف " قبل أن ترد تحيته كانت تسأل عن الوقت. وافقها أنه يطلبها مبكراً وقبل عادتهـــا في الأستيقاظ وإعتذر عن ذلك ولم ينتظر بعد ذلك ثانية واحدة إنما بادرها على الفور بعبارة " لقد إُغتيل السادات " بعد أخذ ورد معه عرفت بعض التفاصـــيل غير المؤكدة ولما أنهت المكالمة كانت تقوم واقفـــة لتفـــتح جهـــاز التليفزيـــون الموضوع أمامها وعادت تجلس مكانها في السرير لم تكن الساعة قد تجـــاوزت السابعة ووجدت أمامها المشاهد تتوالى وهي بين ذهول الحدث ووجع قلبها كانت تُدير القرص تطلب " كريم " تنبئه بالحدث الجلل.. أغلقت مـــع إبنهـــا والقلـــق ساورها على حبة القلب " منى " أدارت القرص وهي تتوقع أن يكـــون الوقـــت مناسب في القاهرة.. إطمأنت عليها ونبهتها إلى التقليل ما أمكنها من النزول في غير موعد عملها وطلبت منها الإتصال بعملها لعلهم يطلبون منها عدم المجـــئ أصلاً.. بدت كأنها تريد أن تنتهي من تحذيرها والإطمئنان على " منى " بالذات لتتفرغ لفهم ما يجري حولها.. بقيت تُقلب الشاشات وبين الثانية والأخرى كانت تهمس بمرارة " رجل السلام يموت في يوم عيد السلام الـــذي صـــنعه " عنـــد التاسعة كانت شقتها الصغيرة تمتلئ بأصدقائها هذا غير جيران لها لم تعـــرفهم وربما لم ترهم جاءوا إليها وكلمات العزاء والمشاركة يقدمونها... قامت " ماري " زوجة دكتور " هارت سترونج " تُعد القهوة أكثر من مره أمـــا البروفســـور " حكيم " وزوجته فكان الأسى مُرتسماً على وجهيهما والزوج يؤكد بأنه يتمنـــى عودة الأيام التي كان يعمل فيها مراسلاً لجريدته بسبب إهتمامه بالشرق الأوسط وقبل أن يعمل مديراً لمركز لحقوق الإنسان في إحدى جامعـــات " نيويـــورك " فالعمل الصحفي يؤكد لصاحبه أنه يحي بوجوده في قلب الأحداث الســـاخنة.... تركت " سعاد " باب شقتها مفتوحاً عن آخره فتكرار الـــدق وتوقعهـــا لمجـــئ

الجيران جعلها تتركه ليس أكثر من دقيقتين إلا وظهـر " آدم و ناديـا " إبنـا دكتور" سترونج وماري " علامات الدهشة والتسائل مُرتسمه علـى وجهيهمـا وأعلنا أن إحدى المحطات الموثوق بها التي تتمتع بمصداقية عالية تقـول أنهـا جماعه إسلامية من داخل الجيش المصري دبرت الحادث وأن الـرئيس همـس بعبارة " أنتم أولادي " قبل أن يسقط.. إهتزت " سعاد " وصـرخة حاولـت أن تُسيطر عليها ما أمكنها وهي تقول " لا.. لا يمكن " رد البروفسـور " حكـيم " ولماذا تستبعدين وأنا بحكم خبرتي بمنطقة الشرق الأوسط فإن هـذا مُحتمـل ووارد من يوم ذهاب السادات إلى عُقر دار اليهود وحتى قبـل ذلـك لإنعـدام الديمقراطية عندكم " ردت " سعاد " " نحن نتعلمهـا ونحـن نحـاول " أكمـل البروفسور حديثه " يا سيدتي إن ما تفهمونه عن الديمقراطيـة هـي إنتخابـات الرئاسة فقط وهذا خطأً فادح الديمقراطية نجحت في الهند برغم أنها ليست بلـداً غربياً لأننا نعرف أن الديمقراطية هي الحرية في كل شيئ والسماح بالإختلاف مع الآخر إلى أقصى حد وإعطاءه الحق في التعبيـر ولـيس قصـرها علـى الإنتخابات، بل حرية الإجتماع والحرية الدينية وحرية الملكيـة وصـولاً إلـى الحرية حتى في البيزنس وهذه هي الديمقراطية الليبرالية بمعنى أقصى حريـة فكان حزب المؤتمر في الهند ليبرالياً إلى أقص حد صادقاً في الوصول إلى حكم دستوري فيه سيادة للقانون " ردت من فورها " السادات كـان يقـول بسـيادة القانون " ضحك وهو يقول " هتلر كان ديمقراطياً أيضاً حقيقه صعد إلى الحكم من خلال الإنتخابات الديمقراطية لأنها ياسيدتي كانت ديمقراطية إنتخابات وليس جوهراً لكل شيئ فالديمقراطية في حالة عدم أخذها وممارستها ككل قد توصـل إلى الفاشية أي الإرهاب ومنتهى الإستبداد " ثم نظر إليها وبدت عينـاه واسـعة شديدة السواد وهو يقول وقد أشار بإصبعه " وديمقراطيتكم ياسيدتي على أحسن تقدير ديمقراطية إنتخابات إن وجدت، غائب عنكم الحرية بمعناها الواسع وعلى

فكرة حتى تتجزر الديمقراطية كما يجب لابد أن البيئة الإجتماعية بما فيها من إختلافات وأديان تكون ليبرالية إلى أقصى حد "... رأس " سعاد " مثل بندول الساعة لا تستقر بين كتفيها من متابعتها للنقاش الذي إحتدم بين الجميع و"سعاد " يموج داخل روحها مزيج من الإنفعالات ما بين حسرتها على مقتل " السادات " فلم تكن تعرف أنها تحمل له كل هذا التقدير إلا بعد أن رحل ولو أنها كانت في نفس الوقت تُرهف الإنتباه إلى التليفزيون لعلهم يعلنون إمكان عمل أي شيئ في الدنيا لإنقاذه. أيضاً كان داخلها إحساس عريض بالمهانة فالكل يوافق البروفسور على ما يقول " رباه ماذا ينقصنا لنكون " همست بعبارتها فضحكت " ماري و ناديا وآم " وبعفوية شديدة كانت " ماري " تُردد نفس عبارتها بصوت مرتفع " ماذا ينقصنا لنكون " شبَّك البروفسور كفيه في بعضهما وهو يقول مُلتفتاً إليها " إذا أذنت لي السيدة سعاد " فلم يكن في مقدورها إلا أن قالت له " طبعا طبعاً تفضل " فقال بعد أقل من ثانية تفكير " حكامكم العرب في أغلبهم مُستبدون وفاسدون إلا أنهم يمنحوكم قدراً من الحرية أفضل مما لو كان حكامكم من المتطرفين الإسلاميين.. سيدتي إنكم كعالم عربي في مأزق حقيقي إما نُظم تسلطية فيها الكثير من الإنفتاح الإقتصادي مثلاً أو مجتمعات لا حرية فيها أبداً بمعنى أنها غير ليبرالية وهذه المجتمعات هي التي تصدر العنف بل هي التي أفرزت الإرهاب أصلاً " صداع بدأ يدق رأس" سعاد " ومزيج من الخجل والحيرة يتلبساها فالنقاش مُحتدم وهذا أمر مقبول ولكن فكرة الأخطاء الكثيرة عن عالمنا العربي والتي يبدو أنها لن تنتهي كان هذا ما يؤلمها ويسد أبواب النفس عن روحها ثم أضاف البروفسور " حكامكم مشغولون بالكلام عن القومية عن الكرامة وهم حتى لا يعون أنهم في مأزق حقيقي وهذا أمر فعلاً مستغرب لأنه بعد الحرب العالمية الأولي ظهر العديد من المفكرين الليبراليين وظهرت تيارات النقد الحقيقية غير المُجاملة إلا أنه في أغلب الدول العربية التي أصبحت

جمهوريات بالذات تم عملية تعتيم بل كسح للأرستقراطية والأمراء خارج البلاد وإن كانوا هم من تسببوا في ظهور المفكرين والمنظرين الذين أعنيهم ومن ثم تم التعتيم على هذه الأفكار الليبرالية ليحل محلها أيدولوجيات جديدة مثل الإشتراكية والعروبة والجمهورية وحتمية التسلح بدلاً من التفكير والعمل على مزيد من الحرية ورفع مستوى الإنسان العربي بإستثناء بعض الدول الغنية، وكانت النتيجة فشل ذريع إقتصادي وإجتماعي وسياسي " ثم توقف فجأة وهو يقول " هل تتركوني أتكلم وحدي " إبتسم البعض وإن كانت دوماً عيونهم لم تغفل عن متابعة شاشة التليفزيون وقام الدكتور " يوسف عبجي " من مقعده وهو يقترب من " سعاد " ومد ذراعية يتناول يديها فقامت معه فانحنى على وقفته وقبل يدها ثم رفع رأسه وهو يقول " كفي لقد أتعبتم الأميرة اليوم " فرد البروفسور من فوره قائلاً " لا تقل عليها أميرة يا دكتور وإلا لما كانت موجودة الآن فالعالم العربي تخلص من الأمراء مع الملكية والإرستقراطية والليبرالية تماماً كأنهم كانوا مجرمون وطاردوهم خارج المنطقة " إلتفتت " سعاد " إليه وبدى أنها لم تفهمه بالمرة فأكمل البروفسور " طبعاً ياسيدتي فأنت أميرة من النُخبة لأنك مُثقفة " إبتسمت وهي تقول مُشيره إلى صدرها " أنا من المثقفين هذه أول مرة يُقال لي هذا! " ضحك البروفسور " طبعاً أنت من المثقفين ألست فنانة أليس لك إنتاجك الذي تخلقين فيه " بعفوية تساءلت " لوحاتي ! " رد من فوره " طبعاً ياسيدتي لوحاتك هذا عمل لا يُستهان به ويجعلك في مصاف المثقفين " بلعت لُعابها وهي تتجه لتُعد شيئاً يؤكل تقدمه لضيوفها وهي تقول " أستأذنك في دقائق أُعد فيها الساندويتشات وبعد ذلك لابد أن أعرف كيف أكون أنا من المُثقفين "... تابعوا جميعاً التليفزيون وإنشغلت " سعاد " في تجهيز شطائرها ومعها " ماري " وهي تعد ما بيدها كانت تسمع البروفسور وهو يقول " ولا تنسي ياسيدتي الفساد المستشري في مصر " إنبرى دكتور " هارت "

يقول " والأكثر الغلاء لأنه أيضاً بسبب الفساد.. في المرات التي كنت أصحب فيها زوجتى ماري وأولادي إلى مصر لزيارة أهلها كان يروعنا الغلاء في كل شيئ من المأكل والملبس والمسكن "... لأول مرة تتكلم " ميرا " زوجة البروفسور " حكيم " بعربيتها البسيطة لتقول " إن مصر مُستهدفة.. لقد عشنا في الهند كثيراً من أحوال مصر " بتلقائية كانت " سعاد " تقول " لعلهم اليهود لابد أن لهم إصبعاً أو تخطيطاً " ولم تلحظ وهي تنطق بعبارتها أن وجه الدكتور " يوسف عبجي " غرق في اللون الأصفر وبدى وكأن دماءه هربت منه حين قال البروفسور " كل شيئ جائز ولابد من دراسة كل إحتمال للوصول إلى الأسباب الحقيقية " عادت " سعاد " تؤكد وتؤمن بأن الأكيد أن " مصر " مُستهدفة لأنها أهم وأكبر دولة عاد البروفسور بظهره إلى آخر الكرسي وهو يقول " كل البلاد مُستهدفة ياسيدتي إلا أن الدول الكبرى غيرت من أساليبها فلم يعد التخابر أو التجسس بشكله الكلاسيكي القديم ولكن العمالة الآن ترتدي أقنعة لا يمكن كشفها " تداخل " آدم " " تقصد عن طريق التكنولوجيا التي نعمل فيها" فضحك الهندي وهو يؤكد قائلاً " إنها أبسط من هذا بكثير بل إنها ساذجة في بعض الأحيان رغم أن تأثيرها شديد جداً " إلتفت الجميع إليه فقال " أريد أن أحكي لكم قصة في غاية البساطة " وأرهف الجميع ومدت " سعاد " أصابعها لتخفف من صوت التليفزيون وهو يقول " السلطات الروسية كانت متشككة في أحد وزراءها بأنه عميل وظلت تراقبه وتراقب إتصالاته ومكتبه ما يزيد على عشر سنوات إلا أنها لم تستطع أن تُثبت عليه جريمة التخابر ثم بعد أن مرض مرضاً عُضال ووُضع في المستشفى وكان يعلم بحقيقة حالته جاءت إليه المخابرات الروسية تسأله وهي تلوح له بتأمين حياة إبنته وإبنه إذا قال الحقيقة التي لن يؤذى عليها لأنه ميت ميت لا محالة فما الفرق بين أن يموت الآن أو بعد شهرين على الأكثر... وبعد أن أخذ كل الضمانات والأوراق قال لهم بأن

عمالته كانت تتمثل في أن يُعين من موقعه أسوأ من هم في وزارتـــه ليُــديروا الشئون.. فكانت النتيجة أن " إنخرب " الإقتصاد تماماً في غضون خمس سنوات وضج الجميع بالضحك بينما " سعاد " غارقة في سرحتها تفكر فـــي مصـــر.. مصر أم الدنيا ثم إنتبهت حين رفعت وجهها وعرفت بوجود عم أولادها الـذي دخل من لحظات ولم تشعر به.. أشار لها أن تبقى مكانها " فالمكان ضيق ".. ثم إلتفت إليهم وهو يقول " لقد سمعت ما قلتوه عن الفساد وإني والله لفـــي دهشـــه كيف يعيش المصريون " ثم قال " يا الله إن دخل المصري المتعلم في سنة كاملة قد لا يوازي دخل شهر واحد لمواطن إسرائيلي أو يهودي سموه كما تشـــاؤون والأكثر" ثم عاد لينظر إلى " سعاد " وهو يقول " صحيح أن مصر أكبر دولـــة عربية إلا أنها مُستهدفة من بعض البلاد العربية هذه " بضعف ممزوج باليـــأس كانت " سعاد " تسأله بعينيها وإن لم تقو على الكلام فأكمل " طبعاً والمثال على ذلك أنه لما عجزت مصر عن دفع ديونها في وقت ما أبلغـــت إحـــدى الـــدول العربية الغنية فرنسا بضرورة توقيع الحجز عليها... على مصـــر تصـــوروا " وضج الجميع بالضحك للمرة الثانية حين سألت " ماري " وهل هذه دوله مسلمة فرد من فوره " وهل توجد دولة عربية غير مسلمة ".

•••••

الحديقة العامة هو المكان الذي إختاره " كـــريم " لقضـــاء وقـــت راحتـــه الأسبوعية مع أمه هناك كانا يجلسان يضع رأسه على رجلي والدته متمدداً فـــي سكينة علـــى النجيلـــة الخضـــراء وقـــد خلـــع نظارتـــه ووضـــعها بجـــواره " طبعاً أنا حزين يا أمي فكيف يموت يوم نصره اليوم الذي يجب أن يُكرم فيه " ردت " سعاد " هامسة " هذه هي الحياة " " الحياة في بلاد العالم الثالث فقط يـــا أمي " قطعت كلامه وهي تحكي له عن المناقشة التي دارت فـــي بيتهـــا عـــن الديمقراطية وشرح البروفسور " حكيم " لها بالتأكيد على الفرق بين الديمقراطية

الليبرالية ومضمون الديمقراطية الذي قصرته بعض الدول علـــى الإنتخابـــات.. قاطعها إبنها وقد قام قاعداً وهو يقول " يا أمي الإسلام ليس ديمقراطياً إنما هـــو نُخبة، نُخبوي وصفوي مثل المسيحية تماماً كان المسيح عليه السلام وحواريـــوه هم الذين يدلون بدلوهم " قالتها متسائلة " وهل ترفض الديمقراطية بمعنى الحق في الحرية والمشاركة في كل شيئ " فقاطعها وهو يقول " يا أمي الإسلام يـــا أمي شورى على أكبر العقول على القادرين فكرياً دون تمثيل للعمال أو الفلاحين مثلاً ولكنه حض على شورة الكبار " إنما يخشى الله من عباده العلمـــاء قـــرآن كريم يا أمي " إعتدلت في جلستها وشربت من زجاجة بجوارها حتى كادت أن تُفرغها ولما أنزلتها من على فمها كانت تقول له " إزاي يا كـــريم لـــو النـــاس تعلمت وعاشت بإنسانية كما يجب لأصبح لكل واحد الحق في الرأي ولو كـــان مزارعاً أو عاملاً " ضحك وهو يقول لها " لك حق ولكن عندما يتعلم وليس أن يفك الخط. لابد أن يكون فقيهاً يعني عالم حتى لو كان فلاحاً بمعنى أن يكـــون عالماً في مجاله أياً كان هذا المجال وليس أنصاف المتعلمين وكان المفروض أن ينتهي عمل العسكريين بعد نجاح الثورة أو الإنقلاب وتعود الســـلطات للهيئـــات المدنية الموكلة بها لا أن يستمروا حتى لو صنعوا من العسكريين مدنيين بتوسع كما هو حادث الآن فهم ينهون خدمتهم مبكرين جداً ليوضع الواحد مـــنهم فـــي مكان مدني بعد ذلك كما هو حادث في كل الوزارات المفروض أن يكون مهمة العسكريين قد إنتهت بعد الثورة أو الإنقلاب " ثم أخـــرج زفـــرة وهـــو يقـــول " تعرفي يا أمي مأساتي التي كانت في الخارجية " فأشاحت بيدها " هو إنت لسة فاكر " فرد من فوره " طبعاً يا أمي ما حدث لي أمر فارق لا يمكن أن يُنسى.. تعرفي يا أمي أنها كانت أزمة أخلاق قبل أي شيئ آخر وبعد كدة تقـــولين لـــي بالديمقراطية. أنت تتكلمين بمفهوم أمريكي سطحي " " كأنك تكره الأمـــريكين " خطف التساؤل من على شفتيها وهو يقول " على العكس يا أمي كـــل العكـــس

يكفيني أنهم قدروني وإستقبلوني على الرحب والسعة " ثم غطت عينيه غُلالــة رقيقة من الدموع وهو يقول وقد تحشرج صوته " إنني يا أمي أشعر بــأن مــا أحمله من ألم ووجع يفوق ما ستمنحني إياه الديمقراطية الأمريكية بكثير.. فهناك شيئ قد إنتُزع من داخلي " فقالت جزعة " زي إيه يا ابني " فرد بهدوء " كــأن مياه النيل جفت من عروقي " " ليه بس هذا الإحساس ".. بعد لحظة تفكير كان يقول " لأنه إذا كان هذا ما حدث معي بعد الجهد الذي بذلته في التفوق فالأكيــد أنهم أضاعوا الكثيرين كما أضاعوني وجعلوني أبعد عن وطني لابد أنهم يا أمي أضاعوا أي أثر لجهود المفكرين والمبدعين والعلماء السابقين"... " ياه يــاكريم إنت شديد التشاؤم وأنا أحذرك من التمادي فمنذ طفولتك تعمل من الحبة قُبــة " ضحك حتى عاد برأسه إلى الوراء متمدداً على النجيلــة الخضــراء ومــازال يضحك بينما " سعاد " تقول له " كأن جمال حاضرك الآن لم يلغ لحظــة ألــم وعذاب كانت " إبتسم وهو يمط شفتيه بما معناه أن هذا هو ما أشعر به ثم نظر في ساعته وهو يسألها إن كانت شعرت بالجوع ثم قام واقفاً وهو يمد لها ذراعه ليشدها واقفة هي الأخرى " لا تتصوري يا أمي أني لا أرحب بفكرة الديمقراطية الليبرالية كما يقولون إنما أنا لا أحب إستيراد العناوين لو أننا نعيش كما ينبغــي لكانت هذه الديمقراطية تُمارس من تلقاء نفسها.. أريحي القضاه والمدرسين و.. و.. لا أستطيع أن أعدد لك فهؤلاء من يضعون الدستور الذي يكفــل الحريــات وهؤلاء من يزرعون الأخلاق " خرجت من فمها وهي تنظر له بإعجاب " يــا ولد يافيلسوف يا إبن سعاد طلعت " رد من فوره " ولماذا لا تقولي يا إبن أبــي عاصم الناظر على العموم يسعدني أن أنتسب إليك يا أحلى أم "... في طريقهما إلى المطعم الموجود قرب نهاية الحديقة الواسعة كان يضع يده على كتفها أقرب ما يكون في حركته إلى معنى الإحتضان وليس مجرد أنه يسند ذراعــه علــى كتفيها " تعرفي يا أمي أنا نفسي أشوف اليوم اللي أجد فيه كل مســئول كبيــر

وهوبُنهي مدة خدمته أن يطلع على التليفزيون ويقدم لشعبه كشف حساب.. أيوه كشف حساب حقيقي عن ممتلكاته وأرصدته في سويسرا.. يقول للناس بصدق أخرج من المنصب وما أملكه كان عن الطريق الصحيح كان أجراً لي فعلاً " ثم ضحك وهو ينحنى بصدره إلى ركبتيه " أظنك ها تقولي عليَّ مجنون " وغرق مرة أخرى في ضحكه " لم أسمع ياكريم في التاريخ كله من قدم كشف حساب عن أيام منصبه " رد من فوره " لأ فيه من عمل هذا أيام الرسول وزمن الصحابة من ردوا إلي بيت المال ممتلكات كانوا قد أخذوها منه " فكرت لثانية وهي تقول " ليه هو في أمريكا الوزراء أو حكام الولايات بيعملوا كده؟ " فرد " دي حاجة تانية إنهم أولاً لا يسرقون قصوراً أو أراضي للغير أو شقق الغير بالإستيلاء ليس هناك رئيس يتجرأ ويأخذ حاجة من البيت الأبيض وهو ماشي يعني في نهاية مدته لأ لأ يا أمي إنهم يأخذون عمولات وهي هنا مُقننه وعالمية ولها قواعد ولا تنسي أنهم يأخذون هذه العمولات وشعوبهم في منتهى الشبع من ناحية الأجور أو التأمين الصحي أو المعاش العادي ولا تنسي مسألة أجر البطالة المعمول به هنا " ثم خبط برجليه الأرض وهو يقول" يا أمي لا وجه للمقارنه بين عمولات الأمريكان وعمولاتنا نحن في مصر مثلاً " ردت وفي صوتها نبرة غضب " ما هو انت كده طول عمرك مُتطرف في الحب وفي الكُره " توقف وإستدار ليقف أمامها وقد وضع ذراعية على كتفيها " أنا حبيت أمريكا بعد أن عشت فيها ولمست بنفسي كيف يعيشون وما لهم من حقوق لا تتصوريها ولا في الأحلام يا أمي " ردت بزهق " وإنت عرفت من أين هذه المعلومات التي أمنت بها على الفور و.. " قاطعها " لا تعتقدي يا أمي أن الأمريكان أساتذة أو دارسين هم مصدر معلوماتي " ردت من فورها " أمال مين يعني؟ " فأكمل " الأساتذة العرب والدارسين العرب والأوربيين بالذات في منتهى الإنبهار بالإمكانات المسخرة للشعب مُش للوزراء وأصحاب المناصب حتى لو كانوا من الدرجة

التانية أو الثالثة.. كمان الأساتذه اليهود بيذكروا ويعددوا لنا مزايا المواطن الأمريكي " ثم أكمل بعفوية " واللي منهم الدكتور يوسف إيجيه " خبطت على صدرها وتراجعت خطوتين وهي تقول له " هو يهودي! " رد من فوره " طبعاً يا أمي ".... لم تسمع أي كلمات له بعد ذلك دارت الحديقة على إتساعها بها دوراناً ملحوظاً حتى أنها خافت من إقتراب المواقع المرتفعة من النجيلة منها.. تفطنت إلى أن كل شيئ في مكانه إنما هو الدوار الذي تلبسها وبذلت جهداً لا تحتمله إمرأة حتى لا تسقط أمام إينها وإن مدت ذراعها بلهفة تتعلق بذراعه كعادتها وشعرت بشيئ من الإستقرار في وقفتها إلا أن شلالاً بارداً من العرق كان يغمرها كأن مسامها تُمطر فتوقفت تفتح حقيبتها فإنقلبت الحقيبة منها على الأرض إلتقطها " كريم " وهو يقدمها لها فتحتها تأخذ من داخلها مناديل ورقية ثم أكملت سيرها بجواره وقبل أن يجلسا على مائدة قريبة من الزجاج الذي يفصلهما عن الحديقة سقط عليها الوعي كاملاً وعرفت لماذا كان الدكتور " يوسف إيجيه " يقول لها دائماً قبل أن يتركها في أي مناسبة " أنت لم تعرفيني بعد ياسعاد " وهمست بأسى " آه عرفت الآن " فرد " كريم " متسائلاً " ما هو الذي عرفتيه الآن يا أمي " حدقت فيه لدقيقة ثم قالت " عرفت أن يوسف يهودي " أومأ برأسه وهو يخلع نظارته ليمسحها حين شعرت " سعاد " برجة داخلها وكأن هناك شيئاً يتخبط في أعماقها.. يتخبط فوق جدار قلبها.. دقات تُنذرها.. كان " كريم " مشغولاً بتنظيف نظارته فعادت لتبذل جهداً لا تحتمله إمرأة لتداري عن إينها ما يفتعل داخلها والأكثر لتبدو أمامه في كامل هدوئها... جدار قلبها يمتزج فيه معنى الجزع عليه فلم تملك أن تتواني إنما سألته فوراً " وهذا اليهودي هو المشرف عليك كيف؟! " لم تنتظر إجابة إنما أكملت " وهل سيسمح لك بأن تكتب عن النظرية الإسلامية التي في رأسك " ثم إسترسلت في سيل من الأسئلة لا ينتهي " وهل يمكن أن تنجح في النهاية.. إنت

على كدة من الممكن أن لا تصل إلى ما تريد من الممكن أن تُغتال يامصـــيبتك
يا سعاد " رفع نظره إليها بعد أن وضع نظارته بالتمام على وجهه " لا لا تخافي
يا أمي هل أصبحت جزوعة مثل إينك ".. ضحك وهو يُطمأنها بـــأن الـــدكتور
" يوسف " هو بنفسه من يدله عن كيف يُحضر كتب إين تيمية أو أبو الأعلـــى
المودودي أو الشيخ الغزالي وأحياناً ينصحه بالذهاب إلى مكتبة الكونجرس التي
تحوي ثمانين مليون كتاب ولأفراد بعينهم ليساعدوه أفهمهـــا أنهـــم يريـــدون أن
يعرفـــوا فكـــر الشـــباب العربـــي والمنـــابع التـــي يســـتقون منهـــا أفكـــارهم
" يا أمي هنا لا يغتالون إلا ربما من يمس كيانهم كأمريكا مسائل سياسية بحتـــه
أما نحن فهم يريدون أن يفهموا عنا وعن ديننا الكثير فنحن منطقة مُستهدفة وهم
مُضطرون للتعامل معنا لوجود ثروات لدينا أو لدى البلاد العربية فمن المهم أن
يعرفونا ".. ردت بعد لحظة تفكير" أبو الأعلى المودودي وإبن التيمية لم أســـمع
عنهما!! " فرد " دول يا أمي كلهم دعاة تجديد من إيران أو فارس لكن أنا لازم
أقرأ لهم لأنهم بيقولوا والله أعلم إننا كشباب متأثرين بهم فلازم أطلع علـــى مـــا
كتبوا " ردت بعصبية " ليه.. ليه؟ ".. بعد لحظة صمت كان يقول لها أولاً حتى
أعرف إن كان هذا صحيحاً أم لا " ثم قال فجأة وهو يشـــير بيـــده " تتـــذكري
صاحبي اللي كان إسمه باسل في مصر اللي أمه ألمانية وأبوه مسلم تتصـــوري
أنه كان يكلمني عن هؤلاء الدعاه وأنا موضوعي نحو نظرية إسلامية جديدة في
الحكم علشان أستطيع أن أكتب لابد أن أقرأ كل شيئ كمنابع للفكرة " من فورها
وبعصبية أيضاً كانت تقول له " على شرط أن لا تتأثر بهم وعندنا فـــي مصـــر
علماء و.. " قاطعها " علماء مُستتيرين ومجتهدين وده اللي أنا عايزه ماتنســـيش
إن مصر هي روح الأمه العربية.. أنا هأقرأ ثم أقول وأشرح ما " قاطعته " مـــا
هو إنت عندك القرآن والسُنة "   " معك حق يا أمي القرآن له الكلمة الفصل بس
المشكلة أن لدينا بطالة فكرية.. الإنسان العربي المثقف بالذات أصبح رد فعـــل

بمعنى إننا نعيش عملية إغلاق للعقل العربي وهذا من أيام حملة نابليون على مصر تعرفي يا أمي إحنا لسنا في حاجة إلى ديمقراطية ليبرالية كما يقولون إنما نحن في حاجة إلى لبرلة الإسلام بمعنى إعادة تفسيره ليبرالياً أفهمني عمي " حسن " وإقتنعت بفكرته " قالت متسائلة " وما الذي يمنعنا " رد بسرعة " الإشكالية يا أمي أن الإسلام دين ودنيا ومتداخل في كل شيئ مثل المسيحية الكاثوليكية لا إنفصال بين الدين والدنيا " بعد لحظة تفكير كانت تقول له " أنا قرأت في مجلة الهلال إن المذهب البروتستانتي في الديانة المسيحية كان يقول ما لله لله وما لقيصر لقيصر " بهدوء قال " لا يمشي هذا معنا يا أمي نحن في حاجة إلى إعادة التفسير وفي هذه الحالة لابد أن يحدث شيئان مهمان جداً كما قال عمي حسن ولا حوار عليهما " بإهتمام كانت تقول " ما هما " نظر إليها وهو يبتسم من خلف نظارته " الحاجتين دول هما نمط الملكية والمنفعة عندها ستتغير أمور كثيرة ".

•••••

تمددت في ليل رقدتها فلا هي نائمة ولا هي يقظانة شيئ ما متصلب داخلها كأنها إبتلعت حربة فنامت في خط مستقيم مشدودة العروق.. صدمتها كبيرة بأن الدكتور " يوسف " يهودي " من يقتلونا.. من يأخذون أرضنا في فلسطين من يأملون من النيل إلى الفرات.. تراه ماذا سيفعل مع إبني ".. دق الهاتف فأفزعها.. إلتوت على بعضها.. تقلصت أمعاؤها وبذلت طاقة لتمد يدها لتصل إلى سماعة الهاتف. سمعت صوته يسأل عليها بود كعادته..تحشرج صوتها.. خافت أن يأتي فوراً ليراها ومعه زجاجة دواء فتغلبت على داخلها بعد جهد قصير فإستراح إلى صوتها.. دعاها لزيارته كما كان مُتفقاً " فالمجموعة بحالها ستأتي من أجلها أساساً ".. شدد عليها أن تأتي مبكره عنهم لأن هناك مفاجأة تنتظرها همست لنفسها " وهل هناك مفاجأة أكثر من أنك يهودي ".. أغلق

الهاتف ليذهب إلى الجامعة وعادت صورة إبنها تحتل مُخيلتها إلا أنهـا عـادت لتنام وتتقلب في ليونه نسبية فإتصاله كسر حاجزاً كان بالتأكيد سيمنعها مـن أن تزوره عادت تتقلب على جنبيها بعد أن قررت أن لا تزيح " سـتارة " الشـباك العريض لأنها تريد فعلاً أن تنام... دق الهاتف أكثر من مرة وكانت غير قادرة على الرد إنما فقط تتقلب وكأنها تبتعد وتسد أذنيها بالوسادة لتروح أكثـر فـي نومها ولكن هذه المره كان جرس الباب أيضاً عالياً فقامت قاعـدة تنظـر فـي ساعتها لتعرف أنها بعد الثالثة والنصف عصراً.. بخطوة سحبت الروب وهـي ترتديه كانت تتقدم إلى الباب لاحظت أن هناك ورقة يزيحها شخص من خلـف الباب فإنحنت وتناولتها مرت بعينيها وقرأت " عزيزتي... طلبتك هاتفياً ليس من مجيب.. أمامك عشرون دقيقة لتجهزي.. سأذهب لشراء شيئ يؤكل. يوسف " لم تتصور أنها نامت من الأمس إلى الثالثة والنصف عصراً حتى لو بدأت نومهـا مع الفجر.. في دقائق كانت قد إنتهت ووقفت تسوي شعرها.. تناولت حبة مُهدئه لمعدتها تأخذها في بعض الأيام قبل الطعام بنصف ساعة.. تمام الرابعة كانـت بجواره في عربته وهو في طريقه لبيته حزمة من الأسئلة كأنها أسلاك مشدودة تصطخب في رأسها تسأل نفسها مالذي تغير.. العربة هي هـي ولهـا رائحـة خاصة تختلط بالعطر الذي يضعه فيكون لها أيضاً عبق خاص هذا الشعور لـم يتغير و" يوسف " نفس الوجه الذي يُطل من أرضية أي لوحة لها دون أن تقصد وكأنه شيئ سحيق يتبدى قررت أنه لا داع لأي نوع من التوجس أو الإضطراب لمجرد أنه يهودي فالأيام كفيلة بتوضيح كل شيئ وهي لن تترك أمريكا قبـل أن تطمئن على إبنها... كان قد ترك منزله مضاءً حين نزل ليأخذها فأول ما فـتح الباب وللوهلة الأولى رأت لوحتها التي بعنوان " الزمن " في أحلى كادر يمكـن أن توضع فيه متصدرة الحائط في مواجهة الداخل وشهقة مفاجئه خرجت مـن بين شفتيها فإقترب منها ووضع كفيه على خصرها قبل أن يقترب ليقبلهـا فـي

خدها وهو يردد " ليس لدي بعد هذا العمر أجمل من هديتك " إبتعدت بهدوء وهي تشكره فأمسكها من كفها ليرفعه إلى شفتيه ويقبل يدها سحبت يدها وهي تحاول أن تغير إيقاع اللحظة وحتى معنى هذه اللحظة المعينة فسألته عن الطعام وما يمكن أن تعده ثم إنسحبت داخلة تقصد المطبخ وأعدت طبقين على الفور كان في أغلبهما مما إشتراه ومازال ساخناً.. وأكلا بشهية عالية لأنها كانت جائعة منذ الأمس طحنها التفكير والقلق وهو الآخر آت من الجامعة بعد أن ألقى محاضرته. دعاها أن تجلس إلى أن يعد هو الشاي فهذه عادة له إكتسبها من " مصر " أن يشرب الشاي بعد الطعام... جلست في مواجهة اللوحة وهي تفكر بأنها لم تكن تتصور أن تُعلق لها لوحة في أمريكا في يوم من الأيام... شربا الشاي ولفت هو نظرها إلى أنها لم تدخل حجرة مكتبه مُطلقاً ولم تعرف باقي أجزاء بيته قال لها بما يعني أن حجرة مكتبه مثل مرسمها تماماً في القاهرة أجمل لحظاته يقضيها فيه.. قال لها بأنه ولابد أن يأتي إليه " كريم " ليُنهي بعض الموضوعات وكان ودوداً أكثر وهو يؤكد لها أنه من غير المعقول أن لا يزورني مرة فيجب أن يعتبرني كعم له.. إلتفتت إليه وهي تبتسم في مرارة.. إقترب منها وهو يذكرها بأنه تربى في " مصر " وإنه تقديراً لمشاعرها كأم لابد أن يشعره بأنه قريب منه وبمثابة عم له.. إبتسمت مرة أخرى بمرارة أكثر. أمسكها من يدها وإتجه إلى حجرة مكتبه يمين مكان ما يجلسان في الصالة، ازاح باباً زجاجياً جراراً بذراعيه الإثنين إنفتح على حجرة شديدة الإتساع. ونفذت رائحة عطره مع رائحة المكان إلى أنفها فإنشغلت بالنظر إلى حوائطها المغطاه بأرفف مفتوحة للكتب ومكتب عريض.. الحجرة يوجد فيها كل شيئ لأنها أهم مكان بالنسبة له.. بدأت تلتفت إلى نوع اللوحات المعلقة على مساحة بسيطة من الحوائط دون كتب ورأت صورة قبة " المسجد الأقصى " وأبعد منها قليلاً لوحة " للسيده العذراء " والغريب أن بينهما صورة سوداء كأنها فارغة

ولها كادر مُذهب... لم تفهم اللوحة فإنزاحت يميناً خطوتين ثم إنزاحت يساراً خطوتين إلا أن اللوحة بقيت مساحة سوداء فارغة نظرت إليه فضحك وهو يقول لها " طبعاً لم تتوقعي.. حدسك لم يدلك بعد " نظرت إليه بتساؤل فنظر إليها هو الآخر بتساؤل أكثر.. إبتسمت فقال من فوره " اقول لك على سر هذه اللوحه وتقولي لي ما الذي يضايقك إلى هذا الحد " كالملسوعه عادت خطوه واحدة إلى الوراء وهي تضع أوسع إبتسامه على شفتيها فلم تكن تريد له أن يعرف أن سريرتها تتعذب قلقاً على إبنها منه هو بالذات قال لها بهدوء "هذه اللوحة يا أميرة هذا الزمان هي قطعة من كسوة الكعبه قمت على بروزتها ".. الواقع أن " سعاد " فوجئت بحقيقة اللوحة فسألته " ومن أين لك بالعثور عليها؟ " فكان يقول لها " هذه قصة طويلة ".... أطنان من الهم الممزوج بالحساسيات الكثيرة تكسر داخلها.. أن يعي إنسان مثله ويقدر عظمة الدين الذي تنتمي إليه فهذا إحساس أدخلها نطاق سعاده لم تتذوقها من قبل كأنها لم تعرف السعاده من يوم أن وصلت أمريكا إلا هذه اللحظة إعتراف الآخر بقيمة دينك يجعل للدنيا مذاقاً رائعاً مذاقاً فيه طعم شفافية الحق... إنقلبت دخيلتها مائة وثمانين درجة موجبة حتى أنها إختلجت على وقفتها وهي تعاود النظر إلى اللوحة حين مد كفه يلمس ذراعها يدعوها للجلوس.. جلست وهي تُخرج زفرة كأنها تُزيح عن داخلها الكثير وإلتفتت تنظر إليه وقبل أن تسأل كان يقول " هذه طبعاً قبة المسجد الأقصى أما في اليسار فهي سيدة العالمين أم المسيح عليه السلام " قبل أن تتساءل عن أشياء كثيرة كان جرس الباب يدق.. إنتفض واقفاً وهو يتجه ليفتحه.. دخل الدكتور" هارت " وزوجته " ماري " ومعهما " آدم وناديا " كانت " سعاد " قد وصلت إلى الباب هي الأخرى تستقبلهم فضلوا أن يجلسوا في حجرة الإستقبال. ثوان أخرى وكان الجرس يدق ثانية فقد كانت الساعة تمام الخامسة فتحت " سعاد " هذه المرة للبروفسور " حكيم " وزوجته " ميرا " وهي

تتناول منهما لفافة كبيرة بينما إنشغلت " ماري " كعادتها في إعـداد مشـروب ساخن.. جلسوا جميعاً يحتسون الساخن سألها الجميع بود عن حالتها النفسـية.. الكلمات هنا وهناك عن جنازة الرئيس التي غاب عنها الشعب وحضرها الملوك والرؤساء تكلم " يوسف " مؤكداً أن " السادات " بموته خسارة لن يُعرف مداها قبل سنوات أما الدكتور " هارت " فقد خبط بكفه على يد الكرسي الذي يجلـس عليه وهو يقول بما يعني أن الإسلاميين هم السبب وأنه يخشـى اليـوم الـذي يصلون فيه إلى الحكم ردت " سعاد " " بأن القتل جريمة وقد تم القبض علـيهم فلا يمكن أن يترك من فعل هذا برجل السلام " إنتفض دكتور " هارت " واقفـاً وهو يؤكد بأن " مصر " في مأزق يثير الفزع لأن المجتمع المدني فيـه يقبـل بالبديل الإسلامي والحكم الديني لدرجة أنه لو أُجريت إنتخابات حرة فعلاً لصعد الإسلاميين إلى سُدة الحكم وهذا يمثل رجعية ومعاداة للغرب.... ولذلك لا ينصح بعمل إنتخابات في مصر أو في السعودية مثلاً ولا أمل بالمرة في الإسلاميين أن يقبلوا بالغرب لأن ليس لديهم ليبرالية دستورية كقاعدة ولابد لهم أولاً من أحزاب متعددة "..... رفع دكتور " يوسف " يده يريد الكلام فإذا به ينطق ما يثير دهشة " سعاد " "حقاً فقد كان رأيه أن الإسلام والديمقراطية غير متناقضين والأكثر أن الإسلاميين لا خطر منهم على الديمقراطية إطلاقاً بل إنهم لو وصلوا إلى الحكم لحققوا الديمقراطية في الشرق الأوسط وأن الأحزاب الإسلامية لو تولت السلطة عبر إنتخابات حرة.. لو أعلنوا حتى الدولة الإسلامية فإن هذه الدولـة سـتكون أكثر ديمقراطية لأنهم بإغتيالهم السادات وصلوا إلى قمـة وذروة العنـف ولـو وصلوا بعد ذلك للحكم سيحققون الديمقراطية وأنا أعني المسلمين المعتـدلين إن تجربة الديمقراطية الإسلامية في مصر بالذات يجب أن تُعطى فرصة بل هـي تستحق فرصة.. إنني لا أراهم يهددون المصالح الأمريكية " لا تـدري لمـاذا شعرت بأن الدكتور " هارت " ينظر بنوع من الكراهية إلى الدكتور " يوسف "

كذبت فهمها وهي تنقل رأسها بين المتحدثين إلى أن قال دكتـــور " ســـترونج " موجهاً كلامه إلى دكتور " يوسف " " ماذا تعني بكلامك الخطير الذي قلتـــه؟! " بعد لحظة تفكير نظر دكتور " يوسف " إلى " سعاد " بنوع من الأســـى وهـــو يستجمع شتات فكره ليقول " أنا أعرف قصدك.. ولكن لا تنسى أننـــي حصـــلت على الدكتوراه في الفكر الإسلامي وإنني تربيت في مصر ولهذا أرى عن يقين ما تريد أن تلمح به يا دكتور هارت " ثم سكت لثانية قبل أن يُضيف " إنني أرى أن السلام بين العرب وإسرائيل سيتحقق على يد الإسلاميين والأكثر أنه سيكون شعبياً آت من القاعدة وعليه سيكون التطبيع مع إسرائيل والإعتراف بوجودهـــا سيكون أسهل لأن مرجعيتهم القرآن " بعفوية ردت " سعاد " " لأن ديننا يعترف ويحترم ما قبله حقيقة أنه خاتم الأديان والأنبياء إلا أننـــا لا نمحـــي مـــا قبلنـــا وإنظروا إلى القرآن تجدوا اليهودية لها مساحة لا يُستهان بها والمسيحية كذلك " ثم إبتلعت لعابها ساكته.. إبتسامه عبرت في عيني دكتور " يوسف " وهو يقول " للأسف أن النظم التسلطية والدكتاتورية التي نعرفها جميعاً هي التـــي تحظـــى بدعم الولايات المتحدة رغم أنها السبب في معاداة الإسلاميين لنا " وأشار إلـــى صدره ثم أكمل " كإسرائليين وكأمريكيين الإسلام بالذات في مصر هو ما جاءهم بالتمام من القرآن إنهم ليسوا كباقي البلاد مثل إيـــران أو أفغانســـتان أو حتـــى السعودية مثلاً.. في مصر الإسلام الوسطي المعتدل ".. رغم أن " سعاد " كانت تتابع المناقشة ورأسها يتحرك كالبندول تماماً إلا أنها لم تنظر إلى " ماري " إلا عندما تكلمت وهي تقول بنبرة سخرية ملحوظة " أنا لا أوافقكم على كل ما قلتم فهناك فرق بين ما هو في دفتي كتاب مثل القرآن وما هو حادث فعلاً.. حقيقـــة أن الكتاب يتكلم عن اليهود ويتكلم عن المسيحية التي في أصلها أو أصل الناس فيها يهود إلا أنني أقول لكم من واقع أنني مسيحية مصرية إن المسلمين علـــى مستوى القاعدة ينظرون إلينا على أننا كفرة لا نؤمن بالله فمن يضمن لنا بعد أن

يصل الإسلاميون إلى الحكم أن يساووا بين المسلمين وغيـــر المســـلمين إننـــي وصلت إلى مرحلة بأنني أخاف وأنا مسافرة لزيارة مصر لكوني مسيحية أساساً " نظر إليها البروفسور " حكيم " وهو يقرر بنوع من الأسى والجده " لقد كـــان في مصر قبل ثورة ناصر ديمقراطية ليبرالية حرة بحق إلا أنها للأسف تبخرت تماماً بخروج الملكية والقضاء على الأرســتقراطية وكـــأنهم رشـــوهم بمبيـــد فطاروا.. طاروا " نظرت " سعاد " إلى " ماري " وهي تقول " إن تقديرك خطأ تماماً نحن نحبكم وأول القرآن " ألم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين الـــذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاه ومما رزقناهم ينفقون، والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون " فكيف لا نـــؤمن بالمســـيحية ولا تحاسبيني عن الجهلاء أو ناقصي الأهلية. هل وجدت أي نوع من العداء لكم في أي مجال " فردت من فورها " لماذا تكذبون أن المسيح صُلب وقد رأينا بأعيننا ما دخلكم أنتم بهذا " وجدت " سعاد " نفسها وقد غلى الدم في رأسها فإنـــدفعت " على العكس القرآن يُقر بالصلب رغم أنه قال ما قتلوه وما صلبوه ولكنه قـــال أيضاً شُبه لهم بمعنى أن هذا ما رأيتموه إلا أننا كمسلمين نستكثر بشده أن يُصلب السيد المسيح بل وببساطة شديدة أقول لك عندما جاء الإسلام من المعروف أنـــه سعى لإحتواء وكسب أهل الكتاب اليهود والنصارى يعني أهل التـــوراة وأهـــل الإنجيل لا أن يعاديهم.. الإسلام من باب الأمانة البحته أورد ما ذكره الله سبحانه وتعالى " إنبرت " ماري " تقول " أنت بتفسيراتك هذه تُجسدي أن هناك إســـلاماً للنُخبة وإسلاماً للعوام " ردت من فورها " الإسلام نخبوي إلى أقصى درجة كما كانت المسيحية أيضاً "ردت"ماري مرة أخرى" تقصدي المسيح وحواريوه "…. وقف من مقعده دكتور " يوسف إيجيه " يرفـــع يـــده كعادتـــه قبـــل أن يـــتكلم " يا رفاق جوهر الأديان واحد الثلاثه أديان سماوية تقول بالإله الواحد عكـــس فكرة تعدد الآلهة التي كانت عند اليونان والرومان " ثم سكت لثوان قبل أن يقول

" إلا أن فكرة التثليث في المذهب الكاثوليكي على وجـه الخصـوص جعلـتهم يقعون في أخطاء فادحة لمحاولة تبرير هذا الفكر.. قبل المسيح وبعد المسيح من الذي يدير الكون.. شبّك البروفسور كفيه أمام صدره وهو يقول " هـذه مجـرد تجليات ليفهم البشر.. لمجرد أن يفهم البشر لأنه ليس من السهل أن تجعل العامة تُحس وتؤمن بشيئ أو معنى غيبي غير ملموس أو مشاهد هذا صعب جداً بـل عسير هذا المطلب لذلك قالوا إن الإله تجلى في صورة الإبن عيسـى والـروح القدس تساوي عملية الحمل نفسها لأنهم يريدون أن يقربـوا الفهـم والصـورة للأذهان بالمحسوسات. البشرية ضعيفة إلى حد الخوف الذُعر والتجسيد يزيـل الوحشة والإحساس بالمجهول المُرعب كما أن كل الأديان ومنها الإسلام تقـول أن الله يرى ويسمع ويعرف فجسدوه في شكل المسيح لتطمئن قلوبهم إلى قيمـة محسوسة ردت " ماري " بشيئ من العصبية " عندكم عند اليهود " وأشارت إلى الدكتور " يوسف " " عندكم الإله يتصارع مع يعقوب الذي هو إسرائيل لأنكـم تؤمنون بحتمية الصراع كأساس للسلوك في الحياة على ما أذكر هذا بالتحديد في سفر التكوين تصارع يعقوب مع رجل تُشير إليه التوارة إلى أنه مـلاك أو إلـه وطلب هذا الملاك من يعقوب أن يتركه فقال يعقوب لا أتركك حتـى تبـاركني فقال له من اليوم لا يكون إسمك يعقوب إنما إسرائيل لأنك جاهدت مع الإله ومع الناس وتغلبت ومن هنا أنتم خلعتم إسم إسرائيل على دولة اليهود الإسـم الـذي إختاره " هرتزل " وهذا يعكس إيمانكم وإنبهاركم بفكرة الصراع وتتصورون أن هذا الصراع ضرورة حتمية لنهاية العالم وآخر الزمان فلابد أن ينتهي هذا العالم بالصراع الذي صورته مخطوطة الحرب بين أبناء النور وهم اليهـود وأبنـاء الظلام وهم العرب والفلسطينيون وكل شعوب الأرض أنتم بذلك تهونـون مـن صفات الله وتقولون إن الله بحاجه إليكم هل هذا منطق بحق الصليب "... بعـد تردد أحسه الجميع حتى أن الدكتور " يوسف " قال لها " تكلمي يا سـعاد أنـا

أستفيد منك فقد مضى على رسالتي في الفكر الإسلامي أكثر من ثلاثـين سـنة تكلمي " فتشجعت " سعاد " وهي تقول " أنا أقلكم تبحراً وعلماً بمسألة الأديـان إلا أنني خرجت بأن الإختلاف في الأديان الثلاثة في صفات الله عز وجل فقـط الله في الإسلام لم يلد ولم يولد وهو الواحد وهو الأول وهو الآخر وأعتقد أن هذا أكثر تماشياً مع المنطق كما أنه يجعل الفكرة بسيطة وليست موضع جدل وأقول انها بذلك تكون محسومة أكثر كما أن فكرة التوحيد المحض الخالص هي التـي جعلت الإسـلام ينتشـر " رد البروفسـور " حكـيم " وهـو يـومئ برأسـه " صحيح الإسلام يحوي قدراً من المنطق لا يمكن إنكاره وبعيد كل البعد عـن القصص والحكاوي.." قاطعته " سعاد " لأول مره وهي تقـول " لأن القـرآن وبتحقق فكرة الوحي حفظ النص دون تـداخلات بشـرية سـواء للإقنـاع أو للتشخيص " أومأ البروفسور مرة أخرى برأسه وهو يقول " هذا إعتبار حقيقـي إلى حد كبير لقد أرادت المسيحية في نشأتها الأولي أن تُعطـي معنـى روحيـاً للصراع الذي شرحته ماري عند اليهودية فجاءت رؤية القديس يوحنا اللاهوتي آخر أسفار العهد الجديد مُمثله لهذا التطور من أجل أن يكون أي صـراع فـي اليهودية مُمهداً ليوم القيامة يوم الحساب فالذي لاشك فيه أن المسـيحية تتقطـر طيبة وتسامح إلا أنه للأسف " فأرهف دكتور " يوسف إيجيه " وإبتلعت لعابهـا " ماري " ورفع حاجبية الغزيرين دكتور " هارت سـترونج " وهـم يسـمعون البروفسور " حكيم " يقول " إلا أنه للأسف بعد مرور ثمانية عشر قرناً نجحـت الصهيونية في إختراق بعض الكنائس المسيحية الغربية وتفسـير رؤى يوحنـا اللاهوتي تفسيراً صهيونياً على أنها ترمز إلى صراع حتمي سيقع علـى أرض فلسطين وبالتحديد في معركة " الهرمجدون " وعلى حتمية الحرب بين أبنـاء النور وهم اليهود وأبناء الظلام وهم العرب الفلسطينيون وهذه الحـرب حتميـة وتسبق ظهور " المسيح المخلص " ولهذا لن تهدأ الأجواء لا مع العرب ولا مع

العالم بأسره في سبيل إيمانها بهذا الأسطورة الدينية " لم تستطع " سعاد " أن ترفع عينها في عين دكتور " يوسف " فقد كان يهرب منها وأحياناً يشير ليوقف سيل النقاش... كانت الساعة قد جاوزت الثامنة ووقفت " ماري " في المطبخ تعد شيئاً يؤكل مما أحضره البروفسور وزوجته فقد تذكرت أنه وعدهم جميعاً بأكله هندية حريفة. جلسوا يأكلون والتليفزيون مفتوح يعرض أخباراً من هنا وهناك.

*****

تعرف " سعاد " بعد مجادلات طويلة مع نفسها أنه كلما علا فكر الإنسان كلما تقبل مسألة الجدل في كل شيئ وعلى كل شيئ يمت إليه بصله حتى لو كان الأمر يتعلق بالإستفسار عن الدين.. تتذكر" البروفسور " وهو يسرد كل تلك الحقائق عن اليهودية والمسيحية وأخطاء أسطورة النقاء العرقي بالإضافة إلى التعصب الديني بإعتبارهم شعب الله المختار أو أنهم الشعب الأزلي أو الأبدي ومسألة حتمية الصراع الذي يريدون صنعه وإصطناع معركه حربية بعينها ليأتي بعدها المسيح المخلص تبعاً للرؤية التي وضعها يوحنا اللاهوتي وكأنهم بذلك يستعجلون أو يتداخلون بالعمل عن قصد لجلب مشاهد بعينها من الآخرة تقرر بينها وبين نفسها أن هناك حدود للصنع البشري كما أن هناك مشيئة الله ورغم ذلك يهدمون المسجد الأقصى في مستوطنة " أريحا " بتكتم شديد كما قال " البروفسور " ليقيموا دولة دينية تُحكم بالشريعة اليهودية ليظهر بعد ذلك معبدهم الذين يقولون عنه إلى أن يأتي المسيح المخلص بعدها.. تذكرت ما قاله البروفسور " حكيم " من أن هذا التفكير بعينه ما يدفع بالتعاسة أطناناً إلى قلوبهم حتى لدرجة الإنتحار وقال أيضاً بما معناه إن العيش في سلام ومساواة بين الدولتين الفلسطينية واليهودية ممكن وجائز لأن موسى نفسه كان مصرياً وبالتالي فإن عقيدة التوحيد اليهودية نبعت من عقيدة التوحيد المصرية وهذا يعني

أنه لا توجد هوية خالصة ولا تفرد للعنصر اليهودي فما الداعي إلى عدم التفاهم بين اليهود والفلسطينيين. وكذلك لا يحق لأمريكا أن تنحاز فلم يعد للقواعد العسكرية قيمة بعد الأقمار الصناعية التي ترصد دبّة النملة عكس هذا يبعد بصاحبه عن أرض الواقع وفيه الكثير من الجري وراء الأساطير حين يأتي المسيح المخلص لا يهمه إندثار الفلسطينيين أو بقاءهم وبالتالي لا يهمه إندثار اليهود أو بقاءهم.. " إن ما يحدث ياسيدتي هوالجنون بعينه كما قالها البروفسور ".. نظرت إلى ساعتها وإنتفضت واقفة تنتظر عم إينها سيأتي في أقل من ربع الساعة.. قامت وهي تردد بضيق " كل شيئ في حياتي على عجل على عجل "... طلبت من عم إينها أن تتوقف لتأخذ بعض الزهور قبل أن تزور زوجته في المستشفى ومن المحل إختارت أصيصاً صغيراً فيه زهرة بنت القنصل علمتها أمها عشق زهرة " بنت القنصل " الحمراء... نبهها أن تتماسك لأن زوجته نقص وزنها إلى حد مُخيف كما أن بشرتها إحترقت من العلاج بالأشعة. والكيماتي لا يُعطي لشعر رأسها فُسحه لأن يطول... أومأت له وهي تسأله " هل من أمل في الشفاء " إلتفت إليها وهو يؤكد لها أنه تعلم الإيمان بالقَدَرْ من شدة إيمان زوجته فإن ما يُخفف عنها أنها مؤمنة بأنها ستنتقل – حتى إذا حدث هذا – إلى الأروع والأجمل... وصلا يسيران على عجل.. يصعدان السلالم إلى حجرة في الدور الثاني.. طرقا الباب برفق وعرفت الصوت الذي جاوبهم.. دخلا.. بكل الحب كانت تسلم عليها وإنحنت تريد أن تقبلها ولكن إبتعدت زوجته وهي تقول بنوع من الوهن" أخاف عليك من بروز عظام وجهي " وإبتسمت، ردت " سعاد " بإبتسامة أخرى وهي تؤكد أن الأمر ليس إلى هذا الحد وجلست على الفور وإختارت أن تنخرط في حديث عن إينها " كريم " وأنه يسير في دراسته على أكمل وجه وأن المشرف يعتقد في كفاءته وأن.. وأن.. وأن.. وأن بلدكم جميلة... عادت المريضة بظهرها إلى الوراء فإنعكس نور النافذة على

وجهها فبدت أكثر شحوباً مما توقعت " سعاد "... أشارت لها أن تجلس على حافة سريرها.. مدت يدها وشبكت أصابعها بين أصابع " سعاد " أفهمتها أنها سعيدة بزيارتها ثم أكدت لها بأنها إذا شُفيت ستزور" مصر ".. نظرت إلى زوجها وأكملت بأنها ستزور " مصر " لتعرف البلد التي أنجبت هذا الملاك... طلبت " سعاد " منها أن تتكلم بالإنجليزية حتى لا تُجهد نفسها بإختيار جمل بالعربية " فقد تقدمت إنجليزيتي جداً في بلدكم " ضحكت المريضة وهي تهمُس بأن زوجها حكى لها بأنها تصادق أساتذة إبنها" كريم" وكلهم يتكلمون العربية قالت لها أيضاً بأن هؤلاء يكتبون بإستمرار في الجرائد يدافعون عن حق الفلسطينيين وينادون بالتعايش السلمي بين اليهود والفلسطينيين... عاد عم إبنها " حسن " بعد أن غاب عشر دقائق وفي يده كوبان من " البلاستيك " فيهما شراب ساخن وقدم إلى " سعاد " ثم إقترب يسقي زوجته بنفسه وإعتقدت"سعاد" أنها رأت عين زوجته وقد شع من عمقها معنى للسعادة الحقيقية وهي تطيعه وتشرب " بُق بعد بُق " وتألقت النظرة الفرحة مرة أخرى وهي تغمض عينيها مُكتفية... تأهب العم ليتركها وهو يتناول يدها ليقبلها وإلتفت ليفسح المكان " لسعاد " ولما إقتربت منها تمس كتفها لتُحييها جذبتها ورفعت عينيها بنظرة معينه إلى زوجها فإبتعد خارجاً تاركاً لهما فُسحه.. وبذلت المريضة جُهداً قبل أن تنطق بكلماتها بصعوبه وهي تُغالب دموعها فإقتربت " سعاد " منها فما كان إلا أن قالت لها " إعتني بزوجي.. أوصيكِ به فهو إنسان لا نظير له.. كما أنني أحببته كثيراً ".

•••••

آخر كلمة سمعتها منه " أنت إمرأة لا بديل لك " وأغلق الهاتف على عجل.. علقت في ذهنها هذه العبارة رغم أنه قال لها " لا أتصور أن أسافر إلى بلد أخرى حتى لو كانت باريس دونك ".. توقف لثوان وهو يسألها وقد تلمست

أقصى معنى للصدق والحرارة أيضاً " هل تتصورين كيف ستكون حياتي دونك.. أنت المرأة التي... " ثم توقف مرة أخرى ليقول لها " كأنك أصل الخليقة. ضلعي ياسيدتي الذي خرجتِ منه يشعر الخواء.. حقاً ضلوعي تتقوس على بعضها والتجويف في صدري بلا نبض ".. على عيونها غُلالة سميكة من الدموع لا تستطيع أن تجاريه في كلامه ولا تستطيع أن تغير الموضوع فالموضوع أقوى منها إلى أن وضع السماعة وإنزرعت جالسة في حضن الكرسي المُريح ووضعت ذراعيها مُمدين بجوارها.. خلعت نعلها ومددت ساقيها وظلت هكذا قرب الساعة إلى أن إستعادت بعضاً من نفسها.. أفرغت زجاجة ماء كاملة في جوفها.. فراغ ليس وراءها شيئ.. لن تنزل اليوم.. " يا الله إبني أوحشني " تعرف أن جدوله اليوم مُزدحم فهل تطلبه رغم معرفتها ؟ دوماً تشعر معه نوعاً من المساندة رغم أنه طوال عمره مشغول بفكرة الإجادة وبالقراءة وكثيراً ما كلمها عن كيف يتناول كبار الكتاب مسألة الحب " توفيق الحكيم " حين أحب الفرنسية ورؤيته لعلاقة الحب في الرباط المقدس.. وطه حسين حين أحبته الفرنسية.. كان " لكريم " آراء دوماً يسبق فيها عمره ورغم أن إبنها لم تستول عليه علاقة حب إستيلاءً بالمعنى المفهوم إلا أنه كان يتفهم معنى الحب ويقول بأنه روحان يتلبسان جسداً واحداً.. ضحكت وهي تُقرر أنه كثيراً ما كان يقرأ أفكاراً هندية ثم يناقشها فيها " آه يابني وحشتني " بكل عمرها هذا وكيانها تتمنى أن تتوارى في حضن إبنها كما كانت تفعل في مصر حين يستبد بها التفكير في مشكلة ما أو حين تعجز مادياً أمام متطلبات الحياة خصوصاً في السنوات الأخيرة أو حين تقسو عليها " منى " فيفتح لها ذراعيه على وسعهما وهو يقول " أظنك لن تعقلي يا أمي أنني أشعر في أحيان كثيرة أنك إبنة لي " فتضحك بصوت عال وهي تُشير له بان قراءاته لقصص الحب أنضجته وجعلته يتقمص نفس الشخوص الموجودة في الروايات فكان يرد عليها " طب يا أمي

لا تحزني أنت أخت لي فكلنا من آدم في الأصل والأديان بعد ذلك تولت لنا التشريعات "... ينقصها الألفة من غيابه ينقصها فعلاً الألفة فدوماً يُبقي الله لنا قدراً من الحنان مُخبأ هنا أو هناك عند أحدهم ولو كان غضاً صغيراً والذكي هو من يتلمسه ويعايشه فالعدل سمة من سمات الله لا يمكن أن يجردنا من كل شيئ " وآه يا ابني وحشتني " تتذكر قدر تعاطفه معها فمنذ أن كان صغيراً في الثامنة أو لعلها التاسعة وهو يسألها في براءة حين يراها فرحه بزيارة العم الذي دوماً ما كان يُحقق له الكثير من مطالبه ويأتي مُحملاً من بلاده البعيدة ويترك لها مظروفاً تفتحه لتعد ما فيه حين كان " كريم " يرى هذا كثيراً ما كان يسألها ببراءه " لماذا يا أمي لا تتزوجي عمي حسن " فتبتسم وهي تغرس أصابعها في شعره الإسود الكثيف فلم يحدث أن رأى زوجته الأمريكية مرة لأنها لم تزر القاهرة مُطلقاً. ولما كبر وبعد مشاحناتها المستمرة مع أخته " منى " كان يقول لها دائماً " الخطأ أن أمك لم تتزوج حتى تعملي لها حساباً ولكنها أمامك دائماً وحيدة مُتقلة " دوماً كان يفكر بطريقة أكبر من عمره الحقيقي.. وتوقف عقلها كأنه صفحة بيضاء بلا أي معني حين أفاقت على صوت داخلها يقول بوضوح " تريدي أو تتوقعي أن تأخذي موافقته على علاقتك بيوسف إيجيه " أفاقت مرة أخرى وهي تنفي عن نفسها أي تفكير من هذا النوع.. ودق الهاتف وكان إبنها الذي بادرها " لا أدري لماذا شعرت أنك تحتاجين إليّ.. نصف ساعة وسأكون عندك فلا طاقة لي على العمل اليوم ".. وذهبا إلى الحديقة كعادتهما في كل خطوة تمشيها بجواره تشعر بروعة عطاء الله.. تكلما عن دكتور " يوسف " وسفرته إلى إحدى جامعات باريس ليشارك في " سيمينار " حلقة نقاش ويُلقي هناك محاضرتين.. قال لها بأنه كان يراجع معه المحاضره قبل سفره.. كلمها بأنه وعده أن يدعوه إلى بيته.. كلمها على مدى إقتناعه وترحيبه به.. كلمها.. وكلمها و " سعاد " مُصغية حين ردت لا إرادياً بما يعني أنها من لحظة رحيله

شعرت فراغا كبيرا.. ضحك حتى مال برأسه إلى أن لامس النجيلة التي يجلسون عليها.. وقبل أن يفترقا هو إلى جامعته وهي إلى بيتها كل واحد منهما يقترح أن يوصل الآخر إلى مكانه ويعود وحده " صعب عليَّ أن أتركك تبتعد وحدك أمام عيني " وهو يرد " أمي لا يمكن أن توصليني فلن أتركك وحدك في السادسة فالمدينة لها وحشة كما أنني أحس بضآلتي بجوار تلك المباني الشاهقة ".. " وأنت يا حبيبي ".. فقاطعها " أنا الرجل وأنا أعود وحدي.. أرجوك لا تضيعي الوقت فقد حل الظلام وسرقنا الوقت في الحديقة ".... ما أن دخلت بيتها إلا ودق الهاتف وعبارة واحدة سمعتها يتمنى لها فيها أن تكون ليلتها هادئة.. حسبت على أصابعها عدد الساعات إلى أن يعود ساعات ستة أيام كاملة.. ماذا ستفعل في كل هذا الوقت. قبل أن تجيب كان دكتور " هارت سترونج " يتواصل معها وأعطى الهاتف لزوجته التي أنبأتها أن الجامعة قررت تحديد سهرة " ماتينيه " مُبكره ليروا فيها مسرحية.. وأن السعر مُخفض.. وأنهم حجزوا مكانين للدكتور " يوسف " ولها وأن البروفسور " حكيم " وزوجته " ميرا " سيأتيان أيضاً سألت عن إسم المسرحية وعرفت من " ماري " أنها مسرحية " يسوع المسيح أسمى النجوم Jesus Christ Super Star " وأنها مسرحية غنائية مرت المكالمة دافئة و" ماري " تُقرر أنها ستمر عليها في الصباح.. أغلقت الهاتف وكانت الساعة قد قاربت من الثامنة مساء. لقد قررت أن تشتري في الغد أنابيب ألوان وأكثر من كادر مشدود فقد إمتلأ داخلها بالكثير والكثير من المشاعر والأحاسيس والرؤى للوحات مُستمدة من طبيعة المكان والظروف.... إقتربت من النافذة بعد أن بدلت ملابسها وبتأن كانت تُزيح ستارة الشباك الزجاجي العريض ليبرز أمام عينيها وكأنه يُلامس حدقتها بيت الدكتور" يوسف " مُظلم مُسدل الستائر والشقق من فوقه وعلى جانبيه مُضاءه إلا بيته هو.. شدت الستارة إلى مكانها وبخطوات خفيفة

دخلت فراشها.. فتحت التليفزيون لتتسلى برؤية فيلم.. الفـيلم كـان رومانسـياً مشحوناً بالمشاعر.. فقررت أن الحب درب من الجنون وإن الإصرار عليه هو الجحيم نفسه.. ظلت تتابع بعد ذلك أفلاماً من الخيال العلمي وتمنت لو تترك دنيا كوكب الأرض وتروح في رحله إلى كوكب آخر فهل هذا سيكون أكثر راحـه لها؟ وإنتفضت واقفه وهي تقول " لا.. لا وأولادي منى لم أسمع عنها من أيام " بأصابعها كانت تضغط الأزرار وعلى الطرف الآخر كانت إبنتها تُجيبها وفـي صوتها عتاب " طالت غيبتك يا أمي هل نسيتيني لأنك مع كريم " ورغم الفارق الشاسع بينها وبين أخيها في كل شيئ إلا أن " سعاد " لم تشعر للحظة أنها يمكن أن تحب إبنها أكثر من إبنتها.. الإثنان حب واحد إلا أن هناك من تسـكن إليـه وهناك أيضاً من تحترق بجوارها لأسباب لا تُحصى إلا أنها لا تُفرق بين الإثنين وعادت إلى فراشها.. إنزلقت نائمه على جنبها بعد أن إطمأنت عليهـا وعلـى " شادي " الصغير وأفسحت لعقلها مشاهد معينه من فيلم الخيال العلمـي الـذي رأته وهي تهمس بصوت مسموع " حتى على الكواكب الأخرى لابد أن هنـاك معايشة الإحساس بالحب ياربي".

•••••

عادت لتقف ساعات مُتتالية أمام لوحتها التي وضعتها بجانـب سـريرها.. وعندما يأتي المساء تضع اللوحة بالحامل في الحمام رغم صغره وفـوق هـذا تغطيها بغطاء.. حاله من التشبع تعيشها وهي تمسك بالفرشاة سـاعات وأيامـاً مُتتالية وخَطَتْ كوخاً مُظلماً وسط غابة إلا من ضوء فضيّ رفيع يأتي من آخر الطريق ورغم خيط الضوء الواهي إلا أنه كان منعكساً على قمة الكوخ فأكسـبه شكلاً ما جمالياً وأضفى عليه سحراً بلا سبب ملموس وقبل أن توقع اللوحة التي يغلب عليها اللون الأزرق بدرجاته كانت تُقرر أنها نجحت فـي مـزج اللـون الفضي الآتي من شُعاع الطريق... ووقعت اللوحه بالأحرف الأولى من إسـمها

وهنا قطبت من حاجبيها وأعادت النظر إلى اللوحة مراراً كمن تبحث عن شيئ إلا أنها فعلاً لم تجد هذا الشيئ ولأول مرة كانت تبحث عن وجه دكتور"يوسف" الذي لم تكن تتعمده إنما كان يظهر في كل لوحاتها ولكن لم تجده هذه المرة.

المهم أنها نجحت في أن تُمرر أيام سفر دكتور " يوسف إيجيه " بأقل آلام مُمكنه وأقل ملل وزهق يمكن أن يكون حتى وجدت نفسها في صباح لتعرف بأنه سيصل اليوم.. بل الساعة.. بل الآن.. طلبت منها " ماري " أن تذهب معهما هي وزوجها لإحضاره من المطار وفي ذات الوقت لتتعرف على المدينه أكثر... الطريق نظيف إلى المطار.. المطر تكفل بالجزء الأكبر في إعطاء الرونق لكل شيئ.. ومع ذلك لا يعتبرون " نيويورك " من البلدان النظيفة !!... نزلوا وظلوا يسيرون مسافة طويلة إلى أن توقفوا أمام إحدى البوابات... خرج عليهم دكتور " يوسف إيجيه " وإبتسم لما رآها.. أسرع من خطواته يمسك في يد حقيبة وفي اليد الأخرى صندوق كرتون مُزرقش.. تقدم دكتور " هارت " يسلم عليه وإقتربت " ماري " تقبله وبقيت " سعاد " في خطوها مُترردده ولما مدت يدها هي الأخرى جذبها إلى جنب حُضنه.. لاحظت أن شكله العام بادي الحيوية.. ظل ممسكاً بخصرها وهم جميعاً يهمون بالسير إلى العربة.. تكلموا عن جو " باريس ".. عن مدى نجاح " السيمينار " الذي شارك فيه وأخيراً عن رد فعل محاضرته عن مستقبل منطقة الشرق الأوسط.. حكى لهم بالتفاصيل عن الأعضاء المشاركين ووجهات النظر المختلفة وفوجئوا جميعاً بانهم وصلوا أقرب ما يكون إلى بيته.... نزل ولم ينسى أن يلمح " سعاد " بنظرة خاصة وكأنه يقول لها " من الطبيعي أن تصعدي معي " أشاحت بوجهها وتشاغلت بالنظر إلى حقيبتها وهو يأخذ حاجياته من مؤخرة العربة وكان مرة أخرى ينظر لها بنفس المعنى ثم إبتعد داخلاً في عُمق مدخل بيته ودارت العربه حول الحديقة وعند طرفها المقابل أنزلوا " سعاد " على وعدٍ بلقاء في الغد لأنه إجازه لزوجها

وللدكتور " يوسف ".. إنتهى الحديث بينهما على أن تأتيها " ماري " في الغد مُبكرة.... ما أن خطت خطوة واحدة على عتبة شقتها وقبل أن تبحث في حقيبتها عن المفتاح إذ سمعت صوت رنين الهاتف.. فتحت على عجل ولما رفعت السماعة لا إرادياً كانت تسأل " دكتور يوسف " والصمت إحتل مساحة بينهما إلى أن قال لها بأنه سيمر عليها وسيشتري شيئاً يؤكل.. قالت له بأن لديها ورق العنب الذي يحبه و.. و.. رد بصدق " أوحشني ما تعدين ".. لم تكن " سعاد " تريد لعلاقتها بالدكتور " يوسف " مزيداً من الإرتباط.. مزيداً من عدم الإستغناء لألف سبب لديها.. نظرت إلى نفسها في المرآة المواجهة وهي تكلم نفسها " إمرأة بعد الخمسين تخشى أن تتفرد برجل في ستيناته أيضاً.. هذه نُكته صحيح.. إنه شديد الحساسية والأكثر أنه يبدو في مواقف كثيرة عربياً إلى أقصى درجة يعرف كل شيئ عنا إلا أن.. " سوت من شعرها.. لا تضع المساحيق إنما اليوم بالذات قررت أن تشتري في الغد أحمراً لوجنتيها.. كلمت نفسها بصوت مسموع " مال الدم هارب من وجهي هل أنا خائفة.. طبعاً لا ألف مرة ".. تفطنت إلى أنه القلق الذي يُنبته دوماً " يوسف " مُعششاً داخل نفسها.. نوع من الضغط النفسي يمارسه عليها دون أن يدري.. حقيقةً أنها إستمرأت شعورها أول بدء العلاقة ولكن الخوف مع الأيام أن يتوغل " يوسف " ليستحوذ عليها... طرقات خفيفه اخرجتها من أفكارها فجرت وفتحت الباب كان الدكتور " يوسف " يقدم لها الصندوق المُزركش الذي خرج به من المطار " شيئ صغير لك " تناولت الصندوق لم يكن أمامها غير السرير لتضعه عليه.. لم تطوي السرير بعد.. إبتسم لها وهو يشجعها أن تفتحه فإقتربت تحل ربطة حريرية تحزم الصندوق ونزعت الورقة المُفضضة ورفعت الغطاء فإنبعثت رائحة شيئ جديد آت لتوه من مكان يحمل رائحة خاصة إستنشقتها من قبل وهي مسافره في مطار " باريس " في بدء رحلتها إلى إبنها.. ورقه شفافه

تحتها لون فيروزي.. رفعت الورقة بأصابعها فمد يده يشد فستان ســهرة لونــه فيروزي وظل مُمسكاً به أكثر من دقيقة وهي تمسحه ببصرها من أول الأكتاف إلى نهاية ذيله الطويل سألته " كيف عرفت مقاسي " رد عليها بإبتســامه ثــم وضعته عليها وإلتفتت ناحية المرآة قبل أن تُعلق بكلمة واحدة كان يسبقها ويقول " لا تقولي أن صدر الفستان مفتوح فهكذا كانت تلبس " نفرتيتي " مــن واقــع اللوحات الموجودة في آثار مصر " أخرج لها من العلبة قطعة قماش مُحاكه في إستداره سألته عنها قال لها " غطاء للرأس كانت تضعه نفرتيتي... هل تعلمــين أن غطاء الرأس عند اليهود في فلسطين إسمه " سنود " ومشابه للحجاب الــذي تضعوه على الرأس في مصر الآن " غُصه مسكت بحلقهــا مــن ذكــر يهــود فلسطين " من يحصدوننا ويحرقون البيوت والزروع ".. لاحظ تغيرهــا ففهــم وإعتذر لها فخجلت بدورها من نفسها.

•••••

الذي لا يختلف عليه إثنان أن إرتداء الجديد يُنبت الفرحة داخل الســريرة.. بلمساتها كانت تضبط وضع الثوب عليها.. شدت كُحل عينيها قليلاً خارج جفنيها فبدت عيناها أوسع من حقيقتهما.. لونت وجنتيها.. وضعت حول رقبتهــا عقــداً ذهبياً أحضره أيضاً دكتور " يوسف ".. أسدلت شعرها ووضعت فوقه الغطــاء المُستدير فبدت كمن زاد طولها.. إلتفتت لترى الثوب من الخلف ثــم اســتدارت مرة أخرى تراه من أمامها.. المرآه كبيرة بطول الحائط وضعت قــدميها فــي الحذاء العالي.... أقل من عشرين دقيقة وهي بجواره في العربة إلى أن وصلا.. إلتفت يلف من أمام العربة ليفتح لها الباب.. نزلت فقدم لها ذراعه فوضعت كفها عليه وسار بها إلى أن إجتازا الباب الزجاجي للمسرح نفس المســرح الســابق ومشت... إشرأبت الأعناق إليها وأفسحوا لهما الطريق.. عن اليمين والشــمال الكل ينظر إليها همس دكتور " يوسف " " الكل ينظر إلى الملكة " إبتسمت حين

تبينت وجه إبنها ضمن من يقفون فالتذاكر من الجامعة مُخفضه جـداً.. إقتـرب منها وفي عينيه دهشه بريئة.. قدمها إلى جمع من زملائـه وكـان الشـباب لا يتكلمون إلا الإنجليزية.. نفعها الكتاب الذي أهداه لها دكتور " يوسف " وكان هو الآخر يرتدي بدله سوداء ويضع ربطة عنق ليُكمل لها الشكل المطلوب... تقدم بها الدكتور " يوسف " ودخل المسرح كانت الأنوار مضاءة عن آخرها.. تقدما في الممشى إلى الصف الأول وشعرت بأنظار الحضور بل شـعرت بأنفاسـهم نظر إليها دكتور " يوسف " نظرة إمتنان... دقائق ثلاث وسمعت الدقات الثلاث المعروفه وإبتدأ العرض قصة " السيد المسيح " منذ مولده إلى الصلب.. إنتبهت بكلياتها إلى الصراع بين المسيحية واليهودية وأصغت إلى أغنية مشهورة عرفت أنها هزت مشاعر الحضور حتى أنها تأكدت أكثر من مرة أنها سمعت هنهنـات بل سمعت أصوات إحتكاك فتح حقائب السيدات ليسـحبوا الورقـات الخفيفـه لتجفيف الدمعات تعاطفاً مع اليهود عقلها يُترجم كلمات الأغنيه :

أغلق كل باب علي	Close every door to me
إخفي العالم كله عني	Hide all the world from me
إغلق كل النوافذ وأطفئ كل الأنوار	Roll all the windows and shut out the light
إفعل ما تريد بي	Do what you want with me
إكرهني وإسخر مني	Hate me and laugh at me
أعطني رقماً بدلاً من إسمي	Just give me a number instead of my name
إنس كل شيئ عني وأتركني للعفن	Forget all about and let me decay

....

أبناء إسرائيل	Children of Israel

لن يكونوا وحدهم — Are never alone

لأننا وعدنا بأرض تخصنا — For we have been a land of our own

كلام الأغنية يتأرجح بين ماضي اليهود وظلمهم أيام المسيحية وأيام " هتلر " بعد ذلك بالذات لأن " هتلر " لم يتركهم ليتعفنوا كتطور طبيعي للموت إنما كان يحرقهم. ومن قبل في أيام المسيحية كانوا يعطونهم أرقاماً ويُتركوا يتعفنوا ولا يقومون على دفنهم.. الوعد المجهول في الأغنية يمُس الوعد بأرض الميعاد القديمه ثم وعد " بلفور " وإنسحبت الستاره تُغلق المسرح وعلا التصفيق يرج المكان والكل وقوف فقامت " سعاد " هي الأخرى لتقف وإبتدأ الجمع في الإنصراف بهدوء قبل أن يخرجوا من حدود مبنى المسرح كان البروفسور " حكيم " وزوجته " ميرا " و دكتور " هارت سترونج " يقفون معهما.. لمحت إبنها.. أشار لها بيده وإنصرف مع زملاءه.. ظلوا يسيرون إلى أن دخلوا أحد المطاعم وبعد أن إنتهوا من طلب مايريدون كان البروفسور " حكيم " يقول " هذه الأغنية هزت مشاعر القادة السياسيين وغير السياسيين في العالم لدرجة أنها ذُكرت في إجتماعات ومؤتمرات في الأمم المتحدة " قبل أن يوافقه دكتور " يوسف " بنوع من التأثر المحسوب كانت " سعاد " تقول وهي تضغط على مخارج ألفاظها " هذه الأغنيه أبلغ دليل على أن اليهود عُذبوا على غير يد العرب بالذات " ومرت لحظة صمت طويلة بين الجميع ولما رفعت " سعاد " عينيها في وجه " ماري " شعرت بأنها بادية القلق تحاول أن تتكلم حين تدخل دكتور " يوسف " مقاطعاً وهو يقول " ملاحظتك في محلها ياسعاد وتدل على وعي فالواقع أن مؤسسي إسرائيل الأوائل لم يكونوا من أبناء فلسطين ولم يتعايشوا إنسانياً مع العرب بأي صورة إنما كان أغلبهم وافدين من أوروبا بخاصه أوربا الشرقية وبذلك كانوا يجهلون كل شيئ عن علاقة العرب والفلسطينيين وبالذات علاقتهم باليهود " كان البروفسور في أثناء ذلك يومئ

برأسه كأنه يوافق على ما يسمعه ثم قال بهدوء " أحب أن أُضيف حقيقة هامـة أن هؤلاء اليهود القادمين حملوا معهم قدراً هائلاً من الحقد علـى الآخـرين أي آخرين ومنتهى التجبُر في معاملتهم بعد التجربة المريرة التي مروا بها على يد النازي "... بعد لحظة توقف فيها عن الطعام قال البروفسور وإن ظل مُمسـكاً بالشوكة في يده " النقطة التي أراها محورية في هذا الأمر وهي عصب الفكره أنه لا يوجد في العالم العربي من يفرق بين اليهودية كدين وبـين الصـهيونية كفكرة مأمولة يسعون إلى تحقيقها ألا ترون هذه النقطة يا سادة " إندفعت " سعاد " تقول " هذه النقطة بالذات تستحق أن نتوقف عندها وأعتقد أننا نعـرف هـذا الفرق تماماً فنحن كمسلمين لا نرفض ديناً أنزله الله هـو أول الأديـان ولكننـا نرفض أن نُعامل كغرباء في أرضنا وليس من حقنا البقاء فيها إننا حقيقة نفـرق بين كلمة معاداة اليهودية ومعاداة السامية. معاداة اليهوديه لا تخص المسلمين أما ما يخص عداء السامية فلنا فيه لأن السامية قائمة على فكرة العنصرية لعرق أو جنس وعقيدة أنهم جنس سامي "... إلتفت إليها دكتور " هارت " " تقصـدي أن عداء السامية بعيد عن الدين " ردت من فورها " طبعـاً وعنـدنا آيـه تقـول (ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين) لاحظت " سعاد " عصبية " ماري " على غير عادتها ثم تحينت " ماري " لحظة صمت لتقول " غالبية الأمريكيين والأوروبيين في العـالم فـي الخمسين سنة الماضيه ضجروا من محاولات اليهود الناجحة جداً في إسـتبكاء العالم عليهم " وافقها دكتور " يوسف " وقبل أن ينطق بأي كلمة كانت " ماري " تقول مرة أخرى " أري أن سعاد تطلب من اليهود أن يحاربوا المسيحيين فهـل يُعادون بذلك كل أوروبا ها.. ها.. ها " نظرت إليها " سعاد " طويلاً نسبياً قبل أن تقول " الحقيقه أن أوروبا تقدمت مادياً وصـناعياً وكـان لهـا حضـارتها المشهوده إلا أنهم كأوروبيين لم ينتبهوا إلى وجـوب القضـاء علـى التخلـف

السلوكي وكما قال إيني في أحد أبحاثه أنه من أول روسيا القيصرية كانوا يهاجمون الجماعات اليهودية وفي قلب أوروبا أيضاً حتى مرحلة النازي بينما تعايش المسلمون واليهود والمسيحيون في الدولة الإسلامية على الدوام " ثم توقفت لحظه وعادت لتقول " كما قال لي إيني أنهم تعايشوا كذلك في عهد الدولتين الأموية والعباسية ولماذا نبعد تعايشوا لمدة سبعة قرون أيام الدولة الإندلسيه عاش اليهود على أحسن ما يكون إلى أن سقطت أيام " فرناندو وإيزابيلا " وهناك تعرض المسلمين واليهود للإضطهاد جنباً إلى جنب لأنهم كانوا على قدم المساواه "... إلتفت البروفسور " حكيم " إلى دكتور " هارت " ودكتور " يوسف " قائلاً " ألا ترون أن مثل هذه المناقشات تكون مُثمره رغم أنها بعيدة عن الزركشه السياسية الرسميه " وافقه الجميع وإبتدأت الأحاديث تجري مجراً آخر والكل يُثني على الموسيقى في المسرحية كعنصر أضاف الكثير..... وفكرة الإنصراف إستحوذت على الجميع فقاموا في وقت واحد رغم أن الوقت مازال مبكراً فالعرض كان " ماتينيه " ولم تصل الساعة بعد إلى التاسعه مساءً..وأمام مكان جديد تنبعث منه موسيقي مسموعه بدأت " سعاد " لا إرادياً خطواتها داخله ... تسرع وتسرع صوب إنبعاث الموسيقي .. شعر " يوسف " بتجاوبها المرئي . إبتسم وهو يتلمس ظهرها لتتقدم أكثر .. دلفت إلي ممر مضاء بطريقة خلابة فيه ألوان الطيف كلها فأسرعت من خطوها أكثر .. كان " يوسف " متأخراً عنها إلا أن لمسات أصابع يدية كانت توجهها إلي باب يقف عليه رجلان رحبا بهما وسبقهما أحدهما متوجهاً إلي مائدة بعينها ليست بعيده عن منتصف المكان وسحب لها الرجل كرسياً فجلست من فورها .. الموسيقي تخللتها وبدى مرئياً أن نبضها يدق مع الأوتار العازفة .. الابتسامة لم تغب عن شفتيها .. بقعة ضوء مستديرة إرتسمت علي الأرضية من أمامها وعلت النغمات وابتدأ الحضور يتسللون إلي مكان بقعة النور إثنان إثنان

يتمايلان بينما " سعاد " تتابع بمتعه حقيقية من داخلها الراقصين وبينما الموسيقي الحارة تهدأ تدريجياً وتميل أكثر لتكون حالمة إذ هبَّ دكتور " يوسف " واقفاً أمامها . ألتفتت فجأه من متابعة الراقصين إليه وبدى في هذه اللحظة بالذات جسده ورأسه طبق الأصل مما ظلت ترسمه سنوات .. كان مبتسماً فردت بإبتسامة أوسع .. إنحنى يلتقط يدها فقامت كالمسحوره .. مشى بها ثلاث خطوات بالعدد تماماً .. وضع يده حول خصرها .. أراحت يدها علي كتفه .. سحبها مع الموسيقي إلي عمق الحلبة .. إستمتعت بطرب النغمات فأجادت الخطوات .. بعد ثوان كانت بكلياتها بين ذراعيه .. مالت برأسها علي كتفه .. حضنه يبعث إليها بالرسالة من بعد الرسالة .. دفء ما لا تدرى من أين يأتى تلبسها فشعرت بدوىّ حيوية لم تعشها من قبل ! تركت نفسها للموسيقي وطالت الدقائق إلي العشر .. فتحت عينها المسدلتين لثانية ثم فتحت عينها مرة أخرى .. صرخة حاولت السيطره عليها وهى تقول لنفسها : " يا نهار إسود ومنيل بستين نيله .. من يقتلونا من يهدمون البيوت والزروع وأنا في حضن واحد منهم !! في طريق عودتها أثني الدكتور "يوسف " كثيراً على قوة حُجتها في النقاش فى المطعم قال لها بأنه لم يكن يتصور أن يصل إهتمامها إلى هذا الحد بقضية الشرق الأوسط على وجه الخصوص أكدت له أنها دائمة النقاش مع إبنها إذا قرأت شيئاً كما أنه أيضاً يناقش معها الكثير من الكتب التي يقرأها... أمسك يدها فأنتظرت ثانية قبل أن تسحبها من كفه بهدوء إلى أن وصلا إلى بيتها فسحبت يدها بتعُمد وهو يقول لها " لن تهربي ثانيةً " إنتقل دفء كفه إلى ذراعها.. شعرت لذة السخونة.. أغمضت عينيها قريره إلى حد كبير.. رفع كفها إلى شفتيه وسمعته بوضوح وهو يقول " سعاد لا تنسي أننا أولاد عمومه " فعادت تسند ظهرها بإرتياح على ظهر الكرسي وهي تقول " لأننا نؤمن أننا من سلالة سيدنا إبراهيم.. فلسنا غُرباء.. نحن نتفق في العرق " تمسك بكفها بين يديه

الإثنتين وهو يقول " إذن لماذا قلت في المطعم أن هناك شعوراً بمسألة السامية " شدت كفها بنوع من القوة من كفيه " لأن أساس الشخصية اليهودية قائم على فكرة التميز العرقي وأنكم فوق الجميع وهذا خطأ.. مسألة التعالي مسألة جاهلية بحته أنت يايوسف تعرف أن قرآننا يقول للبشريه (إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) نزل من العربه وإبتدأ في الدوران ليفتح لها إلا أنه عاد وأغلق بابه ووقف بجوارها لم يسلم عليها إنما أمسكها من ذراعها وهي تخطو داخل بوابة بيتها... قال بصوت خفيض " سأوصلك فقط لألقي نظرة على مارسمت " إبتسمت وقد إحتل كل عقلها معنى واحد " إمرأه في مثل عمري هل تخاف الإنفراد برجل " ثم إلتفتت إليه تسأله " هل تعرف السنه المحمدية في الدين الإسلامي ".. توقف ورفع من حاجبيه وهو يقول بقوه:- " طبعاً.. طبعاً تلك التي عن النبي محمد هي بمثابة التطبيق العملي لما جاء من تنظير في القرآن " ردت " سعاد " بعفويه " عليك نور السُنة تقول عن الرسول ليس منا من دعى إلى عصبيه " كانا قد وصلا إلى باب شقتها ودخلا.. وضعت حقيبتها وإندفعت تسحب الحامل وعليه اللوحه إلى منتصف الحجرة.. أزاحت الغطاء فظهرت اللوحه.. إقترب منها دكتور " يوسف " وتحرك يميناً خطوتين ثم إنزاح يساراً خطوتين وأمامها وجهاً لوجه كان يُحدق في وجهها وهو يقول" كل هذه الوحدة شعرتيها في غيابي " قبل أن تصطنع الدهشه في عينيها كان يقول " الكوخ الوحيد في ليل أكيد " ردت بتثاقل " ليس إلى هذا الحد " تطلع إليها بعينيه وكأنه عثر على شيئ هام " إلا أن شعاع الضوء الفضي الذي يأتي من هذه الجهه " وأشار بأصبعه " وهذا يعني أن الأمل موجود ".

*****

في صباح يوم فتحت الباب كان عم أولادها يقف في مواجهتها وهي تفسح له ليدخل فما كان منه إلا أن إرتمى على الكنبه وتساقطت الدموع من عينيه.. دق قلبها ولم تستطع أن تنطق إنما وقفت أمامه صامته وهي تنشغل في لَمْ الروب على قميصها.. شدت الحزام بقوه ثم رفعت بصرها إليه بعد أن أعطته فرصه ليداري دموعه أو يحاول التماسك... بصعوبه خرجت الكلمات منه يخبرها بأن زوجته في ساعاتها الأخيره وأنها تطلب رؤيتها بإلحاح وأضاف " كلما صحت ووعت لما حولها تطلبك أكثر من مره ".. حاولت أن تخفف عنه بالأمل فلا يجب أن يفقد الأمل... كانت كأنها تتكلم في فراغ ورغم مساحة الحجرة المحدودة إلا أنها كانت تسمع صدى كلماتها المُلتاعه والعم شارد عنها ينظر في أرجاء الحجرة لا إرادياً.. تركها ونزل إلى عربته وإرتدت هي ماقابلها وكانت بجواره في طريقهما وكلما إقتربا تعالت دقات قلبها.. طلعا سُلم المستشفى ولم ينتظرا المصعد وعند الحجره إندفع داخلاً ومن خلفه " سعاد ".. المفاجأة أنها كانت جالسه في قميصها الذي رأتها فيه آخر مرة وتغطي شعرها بغطاء.. عينيه لهفى عليها وعيني " سعاد " مُلتاعة النظرات.. إبتسمت المريضه بوهن كبير وهي تفتح كفها فإقترب " حسن " منها فهمست " ليس بعد.. أمامي وقت " خُيل إلى " سعاد " أنها تحاول الضغط على كفه فترك يدها بهدوء وإنسحب.. وهو يخرج كانت الدموع تتساقط مطراً من عينيه فأسرع في خطوه ليبعد من الحجرة تكلمت المريضه " يضعون لي حقنة مورفين بين فقرات الظهر.. إقتربي أريد أن أكلمك قبل أن يعاودني الألم المبرح " طائعه إقتربت " سعاد " من حافة سريرها.. أغمضت جفنيها كأنها تُشير لها أن تجلس ولما جلست لحظة مرت بعدها وبريق ما إلتمع في عينيها وتكلمت كلمات قليله خفيضه عن رحلة المجهول الذاهبة إليها وأنه يملؤها الرغبه لأن تجتازها إلى أن وصلت إلى أن قالت بما يعني وبوضوح وصراحه كبيرتين أنها تطلب منها أن تتزوج " حسن "

بعد رحيلها.. خُيل إلى " سعاد " أنها لم تسمع بوضوح فهزت رأسها بقوه كأنها تُخرج معنى ما سمعته منها إلا أن ضغطه خفيفه من كف المريضه وهي تُكرر على مسمعها " أرجوك تزوجي حسن بعد رحيلي " قامت " سعاد " واقفه من جلستها على حافة السرير وهي تؤكد لها أنها ستُشفى و.. فاشارت لها بيدها بما يعني أن تجلس ثم أكملت بما يؤكد أنه لن يقدر على العيش وحده وهو في حاجه إلى من يهتم به وأنها لا تُفضل أن يتزوج إحدى صديقاتها.. لم تُعطها فرصة حتى لمحاولة التعليق. أكدت لها أن هذا هو الصحيح الذي تراه ثم أشاحت بوجهها إلى ناحية النافذه وأشارت إلى" سعاد " فنظرت مكان ما تنظر.. كان الجهاز يرصد دقات قلبها والخط يهبط.. ويهبط إلتفتت " سعاد " إلى الباب.. جرت إليه ونادت بأعلى صوتها " حسن حسن " تنظر مُلتاعه خارج باب الحجرة فلا تسمع إلا رجع صوتها " حسن حسن " إلى أن لمحته مهرولاً من أول الممر ولم تدر شيئاً بعد ذلك.. طنين في أذنيها.. متى وصلت إلى كرسي أمام الحجرة وجلست عليه لم تعرف بالضبط كل ما وعت إليه أن الممرضتين أتيا مسرعتين.. إقتحما الحجرة.. ظلت متصلبه مكانها.. خرج " حسن " باكياً بصوت مرتفع وخرج في أثره السرير وعليه المريضة مُغطاة الوجه... بقيت مكانها ثم إستمرت باقيه مكانها .. لمحت العم يمر مرتين من أمامها بصحبة ممرضه أخرى صارت خلفه. في خطوه إنهيار أكيد حتى أنها حاولت أن تلحق به لتسنده فأزاح يدها برفق وإلتفت إليها يؤكد لها أن هناك إجراءات وإتصالات لابد أن يقوم بها " سأنتظرك " أشار إليها أن تعود إلى بيتها وسيكون على إتصال بها وذهب يلحق بالممرضه التي كانت تسير أمامه إلتفتت إلى الناحية المقابلة وأخذت طريقها هي الأخرى.. نزلت السلالم ولفحتها نسمة أول الطريق.. خرجت من بوابة المستشفى وظلت تمشي ولم تنتبه إلى أنها لم تسأل عن الأتوبيس لتعود به إنما بقيت تمشي ودموعها تتساقط أمامها على الأرض..

أنفها إنسد تماماً ففتحت فمها تأخذ شهقات الهواء.. أخرجت من حقيبتها ورقـات لتلاحق بها دموعها وتلاحق بها أنفها الذي إنقلب إلى صنبور لا يتوقف.. ظلت تسير وليس في عقلها أي إتجاه تقصده كانت فقط تمشي بعقلها الباطن إلـى أن إنتبهت إلى أنها قريبه من بيتها من منطقتها.. لمحت الحديقـة فأسـرعت فـي خُطاها.. عربه كادت تدهمها ولعنها السائق بصوت مسموع " Bitch " ذكرتها بكلمات " منى " في ثورتها.. أكملت سيرها.. إخترقت الحديقه.. وصـلت إلـى بيتها وعبثت في حقيبتها تبحث عن المفتاح فلم تجده لا إرادياً تحسست معطفهـا وسحبته ثم فتحت شقتها ووضعت حقيبتها على المائدة القريبه وتركت جسـدها يسقط على الأريكه.. لمحت الساعه المعلقة ووعت إلى أنها سارت ما يقرب من الساعتين في عودتها.. جلست تلتقط أنفاسها والشعور يسيطر على عقلهـا بـان الموت أقرب ما يكون. هو في كل مكان.. لم تفكر في الموت منذ جاءت أمريكا رغم أنها كانت في بلدها كثيرة المعايشة اليومية له.. تصلي عند الأذان خوفاً من أن لا يأتي عليها الأذان التالي وهي غير حيه.. تحث إبنها على أن ينجح خوفـاً من أن ترحل هي قبل أن ينتهي من مشوار التعليم.. تتحمل إبنتها " منى " بصبر على أساس أنها غير متأكده من أنها ستظل على قيد الحياه في الغد.. الصـغيره قبل الكبيره تفكر فيها وكأن الموت متفرغ لها وحدها يعد عليها الأنفـاس ربمـا لأن أمها كثيراً ما أصلتْ لها هذا المعنى بعبارة " عش ما شئت فإنك مُفـارق " وها هي زوجة " حسن " فارقته.. ولن تعود.. " رباه ما فكرت في قرب الموت إلى هذه الدرجة رغم أنه زاملني أكثر من خمسين عاماً هي عمري".

•••••

في الكنيسة كانت " سعاد " تقف بجوار إبنها " كريم " يستمعان.. جمع من أقاربها يرتدون السواد.. كلهن تغلبهن العبرات فيخرج صوتهن خفيضاً مختلطـاً بالزفرات.. الكنيسة فسيحة ونظيفة.. تمثال بالحجم الطبيعي " للسيد المسـيح "

مُعلق في صدر الصاله ذكرها بالمسرحية التي رأتها " المسيح أسمى النجوم " هناك كانت ترقد في صندوقها يمرون عليها لإلقاء النظرة الأخيره.. حثها إينها أن تتقدم ولما وصلت أمام الصندوق أغمضت عينيها بقوه وإتكأت على ذراعه لا تقوى على أن ترى وجهها بينما يقف العم في حالة إعياء يتقبل كلمات العزاء لا تدري ما كل هذا الحنين والإشتياق لتسمع آيات من القرآن تتردد أصداؤها في هذا المكان الفسيح.... ركبا العربه مع العم وفهمت " سعاد " أنهم في طريقهم إلى المقابر. كان الصمت يلف ثلاثتهم إلى أن وصولوا إلى مكان خارج المدينة وهناك رأت حديقة واسعه. أشجارها وارفه أحواض الزرع الأحمر والأصفر والأبيض تُحيط بها.. فيها صمت جليل وفيها نظافه إلى أقصى درجة.. ساروا مسافه قصيره على الأقدام وعند مكان مرتفع نسبياً والخضرة مازالت على مرمى البصر وقفوا.. أبعد من ظهورهم بمسافة مترين كانت هناك شجرة ضخمة وارفه.. القبر كان مفتوحاً.. أثار الحفر مرئية.. يقف أحد رجال الدين يقرأ من كتاب حاولت أن تفهم وأستولى عليها الشعور مرة أخرى بالإشتياق إلى سماع كلمات القرآن يتردد صداه في هذا المكان الفسيح.. جمع قليل من أقارب زوجته يقفون على حافة القبر المحفور.. نسمة باردة لفتها.. شعور فياض أنهم سيرقدونها في مكان مقتطع من الجنة بل لعله البرزخ.. شعور فياض بأن الإنسان في هذه البلاد يُكرم في حياته ويُكرم أيضاً في مماته.. سحبت بهدوء شهقة هواء شعرت معها نوعاً ما من الراحه والصندوق المغلق يهبط في الحفره وعندما بدأوا يهيلون عليه التراب أغمضت عينيها بقوه وإستندت على ذراع إينها.. إنشغل العم في كلمات مقتضبه مع بعض أهلها قبل أن يستقلوا العربه مرة أخرى عائدين إلى قلب المدينة.. الصمت أيضاً لفهم مرة أخرى إلى أن وصلوا إلى جامعة " كولومبيا " ونزل إينها بعد أن قبل عمه.. ظلت ترقبه إلى أن إختفى بعد الباب الحديدي.. عرضت على العم أن تذهب معه إلى بيته لعله

يكون في حاجة إليها ولكنه أفهمها أن بعض أقارب زوجته سيكونوا في داره لإنتظاره حيث أوصت زوجته ببعض أشياءها لهن أفهمها أنها كانت تُجيد أشغال الإبرة وكانت تُخرج روائع من يديها سواء للزينة أو للملبس إلى أن أوصلها إلى بيتها.. ظلت واقفه على الرصيف تُشير له إلى أن بعد تماماً.. في بيتها إرتمت على الأريكه وهي تؤكد لنفسها أن الموت فزع حتى لو كان في أجمل مكان.. تتلاحق الصور في مُخيلتها وتسمع في أذنيها صوت تجريف الرمل وهم يهيلونه عليها ثم يعاود عقلها الإسترجاع من أول وقفتها في الكنيسه والكل ينحني بإجلال في خطوة سريعه وإنحناءه خفيفه أمام تمثال " السيد المسيح " عليه السلام... ما يملأها الإحساس بضعف البشرية " ضعيف هذا الإنسان في رحلته في الحياه يريد دوماً شكلاً يُطمئنه ملموسا.. التجسيد يطمئنهم. إحتلت المرحومة والدتها كل عقلها وهي تنهرها من أن تسأل عن شكل أو كُنة الله وقالت لها بما يعني أنه الموجود في كل شيئ من حولك... عقلها يغلي فما كل هذه التساؤلات والتفسيرات التي تستنتجها وما كل توارد هذه الذكريات وفجأة شعرت بالجوع وتألمت من العطش ولا طاقة لها على أن تقوم من مكانها.. ظلت جالسه وإن أدارت عينها في المكان فماكينة القهوة على بعد ذراع منها والمياه ساخنه في الصنبور والحليب أيضاً في الثلاجه خلفها.. حسبت الجُهد وقامت واقفه تصنع لنفسها فنجاناً ساخناً ومع أول رشفة لها كانت تستعيد قدراً من طاقتها وإنتظرت إلى أن أتت على الفنجان تريد أن تُكلم إبنتها " منى " نظرت في ساعتها وحسبت فارق التوقيت بين أمريكا ومصر طلبت إبنتها تريد أن تلحقها قبل أن تروح عملها.. ردت عليها إبنة عمها الست " زكيه " أفهمتها أن إبنتها نزلت إلى عملها.. سألت عن " شادي " وعرفت أنه خرج معها لتتركه في المدرسه... سألت إبنة عمها عن عودتها وهل سيطول غيابها طمأنتها وإن لم تعطها موعداً لحضورها ثم أغلقت الهاتف والست " زكية " تدعو لها.

*****

في الصباح لبست على عجل وأنهت مكالمة سريعة مع " ماري " وأخرى مع دكتور " يوسف " تُعلمهم بإنشغالها مع العم وتتقبل التعازي منهم.. كانت التعاطف مع العم كبيراً من جانبهم والكل يعرض مالذي يمكن أن يقدموه... قبل أن تخطو خارج بيتها كان الهاتف يدق وكان البروفسور " حكيم " يقدم تعازيه هو الآخر والتي يرجو أن تصل إلىٰ عم إبنها.. إنطلقت في الطريق.. تعرف الأوتوبيس الذي يقلها إلى هناك رغم أنها لم تستعمله مره من قبل.. الخريطة بين يديها تعلمت من " ماري " أن تقرأ الخريطة وتعرف أرقام المواصلات...الملاحظة ساطعه داخلها أن الوجوه من حولها وإن كانت مشغوله إلا أنها باسمه في أغلبها أو لعلها مُستبشره بشيئ.. وجوه بلا إعياء أو كأنها بصدق لا تعرف العوز.. لما وصلت إلى العم " حسن " وكان يقطن في فيلا من طابقين وبدروم ولها حديقة صغيرة.. تذكرت يوم أن وصلت إلى باب الفيلا ولم تدخل لأنه ترك لها خطاباً خاصاً مع أحد جيرانه... تفحصت " حسن " كان معنى ألم الفراق واضحاً في عينيه. يزُم شفتيه بطريقة فيبدو فمه أصغر من حقيقته.. إحساس بالمرارة عالق بشفتيه وهذا ما إستشعرته تماماً. بعد كلمات الأسف التي دارت بينهما من أنها لم تدخل البيت إلا بعد رحيلها... عرض عليها أن يُفرجها على البيت حجرة.. حجرة وعند أشياء كثيرة معلقة أو موضوعه كان يتوقف ويشرح لها أنها من صُنع يديها.. إندفعت الدموع أكثر من مرة إلى عينيه المُجهدتين وتحشرج صوته مرات وهو يحاول أن يُغالب العَبارات إلى أن دار بها على البيت بأكمله.. مد يده وأدار لوحه كانت مركونه على ووجهها إلى الحائط وعرفت فيها " سعاد " لوحتها التي أهدتها إلى زوجته وحملتها معها من " مصر " إلا أنه لم يُعلقها كان ينتظر عودتها من المستشفى... تركته يروي لها ويحكي كل ما يريد أن يقول... إستغرق دورانها في الفيلا أكثر من الساعتين

واقفه على قدميها وهو لم يتوقف أو يشبع من الحكيّ عن الراحلة العزيزة إلى أن صك عينيه على مايبدو رؤيته للساعة في إحدى الصالات الثلاث للمنزل فإلتفت إليها مُعتذراً وقد أيقن أنه أوقفها بجانبه مايزيد عن الساعتين... أمسكها من ذراعها لينزلا السلالم القليلة وفي المطبخ كان يفتح الثلاجة يحاول أن يقدم لها مشروباً فتناولت منه الزجاجة وهي تعرض عليه أن تجهز شيئاً للغداء.. فضل أن يصحبها في الخارج في المطعم الصيني القريب عند ناصية الشارع ليأكلا شيئاً لأنه يريد أن يخرج من حالة إجترار الذكريات التي يعيشها.... دقات قليلة موحدة وصوت من آلة واحدة يُضفي على المطعم الصيني رونقاً له مذاق خاص وأكثر ما شعرت به أن الأعصاب هدأت في دخيلتها.. نظرت مُستفسره إلى " حسن " فلمست بوضوح أنه هو الآخر قد هدأ روعه إلى حد كبير وبأنه يعود إلى طبيعته تدريجياً. كان العم معروفاً في العائلة بوسامته الملحوظة وحتى بعد أن وصل من العمر إلى مرحلة معينة بدا شعره الأبيض كأنه تاج على رأسه حتى أنها كثيراً ما كانت تؤكد لنفسها ولا تفصح عن رأيها لأحد بأنه كلما كبر " حسن " في العمر كلما إزداد رونقاً وإقناعاً... إستراحت لمًا لمست أنه يعود بالتدريج إلى أقرب ما يكون إلى طبيعته بل إن ملامح وجهه بعضلاته تعود لشكلها المألوف والذي تعودته... النغمات الصينية الرفيعة وكأنها تمُس كل عصب ووتر في جسدها ليعود إلى حالته الطبيعية.. تشعر بدخيلتها إلى الأحسن وتعاود التحديق في" حسن " لتتأكد بأنه في طريقه هو الآخر إلى أن يعود كما كان... فتاه تلبس زياً صينياً مُسدلة الشعر أبعد من خصرها تقف لتكتب الطلبات وعند " سعاد " دراية من كثرة ما قدمت لها " ميرا " زوجة البروفسور "حكيم " أصنافها فطلبت " أرزاً بالخضار " وترك لها " حسن " الإختيار... جلسا ينتظران حين لاحت إبتسامه على وجه " حسن " وهو يقول لها بأن المرحومة زوجته خصصت بعضاً من مالها للكنيسة التي خرجت منها.. أفهمها أن مسألة

التبرع " Charity " أساسية في خُلق الإنسان الأمريكي أياً كان وهناك عربات " كميون " تقف عند بعض النواصي يضعون فيها كل ما يستغنون عنه من أول الملابس إلى الأغطية والبطاطين وحتى الأجهزة الكهربائية والقطع الزائدة مـن الأثاث أو حتى بعض الكتب أما المال فإنه يُسلم تبعاً للوصية قال لها بعد زفـرة قصيرة أخرجها " تشعرين هنا بتكاتف الإنسان من أجل أخيه الإنسان " وافقتـه على الرأي صادقة ثم حدق فيها لبُرهة قبل أن يبدأ طعامه وقال لها بما يعني أنه يستأذنها دون أي ضغط في أن يعرف بماذا أوصتها المرحومه زوجتـه وذلـك الإلحاح المتكرر الذي طلبت به رؤيتها وبأسرع ما يمكن... إبتلعت " سـعاد " لعابها أكثر من مره فقال بصوت خفيض " آسف للإحراج ولك الخيار إن أردت أن تحتفظي بما قالت لنفسك " " سعاد " تطحن عقلها بسرعة فائقة وتفكر بأنهـا إذا إحتفظت بما قالته لنفسها كما يقول فسيشعر وهو مُحق في ذلك أنهـا تخفـي عنه أمراً يخصه بكل المقاييس لأن من قالته هي زوجته أمـا إذا أباحـت بمـا سمعته منها ففي ذلك إحراجٌ لها ما بعده إحراج كما أنه أيضاً مُحرج " لحسن " فابتلعت كوب ماء آخر دفعه واحدة وبدأ العرق مرئياً على جبهتهـا وقبـل أن تُخرج منديل ورقي من حقيبتها كان يقول " أنا أعفيك يا سعاد مـن أن تحكـي وسأعتبر الموضوع مُنتهياً تماماً " وبدأ يعاود الأكل.. كانت " سعاد " قد قررت في تلك اللحظات القليلة أن تقول له كل شيئ لأن الأمر من قبل ومن بعد يخصه في جوهره.. وهي مازالت تطحن عقلها قررت أن تبدأ معه بمقدمه تكون بمثابة مدخلاً لما تريد توصيله له فبدأت بأن أكدت له حب الراحلة العزيزة له وإفتتانها الكبير به ولا عجب في هذا فهو طوال حياته المشهود له بالوسامة وليس هـذا فقط إنما وسامة الطباع أيضاً وذلك الكرم الكبير الذي يتعامل به مع كل أفـراد أسرته بل ومع كل من يعرفه.. ذكرته بالكثير والكثير من عطاياه لإبنها وإبنتها ويوم أن أحضر " لكريم " بدلة " الجودو " ولم تكن هـذه البدلـة معروفـة أو

منتشره في " مصر " وإلى " الأورج " الذي أحضره أيضاً لإبنها أيام سنوات الإنغلاق ومنع الإستيراد في " مصر ".. تبذل جهداً لتستجمع مواقف كريمة له إلى أن قالت بما يعني أن هذا ما جعل زوجته تعتز وتؤمن به إلى أن مرضت للأسف الشديد بهذا المرض المُدمر وتوقفت عن الكلام ولم تجد كوب ماء بجوارها لتشربه.. حدقت في أركان المائدة.. رفع عينيه يسألها وأشار للفتاه الصينيه فأحضرت زجاجة شربتها كوباً بعد كوب وإن لم يتوقف عقلها لحظة واحدة عن التفكير وهي تنزل الكوب الأخير إلى المائدة إندفعت تقول بلا توقف " لقد طلبت مني أن أتزوجك لأعتني بك " ولم تنتظر منه رداً ولم ترفع عينيها في عينيه إنما إنشغلت بصب الباقي من الماء فأمسك بالزجاجة يملأ الكوب.. شعرت بعينيه مصوبتين إلى وجهها وظل إبتسامه على وجهه وهو يقول " لا جدال أن الإرتباط بك شرف عظيم لي لما تتمتعين به من الكثير " ثم توقف لثانية وعاد يقول " ولكن المسألة أن يكون لي رأيي ورغبتي الخاصة " في هذه اللحظة توقف عقل " سعاد " وشعرت بنوع كبير من الراحة وإن أحجمت على أن تقول له " وأنا الأخرى لي رأيي " إلا أنه هو نفسه قالها " الأمور لا تؤخذ هكذا بما تراه المرحومة فأين رأيك أنت وإرادتك " دقائق من الصمت الحار وقبل أن يقول " ومهما كانت المصلحة المنشودة فلا يمكن لها أن تتحكم في حياتنا. هذا فيه شُبهة إستبداد " كلماته أراحتها لدقيقة حين إقتربت الفتاه الصينية مرة أخرى لتعرف ما يطلبان من الحلو فعادت تنظر في البطاقة العريضة في قسم الحلويات وطلبت تشكيله من الفاكهه فقد كان لعابها جافاً رغم المياه التي شربتها وطلب " حسن " نفس الصنف وعاد للحديث بعد لحظة تفكير بدا فيها أنه بعُد بعيداً ثم بدأ يقول بتأني " هذه هي الشخصية الأمريكية من فرط إحساسها بالقدرة والقوه تظن أنها قادرة على حكم الكون وإن هذا شيئ مضحك.. ألست معي! " طاوعته بهزة من رأسها فأكمل " هكذا المرأة الأمريكية دون أي إعتبار

إلى أننا من شعوب أخرى ويجري في دمائنا مفاهيم من نوع آخر أليس كـذلك يا سعاد " طاوعته مرة ثانية بهزة من رأسها ولم تشأ أن تُضف إلى كلامه مـا يؤكده رغم أنها مشحونة بالكثير والكثير من إعتدادها بنفسها وخاصة لمن فـي مثل عمرها.. لم تفضل أن تتكلم حتى لا يصله أي معنى يسيئ إلى شخصـه.. حياتها السابقة الطويلة القائمة على الوحدة المُطلقة علمتها الصمت حتى صارت تقتاته تطحن عقلها وترد بينها وبين نفسها وإذا ما غلبهـا الغضـب أو الحكـي أمسكت فرشاتها تعجن الأحمر بالأسود وفي أحياناً أخرى بالأبيض لتُخرج لوحة تقول تماماً ما يعتلج في صدرها. ضحك من أنفه وهو يسـتطرد " كثيـراً مـا شعرت بالضغط المُلزم في حياتي معها فدائماً تفعل ما يحلو لها أو ما هـو فـي رأسها دون إعتبار لما أحمل من رغبات وآمال أو حتى مخاوف " بعـد لحظـة صمت كان يُكمل " لم تحاول مرة في العشرين سنة عمر زواجنا أن تجـاملني وتأتي معي لزيارة عائلتي وبلدي مصر لم تكن ترى في هذا فائدة رغم أنها لـم تمنعني من زيارة بلدي.. شيئ مخيف ياسعاد أن يتعامل المرء مع الآخرين من وجهة نظره وكأنه وصي عليهم حتى بعد مماته.. ألم يعبر بخاطرها أن إحساسي بك كأخت ".

•••••

في شقتها وأمام لوحتها كانت تعجن الألوان الأحمر بالأسود والأبـيض إلا أن أغلب اللوحه كانت تكسوها بُقع سوداء. من داخلها ورغم هذه الثورة إحساس بشيئ من الراحه فقد أفلحت أن تكبح جماح نفسها ولم تُظهر مـا يعـتلج فـي صدرها أمام العم " حسن " ولا حتى بالتعليق السريع حتى لا تـؤذي مشـاعره لأنه حين يهدأ ويبدأ في إستعادة تفاصيل الحوار لن يجد لها عبارة واحده ترفضه بها رغم أن الرفض هو ما كان يعشش داخل روحها " فلست قاصرة ولسـت عاجزة حتى يُقرر لي غيري مستقبل حياتي "... دق الباب ولمـا فتحتـه كـان

الدكتور " يوسف " بادرها بأنها أوحشته وأنه قلق من أجلها وعليها وإنها لا ترد على الهاتف.. سأل عن أحوال العم ضحك في دخلته وهو يُعلن لها أنه أتى وهو متأكد أنه سيجدها مشغوله بلوحه لأنه يفهم أن هذا هو التنفيس الوحيد الذي تمارسه.. إقترب من اللوحه وبفزع كان يقول " كل هذا القلق والضيق مالذي حدث " بمنتهى الصراحة والتأني كانت تقول له بعرض زوجة " حسن " قبل رحيلها.. هز رأسه وهو يؤكد لها أن هذا آت من فرط إحساسها بالقوه أولاً ثم التميز فأرادت أن تؤمن زوجها بعد رحيلها ثم أضاف بعد ثانية " ومع ذلك لابد أنها كانت إنسانة طيبه " لم ترفض " سعاد " فكرة أنها طيبه وفكرة أنها كانت مُلتاعه خوفاً عليه من العيش بعدها وحيداً.. جلس وهو يطلب منها فنجان قهوه بالطريقة المصرية.. خطت خطوتين لتُشعل النار وقدمت له القهوه وهي تعتذر عن تقديمها في فنجان شاي صغير بدلاً من فنجان القهوه التركي المعروف.. نصحها أن تخرج من دائرة الكرب التي تُكابدها هذه الأيام وباندفاع مرة أخرى كانت تؤكد له بأن ما يُقلقها أنها لا تعرف بالتمام ماذا تفعل لتُخفف عن "حسن ".. أكد لها أن عودته إلى عمله هي الطريق الوحيد للشفاء مهما كان الحدث وأخيراً قال لها وكأنه هو الآخر يفتش في عقله ليجد شيئاً يطمئنها حين قال لها بما يعني أنه عندكم في مصر تشبهون موت الزوجه " بخبطة الكوع " تؤلم جداً إلا أنها أيضاً تنتهي بسرعة جداً... افلح الدكتور " يوسف " أن ينتزع منها قهقهةً خفيضةً ثم أنبأها أن إبنها يسير بخُطى متقدمه في رسالته وإنه كما قالت هاوٍ أكثر منه يريد الحصول على درجة علمية.. وعاد الإشراق واضحاً إلى وجهها... سألها عن إبنتها " منى " إستغربت سؤاله إلا أنه ألمح لها بأنها دوماً ما تذكرها في أحاديثها. أيقنت في هذه اللحظه أنه رغم المسافات فإن ما يخفف عنها وجع هذا البعاد أنها تُحس من داخلها بأنها موصوله بحبلين واحد لكريم " والآخر " لمنى " ثم إلتفتت إليه باسمة وهي تقول متسائلة " ألم أتكلم

أيضاً عن شادي حفيدي إبن مني " فضحك مقهقهاً حتى عاد برأسه إلى الوراء... الإحساس ملأها في هذه اللحظة وبحلقت في وجه" يوسف " الذي يضحك أمامها وكم رسمته في لوحاتها إلا أنها لم تتبت ببنت شفة عن هذا الموضوع معه فقد باتت عن يقين أنه لم يفطن إليه... أكد لها قبل أن يأخذ خطوه إلى الباب أنه ينوي أن يدعو العم " حسن " وإبنها في عُطلة نهاية الأسبوع.. هذا العرض أدخل الراحه إلى قلبها.. أغلقت خلفه الباب وعادت إلى لوحتها وأمسكت الفرشاه تُكمل ما بدأت.. هذا المزيج الحاد من الألوان أنبت في عقلها معنى واحداً فإختارت للوحه إسماً هو " فداحة القوة " وأيقنت على وقفتها أنها لم ترسم من قبل معنى مُشابه أو مُجرداً إلى هذا الحد إلا أنها حاولت أن تُكمل اللوحه على أساس مفهوم " فداحة القوة " فكان الأسود يتسيد اللوحه يُجللها من حوافها أما داخل الحوافي فكان الأحمر الدامي. لم تشأ أن توقعها رغم السرعة غير العادية التي كونتها بها.. عقلها يرفض فكرة الدفقه الشعورية وصدقها " لا.. لا يمكن أن أنتهي من لوحه في نصف نهار ! ".

*****

في فيلا العم " حسن " كانت تقوم على ترتيب بعض أشيائه.. تجمع الغسيل وترتب الدواليب ثم تذهب لتفتح أدراج المطبخ الفسيح والمجهز بأحدث المعدات : فرن صغير يوضع على مائده صغيره أيضاً يسوي الطعام في دقائق معدودة حتى لو كان " ديكاً رومياً " سُبل العيش مريحةً في هذا البلد ورغم أنه تأتيها المساعِده التي كانت تتعامل مع المرحومة زوجته إلا أنها كانت تجد الكثير الذي تقوم على إنجازه من أجل عم أولادها " حسن " بعد أن تذهب المساعِده.. تدخل كل الحجرات تقلب كل الكتب لتطلع عليها.. إندهشت من عدد هذه الكتب التي تتحدث عن منطقة الشرق الأوسط ومشاكله.. تقضي أغلب يومها في بيته وفي كل يوم يطلب منها مهمة جديدة.. رآها مرة تقرأ في كتابها لتجيد الإنجليزية

فأقنعها بالإنتظام في مدرسة قريبة من بيته لتعليم الإنجليزية لغير الناطقين بها... بعد مرور أسبوع واحد أصبح تقدمها محسوساً وكان " حسن " يتعمد أن يكلمها طوال وجودها في بيته بالإنجليزية.... عرفت منه أن دكتور " يوسف " دعاه لقضاء يومين في بيت ريفي له في في شمال " نيويورك " وأنه أيضاً دعي " كريم " إبنها. لم تكن تتصور أن مكان الدعوة التي قال عنها في مكان غير بيته الذي لا يبعد عن بيتها إلا بأمتار الحديقه التي تفصلهما. لم تنتبه إلى معنى عبارته وهو في بيتها " عُطلة نهاية الأسبوع ".. فرحت لشعورها بفكرة التغيير ورغبتها كذلك في أن تعرف ضاحية أمريكية أو ريف أمريكي.. بدا " حسن " مقدراً للدكتور " يوسف " محاولته الأكيدة ليشفى من آثار رحيل زوجته.. وهو يوصلها إلى شقتها عرض عليها أن تأتي للعيش في بيته بدلاً من تعب المجيئ اليومي والعودة الليلية.. بلا إرادة كانت تهمس " ولكني أحببت شقتي " وافقها على الرأي وهو يؤكد لها أن أمامها أكثر من شهر لتفكر لأنه يدفع الإيجار مقدماً كل ثلاثة شهور... وإنشغل عقلها بفكرة تجهيز شنطة صغيرة لهذه الرحلة القصيرة.... ولما دخلت بيتها كلمت إبنها على الفور وبدأت بإسداء نصائحها فيما يمكن أن يأخذه لهذه الرحلة.. طمأنها بأنه يعرف " لي أكثر من العام أعيش بمفردي يا أمي ".. كان من المتفق عليه أن تذهب مع " حسن " وأن يأخذ دكتور " يوسف " إبنها في عربته بعد إنتهاء يومه الجامعي حيث سيكون الدكتور أصلاً في الجامعة... لم تتم إلا وكانت حقيبتها الصغيره جاهزة... تمام العاشرة كانت تقف تنتظر " حسن " الذي أتي في موعده بالتمام.. وضعت حقيبتها الصغيرة على المقعد الخلفي وأول ما تحركت العربة قال لها " حسن " بنوع من التمني أنه كان يمكنه أن يأخذ الدكتور " يوسف و كريم " ليكونا معهما " وخاصة أننا جميعاً نتحرك في نفس الموعد وإلى مكان واحد.. هل تعلمين يا سعاد أن جامعة كولومبيا قريبة مني " ولما سألته ولكن لماذا يُلزم نفسه بهذا العبء وما الداعي

قال من فوره " حفاظاً على البيئة فهناك فرق بين أن تسير عربة واحدة أو عربتان.. كما أن الذهاب إلى مكان واحد بعربتين فيه إهدار مالي كبير " لا إرادياً قالت له " إنت ولا اليهود " إلتفت إليها والضحكه في عينيه وعلى شفتيه " والله ليس اليهود فقط هم الإقتصاديون ولكن الغربيون كلهم يا سعاد من شدة تعبهم وإنضباطهم في العمل يحرصون على المال الذي يتكسبونه منه كما أنهم شديدو الإحساس بالوقت يعملون وينتظرون فترة المعاش بترقب ليكون لديهم الفائض الذي يرفهون به عن أنفسهم في رحلة حول العالم مثلاً " ثم إستطرد " ما هو الدكتور يوسف إيجيه يهودي هل تعرفين ؟ " كان الطريق حريرياً وواسعاً أيضاً فكانت الرحلة على ساعاتها غير مُجهده على الإطلاق.. لم تعرف أي وجع جُسماني فيها ومجموعة الأشجار التي على جانبي الطريق ألوانها شيئ من وراء العقل فالشيئ الغريب رغم أنها بلا أزهار نهائياً إلا أن أوراقها نفسها هي الملونة بالأحمر والأصفر والخوخي وظهر الورقة مذهبٌ.. لم تلمس أي آثار لأتربه هائجة في الجو أو حتى من أثر مرور أي عربه بجوراهم. أكرم الله هذه البلاد بنظافة طبيعية حتى إستقر في دخيلتها أن الرحلة بساعاتها المتعة الحقيقية وإن توارت الشمس فلم ترها ولو لثانية واحدة كلمها " حسن " عن الراحلة زوجته وإصرارها الدائم على قضاء عطلة نهاية الأسبوع خارج حدود " نيويورك " إندفعت " سعاد " " وتقول لي أنهم ينتظرون خروجهم للمعاش ليرفهوا.. إنهم دائمو الترفيه كل أسبوع " إبتسم وهو يؤكد لها أن الإنسان الغربي يعرف كيف يُكرم نفسه بنفسه كما أنه يتخلص من عبء أولاده في سن معقول أفهمها أن الأولاد يستقلون بحياتهم قبل أن يصلوا إلى العشرين أما في البلاد العربية فإنهم يحتاجون ضعف هذه المدة أي أنهم لا يستقلون قبل الأربعين وهذا في مرجعه أساساً إلى نظام التعليم ونوعه ثم نظر إليها بإمعان قبل أن يقول بما معناه إن الخوف ومحاولة منع أي إتصال بين الفتاه وبين الشاب هو ما يطيل

تحمل عبء مسئولية الأولاد إلى أن يزوجوهم.. أخرج زفرة وهو يقول " كـأن الخوف عليهم ذنب يدفع ثمنه الآباء " وبعد لحظة أخرى بدا فيها عميق التفكيـر كان يؤكد أن القبض على الفتاة والفتى فيه نوع من الوصـاية وسـلبهم للحـق المشروع.. قاطعته " سعاد " وقد إستبدت بها الحيرة كما أنهـا أصـلاً مُحملـه تجاهه من كثرة ما صبرت على مناقشته في شأن طلب زوجته فإندفعت تقول له " كنت أظنك تبارك وتؤكد محاصرة الأسرة المصرية لأبنائها فهـل يمكـن أن يكون رأيك هذا لو أن لك إبنة " نظر إليها بحده طويلاً حتى أن " سعاد " خافت على سلامتها مع تلك السرعة التي يمشون بها فوضعت يدها لا إراديا على مقود العربة فإلتفت برأسه تجاه الطريق وسحبت هي يدها إلا أنه أكمل " يجـوز يـا سعاد لو كان لي أولاد لتغير رأيي ولكن من واقع الأمر المُعاش فإن كل شـيئ يحدث في بلاد الشرق ولكن خلف الأبواب وهذه ظاهرة غيـر صـحية بكـل المقاييس من أول العلاقات الجنسية غير الصحية إلى المخـدرات " إبتلعـت " سعاد " لعابها وهي تسترجع حقيقة أن إبنتها " منى " تعاطت المخـدرات بـل وعرفت بعد ذلك أن المُتعاطي الجديد هو طالب الإعدادية فأرادت على الفور أن تغير الحديث حُجتها أنها تقوم برحلة لترفه عن نفسها رغـم أن وجودهـا فـي أمريكا لا ينفي قلقها على إبنها ومتابعته يوم بيوم ولا تبيت ليلة واحدة مُطمئنـة على.بعاد إبنتها بالإضافة أنها أُرهقت بسبب رحيل زوجة " حسن " حتى لو كان ماحدث كان مُتوقعاً. لحظة مرت بها وشعرت بالحنين حتى نخاعها إلى فرشاتها وألوانها قبل أن تسدل جفنيها وتفتح عينيها مرة أخرى كان العم " حسن " يتتبع سهاماً في الطريق ويتمهل ليقرأ اليافطات ثم إنحرف يميناً ومشى لفترة مُتعرجـاً في طريق كثيف الأشجار. أشد برودة من مكان ما أتيا إلى أن توقـف بعـد أن وصلا أمام بوابة قصيرة حجرية... دخلا البيت فوجئت بالـدكتور " يوسـف " يرتدي بنطلوناً من تلك المخصصه لركوب الخيل وحذاء ذا رقبة طويلة ويضـع

على رأسه قبعه سنيمائية كرعاة البقر.. إستقبلهم هاشاً باشاً كعادته.. سارا وراءه يتفرجان على الحديقة الواسعة وهو يشير لهم إلى أحواض " الجرجير " الذي إعتاد أكله من سنواته في مصر إلى أن وصلوا إلى حوض عليه " صوبه " مزروع فيها " الملوخية " الشهيرة وأبعد منها قليلاً " الريحان " الذي كانت تفوح رائحته.. وقتاً ممتعاً أمضوه في التفرج داخل البيت حيث وجدت البروفسور " حكيم " وزوجته " ميرا " الهندية ولأول مرة ترتدي هي الأخرى البنطلون " الجينز "... أما " ماري " فكانت كعادتها تجهز أكثر من صنف وكان هناك أيضاً إبنتها " ناديا " وإبنها " آدم " رحبوا جميعاً بالعم " حسن " الذي تطوع بعمل طبق من " السلاطة " بالبصل المزروع والخضرة من الحديقة... الواقع أن طبق " السلاطة " أثار إستحسان الجميع وتسابقت الأيدي لتأخذ منه.. قرب العصر ومع فنجان الشاي كان يقدم لهم دكتور " يوسف " السيجار " الهافاني " الشهير... ألعاب كثيرة عرضها عليهم حين إنزوى جزء منهم يلعبون الورق وعندما أتى المساء وقد هبطت درجة الحرارة إنشغل دكتور " يوسف " في إشعال المدفأة في الداخل بينما كان " آدم وناديا " يعدان الشواء في الحديقة.. رائحة اللحم المشوي دفعت بالحنين إلى الذكريات المصرية في رأس العم " حسن " وهلل البروفسور " حكيم " وهو يقول أنه أكل هذا النوع في " موسكو " حين عمل مراسلاً أيام إمبراطورية الإتحاد السوفيتي وذلك الصراع الرهيب الذي كان بين الشرق الشيوعي والغرب الرأسمالي... أخرجت " سعاد " تنهيدة قبل أن تقول " إلى متى ستظل الحروب مانعاً يقف في وجه التواصل بين الناس" نظر إليها دكتور " هارت سترونج " وهو يقول " إنني كأمريكي متشائم من الغد فسرعان ما ستفقد بلدي سيطرتها على العالم فكل بلد الآن تريد أن تتخلص من هيمنة أمريكا إقتصادياً وإستراتيجياً إستطرد " في بداية القرن العشرين كانت أمريكا تنأى بنفسها عن التداخل في العالم القديم وتراه فاسداً لأنها هي

المولود النقي الجديد وكانت نظرتها فيها شفافية إذ تعتبر نفسها أرض الحرية وتحقيق الأحلام ولا ننسى أنه كان لديها إكتفاء ذاتي منذ القرن التاسع عشر هذا ما قاله لي أبي الذي أتي إلى هنا بكل ما لديه وهذا الذي كان لديه كان يتسع كذلك لإستئجار العمالة المطلوبة و.. " قاطعه البروفسور " لا تنسى الإستثمارات الأوروبية التي سالت هنا على هذه الأرض البكر وكذلك هجرة المتعلمين حيث وجدوا صدر الولايات المتحدة يسعهم ويوفر لهم ما يحتاجونه "... فكر دكتور " هارت سترونج " قبل أن يقول " كان عندنا إكتفاء ذاتي وهذا الشعور بالإكتفاء بل بالثراء في الأربعينات كان بمثابة النكبة أيضاً علينا لأننا أصبحنا قوه عُظمى إنتاجنا أكثر من نصف إنتاج العالم أجمع ومن ثم اردنا أن نسيطر على العالم خوفاً من سيطرة الشيوعية لأن قدراتنا بدأت في الخمسينات إقتصادياً وعسكرياً وأيدولوجياً بحجم إمبراطورية فعلاً ولكن للأسف الآن أصبحنا معتمدين على العالم الخارجي وأنشأنا دولاً تدور في فلكنا بل ونحتاجها لتغطي عجزنا فعجزنا في هذه السنة مثلاً يصل إلى أكثر من المليارات من الدولارات ياسادة نعتمد في إصلاحه على إستقبال رؤوس أموال من الخارج لتغطي العجز.. بل إننا نبيع شركاتنا للعالم الآن هل تتصورون هذه الحقيقة ! إننا بتنا لا نحقق الإكتفاء الذاتي ولا نعيش على إنتاجنا بينما العالم من حولنا يتجه إلى العلم هو الآخر وإلى تطبيق العدالة وبذلك يستغني عنا أما نحن فنشهد تراجعاً حتى في مسألة المساواة بسبب ظهور طبقة الصفوة الحاكمة الغنية ولهذا نحن ندفع العالم إلى التصارع عسكرياً وسياسياً للحفاظ على هيمنتنا وماء وجوهنا بل إنني أرى أننا نخلق التوتر عالمياً من أجل أن نبقى سادة.. فكيف تنتظرون أن نحل أي مشكلة وأمريكا نفسها لا تقدم حلولاً نهائية لأي مشكلة ولا تسمح للآخرين بالمشاركة في الوقت الذي لا أرى فيه داعياً لتطويرها السلاح بهذه القوة وكأنها في سباق لا أدري من هو الطرف الذي نتسابق معه " تململت " سعاد " في جلستها وبدت

كأنها تريد أن تبوح بشيئ ولكنها تتردد كعادتها إلا أن الدكتور " يوسف " أشار لها بيده ونطق : " Go a head قولي ما تشائين ولا تترددي " ثم إلتفت إلى دكتور"هارت " وهو يقول " حقيقة أنا أستفيد من حوار سعاد فعندها تساؤلات القاعدة العريضة " إندفعت " سعاد " تقول " الشيئ الذي لا أفهمه لماذا نحن غير مُرحب بنا كعرب من جانب السياسة الأمريكية بالذات " إبتسامة عبرت بوجه دكتور " يوسف " إلا أنه حاول كبحها بزم شفتيه ووقع سؤال " سعاد " موقع الحجر في ماء راكد على العم " حسن " وإستأذن قبل أن يتكلم " كما تعرفون أنني عملت في الحكومة الفيدرالية الأمريكية حوالي ثلاثين سنة قبل أن أصل إلى المعاش وأنا أعمل الآن كما تعرفون مديراً لإحدى المستشفيات إلا أنني لا يمكن أن أنسى سنوات الخبرة التي مضت فهل تسمحون لي بعرض رؤيتي " تحرك الجميع بحركات وكلمات يؤكدون بها تشجيعه على الكلام الذي لا يستدعي أن يستأذن له فقال " العالم العربي يمر بأزمة تحديث مرت بالغرب كله خلال الثورات فلابد من الإمتناع عن تصنيف العرب كمُرادف للتخلف والجمود رغم أنني أرى أنه لابد من تحديث الإسلام وشرحه على أسسه الجوهرية الرائعة والتي لا يختلف عليها إثنان نأخذ الإسلام يا سادة ونعيد تفسيره بما يتماشى والعصر الذي نعيشه مثلما حدث أيام المسيحية والثائر " مارتن لوثر " في الحركة البروتستانتية الذي نادى فيها مالله لله وما لقيصر لقيصر بينما المسيحية الكاثوليكية كانت تؤمن بعدم الإنفصال ولكن الإشكالية أن الإسلام دين ودنيا ومتداخل في كل شيئ وهذه صعوبة لا يقدر عليها إلا صفوة الصفوة من المتعلمين " وعت " سعاد " في هذه اللحظة إلى أن هذا ما سمعته من إبنها في الحديقة فإبتسمت في سريرتها وهي تقر بأن " كريم " إستوعب كلام عمه كما يستوعب الكتب التي يعشقها إنه يُتقن الإصغاء وإستعادت كذلك فكرة أن الإصغاء قدرةً لا تقل عن القراءة. سكت " حسن " كأنه ينتظر أن يسمع أي

إعتراض ولما لم يجد أدار عينه في الحضور وهو يقول بتأكيد " تختار أمريكا العالم الإسلامي لتنفيذ خططها بصفة أنها تعمل لتكون زعيمة للعالم كما أن العقلية الأمريكية بحاجة إلى أن تمارس سياسة تمييز عنصري ضد البعض بل أنتم تمارسونه بالفعل على السود والمكسيكيين وما عداء العرب إلا أنه يعكس سياسة عداء السود والمكسيكيين والأكثر من هذا يا سادة وليغفر لي دكتور " يوسف إيجيه " أن إخلاص الولايات المتحدة لإسرائيل يثير العجب فأمريكا لا تتعاون عن حب طرف وهي التي رفضت قبل عام ١٩٤٨ إقامة دولة لهم " ثم سكت قليلاً قبل أن يستطرد " لو أن رابين كان موجوداً مثلاً فليس الآن في إسرائيل رجال أين زمن الرجال الكبار.. أين زمن القادة المؤثرين فليس الآن في إسرائيل رجال.. كلهم أطفال.. أين زمن أصحاب القرار أمثال موشى ديان وبيجن وجولدامائير أقولها مرة أخرى إن إخلاص الولايات المتحدة لإسرائيل غير مفهوم حتى على أعتى الخبراء الإستراتيجيين وهو بالتأكيد ليس تعاوناً ولا هو للمناداه بالمساواه فظلم الفلسطينيين إنكار لمبدأ المساواه الذي هو جوهر الديمقراطية.. إنني أعتقد أن أمريكا تحتوي إسرائيل لتستعمل جنودها على الأرض كمشاه فالأمريكيون لا يرحبون ولا يقبلون النزال وجهاً لوجه وفقد الأرواح إنما يحاربون على طريقة أفلامهم السينمائية فالحرب عندهم مثل حرب الكواكب والنجوم بالأزرار إنها لا تتميز بأي عمليات عسكرية على الأرض رغم أن التاريخ يقول لهم إن الهجوم في الحرب العالمية الثانية من أمريكا وإنجلترا لم يكن له أي تأثير بينما العمليات العسكرية السوفيتية على الأرض هي التي كان لها الفضل في صالح المنتصر.. أهم ما يهم أمريكا هو فكرة الحرب بلا قتلي لهذا تربي الشعب اليهودي على ركبتيها تدليلاً لتقبض الثمن عند الحاجة ولهذا أيضاً أمريكا لا تحتل أرضاً بالمفهوم الإستعماري الكلاسيكي هي تضرب من النجوم وتعود مكانها "... ثم تنهد طويلاً وبصوت مسموع وهو يهمس

" من أكبر المصائب هي إكتشاف النفط في غير مكانه لأن الثروه إما لتحقيق التقدم أو لتكريس التخلف " تداخل إبنها " كريم " وقام واقفاً وهو ينظر إلى أستاذه دكتور " يوسف إيجيه " يطلب منه السماح بالكلام حين رد عليه قائلاً " إني حتى لا أتعجب من تأخرك عن أن تدلي بدلوك أيها الباحث الجاد " فإبتسم " كريم " قبل أن يقول " تكريس التخلف كما يقول عمي حسن في أن بعض الأنظمة تنظر إلى من يفكر على انه خائن أو هو عميل وفي المستقبل القريب سيقال بأنه كافر وهذا بالتحديد جاء في أواخر الستينات بعد الهزيمة العربية في عام ١٩٦٧ الخلاصة أن الرغبة في السيطرة على بترول المنطقة هو ما يجعلهم يعتمدون على جيش إسرائيل كأقوى جيش في المنطقة ليكون في خدمتهم عند اللزوم " عرفت " سعاد " وإبتسمت بينها وبين نفسها وهي تعي أن كثيراً من آراء العم سمعتها من إبنها دليل مناقشته مع عمه لكثير من الأمور .

•••••

غريزة الطعام لا يمكن مقاومتها فرائحة الشواء الذي يقوم عليه " آدم ونادبا " في الحديقة حرك الجميع فإبتدأ الواحد بعد الآخر يتسلل من المناقشات التي لا تنتهي بينهم إلى الحديقة ويعودون بأطباق الشواء يتصاعد منها الدخان المحبب و" ماري " تُعد المائدة وبجوارها " سعاد " حين مد دكتور " يوسف " يده وإلتقط قطعة وقربها من فم " سعاد " التي فوجئت بهذه الحركة فإحمر وجهها وشعرت بأذنيها مُشتعلتين خاصة لوجود " حسن " وإبنها الذي رفع عينيه مشدوهاً.. لم يكن أمام " سعاد " إلا أن فتحت فمها وأخذت القطعة ثم إبتلعتها وهي لا تشعر بأي طعم لها من شدة الخجل وإلتفتت إلى الجميع تحثهم إلى المائدة فقام الجمع واحداً وراء الآخر وكل منهم يعد طبقاً لنفسه.. طالبوا العم " حسن " بعمل طبق " سلاطة " آخر رد عليهم بأنه يستطيع حتى أن يصنع لهم طبق " ملوخية " حين أعلنت " سعاد" بأعلى صوتها أنها تنوي عمله في الغد..

إنسحب " حسن " يعد الطبق على عجل حين إختفى دكتور " يوسف " لدقائق وعاد وفي يده كاميرا يلتقط بها الصور التذكارية.. دقائق أمضوها في معنى السعادة كاملة أكثر من النصف ساعة وهم حول المائدة ولما عادوا للجلوس على الكراسي المُريحة كان البروفسور " حكيم " يهمس " لماذا لا نعيش دائماً في جنة الود على هذه الأرض " وبينما الدكتور " يوسف " في قمة الإنشغال بإخراج فيلم الكاميرا ووضع فيلم آخر محله قال " حسن " " المؤتمرات والجلسات دائرة على أشدها هنا في أمريكا وفي أماكن كثيرة من هذا الكون ليتهم يروننا بجنسياتنا المختلفة اللبناني الأمريكي واليهودي والهندي والمصري نعيش هذه اللحظات الخالدة.. ما أظن أن لحظاتنا هذه يمكن أن تسقط من ذاكرة البشرية لو أحستها مهما كنا في أي بقعة من الأرض " ردت " ماري " " أيها البروفسور المبجل أنت رومانسي أكثر مما يحتمل هذا العالم " ضحك العم " حسن " وهو يؤكد " إسرائيل يا سادة تتسلح حتى التُخمة بل إنها حاملة طائرات ثابتة مهمتها القضاء على أي جيش عربي في ساعات " توقف دكتور " يوسف " عن التصوير وهو يقول بصوت مرتفع " وهل من الممكن أن يحققوا إمكانية أن يطول الجيش الإسرائيلي آبار السعودية أو الكويت أو الإمارات أنا غير موافق لا عقلياً ولا ضميرياً...." حين قام البروفسور " حكيم "واقفاً وهو يضم كفيه بالطريقة الهندية المعروفة أمام صدره ليقول:- " إن إمتلاك ترسانة أسلحة لا يُجدي وجنوب لبنان شاهد على خسائرهم بل إن الضفة الغربية نفسها أكبر دليل على فداحة ما دفعوه " أما " سعاد " بعد تتابع وتنوع المناقشة لم تستطع إلا أن تقول" لا يخرج من الحرب كاسب مطلقاً "حين تكلمت " ناديا " إبنة دكتور " هارت سترونج " لأول مرة بعد إنتهائها من طعامها وهي تقول " تعلمت من قراءتي للشعر أنه لا يوجد من يمكن أن يُسمى المنتصر في الحرب " لحظة صمت مرت بالجميع قطعها دكتور " يوسف " وهو ينظر إلى ساعته

" هذه اللحظة التي صمتنا فيها جميعاً لابد أن الساعة فيها كانت كذا وثلث" ثم نظر إلى ساعته وهو يقول:- " فعلاً فعلاً الساعة العاشرة وثلث تماماً أليس هذا ما تقولونه في مصر " إبتسم الجميع وإن تساءلت " ناديا و آدم " عن أصل الحكاية وأكد لهم دكتور " يوسف " أنها فكرة يقولون بها في " مصر " حين إعتدل " حسن " في مقعده وهو يقرر بصوت ممزوج برنة ألم " إن ما يحدث لنا كعرب ومسلمين نستحقه إلى حد كبير وطبعاً لا تنسوا خبرتي الطويلة من عملي في الحكومة الفيدرالية وأنا سأتكلم من منظور بسيط وهو ما يحضرني الآن وهو تنفيذ الإتفاقات المشتركة بين المعونة الأمريكية والمسئولين المصريين. التنفيذ طبعاً لابد أن يكون مشتركاً المصري كهيئة تنفيذية والأمريكي كهيئة إستشارية.. كيف يحقق مثلاً المصري المسئول مع الأمريكي عملية التدريبات كجزء من بنود الإتفاقية ! المصري يُحضر إناساً أكاديميين من عام ستين ليدربوا الكوادر المختارة على جودة الإدارة وللأسف غالباً ما يكونون متخصصين في التسويق مثلاً وليس الإدارة المحلية.. يختاره لأنه صديقه والنتيجة أن مردود التدريب يفشل فأكثر ما يهم المسئول المصري إختيار المهرج أو الفهلوي وهذا يؤدي إلى تنفيذ التدريب من أساسه على خطأ وفوق هذا لا أثر لمبدأ الثواب والعقاب في بلد مثل مصر.. فالإستشاري الأجنبي يصل إليه التقرير مغلوطاً ولا يفهمه طبعاً فيوصي بأن يبدأوا بمشروع على منظور إقتصادي أقل لأننا عالم ثالث مُتخلف ومن هنا أصبح لدى الأمريكي سياسة الفرض وليس المباحثات لأنه إذا لم يوافقه المصري على حق إمتيار خمسة وعشرين سنة مثلاً يذهب الأمريكي ليحصل على الموافقة من رئيس الوزراء.! الأفراد في الوزارات المختلفة التي تستفيد من المعونات لا تعمل بفكرة الفريق مع الوزارت الأخرى Team ناهيك عن فقدان الصدق الذي يلمسه الأمريكي.. المصريون عاطفيون أكثر مما ينبغي وأعتقد أن لا مجال لهم في العمل بين رجال الأعمال وكان من الأسلم بقاءهم في

الزراعة مثلاً... حين كان يصلني محضر المناقشات التي تدور بين السفير الأمريكي في مصر مثلاً وبين المصريين أري أن الأمريكي حين يكشف القصور كان يطالبهم أي يطالب بالحضور والتمثيل عن قطاعات مختلفة أخرى وممثلين عن وزارت معينة وممثلين عن منظمات غير حكومية أيضاً أي يطالبهم صراحة بالتطبيع مع إسرائيل على أساس أنه لماذا لا ينشأ جيل يتعامل مع بعضه إقتصادياً بالذات بين المصريين والإسرائيليين هنا كنت أشعر بأن المحضر الذي أمامي وكأن السفير الأمريكي خلق من نفسه أو أخذ مكانة المندوب السامي البريطاني في أيام اللورد كرومر " ثم أكمل بأسى" ليس لدينا منهج تخطيطي ولا علوم إدارية مطبقة " رد دكتور " يوسف " من فوره بأن العالم الغربي المتقدم الآن قد مر بهذه الظروف وأشد منها إنبرى " حسن " يقول وطعم الضيق يُغلف كل حرف من كل كلمة يقولها " لا أحد يكره المعونة لمصر بلدي ولكن كان من الممكن لو أن هناك رؤية مدروسة سبقها أبحاث وإحصائيات بدلاً من الفهلوه لكان لمصر شأن آخر... تصوروا أحياناً تُرد بعض المعونات إلى أمريكا بعد أن تُركن على مكتب الوزير سنة كاملة لا يعرفون كيف يتصرفون فيها لأنه لا يوجد لديهم تخطيط لمشروعات نتيجة لأبحاث... ناهيك عن سرقة المعونات في أحوال أخرى " برنة تعجُب حاول أن يسيطر عليها دكتور " يوسف إيجيه " وهو يقول " هذا إعتراف منك فالذي لاشك فيه أنني أميل إلى أن المسألة بالنسبة لكم تعود إليكم من المبتدأ فأنا كما تعلمون قضيت أقل من نصف عمري في مصر وعدت وعشت فيها سنوات مرة أخرى بعد أن إنتهيت من دراستي وعملت كمدرس في الجامعة الأمريكية في القاهرة لا أعتقد أنني لمست أي فارق في طريقة التفكير خاصة بعد ثورة " ١٩٥٢ " التي زعزعت دنيا العرب من جذورها وأنا أقصد على وجه التحديد المواطن المصري فهو هو ذلك الفقير ضائع الحاضر والمستقبل.. أنا لا أتصور أن يعيش

إنسان اليوم دون غطاء تأميني صحي يموت هكذا من المرض.. بل لا أتصور مستوى دخولكم.. والأكثر أنني لا أتصور كيف لا تعترضون.. " قاطعه العم " حسن " مؤكداً رأيه وهو يقول " إننا نواجه الآن يا سيدي تحدياً يفوق كل ما مر بنا بداية من الغزو الصليبي في القرن الحادي عشر إلى الإستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر وأصبحنا اليوم في مواجهة الولايات المتحدة خاصة لإتجاهنا نحو روسيا.. نحن الآن صرنا العدو الجديد ولكن لا تنسوا أيضاً أن الولايات المتحدة تحديداً هي ما شجعت النعرات الإسلامية في غمار صراعها مع الشيوعية " ثم بعد لحظة تفكير وقبل أن يتفوه بكلمة كان إبنها " كريم " يقف مرة أخرى كعادته يستأذن أستاذه حين أشار له أن يتكلم " أهم سبب لمحنتنا كعالم عربي أننا ليس لدينا النموذج الصحيح الذي يمكن أن نحتذي به كبلاد عربية فقد طغى فساد الأنظمة على أن تؤدي مصر دورها المنتظر منها والمأمول مع أنها أصلح الدول للقيام بهذا الدور فلا تركيا ولا إيران تشغلان مكان مصر الأزهر حيث المسيحية المصرية جزء أصيل في النسيج الثقافي لمصر وهل يصدقني أستاذي إذا قلت إن اليهودية كدين أيضاً حاضرة ولا يمكن إغفالها من داخل عقديتنا الإسلامية.. أزهرنا الشريف يؤكد على كل ما سبق الإسلام بل إن هذا الأزهر أخرج قادة التنوير للعالم " تململت " ماري " في جلستها قبل أن تقول بنوع من الضيق " أعتقد أن رأي إبنك مبالغ فيه على الأقل من واقع تجربتي ومعايشتي أنا " إندفعت " سعاد " تقول " ماري لا تكلميني عن الجهلاء وضيقي الأفق " وقبل أن تنتهي من كلامها كان البروفسور " حكيم " يقول بشكل أعطى الإحساس أنه يتكلم علمياً حين كان يقول " وهل الشعب المصري في أغلبه إلا جهلاء مثل ما عندنا في الهند ".

*****

لم تحدد مالذي أيقظها مبكرة إلى هذا الحد.. أزاحت الستارة كان السواد في الخارج ولا شيئ غيره.. عادت من النافذة متمهله حتى لا توقظ إبنها الذي كان مستغرقاً في سرير آخر في نفس الحجرة.. تأملته ملياً.. وشعرت بوجع الحب تجاهه.. كعادته لا يطيق الغطاء على قدميه كأنه يتنفس من قدميه " مثل المرحوم والده تماماً " في هذه الليلة كان والده يلح على عقلها وتتساءل تراه يرى إبنه أو يراها.. هل يعرف بسفرتنا إلى هذه البلاد وهو الذي سافر إلى الأفضل والأسمى.. ليس القلق الذي أيقظها وبالتأكيد ليس ضيقاً ولا إنشغالاً على " منى " ولكن عقلها يسترجع صوراً من حياتها بسرعة فائقة حتى وهي نائمة وكأن حالة الحلم ومساحته عجزت عن أن تستوعب توالي الصور وسماعها للأصوات والأماكن فإستيقظت لتلاحق نفس الأحدث والصور وهي في كامل صحوتها. شعورها أن شهوراً إنقضت عليها في هذه البلده ولم تصلي الفجر.. ذهبت عادة قيامها الفجر حاضراً التي كانت تمارسها في بيتها في " مصر "... أوحشها الفجر.. غسلت وجهها.. سوت شعرها ووقفت تصلي.. دعت " لكريم ومنى " كثيراً ودعت حتى لكل الحضور ولما إنتهت إقتربت من النافذة على أطراف أصابعها وتبينت الحديقة.. سحبت " بنطلوناً " من حقيبتها وبالطوق الأسود أزاحت شعرها ونزلت إلى الحديقة تمشي على مهل.. نظرت إلى ساعتها ولدهشتها كانت قد تعدت السابعة إلا أن إنعدام إشراقة الشمس أوحى إليها أن الوقت مازال باكراً.. شبورة ذلك الجو تضفي جمالاً ورومانسية على الزروع من حولها الشبورة تعبئ المكان باللون الأبيض الشفيف وتبين فيها زراعات وتختفي زراعات.. وردة تظهر في بياض الشبورة ولا تعرف " سعاد " أين ينبت ساقها.. كأن الوردات منثورة في غمام سحب بيضاء.. تزحف الشبورة تتخلل الأشجار فعثرت على حوض " الملوخية " داخل " الصوبة " واضحاً شديد الإخضرار... المساحة المزروعة تكفي ثلاث أكلات على الأقل فإبتسمت وظلت

تسير مُتمهلة تنظر إلى الزروع مرة ثم ترفع بصرها إلى السماء مرة أخرى... نوع حياتها التي عاشتها منذ مطلع شبابها علمتها صداقة الطبيعة ربما بديلاً عن صداقات فعلية مع الناس.. تجيد التواصل مع أشياء كثيرة حتى الإلتحام فلا تشعر لسعة الوحدة إنما أحياناً حتى تتكلم بما يشبه الهمس مع الطبيعة على إختلافها.. مع شجرة عالية أو وردة بازغه وفي " مصر " كانت تتكلم مع النخلة التي تنبت أمام دارها.. مجرد النظر الطويل إلى مفردات الطبيعة تستشف منها الحكمة وتأخذ القرار وكم من قرارات كان عليها أن تحسمها في رحلة حياتها مع " كريم ومنى " حتى أجادت الأخذ والعطاء مع مفردات الطبيعة. هي تبوح بما يملأها والطبيعة تُلهمها فيسقط عليها الوعي بالقرار اللآزم... شعرت بدقات خلفها وعرفت أنها أصوات حوافر تدق الممرات " المبلطة ".. إلتفتت بسرعة كانت الشبورة قد بدأت رحلة التلاشي الأكيد فتبينت على الفور دكتور " يوسف " يمتطي حصاناً ومن خلفه أيضاً دكتور " هارت " هو الآخر على حصانه.. قفزت بعيدة عن الممر قبل أن يتوقف وينزل من فوق حصانه برشاقة كبيرة.. إقترب منها ليحتويها بين ذراعيه " لقد عرفتك أنت تستيقظين مبكرة وأنا الذي كنت أخاف أن أطلبك قبل العاشرة " وهي ترد تحية دكتور " هارت " للصباح وفي الوقت نفسه ترفع عينيها تلمح نافذة الحجرة التي يرقد فيها إبنها... جاء رجل يسحب الحصانين وبقي ثلاثتهم يمشون في الممرات هنا وهناك... لم يمر عليهم أكثر من عشر دقائق إلا وكانت " ناديا وآدم " معهم يطلبان السماح لهما بركوب الحصانين... كمن إستيقظ المنزل عن بكرة أبيه فتوالى نزول الجميع " ماري " والبروفسور " حكيم " وزوجته " ميرا " وإبنها " كريم " والعم " حسن ".. الأصوات ليست أصواتهم التي تعرفها إنما الأصوات الآن فيها زغردة الفرح والضحكات مُتبادلة بسبب أحياناً وبدون سبب.. معنى الفرح مُجسداً على الوجوه.. حين يفرح الإنسان يُحس الجوع أيضاً فإندفع الجميع إلى

الداخل وبدأت " ماري وسعاد " وزوجة دكتور " حكيم " يعدون الإفطار...أنواع من الجبن واللحوم الباردة حين طلب منهم دكتور " يوسف " أن يبدؤا بما بين يديه.. ومن علبة كرتون متوسطة الحجم كان يُفرغ في طبق كل واحد فيهم حبات منفوخة " كالبليّ " ويصب فوقها اللبن الساخن لم تكن " سعاد " قد تذوقت هذا الصنف منذ أن جاءت إلى أمريكا ولما إستحسنته سألت إبنها إن كان قد تذوقه هو الآخر فقال لها بأنه إفطاره المُفضل منذ أن أتي وعرفت من " ماري " أن هذا هو الإفطار المُفضل للأمريكي حبات من القمح هشه واللبن ساخناً أو بارداً من فوقه... إبتسم العم " حسن " قبل أن يقول " هذا ما نسميه في مصر " فتة البتاو " في الصباح.. نفس الفكرة يكسرونه ويضعون عليه اللبن الساخن " حين نطقت " ماري بتأكيد " وهو أيضاً موجود في فرنسا " الكورن فليكس " لحظة صمت مرت بالجميع بينما كان الدكتور " يوسف " يؤكد ما سمعه بهزات من رأسه حين قال العم " حسن " " عادات الشعوب واحدة في الأمور الهامة ولو بحثنا لوجدنا الياباني يأكله أو لعله يأكل الأرز الهش باللبن هو الآخر في الصباح " بعد نظرة فاحصة إلى حد كبير كانت زوجة البروفسور تعلق قائلة " رغم التشابه بين البشرية أو الإنسانية في أشياء وعادات إلا أنهم لا يتعلمون بل يُعلنون العداء والحروب فيما بينهم بينما كل واحد منا أخ أكيد لأخيه الآخر " بدت " سعاد " كعادتها مترددة قبل أن تبوح ولكن نظرة دكتور " يوسف " إليها إقتلع منها ترددها فقالت " إن العداء والحروب يأتي من الحكومات ولكن للشعوب رأياً آخر دائماً ولو سئلت الشعوب " ثم همست " إلا أن هذا مستحيل طبعاً " وسكتت حين أكمل البروفسور " حكيم " " يبدو أننا سنبدأ يومنا بمناقشات مفيدة وساخنة " ثم إنسحب من الحجرة التي تفتح على مكان جلوسهم وكانت المدفأة مازال فيها بعض الجمرات المشتعلة بوهن من أثر جلسة الأمس... وتكرر إنسحاب الباقين واحداً بعد الآخر متجهين وراءه.

لما جلسوا جميعاً في الحجرة بعد أن فرغوا من رفع أدوات المائدة كانت " ماري " تعدهم بتقديم طبق " الملوخية " الشهير.. حين تساءلت" ناديا " إبنتها " ولكننا لم نُحضر المخرطة معنا يا أمي " بينما أكدت لها " ماري " مرة أخرى أن جهاز الخلاط الكهربي يصلح للمهمه والدكتور " يوسف " بدوره يؤكد أن " ماري " لا يغلبها شيئ... وبقي الجميع في حالة من الترقب المُحبب لما يمكن أن تصنعه " ماري " للغداء وبدون مقدمات كان البروفسور " حكيم " ينظر إلى " كريم " وهو يقول " أعرف أنك تُعد رسالتك على ما أعتقد عن نظرية إسلامية جديدة في الحكم أو نحو نظرية إسلامية جديدة أليس كذلك؟ " وقف " كريم " من مكانه قبل أن يجيب حين أشار له الجميع وهم يتضاحكون بأن يبقى جالساً فبقي واقفاً وهو يقول بتأني " نعم هذه أمنيتي أن أقدم للعالم وجهة النظر الإسلامية في شكل الحكومة ونظامها السياسي والإقتصادي " فقال له البروفسور " وتعتمد في ذلك على القرآن أعتقد " فجلس " كريم " في كرسيه المُريح وهويقول " ليس الكتاب فقط وإنما أعتمد أيضاً على كتابات مُفكرين آخرين " فسأله البروفسور " مثل من " فرد من فوره وهو يقول له بنوع من البساطة المتناهية " مثل فكر أبو حامد الغزالي وإبن تيمية وأبو الأعلى المودودي وآخرين " ثم نظر إلى دكتور " يوسف " وهو يؤكد " أستاذي دكتور يوسف يعرفهم " فإنبرى البروفسور " حكيم " يقول " بالتأكيد أنا أعرفهم أيضاً وخاصة المودودي فقد عاصرته وكنت أعرفه شخصياً بحكم أن الهند وباكستان كانتا بلدة واحدة بل وإستعمت إليه في أكثر من محفل في سبعينات هذا القرن كما أنني قرأت له فهو من مفكري قرننا هذا العشرين قبل أن يتوفي عام ١٩٧٩" وكأنه أثار شهية إبنها كباحث فطلب منه أن يكلمه عنه بينما أكد دكتور " هارت سترونج " أن هذا سيكون مفيداً للباحث نفسه وأيضاً كاشفاً للمشرف دكتور"يوسف" فجرت الكلمات بيُسر على لسان البروفسور " حكيم " وهو

يقول:- " المودودي كان يدعو إلى تحرر الأمة ثقافياً قبل أن تتحرر عسكرياً والأهم أنه كان يرى أن هناك صراعاً بين الفكرة الغربية والفكرة الإسلامية لا من حيث كونهما فكرتين متناقضتين وإنما من حيث النظرة إلى الإنسان والكون والحياه فالفكرة الغربية تحكمها نظرية الصراع الطبقي وصراع الإيدلوجيات والصراع بين العلم والدين والصراع أيضاً بين الإنسان والكون والصراع بين الإنسان والإله " فتداخلت " ماري " قائلة " أولا لا يحكم الفكر الغربي أي صراع طبقي لأن الإنسان فيها يعيش في عدالة وله جميع الضرورات مُيسره بل المميزات و.. " قاطعها البروفسور باسماً وهو يقول " دعيني يا ماري أشرح فكر الرجل " ثم أكمل " وأساس قضية الصراع في الفكرة الغربية جاءت من أسطورة بريمسيوس سارق النار كما تعلمون " بنوع من الحياء الممزوج بالتردد كانت " سعاد " تسأل " وما هي أسطورة " بريمسيوس " هذا " إبتسم البروفسور وهو يقول " هي الأسطورة من وجهة نظري التي تحكم ثقافة الغرب وبالطبع الولايات المتحدة وعندهم أن الصراع ثلاثي بين الإنسان والإله والشيطان.. الشيطان أشار على الإنسان أن يسرق النار المقدسة التي يخفيها الإله عن الإنسان حتى يظل جاهلاً ولا يشاركه علمه إلا أنه حين سرقها سلط الإله عليه طائراً يأكل كبده بالنهار فإذا جاء الليل نبت له كبد جديد وتتكرر اللعبة كل يوم "... فإندفعت " سعاد " بأسى تقول " لكن لماذا يعمل في الإنسان خليفته وظله هكذا؟ " رد عليها البروفسور " لأنه كلما تعلم الإنسان في نظرهم كلما تقلصت قبضة الإله على هذا الكون إلى أن يستطيع الإنسان أن يكتفي بنفسه وأن يستقل وأن يصل إلى أن يخلق نفسه بنفسه بل إن هناك من كتبوا بأن فكرة الإله إنتهت " فلا إرادياً كانت " سعاد " تقول بصوت حاولت أن تسيطر عليه من ألا يخرج صارخاً حين قالت" أستغفر الله العظيم " تساءلت زوجة البروفسور " حكيم " بإنجليزيتها الواضحة " ماذا يعني ما قالته سعاد " بدأت " ماري "

تشرح لها حين أكمل البروفسور" الإله الذي مات أو إنتهى أو قُتل بمثابة نبوءة في الفكر الليبرالي الغربي " تداخلت مرة أخرى " ماري " وهي تقول " كيف هذا ونحن كأمريكيين نكتب على الدولار In God we trust نحن نؤمن بالله " نظر إليها البروفسور " حكيم " وهو يبتسم ويقول " هذا صحيح ولكن إمهليني يا ماري لأشرح فكر المودودي.. كما قلت هذه نبوءة في الفكر الغربي الليبرالي أصلاً ثم تبناها الفكر الشيوعي.. ياسادة الذين وضعوا الفكر الشيوعي أصلاً رأسماليون وفي النهاية الرأسمالية والشيوعية يخرجان من عباءة اليهودية والأسطورة أصلاً هي جزء من الفكر اليهودي في التوراة في سفر التكوين أن الرب حرم على الإنسان أن يأكل من شجرة المعرفة حتى لا يشاركه.. ياسادة نحن نتكلم عن أوجه الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية القائمة على الصراع.. " كمن ضاق الدكتور " يوسف " فقال " كل شيئ يُعاد إلى اليهودية يا الله " فإعتذر البروفسور وهو يقول " لو أن حديثي يُثقل عليك أدعوكم إلى تغيير الموضوع " فضحك دكتور " يوسف " وهو يقول " لا لا على الإطلاق هذا تنظير وأنا أرحب بالنقاش العلمي.. هذا يفيد الباحث ويفيدني ولكن لا تغفلوا ولا تضربوا الصفح عن أن هناك أفكاراً جديدةً ورؤى جديدة داخل إسرائيل نفسها " حين أكمل البروفسور " الوجه الآخر عند المودودي الذي عرفته عن قرب أن المجتمعات الغربية تحكمها نظرية النُدرة النسبية. في الفكرة الإسلامية الأساسيات الضرورية للحياه متاحة للبشر وبلا ثمن.. الخيرات تُستخرج من باطن الأرض وهي تكفي البشر وبما أن الفكرة الغربية تقوم على الصراع الإقتصادي فهي لا تقهر الآخر بل تقضي عليه ومن هنا جاء قتلهم وإبادتهم للهنود الحمر في أمريكا والأبروجينيس في أستراليا السكان الأصليين الإسلام له نظرة أخرى.. " وسكت البروفسور فأكمل " حسن " وهو ينظر إلى إبن أخيه " كريم " ويقول " دعني يا كريم أتكلم رغم أنك دارس والأفكار حية في رأسك

إنما ما سأقوله هو الذي كثيراً ما شرحته في مذكراتي وأنا أشتغل في الحكومــة الفيدرالية.. هيه أنتم أرجعتوني لتلك الأيام الغنية بل الثرية بالفكر... الإسلام لا يُقر بقضية الصراع إنما يعتمد على نظرية التــدافع وهـــي تــدافع إجتمــاعي وإقتصادي في كل المناح يرد المتصارعيين إلى نقطة العدل المفقود بغض النظر عن جنس أو دين الظالم أو المظلوم وهي النظرية التي أشار إليها القرآن حــين قال " ولولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لفسدت الأرض " ورفع البروفســور عينيه إلى " كريم " الذي تولى ترجمة الآية وشرحها.. ثــم أكمــل " حســن " " الإسلام يعتمد نظرية التدافع كما قلت والتي هي في جوهرها وجــود قــوتين كلاهما يخشى الآخر إنما مسألة أن تكون الولايات المتحدة هي القطب الأوحــد مسألة غير مقبولة لأنه أيام أن كان هناك قطبين كان هذا أفضل بالنسبة للعــالم وكان يمكن أن يكون هناك كتلة عدم إنحياز بمعنى إن لم تجد الشعوب ضــالتها في أمريكا تذهب إلى روسيا أو المعسكر الشرقي وإن لم يتجاوب هذا المعســكر تلجأ إلى أمريكا مرة أخرى وكلا القوتين يتسابقان لإرضاء وإســتقطاب بــاقي شعوب الأرض ناهيك عن كتلة عدم الإنحياز التي كانت. الآن حتى المؤسسات العالمية التي تحل المشكلات الدولية تحولت إلى عصا طيعة فــي يــد القطــب الواحد فلن يكون هناك أي قيمة في المستقبل لهيئة مثل هيئــة الأمــم أو حتــى لمجلس الأمن وهذه من نقاط الإختلاف بين الفكرة الغربية والإسلامية " إندفعت " ماري " تقول " حقيقي أن مسألة النُدرة النسبية تحكم رؤيــة الإقتصــاد إلا أن المواطن الغربي يدفع ضرائبه من أجل مواطنيه وعن عقيدة لا تقبــل الجــدل " وافقها العم " حسن " وهو يقول " والإسلام لا يرفض مســألة الضــرائب وإن إختلفت المُسميات الوضع في الفكرة الإسلامية يعنــى الأساسـيات الضــرورية متاحة للبشر بلا حدود حتى إنه في حديث عن الرسول صلى الله عليــه وســلم " الناس شركاء في الماء والنار والكلأ " إلتفت دكتور " هارت سترونج " إلــى

" كريم " وهو يسأله " ذكرت أيضاً إسمين آخرين أحب أن أعرف ولــو فكــرة موجزة جداً عن فكر إبن تيمية على ما أظن " نظر إلى عمه يستأذنه أن يــتكلم فأشار له وهو يقول " إتكلم يا كريم عمك ترك هذه المهمة من سنوات " حــين قال " كريم " " إبن تيمية أصلاً من سورية وُلد عام ١٣٤٢ ميلادية عاش فتــرة إجتياح التتار لكل العالم العربي والإسلامي وهي فترة هزائم عسكرية وسياســية إلا أنها لم تكن هزائم ثقافية!! " لأن التتار أنفسهم ذابوا في الثقافــة الإســلامية المُنتصر ذاب وتحول إلى ثقافة المهزوم يعني أن الهزيمة كانت عسكرية وليست ثقافية.. إبن تيمية رفض المُحتل ورفض نمطه وثقافته ومن المشهور عنه أنــه عندما سجن المُحتل بعض المسلمين والمسيحيين ذهب إبن تيمية وطالب بالإفراج عنهم جميعاً فأفرج الحاكم في زمنه عن المسلمين فقط فعاد إليه إبن تيمية قــائلاً نحن لا نرضى بذلك ونطالب بالإفراج عن كل المسجونين بإعتبارهم مــواطنين ولا فرق في الوطنية بين مسلم ومسيحي فإســتجاب الــوالي التتــري " كــان البروفسور " حكيم " يهز رأسه هزات متتالية موقعه كأنه يوافق على ما يســمع وإلتفت إلى العم " حسن " وهو يقول " ما رأيك مستر حسن " فرد " حسن " من فوره " أنت الأدرى فدراستك للأديان المقارنة " فقاطعه البروفسور " ومن أيــن عرفت" فقال من فوره " كتاباتك كانت موضع تحليل أثناء وظيفتي فالواقع أنني أعرف عنكم الكثير بحكم مهنتي السابقة كمحلل في القسم العربي في الحكومــة الفيدرالية " سأل البروفسور بكثير من التواضع " هل قرأت تقديمي لأبو حامــد الغزالي؟ " رد العم " حسن " " لا أذكر على وجه التحديد وأعتقد أنك الأقدر عن الكلام عنه " فإبتسم الدكتور " يوسف إيجيه " " ياليت البروفسور ينشط عقولنــا بقليل من التوضيح " فقال البروفسور من فوره " إذا أذنت السيدات بذلك فأشد ما أخشاه أن نكون أثقلنا عليهن " ردت " ميرا " زوجته " على أن لا يطول ذلــك عن العشر دقائق فأنا أريد أن أتمشى قليلاً " وإنبرت " ماري " تُعلن بأنهــا لــم

تجمع بعد أعواد " الملوخية " من " الصوبة " الصغيرة... وبدأ البروفسور يقول " أبو حامد الغزالي من ناحية إيران وحدود روسيا والمناطق الإسلامية كان عمره قصيراً فقد عاش خمسة وخمسين عاماً هو من مواليد عام ١٢٢٩ ميلادياً إن لم تخُنِ الذاكرة والطريف أنه مر بمرحلة شك سببها قراءة بعض الفلسفات الغربية بعدها ظل يقرأ سنوات وأخيراً أخرج كتاب " تهافُت الفلاسفة " دحض فيه كل الفلسفات الغربية مبدأ مبدأ.. مثل قضايا الغيبيات وقضايا أصل الوجود. الطروحات التي تسأل الأسئلة المُحيره من أنا. من أين جئت. ولماذا جئت. وأين سأذهب. المهم أن هذه الأسئلة لم يستطع الغرب الإجابة عليها هذا رأي الغزالي بعدها إحتجب وإعتزل الناس لمدة عشر سنوات ثم أخرج كتاب " إحياء علوم الدين " عن مراحل النفس وأمراضها وعلاجها وإستعرض فيه كل ما يتصل بالإنسان حتى قيل من لم يقرأ الأحياء فليس من الأحياء " تداخل دكتور " يوسف إيجيه "وهو يقول :- " الذي لاشك فيه أن مسألة الثقافة هي العمود الفقري لإحياء أي أمة والإبقاء عليها " ولم يُكمل كلامه حتى كان العم " حسن " يقول " الإسلام لا يرفض أي ثقافة والدليل أننا نقلنا أسس الفكر اليوناني والفلسفة الإغريقية إلى العالمية لولم يُترجَم أفلاطون إلى العربية ما عرفته البشرية وكذلك سقراط. الإسلام مُنفتح والثقافة العربية تتضمن الثقافة المسيحية واليهودية " تنهدت " سعاد " بنوع مكشوف من الزهق وهي تهمس " لماذا ياربي أصبحنا كمسلمين مكروهين إلى هذا الحد وإني لا أحس العدالة في هذه الحياه " وسكتت وهي ساهمة.. عيناها مُسدله حين إلتفت إليها إبنها وهو يقول بصوت فيه قدر كبير من التقدير " يا أمي أمريكا تُعاني هاجس إنتهاء البترول مع إستمرار إستهلاك الطاقة بالمعدلات الحالية.. ألا ترين رفاهية الأمريكي إلى حد تدليله " ردت بضيق " ولكنهم يأخذونه ففي صالح العرب أن يبيعوا البترول " فإندفع دكتور" يوسف " قائلاً " ولكن لا يمكن إغفال أنه سلاح وورقة رابحة تُستغل

عند اللزوم كما حدث من السعودية عام ١٩٧٣ " وإنطبع نوع من العصبية على قسمات وجهه فإستدرك نفسه وهو يقول بنوع من التبسيط " رغم أن البترول العربي لا يمثل إلا جزءاً بسيطاً من واردات الولايات المتحدة فهي تجمعه من العالم أجمع ".

•••••

لا يمكن أن تغامر بالذهاب إلى بيت البروفسور وزوجته " ميرا " وحدها فالبيت ليس قريباً من منطقتها ويحتاج ثلاث مواصلات رغم أن المواصلات في منتهى اليُسر ومواعيد الأوتوبيسات بالدقيقة وبالثانية إلا أنها طلبت الدكتور " يوسف " الذي لم يتوان وأفهمها أن لديه محاضرة واحدة اليوم ولن يتأخر عن الثانية عشرة ظهراً كما أنه ألمح لها بأن هناك موضوعاً يشغله ويود أن يناقشه معها.... وبجواره سألته عن الموضوع الذي يود مناقشته معها فقال لها بأنه عرف من " ماري " أن " حسن " يطلب أن تنتقل لتعيش معه في بيته وهذا عرض يجب ألا يفوتها فالذي لاشك فيه أنه بحاجة إليها ولكن الأهم من وجهة نظره ثم توقف لحظة عن الكلام فأرهفت " سعاد " سمعها وهو يقول لها " الأهم من وجهة نظري أنه يمكنك إنتهاز فرصة وجودك في مكان واسع كهذا كما وصفته لي ماري في أن تتخذي لك مرسماً " فإبتسمت " سعاد " وهي تؤكد له بأن لديها مرسمها في بيتها في مصر.. كما أنها لن تستطيع الإستمرار طويلاً في البقاء هنا فالذي لاشك فيه أن إبنتها أوحشتها وانها أصبحت مطمئنة على " كريم " رد من فوره بأن المرسم من الأسباب التي تُطيل إقامتها في أمريكا فنظرت إليه متسائلة " ولكن لماذا " فرد عليها من فوره بما يعني أنها ستصبح مُنتجة وستمارس عملية الإبداع الهامة بالنسبة لها كما أنها لاشك تريد أن تنجح فيما تقدمه فستزداد علاقاتها وإتصالاتها وستستمع إلى آراء الغير فيما تصنع وستعدل من أفكارها بما يرضي متطلبات جمهور لم تعرفه من قبل " وفي هذا

عبء نفسي لاشك سيشغلك وستحاولين النجاح فيه ولا تنسي أنك ستكونين أنت نفسك مُنتجة فلا يكفي الأعتماد على العم حسن مهما كانت قدراته " كانت تستمع إليه مُصغية ومتفهمة حين ردت عليه بتأن " الفكرة جميلة فأكثر ما يجعلني قابلة لفكرة الإنتقال إلى عم أولادي حتى أعفيه من عبء شقتي التي إعتدت عليها ولكن الأمر يايوسف يتركز في أنني أريد أن أرى إبنتي.. فهي صغيرة وهي وحيدة حتى لو كانت قريبة لي تعيش معها " مرت دقائق صامتة بينهما وكأن " سعاد " تقيس في عقلها الفكرة فنظر إليها دكتور " يوسف " قبل أن يقول " الواضح أيضاً أن إبنك بادي الراحة والتركيز منذ مجيئك عما كان عليه قبل أن تحضري " نظرت إليه بسرعة وقد إنخطف القلب منها فقال دون تردد " لا أريد أن أقلقك عليه هي مجرد ملاحظة عابرة بحكم إختلاطي به.. كل ما أرجوه أن تتفهمي أن إبنك في مهمة علمية أما إبنتك فتعيش بطريقة طبيعية دون عبء رسالة لها أكبر درجة علمية "... بعد أن أخذها التفكير بعيداً كانت تقول له " ولكني أعتقد أن كريم لا يستند عليَّ في دراسته فالجدية طبع فيه " أكد لها فكرتها إلا أنه عاد يُلمح لها بأنها لن تخط حرفاً عنه ولن تضع فكرة بدلاً منه إلا أن وجودها – وهذا يكفي تماماً – يُهيئ له الجو الآمن "... طلبت منه أن تتوقف لتشتري زهوراً للبروفسور وزوجته فمال إلى طريق آخر إلى أن وصلا إلى المكان ولما إنتهت.. عادت مُسرعة بقيَّ لهما أكثر من عشر دقائق قبل أن يصلا.. وأمام " فيلا " صغيرة توقف.. أزاح باباً خشبياً ومع أول خطوة لهما في الحديقة الصغيرة شعرت بالإختلاف فترتيب الحديقة له مذاقه الخاص ولما فُتح الباب كان شعورها أكيداً أنها إنتقلت إلى قارة أخرى فالموسيقى الهندية بدقاتها العذبة.. الأثاث واللوحات الدقيقة المُعلقة التي يغلب على مفرداتها البروز فالأفيال مُذهبة بارزة واللوحة التي تحمل بعض الطقوس الهندية المؤداة من شابات بارزة بعرض اللوحة.. الأثاث أغلبه مُطعم بالأحجار الكريمة الخضراء

والوردية والصفراء وهناك كذلك رائحة تفوح في المكان تصنع له عبقاً تاريخياً ممزوجة بالموسيقى الهادئة.. الجو العام للمكان يجعل له مذاقاً ضارباً في أعماق التاريخ والحضارة، لاحظت أيضاً أن بعض اللوحات مصنوعة بطريقة " التنقيط " على الخيش. إستقبلتهما زوجة البروفسور " ميرا " ولاحظت إنبهار " سعاد " فمشيت بخطوات مُتمهله موقعة مع روعة الموسيقى المسموعة لاحظت " سعاد " أنها ترتدي الساري الهندي.. الزي المعروف وأنها تعدل في خطوها ومن وضع طرحتها على رأسها بلمسات غاية في الرقة إلى أن إستعرضت معها كل الـدار حتى فتحت حجرة مكتب البروفسور.. الحجرة واسعة وإن تلاشى منهـا الجـو الهندي وإبتسمت وهي تقول بعربيتها البسيطة " إن التليفزيون كتكنولوجية حديثة فضلت أن تضعه في هذه الحجرة حتى لا يغير من روح المكـان ".. لمحـت " سعاد " بعض الكتب التي تتميز بنوع من الأغلفة الفنية ولها ألـوان داكنـة.. تحسست أحدهم ولما بدأت تتصفحه كانت الرسومات شـديدة الدقـة والألـوان الزاهية تؤكد الإيحاء التاريخي والحضارة إلى أن جاء دكتور " هارت سترونج وماري " وسمعت " ماري " من الردهة الخارجية تُعلن أن هـذا هـو المكـان الوحيد الذي لا تُحضر معها فيه أي نوع من المأكولات فاليوم كل ما يُقدم فيـه هندي لا تُجيده إلا " ميرا " فضحك الجميع قبل أن يجلسوا في وسـط الصـالة الخارجية حين أعلنت لهم الزوجة أن العم " حسن " سيأتي في خلال السـاعة من عمله وأن هذا مؤكداً..... وقتاً رائعاً أمضوه جميعاً تحدثهم " ميـرا " عـن بلادها وأحفادها تستعرض لهم صورهم في مراحلهم المختلفة حين دق الهـاتف وبعد أن وضع البروفسور السماعة كان يدعوهم إلى حجرة مكتبه وهـو يقـول ضاحكاً أنه سيظهر على التليفزيون بعد دقائق فإندفع الجميع إلى الحجـرة كـل يأخذ مكانه وشاهدوه جميعاً كان يقدم رأيه فيما يتعلق بـبعض أمـور الشـرق الأوسط كخبير وبعد أن إنتهت الدقائق إلتفت دكتور " هارت سـترونج " إلـى

" سعاد " متسائلاً عن حقيقة إنتشار فكرة التكفير الناتجة عــن الخــلاف بــين الأديان... بقيت " سعاد " مشدوهة للحظة قبل أن تسأله عن الذي أنبأه بــذلك... فرد عليها بما يعني أن هذا هو سبب إستضافة البروفســور كمتخصــص فــي الأديان المقارنة ليُدلي برأيه.. لم تستطع " سعاد " أن تتكلم في شيئ وقبل حتى أن تنطق ببنت شفه كان العم " حسن " يقول " عموما مصطلح الكُفر يدور على الشيئ ونقيضه بمعنى أن كل مؤمن بفكره كافر بفكرة الآخر الذي ينقض هــذه الفكره ولذلك يسمونه مصطلحاً دواراً " ثم ضحك وهو يقول " الكُفر معناه ستر الحقيقة ومنه يُسمى الفلاح كافراً لأنه يستر البــذره فــي الأرض وفــي اللغــه الإنجليزية Cover وفي الفرنسية Couvre ستر أو حجاب " فقــال دكتــور " هارت سترونج " بشيئ من الحدة " بالطبع ليس هذا هو القصد فأنــت تفهــم قصدي " حين إبتسم " حسن " وهو يقول له " إنها مجرد مُزحة It was just a joke " ثم إعتدل في كرسيه وهو يُكمل " المسيحيون يعتبرون المسلمين كفره والعكس صحيح بل في التراث الثقافي للمسيحية يُذكر المسلمون على أنهم كفار ومصطلح الكُفر ليس من إختراعنا كمسلمين والمهم إنه ليس هناك تناقض علــى الإطلاق بين كل ما هو سماوي... ما كانت اليهودية أو المسيحية نقيضــاً لكــن النقيض هو الإضافات البشرية بعد ٣٢٥ سنة من ميلاد المسيح عليــه الســلام. الإسلام لا يتعارض وإنما يعتبر إمتداداً وتكميلاً وإضافة لما جاء وموجود أصلاً لأن الأديان قامت أساساً على فكرة التوحيد " هز دكتور " هارت سترونج " من رأسه هزات خفيفة وهو يقول " هذا كلام معقول It is logical المعترضــون على ألوهية المسيح في مؤتمر نيقيا، الكاثوليك يعتبرونهم كفرة وهناك حــروب في إيرلندا حتى اليوم حول هذا الموضوع " صوب البروفسور بصره وهو يسأل " حسن " بنوع من الجدية " هل تهتم بمسألة الأديان إلى هذا الحد " فــرد مــن فوره " لا على الإطلاق ولكن بحكم عملي السابق أكثر من ثلاثــين ســنه فــي

الفيدرالية كان يُعرض على تقارير وأسئلة وكان من وظيفتي أن أجيب فكان لابد لي من القراءة لأتمكن من الرد العلمي و.. " إلا أن " ماري " قالت " لا أعتقد أننا كمسيحيين عشنا في مصر كنا ننظر إلى المسلمين على أنهم كفرة ولا أحد من أقاربي أو معارفي كانت لهم هذه النظرة مطلقا.. لو سمحت لي أن هذا محض إختلاق " فإلتفت إليها العم " حسن " وهو يقول بنبرة فيها قدر من الود " ولا أنا كمسلم عايشت هذا الإحساس بالنسبة إليكم وإلا لما تزوجت أصلاً زوجتي الأمريكية رحمها الله.. نحن الآن في أواخر القرن العشرين والبشرية نضجت ووصلت إلى مرحلة من الرُشد مثل هذه الحساسيات ليست موجودة الآن إلا أنني ومن خلال عملي السابق كنت مُكلفاً برصد الموضوع من أساسه حتى تكون مذكرتي مُستكملة " قاطعه دكتور " يوسف " قائلاً :- " إذا كنا الآن نعيش مرحلة نضوج البشرية كما تقول أعتقد من الذي يهمه أن يأخذ على الآخر أي إختلافات ولا ننسى أنها إرادة الخالق قبل كل شيئ.. هو أراد هذا الإختلاف وإلا لكان اكتفى بنبي واحد " إهتزت " سعاد " على مكانها فتحت فمها ثم تراجعت وأطبقت شفتيها حين نظر إليها دكتور " يوسف " كعادته وهو يقول " قولي ماذا تريدين.. لا تترددي ياسعاد.. لا أحب الشخصية المُترددة قولي رأيك فلابد أن لك قولاً بعد تجربتك بين أقباط ومسلمين في مصر " تشجعت وهي تعود بظهرها في مقعدها لتقول " الآن من منا على إختلاف أدياننا الذي لا يرفع يديه إلى السماء ليقول يارب وهذا منتهى الإيمان بالله الواحد كواحد فالنهاية إيمان به وبقدرته " مال البروفسور برأسه ناحية كتفه وبدت على وجهه مسحة شجن وهو يقول " لا وقت الآن للوقوف عند التفاصيل الصغيرة أو الأساطير أو المنقول فالمطلوب الإقرار بوجود الآله للبشرية في أي زمان وأي مكان ومنذ بدأت تلك البشرية " خبط دكتور " هارت " بقبضته يد الكرسي الذي يجلس عليه وهو يقول " إذاً لماذا يحدث ما يحدث في مصر من أحداث مثل الزاوية الحمراء في

صيف ٨١ وما حدث بالأمس ما دمت تقر برشد البشرية فما هذا الذي يحدث في مصر!" بعد لحظة تفكير كان " حسن " يقول " هذا يرجع إلى أنظمة الحكم في البلاد العربية فقد حالت الحكومات ومازالت دون وصول المثقف الحق إلى وسيلة مثل الإذاعة والتليفزيون.. حتى أن الشعر الآن لا يُفهم بسبب إستيلاء الحكومات على الإعلام وفي نفس الوقت ومتزامناً النظام التعليمي يركز على النقل وليس الفكر أو الإبداع ومن قبلهما النقد " فنطق دكتور " هارت " على عجل " هذا لغياب الديمقراطية بمعناها الواسع الليبرالي " هز العم " حسن " رأسه وهو يؤكد " الديمقراطية التي تقول بها لها هياكلها الإجتماعية وهي غير صالحة للعالم العربي لأنها في الغرب كانت نتاج الثورة الصناعية ومافعلته في المجتمع " قاطعه البروفسور " حكيم " مؤكداً " هذا كلام صحيح ونحن كهند مثلاً الديمقراطية لم تنجح ولم تسقط أيضاً حتى عندنا وهذا وضع أصعب " نظر دكتور" هارت " إلى " حسن " وهو يقول بدهشة " أترفضون الديمقراطية! وتقول أنك عملت في الفيدرالية وأنت لك مثل هذه الأراء المتشددة الرافضة " إنبرى العم " حسن " يقول " لأن أهم قواعد الديمقراطية يا سيدي التعدد السياسي بمعنى الأحزاب بالإضافة إلى صحافة حرة هي شرط وكذلك وجود طبقة متوسطة وهذا لم يعد موجوداً.. ثم تأتي ثقافة التسامح ومن أين لنا بكل هذا " بثقة كانت " سعاد " تقول " المهم الذي ألمسه بحكم حياتي كمُعيلة لأسرة أن الوضع الإقتصادي وحالة تدني الدخول المستشراه في بلدي دفعت بالشباب إلى الهجرة إلى بلاد لا تملك حضارة سعياً وراء المال إلا أن البيئة التي يرحلون إليها تطبعهم بالتراجع الأكيد وتحد نظرتهم لأن هذا هو الموجود أمامهم فيأتون بأفكار مُحرفة عن الإسلام " شهقت " ماري " وهي تقول " ها أنتم تعترفون بأنه حدث تحريف بشري و.. " قاطعها " حسن " قائلاً " التحريف في الإستنباط وليس في صلب القرآن ككتاب لمحمد فهو قرآن واحد وليس لدينا غيره "

تتشغل " سعاد " وتشغل نفسها عمداً في لملمة أشيائها.. لم تكن تتصور أنها إشترت " لشادي " كل هذه الأشياء ملابس ولعب وألوان أيضاً فهو مثلها يحبها.. تعود أن يدخل مرسمها وكثيراً ما إعتدى على لوحاتها بأي خبطات ليقلدها فتجري لتأخذ من يده الفرشاه والألوان.. يصنع حولها وأينما حل مجموعة من الموجات تترى في إثر بعضها فلا تلاحق أن تأخذ من يده أو تُخرجه من المرسم وبين أن تقدم له ورقة وقلماً ليرسم يكون قد وضع أصابعه الملطخة بالألوان على التليفون الموجود بالحجرة أو المائدة القصيرة التي تتوسط الكراسي طوال وجوده تكون في حركة لا تهدأ منها ولا تلتقط الأنفاس فيها إلا أنها تحب منه كل شيئ مهما كان مُرهقاً بالنسبة لها.. تعشق حركاته التلقائية السريعة التي لا تلحق بها.. أطفال هذا الزمان لا يمكن ملاحقتهم بسهولة فهم لا يستمعون أو يصغون إلى شيئ حتى لو كان أحلى الحكاوى إنهم يفضلون المبادرة وفكرة الإكتشاف المتصلة " رباه لم أتصور أنني إشتريت له كل هذا " وقررت أنها في حاجة إلى حقيبة أخرى " ولكن ليس وقته الآن " تجمع الأشياء في كرتونة وتحلم بلحظة رؤية " شادي " ووقع كل هذه الأشياء عليه.. يحب البنطلون " الجينز " الأمريكي مثل أمه بل وأبيه وكثيراً ما تحيرت فيما تختاره لإبنتها فهي لا تخلع " الجينز " في كل أحوالها.. جهزت أشياءها وحرصت على أن تعتني بالفستان الفيروزي الذي أحضره لها دكتور " يوسف " وضعته بعناية بالغة وجلست تنتظر " حسن ".... وهناك في قصره كان يشير لها إلى حجرتها في الجهة المقابلة لحجرته يفصلهما رُدهة طويلة وحجرة مكتب صغيرة علوية أيضاً أثاث البيت عملي ومريح إلا من بعض التُحف التي حكي لها " حسن " أن زوجته جمعتهم من بلاد زاروها في أحسن أحوالها الصحية والنفسية... كل قطعة في البيت لها ذكرى عزيزة ومبهجة في أعماقه.. نبهها إلى أنها لن تجد شيئاً مسلياً في حجرة مكتبه العلوية وإذا أرادت أن تقطع وقتها عليها بالمكتبة الموجودة في

الدور الأول ففيها كتب بالعربية.. من الأشياء التي إرتاحت لها قُرب المركز الذي تتعلم فيه الإنجليزية من بيته حتى أنها قالت له بما يعني أنها تفضل أن تذهب إليه سيراً على الأقدام.. إستأذن منها لبعض مشاويره وإنشغلت هي باقي النهار في ترتيب أشيائها وإن لم يفارقها الشعور الممزوج بالشجن الأكيد لغياب زوجته.. تتصورها تسير هنا أو هناك وبينها وبين نفسها تُثني على ذوقها في تجهيز هذا القصر.... ومع مرور الأيام ألفت هذه الحياه وإعتادت المكان وعدلت من ساعات دراستها بما يتماشى مع أوقات عمل " حسن " بل إنها عرفت أسماء بعض الجيران وهم يخرجون في أوقات مختلفة بعرباتهم الفارهة وفي يوم نبهها " حسن " إلى أن أغلب ساكني هذه المنطقة وهي " بروكلين " رجال وأسرهم أعضاء في المافيا الإيطالية ولذلك تلحظين قدراتهم وعرباتهم وإذا دققت النظر فلهم ذوق خاص في الملبس والأحذية اللامعة والنظارات الشمسية السوداء... ضحكت وهي تؤكد له أنها ليست إجتماعية بطبيعتها... بعد أيام تُعد على أصابع اليدين كان " حسن " يؤكد لها أكثر من مرة أنها أعادت الحياة بل الدفء إلى بيته وأنه داخلياً يشعر بالكثير من الراحة والشفاء التدريجي من صدمة رحيل زوجته... وفي يوم عرض عليها أن يدعو صديقاً له وزوجته للعشاء فهو زميل قديم أيام أن كان يعمل في الفيدرالية. كان مثله تماماً أتي إلى امريكا في أول حياته وتزوج من أمريكية من أصول فرنسية وإنه يتوقع أن يحدث إنسجام كبير بين زوجته وبينها... طلب منها أيضاً أن تجهز صنفاً مصرياً... وفي الموعد المحدد وكان حوالي السابعة مساء حضر الصديق المصري وزوجته الأمريكية ذات الجذور الفرنسية وعند أول خطوة للضيفة الفرنسية خرجت منها شهقة وهي تقول بفرنسيتها " Mais elle n'est pas voilé " أقل من نصف الدقيقة وكان عقل " سعاد " يترجم المعنى " لكنها ليست محجبة " وإبتسمت " سعاد " هي الأخرى في دهشة وهي تقول

بأنها دخلت مدرسة فرنسية في طفولتها فترة بسيطة وقال زوجها بنوع من التردد المشوب بالخجل " كانت تتوقع أن تكوني مُحجبة فهذا ما رأته بنفسها في مصر في العام الماضي " وقادهم العم " حسن " إلى صالون يغلب على أثاثه اللون الأبيض الناصع وقام بنفسه ليعد فوق مائدة صغيرة ناحية الحائط عصير البرتقال الطازج الذي طلباه وإختارت " سعاد " أن تشربه معهما وأرادت الفرنسية أن تعتذر عن تسرعها في الملاحظة إلا أن " حسن وسعاد " أظهرا تفهمهما لملاحظتها فما كان منها إلا أن قالت بما يعني أنه حين دعاهما " حسن " إلى منزله لوجود " سعاد " عنده فاعتقدت على الفور أنها ولابد ترتدي الحجاب كشأن المصريات اللائي تعرفت عليهن ثم توقفت لحظة وهي تسأل " هل تفضل أن تكلمها بالإنجليزية " وفي لمح البصر كانت " سعاد " تتذكر يوم أن أخرجتها أمها من مدرسة الراهبات من وطأة مصاريفها ومرضها الذي كان يكلف والدها الكثير وهزت رأسها لأقل من الثانية كأنها بذلك توقف دوران شريط طفولتها في رأسها وهي ترد " أفضل فعلاً الإنجليزية لأني أتعلمها الآن أما فرنسيتي فقد نسيتها " ألمحت الفرنسية على الفور بأن نطقها جميل ولا لزمات أو وقفات فيه.. ضحك الجميع حين قال " حسن " " الواقع إن البعض يفهم الحجاب على أنه قيد على المرأة المسلمة بينما في إستراليا وهنا في أمريكا يطالبون بتخصيص جامعات للفتيات.. ولا تنسي أن هناك بلاد في زيها القومي غطاء للرأس مثل " بولندا " وبعض أماكن في " إنجلترا " أو كما في " الهند " مثلاً ولماذا نبعد أنتم في " فرنسا " كان لكم غطاء للرأس Le Chapeaut لقرون طويلة فالمعروف أن الذكر يتفاعل مع الأنثى في كل شيئ.. أخلاقياً وإجتماعياً من مناقشات وعلاقات.. حالة واحدة يستقبل منها هي حالة الجنس وهذه الحالة إذا سيطرت عليه تلغي ما عداها.. الإسلام يريد من الرجل أن يتفاعل مع المرأه ويرفض أن تتحول المرأه في ذهنه إلى كتلة مهيجات يريده أن

يتفاعل مع المرأه عقلاً وروحاً.. فالحجاب إلى حد ما يسد على الرجل هذه المنافذ التي تجعل تركيزه في ناحية واحدة فقط.. العربي عموماً مُرتبط بخلفية نفسية دقيقة جداً لأن آدم وحواء لم يتعريا إلا بعد أن عصيا الله وهو موجود في التوراة... و" المسيح " يقول إذا كانت عيناك ستقودك إلى الزنا إخلع عينك لأنه خير لك أن يُهلك بعضك على أن تُهلك كلك " المسيح " كان متشدداً في قضية العِرضْ مثل موسى ومحمد "... ثم تولى العم " حسن " ترجمة ما قاله إلى العربية بينما " سعاد " تؤكد أنها تقريباً فهمت كلامه وأرادت أن تتكلم فقالت بتأن وبطء للعم " حسن " " يجب أن تعلمها أيضاً أن الحجاب ليس من أركان الإسلام الخمسة المعروفة " وبينما العم " حسن " يترجم ماقالته كانت " سعاد " تعد في رأسها وترتب جملها في عقلها قبل أن تقول " إن هذا الحجاب لا يضر أحداً كما أنه مع تطور البشرية ونضجها أقصد سموها إذا جاز هذا الأمل وحين نصل إلى مراحل عليا من الفضيلة قد لا يكون لهذا الحجاب ضرورة أما الآن فمع التصارع المادي المستشري والغلاء وإنعدام الإحساس بالأمان المستقبلي أو حتى للغد.. نحن في غابة فنتحصن خلف أستار كثيرة ضمنها الحجاب فالحقوق للإنسان سواء ذكر أو أنثى في بلادنا مهدره بكل ما تعني هذه الكلمة لدرجة أتصور فيها أن الناس كرهت الحياه وتتمنى فناء الدنيا فوصلوا إلى التشبث بفكرة الحجاب تشبثاً كبيراً جداً ويرجع هذا إلى كراهية الواقع المتدني أخلاقياً في جميع المناحي بينما العم " حسن " بمساعدة صديقه " سامي " زوج الفرنسية يشرحان لها إذ إلتفتت إلى " سعاد " تطالبها بالمزيد فإستطردت " سعاد " " إن قضية العدالة منعدمة بالنسبة لحقوق الفرد عندنا والمصالح تتحقق بالدفوع الذاتية والقدرة على العلاقات والوقيعة غالباً أضيفي إلى هذا أنكم تدخرون في شبابكم من أجل أن تنفقوا على مزيد من رفاهيتكم في الكبر تقضون الثلث الأخيرمن أعماركم في سعادة أما نحن فندخر إن أمكن هذا الإدخار لنعالج صحياً في

شيخوختنا أو تكون لنا القدرة على دخول مستشفى للعلاج بالآلاف فبالله عليك
كيف نعيش في هذه الغابة وفوق هذا لا تريدين منا أن نستتر أو نتحجب كفعل
رافض لنحمي أنفسنا إنه نوع من رفض الواقع " بينما كان " سامي وحسن "
يشرحان للزوجة ما تقوله " سعاد " كان يدور في ذهنها معاناة إبنها أيام عمله
في الخارجية المصرية وإفتقاده إلى معنى العدل منذ تخرجه وإنفضاض القادرين
والأقارب عنه وتركه يتحطم قطرة دم بقطرة دم كل يوم ولو أن هناك حجاب
للرجل لتستر إبنها خلفه رافضاً رؤية الدنيا بمخلوقاتها من بني البشر وأخيراً
رفعت بصرها من سرحتها وهي تقول للضيفة " إسألي نفسك لماذا أتي زوجك
إلى هنا ولماذا أتي حسن أيضاً وهجرا بلديهما غير آسفين "... الواقع أن طبق
الكشك بالفراخ الذي أعدته " سعاد " كانت له القدره على تحويل مسار الحديث
إلى موضوعات أخف وطأة إلى أن قالت الزوجة " وهل تعدد الزوجات المُطبق
في بلادكم لا يُشعر المرأه بالأمان أم أنها متقبلة للوضع " سقط سؤالها على
الجميع بوقع المفاجأة فقد أصبح الحديث على مائدة الطعام بادئ الهدوء نوعاً
ينتحصر في المطبخ المصري الذي له جذور تُركية أو المطبخ الفرنسي
الشهير... تركت " سعاد " الشوكة في طبقها وهي تسألها " تريديني أن أكلمك
بصراحة أم " إنبرت الزوجة تُعلن لها بأنها تريد الصراحة والصدق لأنها بصدد
عمل كتاب عن مصر ولا يمكن أن لا تتعرض فيه لهذه القضية قضية السماح
بتعدد الزوجات فقالت " سعاد " " حقيقة مؤكدة أنتم الذين تمارسون التعدد لأنه
أمام المثيرات الكثيرة التي تبتكرونها كل يوم بل وتسمحون بها فإن الرجل
يستجيب لها وكان " لأبراهام لينكولن " ثلمثمائة عشيقة هذا واقع يعني أنه
يمارس مع أخريات وفي نفس الوقت لا تتقبلون للأخرى وضعاً يحفظ حقوقها..
بمعنى أنكم تُضحون بالأخرى لتعيش في الظل لحساب صالح الزوجة الأولى
والإسلام يرفض هذا يريد أن تعيش الإثنتان في النور شريطة أن يستطيع الرجل

أن يعدل بينهما وهذا في حد ذاته شرط مُعجز من أساسه ولا يسهل تحقيقه ولهذا مصر بالذات تدرس وضع قانون يحد من السماح بهذا الفعـل.. ولا تقـولي أن نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم كان متزوجاً لأكثر من زوجة فهذا نبـي وأراد أن يُعطي المثل لأنه يعرف طبيعة البشرية ولهذا تجدي عندنا المرأه لا تقبل من زوجها أن يعاشر إمرأه يعرفها ولكنها تقبل على مضض وبعذاب أن يتزوجهـا إذا كان لا يمكن تغيير الواقع الذي إختاره وصمم عليه فقضية الحرام أي إقامـة علاقة دون زواج مرفوضة تماماً عندنا كمسلمين وأنا لا أقول لك أن المـرأة لا تتألم بل إنها تنهار وتتعذب... تداخل العم " حسن " " إن استخدام مفهوم التعـدد في نشأة الإسلام الأولى كان لأغراض كثيرة بعضها إجتماعي وبعضها سياسي لضمان بعض القبائل بجانبه أو ضمان حيادها على الأقل فكانت المصاهرة وكان هناك الزواج الإنساني من المرأه التي لا أحد لها على الإطلاق من أهل وعزوة فجعل لها الرسول الأهل والعشيرة بزواجه منها " ثم سكت للحظة وهـو يقـول " لا يمكن أن يباح التعدد إلا في وجود كثرة من النساء حتى في مفردات الطبيعة عندما يكون هناك سبعين نخلة فإن التلقيح يكون من إثنتين فقط ولكن في الغرب أنتم تفهمون التعدد على أنه لرغبة الرجل في التمتع بأكثر من زوجة ".... بعـد لحظة تفكير شردت الفرنسية فيها قليلاً ثم قالت " إن جدتها الفرنسية أيام الحرب العالمية الثانية سمعتها وكانت طفلة في السابعة من عمرها سمعتها تتسامر مـع أمها وبعض صديقاتها وقالت إن الفرنسيات كن عند رؤيتهن لـزوج وزوجـة يسيران في الطريق كانت تسمع تعليقات من بعض الأخريات أن تتـرك لهـن الزوج الذي تسير بجواره لفترة كحق لهن لأن الحرب قضت على عموم الرجال " ثم رفعت بصرها إلى سقف الحجرة وهي تقول " أنا شخصياً لا أقبل هذا ولا أعرف كيف تقبله إمرأه !! " إنبرت " سعاد " تؤكد لها أن هذا الوضع مكـروه ومرفوض بل إن هناك أفكارا قرأت عنها في إحدى المجلات بإنشاء جمعيـات

ترفض الزوجة الأخرى إلا في حالة المرض أو إستحالة الإنجاب.. كان "سامي " زوجها طوال الوقت ساكتاً لم يشارك في هذا النقاش الدائر بالكثير إلا حين قال " أيام الإسلام الأولى لم يُعرف الزواج عن طريق المأذون فقد كان كل شيئ يؤول إلى الرجل ثم وُضع الزواج على يد القاضي أو من يفوضه وذلك لضمان الحقوق المدنية للمرأه وأولادها في عصرنا.. أيضاً لابد أن توضع قوانين مادية على وجه الخصوص تحفظ حق المرأه من جموح الرجل مثل إقتسام نصف ثروته المعمول به في هذه البلاد وخاصة إذا مر على الزواج فترة عشرين سنة مثلاً.. لابد من قوانين وضعية تعرقل أن تتجرأ إمرأه على الزواج من رجل متزوج أو تقبل بأن تكون الزوجة الثانية ثم سكت لثانية قبل أن يقول:
" المفروض أن المرأه العربية ترفع شعار لا للزواج من الرجل المتزوج ".. بعد لحظة تفكير كانت زوجته تقول " ولكن هل الإسلام الشعبي عند العوام يقبل بهذا الشعار لا للزواج من الرجل المتزوج ناهيك عن الإسلام السياسي أو السلطوي " لاحظت " سعاد " أن " حسن " كمن إحتقن وجهه قبل أن يقول " من المبتدأ نحن لا نوافق على تقسيم الإسلام إلى سياسي وشعبي وسلطوي فليس الواقع دائماً على الحق بدليل أن الباطل واقع وهناك الفرق بين الحق والحقيقة الواقعة فعلاً.
هذا الذي تقولين به تقسيم صحفي وهذا التقسيم يصطبغ أصلاً بنظرة الماركسيين واللأدينيين لأنهم نظروا إلى الإسلام نظرتهم إلى الإيدلوجيات الأخرى.. الإسلام منهج واحد نزل من السماء وقضية التفسير أو التأوييل جهد بشري وأصحابه يُخطئون ويصيبون وكان الأولى بهم أن يكرسوا جهودهم في تصويب الخطأ ولكن الواقع أيضاً أنهم يقولون بإسلام كهنوتي وهذا خطأ لأن الكلمة أمانة يا سيدتي.. وأنا عملت في " الفيدرالية " وكنت أقول بهذا الرأي لأن الكلمة أمانة وهذه النقطة قد تفيدك في الكتاب الذي تعمليه ".

*****

رغم أن سعاد عاشت في أمريكا ما يقرب من العام وكــان مــن طبيعتهــا وبحكم حياتها السابقة وحيدة تقــوم بالــدورين دور الأب ودور الأم وتعلمــت مواجهة النفس لتتخذ القرار تتذكر حينما كانت تقسم اللوحة الفارغــة بفرشــاتها نصفين جهه لمزايا القرار أو الرأي والجهه الأخرى لمخاوفها من مساوئ إتخاذ نفس القرار وكانت تخرج في النهاية برأي لا رجعة فيه.. وفي هــذه الســاعة تحس حاجتها إلى إتخاذ قرار فقد أفلحت أن تشغل نفسها وتتشغل بعملية الإنتقال من مسكنها القديم إلى العيش هنا مع العم.. ترتب أشــياءها وتضــبط أوقاتهــا وتعرف جيرانها وإن كان عن بعد ثم إنشغلت أيضاً في ترتيب عشــاء صــديق " حسن " وزوجته الأمريكية التي من أصول فرنسية وقضت أياماً أخرى تسجل لحسن أسماء من يطلبه من الأصدقاء وتحفظ أرقام تليفوناته الكثيرة.. ووقتاً آخر عرفت فيه طبيعة عمله كمدير لإحدى المستشفيات الشهيرة، كذلك إنشغلت جــداً ولأيام في عمل فحوص لها في نفس المستشفى وصور أشعة وتحاليــل وكــان الأمر لا يخلو من إرتفاع نسبي في درجة السكر في دمها وأيضاً إرتفاع قليل في نسبة الكوليسترول ثم تخلصت من إنخفاض ضغطها الوراثي بقليل من القطرات كانت تضعها على نصف كوب ماء والمحصلة النهائية أنها إطمأنت على نفسها إلى حد معقول وبعد هذه الفترة وفجأه ألح عليها الحنين لرؤية دكتور" يوسف " ورؤية باقي المجموعة التي تعودت عليها ولم يكن هناك بداً من أن تواجه نفسها وبثبات كبير كانت تضغط الأزرار.. تعرف مواعيده وأحسن الأوقات التي تطلبه فيها وإستقبلها معاتباً لهذا الغياب ومقدراً لإنشغالها في ترتيب حياتها الجديــدة.. وكان لها موعدٌ معه.. شعرت بقدر من الراحة وكأنها تنفست الصعداء.. إنزاح القلق عن روحها.. عاد نبضها يدق دقاته المعتادة.. لقد أوحشها دكتور "يوسف" فقد إعتادت رؤيته وإعتادت إهتمامه بها.. إختارت يوم أجازته وكان " حســن " مشغولاً في هذا اليوم بإجتماع عمل يحددون فيه نوعية آلات طبية يشترونها من

ألمانيا على أساس شهرتها في الآلات.. بعد أن خرج مبكراً كانت " سعاد " تعد نفسها للذهاب في حوالي الثانية عشر ظهراً لبيت دكتور " يوسف ".. نزلت من الأوتوبيس قبل محطتها بمسافة ومشت على قدميها تنظر وهي تقترب من المكان الذي كانت تسكنه.. أمواج من الحنين كانت تفور داخلها. فقد أحبت المكان وإعتادت نسماته حتى أن بعض أصحاب المحال كانوا يخرجون يسلمون عليها... عبثت في أحد جيوبها وتحسست مفتاح الشقة التي كانت تقيم فيها فلقد نسيت أن تسلمه للحارس وهي تتصرف ولم تعثر عليه إلا بالأمس... دلفت من شارع جانبي إلى أن وصلت إلى المكان.. نادت الحارس.. حياها مرحباً وسلمته المفتاح وهي تعتذر.. إتجهت يميناً تقصد الحديقة الواسعة التي تفصل بيتها القديم عن بيت دكتور " يوسف " وقررت أن تقوم بإختراق الحديقة حتى تصل من أقصر طريق.. عند الرصيف المقابل لبيته رفعت عينيها إلى الدور الذي يقطنه وفرحة غزت قلبها حين لمحته واقفاً خلف الزجاج وعلى عتبة باب بيته إندفع يأخذها بين ذراعيه وهو يقول بصوت مسموع " لقد أوحشتيني " دخلت ولم تنس أن تلمح لوحتها متصدرة المكان... لحظات تموج بمعنى السعادة عاشتها قبل أن يعد لها عصير التفاح الذي تحبه.. نظر إليها " يوسف " طويلاً حتى شعرت بنوع ما من الحرج فأرادت أن تشغله عن النظر إليها حين سألته عن " ماري " إلا أنه ظل شاخصاً إليها فرفعت عينيها في وجهه وكان لابد أن تواجهه بأنه مشغول البال.. كمن إنتبه فجأة فطلب منها أن يجلسا في حجرة مكتبه وهناك كان يؤكد لها بأنه يحب الصراحة ويستأذنها أن يتكلم بكل الصراحة فكان ما قاله لها له وقع الدوي على عقلها حتى أنها ظنت أنها أخطأت السمع أو الفهم إلا أنه أعاد كلامه مرةً أخرى أكثر تأكيداً وهو يقول لها " لابد أن نرتبط.. حتى تعيشي معي " ولم تفلح أن تفهم منه كلمة واحدة بعد ذلك فظل يتكلم يفتح فمه ويغلقه وهي لا تعي شيئاً إلا صفيراً في أذنيها وسخونة في جلد وجهها إلى أن وجدت

نفسها تهمس له بعبارة تلقائية " هذا محرم في ديني " كمن إلتقط منها العبارة ليقول بتأني " مسألة التحريم التي تقولين بها لا تتصل بالمسلمين دون غيرهم لكن من واجبنا أن نفحص المنطق الذي حرمها في وقت من الأوقات.. ألا يجوز بعد التحريم أن يُسمح بها وهذا أمر طبيعي بشري في كل زمان ومكان.. يا " سعاد " إن الإسلام برئ من ذلك لأنه دين يميل إلى اليسر والرفق.. وكما تعلمين أنني دارس وأنني عشت في مصر طفولتي وشبابي أليس الإسلام هو الذي يقول الأصل في الأشياء الإباحة ولا تحريم إلا بنص ولا يعتد بنص إلا إذا كان واضحاً " شعرت " سعاد " في تلك اللحظة أنه يحاول أن يغلبها ويأخذ موافقتها.. يأخذ الكلمة منها وهي تعرف هذه البلاد للوعد أو الكلمة فيها معنى القدسية فإنتابها خوف أكيد وإرتعشت على جلستها وأدارت عقلها بقسوة بل طحنته لتقول له " هناك نص قاطع دعني أتذكره " فسكت من فوره للحظة حين قالت " ولا تُنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مُشرك ولو أعجبكم " ثم أشاحت بيدها وهي تقول " لا يحضرني نص آخر " كانت تتوقع أنها أفحمته وغلبت رأيه إلا أنه على العكس إبتسم بنوع من الإرتياح وهو يقول لها " لولم تقولي هذه الآية لقلتها لك ولكن من قال لك إنني مُشرك أنا مؤمن بأن محمد نبي وأن عيسى نبي وموسى هو نبي وديانته يهودية ومؤمن باستحالة مقارنة الخالق بالمخلوق " ثم أشار لها بطول ذراعه ناحية الحائط المواجه لها وهو يقول " ألا ترين قطعة قماش الكعبة التي أعلقها قبل أن أعرفك وصورة السيد المسيح عليه السلام وأمه السيده مريم... كما أنني أضع صورة للقدس بلدي هل تتصورين أنني وضعت هذه اللوحات بعد أن عرفتك.. إسألي جميع أصدقائي " أسقط في يدها وهي تستوعب بسمعها كلامه وتستوعب بعيونها ما تراه إلا أنه لم يتوقف إنما أكمل " الدين الإسلامي وضع درجات عدة للحرام والحلال وفيه درجة واحدة للتحريم القطعي وهو الحرام كما تعلمين ثم تأتي باقي

الدرجات في الواجب والضروري والمقبول والمستحب والمبغوض والمُبـــاح.. فلماذا تختارين التحريم وتسويني بالمشركين والكافرين.. ما الذي ينقصني لأكون مقبولاً عند الله " ومضت بينهما دقائق من الصمت المُطبق هو ينظر إليها وهي تنظر إليه وكأن" سعاد " إبتلعت لسانها إلى أن قال " أترك لك وقتاً كافياً للتفكير يا حبيبتي.. لا أريد رداً الآن " وإلتفت يدخل المطبخ ليعد لها فنجان قهوة علـــى الطريقة المصرية.. لملمت أشتات أعصابها بفنجان القهوه حتى أنها طلبت فنجاناً آخر وهي تؤكد لنفسها بأنها عجوز تعدت الخمسينات ورغم ذلك تـــرتعش فـــي جلستها من طلب الزواج... أمعنت " سعاد " في الحديث بعد ذلك عن حياتها مع " حسن " وتعمدت أن تخبره بأنهم إكتشــفوا إرتفــاع الســكر والكوليســترول وإنخفاض الضغط و.. و.. وأن " حسن " دعا أصدقاءه إلـــى منزلـــه وقـــدمها لهـــم وأنها صنعت طبـــق " الكشك بالفراخ " الذي أعجبهم وأنهـــا.. وأنهـــا.. وأنها..إلا أنه فجأه قال لها: " لم يأت محمد ليرفض ما قاله موسى بل كان أميناً على من سبقه " ثم أكد كلامه بالآية التي تقول " من أهل الكتاب أمه يتلون آيات الله أناء الليل وهم ساجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويقيمون الصلاه " من قال لك يا سعاد أنني أُشرك بالله وكذلك لم يقل لك دينك أن ديانتي باطلة إنني أؤمـــن بموسى وليس من المنطق أو العقل أن أرفض ما جاء بعـــده ألـــم يقـــل نبـــيكم ومصدقاً لما بين يدي من التوارة والإنجيل إن بعض الفقهاء المحدثين يقولون أنه ليس هناك نص يمنع زواج المسلمة من أهل الكتاب فالقرآن يقول لنا يـــا أهـــل الكتاب ".. قالت له بنوع من الضيق الذي حاولت أن تكبحه ما أمكنها " لم أسمع في التاريخ الإسلامي كله أن هذا حدث ويقال إن إجماع الأمـــه يعـــادل الـــنص والحديث لا تجتمع أمتي على ضلال " إبتسم قبل أن يعيد جملته السابقة " خذي وقتك take your time أنا لا أطلب منك رداً الآن " ثم فجأه وقـــد شـــعرت " سعاد " أن هذا اليوم كثرت فيه مفاجآت " يوسف " وتأكد حدسها قبل أن ينطق

وهو يسألها " هل تسمعين عن أفكار المؤرخين الجدد في قلب إسرائيل " فأكدت له " سعاد " أنها لا تعرف عنهم شيئاً ولم تسمع بهم في الإذاعة رغم أنها تُدمن الإستماع الدائم فقال من فوره " أنا واحد منهم أقصد من المرحبين والمؤمنين بالفكرة ولي معهم مراسالات دائمة إننا يا سعاد نعيد النظر والفحص في كثير من الأمور ونعترف بأخطاء فادحة لنا ولكن في النهاية المفروض أن هدف الإنسان الأكيد هو التعايش في سلام مهما عانينا على يد النازي مثلاً ولماذا والقرآن فيه الحجة فنحن يا سيدتي كنا دائماً وأبداً مُضطهدين وسورة " الكهف " فيها ذلك الواقع على أساس أنهم فتيه آمنوا بربهم فهربوا إلى الكهف ثم تعرض اليهود في فلسطين للعذاب على يد الملك الروماني حوالي ١٧٦ – ٨٤ قبل الميلاد الذي فر ض على اليهود بفلسطين التدين بديانة الإغريق وأبطل شريعتهم ودنس الهيكل وقدم الخنازير ذبائح له وأحرق نسخ التواره ثم حدث إضطهاد ثاني في عهد الإمبراطور الروماني" هادريانوس " وقضى على القومية اليهودية تماماً بل وبيع اليهود في سوق النخاسة وتعطلت شريعتهم " قاطعته " سعاد " " أنت تحكي تارخاً أنت تعرفه ولا أعرف أنا شيئاً عنه " ثم إعتدلت في جلستها كأنها تتلمس أن ترتاح وأكملت " إلا أنه وقع في يدي كتاب من مكتبة حسن الضخمة عرفت منه أن التوارة إستغرقت أربع قرون كاملة لجمعها ولهذا دخل عليها مذاق الأساطير وغلفتها الدراما أكثر من الحقائق وبالنسبة للتلمود الشفاهي الموازي للتوراه فيفصله أيضاً عن التواره النهائية ألف عام وأيضاً دخلت فيه حكاوى وأساطير ومغامرات والواقع أنني لم أطيق أن أُكمل القراءة " سألها " وهل يقول الكتاب أن من دوّن التوراة هو عزرا " أومأت له برأسها دليل موافقتها فقال لها " أعرف أنني أجهدتك بهذه الحكايات ولكن ما أريد أن أوصله لك أننا كمؤرخين جدد نحاول خلق رأي عام وفكر ينبني على ضرورة التعايش جنباً إلى جنب مع الفلسطينيين إننا نعترف بممارسات لإسرائيل حولتنا من

ضحايا للنازي مثلا إلى جلادين أشد قسوه منهم بل ونطـالبكم بـنفس النظـرة والعمل الجاد لفض هذا الذي يجري " ردت من فورها " أنت تكلمنـي وكـأني مسئولة أو في يدي أي حل الذي أعرفه ومتأكدة منه أننا لا نرفض حقكـم فـي الحياه في فلسطين على أساس أنكم كنتم هناك أيام موسى عليه السلام حين خرج جزء من اليهود مع سيدنا موسى بعد أن شق بعصاته وعبرتم البحر الأحمر إلى الضفة الأخرى في سيناء إلا أن الفلسطينيين كانوا أسبق في وجودهم حتـى أن اليهود قالوا حين طلب منهم موسى عليه السلام دخولها بأن فيها قوماً جبـارين وإنا لن ندخلها أبداً حتى يخرجوا منها أضف إلى هذا أنكـم تريـدون قصـر السامية عليكم والصحيح أنها لموسى وإسماعيل وإسحق بـالطبع وهـذا كـلام القرآن يعني سلامة الرواية والتوثيق " إبتسم الدكتور " يوسف " وهو يتأملها ثم قال " أتعبتك ولكن يعجبني كلامك وإني أرى أنه قد آن الأوان بالنسبة للبشـرية أن تتصف بالنضج فنحن في أواخر القرن العشرين ولا يمكن أن نعيش خلافات في الرؤى من قرون ".

•••••

رفضت رفضاً قاطعاً أن يوصلها إلى بيتها.. أعلنت له أنها تريد أن تمشي في الهواء مهما كانت المسافة طويلة.. ظلت تسير والهبو يلفح وجهها.. سخونة تشد جلد ظهرها.. تجتر كلماته كلمة كلمة.. آراءه رأياً برأي.. لم تتصور كيف واتتها الشجاعة على مناقشته الحجة بالحجة وكيف إستدعى عقلهـا كـل تلـك الحقائق والأدلة القرآنية عليها.. إكتشفت نفسها اليوم وعرفت أنها تعلمـت مـن الحياه الكثير فمجرد العيش يكتسب منه المرء الكثير.. بينها وبين نفسها كانـت تتعجب من ثبات أعصابه وهدوئه وتلك القدرة التي يمتلكها على النقـاش فـي الرأي مع من أمامه.. كما أنه " دارس للكثير " وكانت تقر أيضاً من دخيلتها أن مجموعة أصدقائه لهم نفس هذا القدر من العلم والمعرفة فكانت على قناعة كاملة

أن سفرتها إلى أمريكا كأنها هي التي في رحلة علمية وليس " كريم " إبنها فقط فالمناقشات اليومية الثرية أمتعتها.. " على العموم لا يمكن للسفرة أن تكون غير ذلك فأعمارهم مع تعليمهم عميق ولا يكتفون بذلك إنما دوماً غارقون في مسألة الأبحاث التي لا تنتهي " بينها وبين نفسها أنهم من نوعية إبنها أو أن إبنها " كريم " من تلك النوعية التي لا تكف عن طلب العلم.. برز في عقلها صورة أمها فقد علمتها وكثيراً ما كانت تردد هذه العبارة " إثنان لا يشبعان طالب مال وطالب علم"... رذاذ المطر كان يتساقط والساعة حوالي الرابعة حدثت نفسها بأنه إن أصبح الرذاذ مطراً ستقف عند أول محطة ولكن توقف الرذاذ فعاودت سيرها بهمة ومازالت تسترجع ما دار من كلام بينهما. تحسست جيبها كان الدكتور " يوسف " قد أسقط فيه مظروفاً وطلب منها أن تقرأ ما بداخله في المساء.. تلمسته أكثر من مرة وقررت أن تخرجه لتقرأه في الطريق إلا أنها عادت وأحجمت فأخرجت يدها من جيبها وتذكرت عرضه عليها بالإرتباط وكانت تقولها بصوت مسموع " لو عرف حسن لقتلني هنا.. ولو عرف إبني لصُعق هو الآخر.. إن مجرد عرضي عليه لهذا الأمر يوازي فظاعة طلبه الذي كان في التنازل عن الجنسية المصرية " تذكرت إحدى المرات التي كانت مع إبنها في الحديقة وهو يضع رأسه على رجليها متمدداً وعندما ذكرته بمسألة الجنسية ضحك وهو يقول لها " يا أمي الأمر لم يكن يستدعي منك كل هذا العذاب الذي كان.. لقد كنت حزيناً وكنت ثائراً وكنت مظلوماً.. مصر أم الدنيا " ساعتها إبتلعت لعابها وظلت تحمد الله مئات المرات وإبنها يضحك منها... وفجأة شعرت بالإرهاق وتخطفت منها الأنفاس فتمهلت إلى أن وصلت إلى أول محطة أوتوبيس وركبت وعلى أول كرسي كانت تُلقي بنفسها.. أسندت رأسها على كف يدها وراحت في شبه إغفاءة لم تصحُ منها إلا على صوت السائق ينطق بإسم المحطة.. قامت واقفة ونزلت قبل البيت بخطوات.. في نزولها

شعرت بظهرها وكأن فيه تنميلاً.. كادت رجلاها أن لا تساعداها على النزول إلا أنها ركزت إرادتها فنزلت السلمات القليلة وعقلها يردد جملتها التي كثيراً ما كانت ترددها لأنها كانت موقنة بها " عجوز تعبت من الإنفعال بطلب الزواج " ومشت الخطوات إلى بيت " حسن " وفوجئت بوجوده أمام المكتبه وفي يده مجموعة كبيرة من الصور.. قدم لها يده بالصور ورغم الإعياء الذي كانت تشعر به ورغبتها أن ترتمي على أول كرسي.. تناولت الصور منه وظلت تقلب فيهم وهي واقفة أمامه عرفت أن الصور عثر عليها في المكتبة للراحلة زوجته رفعت عينيها في وجهه وأدركت أنهما مغرورقتين أرادت أن تخرجه فعرضت عليه أن تجهز مشروباً ساخناً وإنسحبت من أمامه بعد أن أفلحت في أن تشد تفكيره إلى موضوع آخر حين طلب منها الشاي.. في المطبخ جلست على الكرسي تلهث بعض الشيئ وتحاول في الوقت نفسه أن تسيطر على اعصابها.. تلملم أنفاسها ولما خرجت بالشاي ظل يروي لها عن سفرته القصيرة إلى " ألمانيا " والإجتماع الذي كان والتعاقد الذي تم على الآلات الطبية وغذاء العمل وأنواع الطعام وبالتدريج البطيء كانت " سعاد " تشعر بتحسن حالتها وإستعادة بعض من حيويتها إلى أن إستأذن منها ليطلع إلى حجرته ليستريح.. بقيت " سعاد " على جلستها.. خلعت حذاءها ومدت رجليها على الأريكة ثم تحسست جيبها تلمست المظروف وبتأني أخرجته.. لم يكن مغلقاً فسحبت الخطاب منه وبدأت تقرأ :

حبيبتي " سعاد " :

من البداية أعتذر عن كلمة حبيبتي لأنها أقل مما أستطيع أن أخاطبك به فأنت نفسي.. بل أنني أتساءل هل خُلقت حقاً من ضلعي وأنت كلي ! من منا الذي خرج من ضلع الآخر.. لا أدري ما الذي تلبسني حين خطفت بصري لأول مرة في مطار باريس... ملايين المشاعر شدتني إليك بجسارة لم أعشها

من قبل وإن كنت أهفو إليها حتى دون أن أعرفها.. ولما جلست خلفك في الطائرة أرسلت روحي لتسمع دقات قلبك وأيقنت أن إيقاعك هو النغمة الوحيدة التي عشت أنتظرها والأكثر أتوقعها.. صدقيني ما معنى حياة دونك أياً كان لونها... يومها رجعت وعرفت عنك من مكتب شركة الطيران.. كنت عن يقين أنني سألقاكِ ولو لم تكن الصدفة في الجامعة لذهبت إلى بيت " حسن " إنني أخاطبك الآن في الليل كما طلبت منك فالليل أكثر تسامحاً حتى لو كان بلا قمر هنا وأخاطبك أيضاً في النهار البصير لأنه بالتأكيد أكثر رحمة وأخيراً أخاطبك لأنك مشحونة النفس بالإثنين التسامح والرحمة... فسامحيني أرجوك ياحبيبتي وسامحي نفسك فنحن الإثنين نعيش موقفاً مكتوباً علينا قبل أن نُخلق... وفي أحيان كثيرة أحمد الله أنني لقيتك لأختزل سنوات الجفاف الذي أحياه رغم أنك تأتين في أخريات العمر وأحياناً أخرى أضيق وأندم أنني لم ارك في سنوات شبابي لأعيش بك ولأجلك ولكن هل كنت أستطيع ؟ وفي هذا السؤال عذابي الأكيد.

" سعاد " أطلب منك أن تعيشي معي تحت أي مسمى تختارينه.. واقع بعادك عني حكم بالموت وأنا حتى بعد الموت لا أطلب أي شيئ إلا أنت إننا منذ أيام موسى بن ميمون لا نعتبر إعتناق الإسلام شركاً أو إنكاراً لوحدانية الله على خلاف مع كثيرين.. إختاري الإرتباط شرعياً أو مدنياً أو على الطريقة الأمريكية.. كل مجاب لك لا أريد العيش دونك.. وهي يا أمل الروح قبل القلب أيام أو سنين قلائل قادمة لأنك يا سعاد روحي التي رُدت إليَّ متأخرة وأنا لا أعرف ما أقدمه لك إلا نفسي بل إنني لا أتمنى أن أسحب نفساً آخر في عمري لا تكوني فيه معي وكأن حبي لك هو الحقيقة الوحيدة في الوجود من حولي وما عداه زور وبهتان إن لم نلتق لنعيش سوياً. أنت عربية يا مليكتي وأنت مصرية وستظل الدنيا تتحدث عن العشق وهي مرتبة أعلى من الحب في تاريخ أرضك

فلا تستكثري عليَّ عيش النعيم فقد خُلقت الأديان لصالح الإنسان فأنا الأول وأنت الآخر وهذا قدرنا فدعينا نوصل ما بيننا دعينا نحيا ولو كان الآتي قليلاً.

يوسـف :

سقط ذراعها بجوارها على الأريكة وبين أصابعها الخطاب رفعت ذراعها بهدوء تعيد قراءة الكلمات وتوقفت عند عبارة " فنحن الإثنين نعيش موقفاً قـدر لنا قبل أن نُخلق " وشعرت بنوع من الإختناق فإنتفضت واقفة وذهبـت حافيـة القدمين تتناول زجاجة ماء.. إحساسها أنها تعيش مأزقاً لم تعشه من قبل ورغـم أنه طلب منها أن تختار نوع أو شكل الإرتباط إلا أنه مأزق بكل ما تعني الكلمة " فليست الإختيارات مهما تعددت حلاً! وهل يمكن لـه أن يطلب غيـر ذلـك ليتركني أتنفس.. وما هذا الضغط النفسي الذي وضعني في آتونه! وأين المفر " عادت تجلس على أريكتها تتخيل في لحظات القسوة تلك أنها تحلم وأن هذا ليس صحيحاً.. إنه محض من خيالها إلا أن ملمس الخطاب بين أصابعها كان يشـد عقلها من أكثر من نقطة فيه لتعي أنها الحقيقة والأشد قسوة لتعي بكل جزيئـات وجودها أن عليها أن تختار.. أن تقرر.. وأن تعطي رداً يتوقعـه " يوسـف " بالموافقة همست " أي هول فيما أعيش يا إلهي " إحساسها بأنها لم تتوقـع هـذا الموقف الذي باتت فيه.. ضاق عليها البهو الفسيح الذي تجلـس علـى أريكـة بيضاء في وسطه.. إقتربت الحوائط منها بلا رحمة.. تحشرجت الأنفاس منها.. شعورها مزدوج بالنار والصقيع.. عذابها مغرق في العذاب من نوع الموقـف الذي وضعت نفسها فيه.. الأكيد يملأها بأنه كان لها اليد الطولى في ما وصلت إليه.. الإختناق يعاودها فإنتفضت مرة أخرى واقفة ولما عادت لجلستها هدر في سمعها كلماته " أنت يا سعاد عربيـة مصـرية.. وأنـا الأول وأنـت الآخـر" شعرت بوطأة المعنى فلماذا أراد أن يجعلها هي بالذات التي توصل بـين الأول والآخر " يا إلهي أي قسوة فيما أنا فيه "عادت لتجلس وتمد رجليهـا وتفتـرض

بينها وبين نفسها أنها لم تأخذ الخطاب ولم تقرأ المعاني ولم تعرف مطلبه ولم.. ولم.. ولم.. وإلتقطت بعض الأنفاس وهي تقرر إمكان أن تدعي ضياع الخطاب منها في الأوتوبيس وقبل أن تركن إلى هذا الحل كان ذراعها يسقط بجانبها لأنه حتى لو فُقد الخطاب فقد طلب هو بنفسه ذات المطلب.. إحساسها أنها تهرب من النار إلى الرمضاء.. فأين المفر.. حياتها كوحيدة بلا عائل علمتها الغوص في أعماقها.. علمتها سبر غور نفسها فدارت باللوم على نفسها وهي تهمس "عجوز تخطت الخمسين ترتج على جلستها لأن أحدهم طلب الإرتباط بها " غليان في معدتها وسخونة تترى من أذنيها على دفعات وهي تؤكد لنفسها أنها مرت بمثل هذا الموقف مرات على مدار عمرها الطويل إلا أنها كانت تنتهي من أي موقف لطلب الإرتباط في لحظات بل كانت جسورة في وضوحها.. ولماذا تبعد وكان لها نفس الموقف مع " حسن " من أيام وإن لم تتكلم إنما كان صمتها أعلى من أي كلمات أما لحظاتها هذه فهي تختلف.. وكانت أكثر صراحة كعادتها في سبرغور نفسها وهي تقرر مرة أخرى وبمنتهى القسوة أن الحقيقة أنها أحبت الدكتور " يوسف " وأنها بسهولة تستطيع أن تقرر بأنه توأم روحها المفقود.. ولكن أي جبل من الأشواك يجب أن تتسلقه حافية لتقبل ما يطلبه منها فقد عاشت عمرها الطويل تمضغ آلام لا قِبَلَ لأحد بها اللهم إلا العرب إخوانها فقد إمتلأوا حتى التشبع من هذا الألم فالخال والعم وإبن الأخت وإبن الأخ والجار بُترت أعمارهم على صخرة صراع موغل في القدم دفعناه جزاء الظلم.. جزاء ظلم الآخرين " ليوسف " وشعبه وهمست " يا إلهي كيف تضعني في هذا الموقف.. وما الذي فعلته لأجني وأتحمل أخطاء أزمنة مرت حتى قبل أن أولد " وقفت ووضعت قدميها في حذائها وظلت تقطع البهو ذهاباً وإياباً.. لمحت الساعة المعلقة، كان الليل قد إنتصف.. المكان مضاء.. أشعة النور أتعبتها تتغرس في مقلتيها جرت هنا وهناك لتخفف الضوء وبقيت تزرع البهو في خط مستقيم

رأسي أحياناً وفي خط مستقيم عرضي أحياناً أخرى ولا فكاك مما وضعت نفسها فيه.. إلى أن شعرت بالتعب.. نوع من الإجهاد الذهني والنفسي لم تعايشه من قبل وهي مازالت تدور حول نفسها يميناً ويساراً وكأنها تبحث عن نفسها التي غرقت منها.. تذكرت أيامها في شاطئ الإسكندرية حين كانت صغيرة ترقد على وجهها وتحملق في " بير مسعود " الذي بلا قرار وهدير الموج المرتطم يصك أذنيها وتظل على وضعها هذا فترة إلى أن يأتي والدها فيحملها بهدوء فقد كانت مولعة بأن تعثر للبئر على قرار وكان جزاؤها المستمر أنها لا ترى إلا اللامحدود معه وأصداء صوت الموج يعوي داخلها يملأ دهاليز عقلها.. وسقطت جالسة.. مددت ساقيها.. سحبت الخطاب من على المائدة القصيرة بجوارها وعادت لتقرأ " أعتذر عن قصور كلمة حبيبتي لأنها أقل مما أستطيع أن أخاطبك به " وسال الدمع منها فمدت ذراعها بالخطاب وأراحته على المائدة القصيرة القريبة منها وتدريجياً كانت تسافر إلى تخوم النوم الأكيد .

*****

حركة خفيفة سمعتها فإستيقظت من فورها جالسة.. وعت أنها راقدة في البهو.. إنعصر القلب منها لحالها ودارت بعينها لثانية تبحث عن الخطاب كان مطوياً على المائدة القصيرة عند مسقط عينيها وضعت يدها بلهفة عليه.. أدخلته في جيبها.. دار بصرها مرة أخرى دورة أوسع وتيقنت من أن الأنوار مازالت مضاءة.. نظرت في ساعة الحائط المواجهة كانت تمام الثامنة.. كل شيئ على مكانه.. أرادت أن تتأكد من فحوى الخطاب وأنها لم تكن تحلم.. أخرجته من جيبها قرأت أول كلمة " حبيبتي سعاد " ثم طوت الخطاب وأسقطته في جيبها " إذاً كل ما مر بي كان الحقيقة بعينها " قامت واقفة ومدت يدها تشرب ما تبقى من زجاجة الأمس... طلعت حافية على السلم الخشبي إلى الدور الثاني وإقتربت من حجرة " حسن ".. كان الباب موارباً.. أزاحته ولم يكن موجوداً.. تقدمت في

الحجرة وتصنتت على باب الحمام فلم تسمع شيئًا تأكدت أنـــه غيـــر موجـــود..
الروب موضوع على فراشه وبعض الأدراج مفتوحة أيقنت أنه غيـــر موجـــود
ومع ذلك نادت " حسن.. حسن " ثم عادت إلى الممر الدي يفصل حجرتها عنه
ومازالت تنادي.. فتحت حجرتها ثم هبطت نازلة مرة أخرى ومازالـــت تنـــادي
عليه فكان المكان يُرجع صدى صوتها ومع ذلك أرادت أن تتأكد ففتحت البـــاب
وخطت خارجة خطوتين تنظر في الحديقة ثم نادت مرتين فلم يكن كعادته فـــي
الحديقة.. قادها عقلها أن تذهب إلى الجراج في خلفية البيت وهناك أُســـقط فـــي
يدها فلم تكن العربة موجودة.. عادت من لسعة البرد وردت خلفها الباب وعلى
نفس الأريكة جلست.. قلق جسور تلبسها فالأكيد أنه رآها نائمـــة وقـــد تركـــت
الأنوار.. نائمة بملابسها.. فهل ياترى قرأ الخطاب؟ الإحتمال داخلها وارد فقد
كانت نائمة ولم تشعر بأي شيئ لا صدى أقدامه في الدور من فوقها ولا خطواته
على السلم الخشبي في نزوله ولا حتى صوت عربته وهو يخرج بهـــا.. هـــل
انفضح أمرها ؟ ولكن الخطاب مكانه إلا أنها لم تستطع أن تتذكر إن كانت طوته
أم لا.. وعلى الفرض البعيد أنه قرأه فماذا سيقول.. " أم أتت لتطمئن على إبنها
فغرقت في قصة حب وإذا كان هذا مقبولاً من شابة فهل يعقل لإمـــرأه تخطـــت
الخمسين من عمرها يا فضحتك يا سعاد وياسواد اليوم الذي أتي بك إلى هنا يا
الله ماذا جنيت حتى تضعني في هذا الموقف " إصطبغت توقعاتها باللون الأسود
أكثر وهي تتساءل باحتمال أن يُطلع إبنها أو حتى ينوه له... ثم هـــزت رأســـها
بشدة وهي تؤكد لنفسها حرص العم على إبنها الواضح فـــي جميـــع المواقـــف
والأقوال وهمست " ماذا أفعل " سؤال نبت في عقلها فابتسمت بنوع من اليـــأس
والمرارة لأنها وعت أن هذا السؤال كان دائماً قريناً في حياتها وتوءماً لنفســـها
يفرض عليها الإختيارات دائماً " ماذا أفعل " هو العمود الفقري لمحتوى وكُنـــة
حياتها فكم من المواقف والظروف والأحداث التي عاشتها وكان هذا السؤال هو

المحوري بين كل ما عبرت " ماذا أفعل تباً للأيام حتى في هذا المكان.. في قارة أخرى وعالم لا أعرفه ولست منه " يكون عليها دائماً أن تختار ويكون عليها أن ترد على السؤال الأبدي " ماذا أفعل ".. في هذه اللحظة شعرت بالوطأه فسالت دموعها ساخنة حسرة وهي تقرر بنوع من الألم الكظيم أن الحظ لا يتغير حتى لو تغير المكان فمنذ أن كانت شابة إلى أن أصبحت جدة وقدرها يستلخص في هاتين الكلمتين " ماذا أفعل ؟ " دوماً كان عليها أن تواجه الدنيا وتتخذ القرار " وأي قرار هذا يا ربي " وأيقنت أنه أصعب قرار مر بها ثم عادت لتتساءل " وهل بات عليَّ أيضاً أن أواجه حسن " فرد عقلها يُكمل " أن تواجهي يوسف " هزت رأسها كأنها لا تريد حين أكمل عقلها " بل تواجهي إبنك " صرخت " رباه أي قسوة تضعني فيها " وعاد العطش يذبحها من حلقها فقامت واقفة تتجه إلى المطبخ تعد شيئاً ساخناً تأمل فيه لتخفيف آلامها.. وبعد أن شربت إستعادت بعضاً من نفسها وعادت أدراجها تطفئ أنوار البهو.. تضع قدميها في حذائها.. تسحب حقيبتها وصعدت السلالم سلمه سلمه ولأول مرة في عمرها تحس وطأة عمرها بالسنين فلم تعد " سعاد " الأمس التي تعيش واقعاً نفسياً وعصبياً وكأنها أصغر من حقيقتها بعشرين سنة على الأقل.. الساعة واللحظة الآن تعايش عمرها الفعلي والذي لم تعرفه من قبل.. قبل أن تصل إلى آخر سلمة كانت المرأه التي تساعدها تضع مفتاحها في الباب وبعد أن ألقت إليها بتحية الصباح كانت تؤكد بدهشة أن مستر " حسن " لم يأخذ الجرائد من أمام الباب كعادته لسنوات... إبتلعت ملاحظتها وخطت الخطوة الأخيرة قبل أن تتجه إلى حجرتها وتُغلق الباب .

*****

قرب الخامسة كانت تروح وتجيئ مرة أخرة في البهو ترهف السمع في إنتظار " حسن ".. الشعور الذي يملأها هو نوع عميق من الحرج وهي تؤكد

لنفسها أنه إذا كان ولابد أنه عرف وقرأ الخطاب فلا يجب أن تتجاهله أو تتكره فالذي لاشك فيه أنه أمضى معها سنوات عمرها متفهماً لكثير من الأمور حتى أنها كانت تشعر به في بعض المواقف صديقاً أكثر منه عماً لأولادها كما أنها ليست متخوفة تماماً فهو القائل لها دوماً بأن من حقها أن تتزوج وكل ما عليها فقط حُسن الإختيار ثم عادت تؤكد لنفسها أكثر من مره أن حياته التي أمضاها هنا قد تجعل الأمر لا يبدو مستغرباً رغم عمرها في أن يرى إثنان أنهما لا بديل لهما عن بعضهما.. كل هذه الإحتمالات مرت في داخلها وعايشتها بتأكيد وهي تنتظره بعد أن إنتهت المرأة التي تساعدها من عملها وإنصرفت.. تروح وتجيئ تجهز المائدة وتضع له أنواع العصائر الكثيرة التي يحبها وقد سادها شعور أكيد من الإطمئنان إلى سلامة تقديره وسعة قلبه ليتفهم ما جرى إلى أن دار المفتاح في الباب ودخل ينادي عليها كعادته وقبل أن يضع حقيبته ويدخل المفاتيح في جيبه كان يُعلن لها بأنه شديد الجوع ثم سأل عن صحتها وأكد لها أنه لم يشأ أن يوقظها قبل خروجه المبكر.. جلسا إلى المائدة وهي ترقبه بطريقة حاولت فيها أن تبدو أنها لا تقصدها.. ظلت هكذا إلى أن إطمأنت إلى أنه لا ينوي معها أي نوع من المواجهه.. حدثها عن عمله وإنتظار وصول الآلات من " ألمانيا " في ظرف أسبوع واحد.. بعد أن إنتهى جلس على الأريكة يسحب أنفاساً قليلة من السيجار كعادته... ذكرت له في معرض حديثها أنها لم تشعر به في الصباح وهو يعد لنفسه القهوه إلى أن إستأذن منها كعادته أيضاً ليستريح وخطى نحو السلم وبسرعة كانت تحمل الأطباق إلى المطبخ وإن باتت عن يقين بأنه لابد قد قرأ الخطاب وأنه ولابد قد عرف كل شيئ وهي مستغرقة في رقدتها فليس من المعقول أن يروح ويجيء في هذا الوقت المبكر والخطاب مفتوح أمامه على المائدة القصيرة ولم يحاول أن يقرأه، أيقنت أنها كانت شديدة الإرهاق وأجهدت عقلها في تقليب الأمر على وجوهه المختلفة إلا أنه تظاهر بعدم معرفة شيئ

وهو يُمعن في هذا التظاهر حتى يجنبها الحرج وحتى يترك لها الخيار مفتوحاً أمام نفسها فالذي لاشك فيه أن قدرها كما كان دائماً أن تختار هي وحدها... أكملت نقل الأطباق وعادت لتجلس في البهو... تذكرت أن اليوم لها موعد في مركز تعلم الإنجليزية وشعرت برغبة أكيدة في ألا تذهب فما يملؤها الإحتياج الشديد أن تخلو إلى نفسها.. تريد أن تحتضن نفسها من داخلها وأن تحنو على نفسها حنواً تحتاجه ولم تشعر به كما تشعر به الآن وعرفت أنها في حاجة لأيام تستعيد فيها روحها وتتصرف على أحسن وجه ما أمكنها ذلك وتتخير إتجاهها الذي تقوى عليه وكعادتها كانت تُفرغ من رأسها ودخيلتها الموضوع برمته.. كانت تريد أن تبتعد عن الموضوع حتى تراه وتحكم عليه وكانت تقرر أن أولى الناس بعد ذلك بالحديث هو " يوسف " فالقضية تخصهما والأمر يتعلق بهما والقرار قرارها... طلعت السلالم وفي حجرتها وهي ترمق سريرها بأغطيته الوثيرة المنتفخة كانت تتشوف إلى الوصول إليه بعد أن تخلع عنها ملابسها وترتدي قميصها... وإندست تحتضن الوسادة كعادتها وقد برز لها وجه " شادي " لها وهي التي عودته دوماً أن ينام بين ذراعيها وإن صحا يتحسس الجسد منها حتى أنها شعرت بأنفاسه وسمعت دقات قلبه السريعة وراحت في نومها.. تكرر هذا الحال لأيام ثلاثة.. أغلب ساعات النهار والليل تقضيها في فراشها تجاهد حتى لا تفكر في قضيتها مع" يوسف " أو قضية " يوسف " معها و" حسن " يعفيها يوماً بعد يوم من كثير من طلباته والتي كانت تقوم بها عن إختيارها... إكتفى بأن يلقي عليها تحيه الصباح عند خروجه ويلقي عليها تحية المساء قبل أن يخلد إلى نومه وهو مازال مصراً على معاملتها بطريقة طبيعية جداً وكأن شيئاً لم يكن... بعد الأيام الثلاثة إستعادت " سعاد " بعضاً من لياقتها وحيويتها وفي اليوم الرابع نزلت إلى البهو وعلى مكتب " حسن " كانت تجلس سحبت ورقة وأمسكت بالقلم وبدأت تكتب وإن كان رأسها

خالياً مما تريده على وجه التحديد الإحساس الوحيد الذي يأكل في خلايا دمهـا أنها تريد أن تكلم " يوسف " أوحشها صوته.. إشتاقت إلى لفتاتـه.. تريـد أن تعيش لمساته فسحبت الورقات وتناولت القلم وتدفق الشعور مـن رأسـها إلـى طرف أصابعها وهي تكتب له :

يوسف :

أكتب إليك وليس في داخلي قرار مُسبق لأوصله لك.. فقط إشتقت إليـك.. استوحشتك من حياتي ومن البداية أؤكد لك أنني سأترك نفسي معك على سجيتها أخط لك كل ما بداخلي وأنا حتى لا أدري على وجه التحديد الذي بداخلي فهـو غير محدود ولكن لابد أنني أحمل شيئاً والأكثر أنني أتشوف أن أبوح.. فأنـت الذي دربتني بتؤده وإصرار على أن أجاهر وبلا توان... خـواء والله الحيـاة بدونك.. أطلب منك أن تعي إلى أي حد الحياه خواء بدونك بل أكثر مـن هـذا تصورني جسد يموت مع طلعة كل نهار موتاً ليس نهائياً كالذي نعرفه ونستريح ولكني أتجرع الموت على مراحل وعلى مهل في عمق كل ذرة مني والأدهـى بعد كل ذلك أن يكون مطلوباً مني وبنفسي أن ألملم أشلائي وأتماسك طيلة ثلاثة أيام كانت فارقة .

يوسف:

كان يمكن لأشياء كثيرة أن تُحل ما دمت تحمل بين جوانحك هـذا القلـب الشفيف وهذا الفكر النادر الذي لمسته عن ضرورة إنسانية الإنسان فـي هـذا الزمان فأنت القائل بأن رباط التوأمة الإنسانية أصدق من توأمـة الـرحم وأن التجربة الإنسانية الحقة حين تعبر نفساً صافية تُصبح الرحم الأعظم.. إعتبارات كثيرة تغلبني وأرواح كثيرة تجادلني بل وقلوب لا عدد لها تستصرخني فقل لي بحق السماء التي أنزلت الشرائع على جوهر واحد وخلقت الأجناس على حـق واحد كيف أحيا والحال هكذا معك كيف أعيش وأنت أعلم الناس فهل جريرتـي

أنني موحدة أؤمن بأن الله واحد بلا شبيه ولا مثيل أم أن جريرتي أننا نعيش في عصر معظم الناس فيه متخلفون متراجعون حضارياً.. وتسمح لـي أن أكلمـك عنكم فإذا كان الغرب تبنى صهيونتكم ليكفر عن ذنوب وأخطاء أيـام النازيـة الكافرة وما قبلها وهو كثير كما حدث لكم في روسيا القيصرية وأيام الأندلس إلا أنكم كنتم في مصر مُكرمين ولستم مكروهين أو عبيداً. نعم أننا لا نعتبركم شعب الله المختار ففي الإسلام وأنتَ تعلم الناس سواسية كأسنان المشـط ولا فضـل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ومن قبلنا جاء السيد المسيح صلوات الله عليـه بمسيحيته الرحيمة التي إعتبرت كل البشر أبناء الرب أو الله ولما نزل القـرآن عفى اليهود عن أن يكونوا صلبوا السيد المسيح وقالها صريحة " ومـا قتلـوه وماصلبوه ولكن شُبه لهم " فهل وصلك قدر الرحمة الموجـودة فـي الإسـلام عليكم ؟.. فما الذي تطلبونه وهل حقـاً تعتبرونـا رغـم أنـي لا أعقلهـا أن الفلسطينيين بوقوفهم وبدفاعهم عن أرضهم التي كانوا فيها قبل دخـول اليهـود وقبل انشقاق البحر أيام موسى تقولون إن الفلسطينيين أو المسلمين عامة بموقفهم هذا يعطلون المشيئة الإلهية ويؤخرون العودة الثانية للسيد المسيح وعلـى هـذا ترفضون أي قبول لنا هل تتصورون أن الله سبحانه وتعالى لن يبعثه في أرض القدس لأن بها فلسطينيين... هل أطلت عليك ؟ عُذري أنـك تحـب كثيـراً أن تصغى إليَّ وكما قلت لك من البداية لا يوجد في رأسي معنى معين أريد توصيله لك ولكني على سجيتي معك كما كنت دائماً... الشيئ الذي أنـا موقنـة بـه أن الأقدار الرحيمة لن تبخل عليَّ في أن أراك عندما يعصف بك الحنـين إلينـا.. ألسنا أولاد العمومة كما تقول دائماً؟ وأنا لن أُخفي عليك سراً لأنك أهل للثقة فقد عشت داخلي حتى قبل أن أعرفك وما إستجابتي لك إلا لأنني قد عرفتك طويلاً بل إنتظرتك ردحاً من عمري فلما تبينتك وعثرت عليك لم تكن هناك قوه يمكن أن تمنعني عنك إلا أن الحقيقة المؤكدة أن شخصي الضعيف لن يقـوى علـى

الإقتراب منك أو سماعك لأن أصوات الثكالى والأطفال لا تفارق رأسي التـــي أحببتها كثيراً وسميتها بنفرتيتي.

يوسف :

إنني في طريقي لرحلة عودة خاوية الروح فيها لأن روحي ستظل معك.. أرجوك ترفقوا بالآخر.. ضعوا حداً لحصد الأرواح فقد أُجزعـــت الأرض مـــن تجرُع الدماء وإستشهد الحمام وتفزعت أشجار الزيتون كل ما أرجوه أن تحسبوا حساب يوم من زمن آت بالنسبة لإثنين مثلنا فلا تورثوا الحرمان لأجيال ستأتي بعدنا.. فهناك يا يوسف أعمال من طول إستمراريتها وسوادها تبقى في ذاكـــرة الإنسان يتوارثها كأنها الدماء عن أسلافه.

ســـعاد

لم تكن تتصور أنها إستغرقت في الكتابة كل هذا الوقت.. إنتصف النهـــار وهي على جلستها أمام الورقة التي كتبتها إلا أن شعوراً إستولى عليهـــا بأنهـــا جرفت من عقلها وروحها حملاً كانت تنوء به وتتجرعه وحيدة ورفضت أن تُعيد قراءة ما كتبته كأنها تخشى أن تغير رأيها أو تتراجع عن معنى قصدته فطـــوت الخطاب وبحثت في الأدراج عن مظروف وضعته فيه ثم أغلقته بهـــدوء وتـــأن وخرجت من حجرة المكتب.. صعدت السلالم بسرعة وفي حجرتها كانت تسقطه في حقيبة يدها ثم إستلقت بطولها على سريرها وظلت تحدق في الـــلا شـــيئ.. لاتدري كم من الوقت مر عليها إلا ووجدت نفسها لا ترى شيئاً في الحجـــرة.. هبطت العتمة تماماً قبل أن تأتي الساعة إلى الخامسة فالشمس هنا لا تبـــزغ لأن الوقت شتاء... أشعلت النور إلى جوارها وقامت تنظر من الشباك كان المطـــر مسموعاً ينزل مرتطماً على الأسفلت.. إحساسها أنها مشاركة من الطبيعة فالدنيا تبكي معها ثم إنتبهت إلى موعد وصول " حسن " فنزلت من فورها تجهز شيئاً يؤكل إلى أن سمعت المفتاح في الباب وقبل أن يضع حقيبته ويعيد مفاتيحه إلـــى

جيبه كان يواجهها " أرى أنك أحسن اليوم " ما أن جلس قليلاً إلا وكانت تقـول له بأنها قررت العودة إلى القاهرة.. أطرق برأسه قليلاً ثم رفع بصره إليها وهو يهمس " موعد مناسب " ثم عاد ليقول لها " هذا قرار نهـائي لـك " فأومـأت برأسها وإتجها إلى المائدة وحاول أثناء جلسته أن يكـون الحـوار أميـل إلـى الدعابات التي تتري إثر بعضها.. " ومن سيصنع لي الكشك بالفراخ.. لماذا لـم تعلمي المساعدة عمل الملوخية أو المسقعة " كأنه يشد من بين شفتيها الإبتسامة.. بقى يدخن السيجار ولم يحاول أن يصعد إلى حجرته كعادته وكان يضحك قبـل أن يقول لها " أجلس معك أطول وقت ممكن مادمت راجعة " ومد يده يسـحب آلة التليفون ليضعها على رجليه وكان يطلب مكتب شركة الطيران ليُنهي أمـر تذكرة العودة.. إنسحب القلب منها وقدر من ضراوة الإعصار إستشعرته داخلها فها هي ترتيبات العودة تنتهي على عجل لتعود وتُصبح الحقيقة الوحيـدة فـي حياتها أن عليها أن تعيش بدون " يوسف " الذي إنتظرته طويلاً مدى عمرهـا وهي تعرف أن السفرة في الغد، إذ أبعد " حسن " السماعة عن أذنه وهو يهمس لها " تفضلي أن نؤجل إلى يومين أو ثلاثة حتى تتزلي إلى المحال " ولا إرادياً كانت ترفض أن تؤجل العودة تحتمي من نفسها بإصرارها على عـدم التأجيـل وكأنها تخشى تراجع نفسها.. أخذ الهاتف مرة أخرى وأجـرى إتصـالاً بإبنهـا يستدعيه في صباح الغد.. وجرت الأمور بعد ذلك في سرعة لم تحسبها والعـم يطمئنها على مستقبل" كريم " وأنه بجواره وأنه.. وأنه.. في معرض حديثه أكد لها أنها ولابد قد أوحشتها " منى " وأوحشها " شادي " شعرت " سعاد " بكلماته كأنه يجد لها منفذاً لإتمام سفرتها... الحنين إلى إبنتها تعيشه حتـى نخاعهـا.. جرت بهما الساعات وهما على جلستهما، التذكرة وقد حجزها و"كريم" سـيأتي في الغد باكراً ليمضي ما لا يقل عن ثلاث ساعات قبل أن تبدأ تتحرك في رحلة الفراق .

*****

في صباح الغد كانت تنظر إلى إبنها وكأنها مع كل نفس لها تحتويه داخل ضلوعها.. إستفسر عن العجلة المفاجئة في عودتها وكان لها ألف سبب تقنعه به سألها عن أحوال " منى " طمأنته عنها.. إحتضنته طويلاً.. طويلاً قبل أن تنفلت من بين ذراعيه أو ينفلت هو منها.. سألها عن إحتمال عودتها مرة أخرى.. لم تفكر إنما طمأنته بجواز إحتمال العودة ثم أتت اللحظة التي وقف فيها العم يحمل حقيبة من الإثنين وكان لابد أن يحمل الأخرى " كريم " إلى العربة وبحركة سريعة أحست فيها بالموقف وإستوعبته وحتى لا تطول لحظات الفراق وضعت معطفها على كتفيها وشدت نظارتها من حقيبتها... نزلوا السلالم القليلة إلى الحديقة الصغيرة وبينما كانا مشغولين في وضع الحقيبتين كانت " سعاد " تأخذ مكانها في العربة.. أراد " كريم " أن يوصلها أوقفته وهي تضحك وتقول " لا تأتي حتى لا أبكي " إبتسم العم وهو يؤكد أن اليوم سيضيع عليه في ساعات الوصول إلى المطار ثم في ساعات العودة.. كان العم حاسماً إلى حد كبير وهو يركب بجوار " سعاد ".. مال " كريم " وأدخل رأسه بصدره داخل العربة يأخذ قبلة أخيرة حين أخرجت " سعاد " من حقيبتها المظروف الذي يحوي الخطاب وقدمته إليه وهي ترجوه أن يوصله فوراً إلى الدكتور" يوسف " الذي سيراه في الجامعة... إستغرب إبنها وبعفوية سألها " ما هذا الخطاب وما الذي فيه؟" تمالكت نفسها إلى أقصى درجة في إستطاعتها وهي تقول له " هذا خطاب أشكر فيه الدكتور يوسف أليس هو المشرف عليك " أومأ برأسه وقال بوضوح " يا أمي أنت دايماً تعرفين الأصول " لم ينتظر " حسن " بعد ذلك ثانية واحدة وأدار محرك العربة في طريقه إلى المطار لم تتمالك " سعاد " نفسها فسقطت دموعها نهرين على خديها وظلا صامتين مدة طويلة لم يحاول العم فيها أن يلتفت ناحيتها ثم مد ذراعه بهدوء ووضع كفه على ظهر يدها يربت عليها أحياناً ويضغط عليها أحياناً أخرى وأخيراً قال بما يُشبه الهمس " سعاد دوماً كانت

حياتك وستظل قائمة على الإختيارات الصعب كما.. " وتوقف عن الكلام لثانية وأخيراً أكمل بنفس هدوئه السابق " كما أنه كيف لا يعجب بك ويحبك أي إنسان يعرفك "... وضغط بقوة على العربة فإندفعت تسابق الريح.

●●●●●

سيرة ذاتية

جيلان عبد اللطيف حمزة

المؤهـــل :

- بكالوريوس كلية الإعلام ، جامعة القاهرة ١٩٧٥ م .
- ماجيستر ١٩٩٦ م .
- دكتوراه ٢٠٠٠ م .

العمل الحالي :

- عضو هيئة التدريس بكلية الإعلام ، جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا.
- رئيس تحرير مجلة حقوق الإنسان بمصر .

النشاط الأدبى :

١- قلب بلا قناع	رواية ١٩٦٦م	دار الفكر العربي ترجمت إلي الفرنسية
٢- اللعبة والحقيقة	رواية ١٩٧٠م	دار الفكر العربي قررت علي مكتبات المدارس الثانوية ونفذت مسلسل إذاعي وحصلت علي الجائزة الأولي للأدباء الشبان عام صدورها
٣- الزوجة الهاربة	رواية ١٩٧٠م	أخرجت فيلم تلفيزيوني
الملم عقدى بغضب	نفس الرواية	نشرت في العراق بهذا الاسم
٤- قدر الآخرين	رواية ١٩٧٤م	كتاب الاذاعة والتليفزيون
٥- زوج فى المزاد	رواية ١٩٧٥م	كتاب الشعب
٦- مسافرة مع الجراح	رواية ١٩٨١م	كتاب اليوم ترجمت إلي الانجليزية

٧- الحبيبة	رواية ١٩٨٨م	كتاب اليوم
٨- الأعمال الكاملة	الجـــزء الأول ١٩٩٢م	الهيئة المصرية العامة للكتاب
٩- كواليس راديو مونت كارلو	نشـــأة وتطـــوير وتمويل ١٩٩٣م	الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٠- المعجزة	قصص إســلامية قصيرة من التراث	الهيئة المصرية العامـــة للكتـــاب ١٩٩٥م
١١- حق ولدى فـــى الحياة	طريقـــة معاملـــة المعـــوق ذهنيـــاً ١٩٩٥م	الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٢- الأعمال الكاملة	الجـــزء الثـــاني ١٩٩٦م	الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٣- جرح الحب	رواية ١٩٩٨ م	كتاب اليوم
١٤- موت عصفورة	قصـــــــــص مصيرة٢٠٠٠ م	الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٥- صـــلاح طـــاهر فيلسوف الألوان	سيرة ذاتية ١٩٩٨م	الهيئة المصرية العامة للكتاب

النشاط الإعلامي المرئي :

- مذيعة ومعدة للبرامج الثقافية في التليفزيون المصري منذ ١٩٧١ .
- مذيعة ومعدة للبرامج الثقافية في صوت العرب ١٩٧١ – ١٩٨١ .
- مذيعة ومعدة في البرامج الموسيقي ١٩٧٧ – ١٩٨٠ .
- مذيعة ومعدة في إذاعة مونت كارلو بفرنسا ١٩٨٣ – ١٩٨٥ .
- مذيعة ومعدة في إذاعة التعليم العالي ٢٠٠١ .

عملت بإعداد وتقديم البرامج الآتية :

١- تقديم برنامج	في المرآة	١٩٧١-١٩٧٦ م
٢- تقديم برنامج	مجلة فن وأدب	١٩٧٦-١٩٨٠ م
٣- تقديم وإعداد برنامج	بين جبلين	١٩٧٧-١٩٨٧ م
٤- تقديم وإعداد برنامج	كتاب نقدمة	١٩٧٨-١٩٧٩ م
٥- تقديم وإعداد برنامج	بين السطور	١٩٧٩-١٩٨٤ م
٦- تقديم برنامج	المسرح العالمي	١٩٧٥- ١٩٨٥ م
٧- تقديم برنامج	أدب وأدباء	١٩٨٤- ١٩٨٥ م
٨- تقديم برنامج	أختبر معلوماتك	١٩٨٦- ١٩٩٨ م
٩- تقديم برنامج	كشكول	١٩٨٨- ١٩٩٨ م
١٠- تقديم برنامج	برتوكول	١٩٩٤- ١٩٩٥ م
١١- تقديم برنامج	ضيف ومكتبة	١٩٩٤- ١٩٩٥ م

النشاط الصحفي :

- عملت مدير تحرير ١٩٩٤ – ١٩٩٧ م .
- لجريدة الملتقي " أسبوعية " (سياسية ، أدبية ، اجتماعية) .
- لجريدة تفانين " أسبوعية " (ثقافية ، فنية) .
- لمجلة دنيا الأعمال " أسبوعية " (اقتصادية اجتماعية ، ثقافية) .
- كتابات للصحافة العربية الدولية (الحياة اللندنية ، عكاظ) .
- كتابات لبعض الجرائد القومية (الاهرام)

بعض النشاطات الاجتماعية :

- عضو اتحاد الكتاب من ١٩٧٠ م .
- عضو المجلس المدصري للشئون الخارجية ٢٠٠٠ م .

- عضو مجلس إدارة جمعية أنصار حقوق الإنسان بمصر ١٩٨٦ م .
- رئيس مجلس إدارة جمعية الإنسان العربي الجديد وحقوقه في ٢٠٠٢/٢/١١ م .
- عضو جمعية الصداقة المصرية الأمريكية .
- عضو الجمعية المصرية للأمم المتحدة .
- عضو أتيلية القاهرة .
- عضو الجمعية المصرية للدراسات الروحية .